

هُوَ الْعِلْمُ

دَوْرَةُ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ لِاسْتِزْجَارِهَا
٢

مَعْرِفَةُ الْإِسْلَامِ

الجزء الثامن عشر

تَأَلَّفَ

سَمَاحَةَ الْعَلَمَةِ الرَّزْجَلِ

آيَةَ اللَّهِ الْحَاجَّ السَّيِّدَ مُحَمَّدَ الْحُسَيْنِ الْحُسَيْنِيِّ الظَّهْرَانِيِّ

افاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تَعَرَّبَ

عَلَى هَبَّاشِمٍ

دارُ المِجْمَعِ البِيضَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو العزیز

امام شناسی

بحث های تفسیری، فلسفی، روایی، تاریخی، اجتماعی

در باره امامت و ولایت بطور کلی
و در باره امامت و ولایت امیرالمؤمنین علی بن ابیطالب

و ائمه معصومین سلام الله علیهم اجمعین بالخصوص

درس های استدلالی علمی فقہ از قرآن کریم

و روایات وارده از خاصه و عامه؛ و اجابات حلی و نقدی

پیرامون ولایت

لمؤلفه الحقیر:

سید محمد حسین حسینی طهرانی

محقق عمده

هو العزيز

معرفة الإمام

بحوث تفسيرية، فلسفية، روآئية، تاريخية، اجتماعية
حول الإمامة والولاية عموماً؛

و حول إمامة و ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
و الأئمة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين
خصوصاً

دروس استدلالية و علمية متخذة من القرآن الكريم
وروايات مأثورة عن الخاصة والعامة؛ وأبحاث حلية ونقدية
حول الولاية

لمؤلفه الحقير

السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

عفي عنه

الفهرست

فهرس مطالب وموضوعات
معرفة الإمام
الجزء الثامن عشر

الصفحات

المطالب

الدرس السادس والخمسون بعد المائتين إلى الخامس والستين بعد المائتين
العلوم اللدنيّة المتنوّعة للإمام جعفر الصادق عليه السلام
الصفحة ٣ إلى الصفحة ٢٢٢

يشمل المطالب التالية :

- ٥ تفسير العلامة الطبائبيّة لآية : «وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ ...»
- ٧ الإمام الصادق عليه السلام النموذج المائل للبلد الطيّب
- ٩ افتخار أبي حنيفة بالتلمذ عند الإمام الصادق عليه السلام
- ١٥ تعاليم الإمام الصادق عليه السلام لتلاميذه
- ١٩ تجليل الإمام الصادق عليه السلام وتعظيمه للعلماء
- ٢١ الإمام الصادق عليه السلام أعلم الأمة بالقرآن
- ٢٣ الدليل العقليّ ضروريّ في توحيد ذات الحقّ تعالى

٢٥	حوار الإمام الصادق عليه السلام مع الديصاني في التوحيد
٢٧	حوار آخر له عليه السلام معه
٢٩	استهزاء ابن أبي العوجاء بالحجّ وجواب الإمام الصادق عليه السلام
٣١	ندم ابن أبي العوجاء على محاورته الإمام عليه السلام
٣٣	إراءة الإمام عليه السلام الله لابن أبي العوجاء في وجوده
٣٥	إثباته عليه السلام وجود الله لابن أبي العوجاء عن طريق الصنع
٣٧	كلام الإمام عليه السلام في حدوث العالم والأجسام
٣٩	إثبات وجود الله للديصاني: عن طريق النظر في الوجود
٤١	حوار الإمام عليه السلام مع الزنديق المصري
٤٣	كتاب «توحيد المفضل» وسنده
٤٥	وصف فدّ للإمام الصادق عليه السلام على لسان ابن أبي العوجاء
٤٧	أهميّة كتاب «توحيد المفضل»
٤٩	تفصيل الجنين والطفل الرضيع
٥١	الحكمة الإلهية من عدم تعقل الطفل حين الولادة
٥٣	الحكمة الإلهية في كفيّة أعضاء الإنسان
٥٥	كلام الإمام عليه السلام في مصالح خلقه الإنسان والحيوان
٥٧	عجائب الخلقة في السماوات والكرات السماوية
٥٩	حكمة الآفات والأضرار التكوينية
٦١	الآفات التكوينية لتأديب البشر
٦٣	ختام الحوار الذي دار بين الإمام الصادق عليه السلام والمفضل
٦٥	الخبر يفيد تجرّد النفس الناطقة والمجرّدات الأخرى
٦٧	احتجاج الإمام الصادق عليه السلام مع الطبيب الهندي في التوحيد
٦٩	عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود
٧١	شرح الإمام الصادق عليه السلام للإهليلجة وإقرار المخالف

٧٣	كلام المرحوم المظفر حول الإمام الصادق عليه السلام
٧٥	دروس الإمام الصادق عليه السلام في العلوم المختلفة
٧٧	الكيمياء وجابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق عليه السلام
٧٩	سائر العلوم المتنوعة للإمام الصادق عليه السلام
٨١	جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء
٨٣	جابر بن حيان في كلام هنري كوربان
٨٧	اعتقاد جابر بابتناء علم الكيمياء على روح الأجسام ونفسها
٨٩	العلماء الذين نهجوا منهج جابر في الكيمياء
٩١	العقل المفكر للعالم الشيعي، أو الإمام الصادق عليه السلام، كما عرفه
٩٣	وحدة الوجود في كلام الإمام الصادق عليه السلام
٩٥	الدين هو غير الحكمة، وليست الحكمة للعوام
٩٧	نسبية الزمان في كلام الإمام الصادق عليه السلام
٩٩	بقاء الروح بعد الموت
١٠١	سبب سقوط الكواكب، والحياة في العوالم الأخرى
١٠٣	الله تعالى غير مشمول بالتقدم والتأخر
١٠٥	حول ساعات السعد والنحس
١٠٧	دين محمد صلى الله عليه وآله هو المنقذ للبشرية
١٠٩	التراب والهواء ليسا عنصراً واحداً
١١٣	رأي الإمام الصادق عليه السلام في احتراق الأوكسجين
١١٥	في مسألة دوران الأرض حول نفسها
١١٧	كلام الإمام عليه السلام حول العناصر التي يتركب منها جسم الإنسان
١٢١	الأوكسجين والهيدروجين في الماء
١٢٣	تلوث البيئة
١٢٧	العلوم التجريبية في كلمات المعصومين عليهم السلام

١٢٩	توصية الإمام الصادق بإرقاد الطفل في الجانب الأيسر من الأم
١٣٣	بحوث مؤسسة كورنيل حول موضوع هذه التوصية
١٣٥	انتقال المرض بواسطة النور
١٣٩	علوم العوالم الأخرى
١٤٣	جميع عناصر الهواء ضرورية للتنفس
١٤٥	سبب شفافية الأجسام أو كدورتها
١٤٧	نجوم أسطع من الشمس
١٥١	وجود عوالم أخرى
١٥٣	تعاقد أربعة من الزنادقة على معارضة القرآن
١٥٥	الإمام الصادق عليه السلام مؤسس علم العرفان
١٥٧	تلامذة صابئة للإمام الصادق عليه السلام
١٥٩	مراحل حياة الشيعة
١٦١	الإمام الصادق عليه السلام يجب عن الأسئلة العلمية والشبهات
١٦٣	إتاحة الفرصة للإمام الصادق عليه السلام من أجل بث العلم
١٦٥	معنى الإمام عند الشيعة وانحصاره بالائمة الاثني عشر عليهم السلام
١٦٧	غير المعصوم لا يُسمى إماماً عند الشيعة
١٦٩	الألقاب المختلفة لمجتهدي الشيعة على مر التاريخ
١٧٣	توصية البعض من أولي البصيرة بعدم استعمال لفظ الإمام
١٧٥	مكيدة المصرّيين في تلقيب كاشف الغطاء بالإمام
١٧٩	اختصاص لقب «أولي الأمر» بالمعصومين عليهم السلام
١٨١	الفقيه غير معصوم ورأيه ليس أبدياً
١٨٥	رسالة انتقادية لكتاب «وظيفة الفرد المسلم...»
١٨٩	الردّ على الانتقاد
١٩١	استدلال خاطئ على جواز التلقيب بالإمام

١٩٣	ليس بإمكان المؤرّخ من سرد التاريخ ناصعاً
١٩٧	لزوم المحافظة على المعالم الإسلامية كالمنبر وغيره
٢٠١	لزوم لعن أعداء محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم في الخطب
٢٠٣	هنري كوربان : لا سبيل للبشرية إلا الإقرار بإمام العصر والزمان
٢٠٥	حوار هنري كوربان مع أردني مشغوف بالغرب
٢١١	الرسالة الجديدة للجانب المعنوي في التشيع
٢١٣	العلاقة الحقيقية لإمام العصر بالحياة المعنوية
٢١٧	وصية الإمام الصادق للإمام الكاظم عليهما السلام
٢١٩	قصيدة المرحوم الكمباني في مدح الإمام الصادق عليه السلام
٢٢١	قصيدة في المدح للزاهي وأخرى للعوني في وفاة الإمام عليه السلام

الدرس السادس والستون بعد المائتين إلى السبعين بعد المائتين
إرجاع معاوية مسار النبوة العادلة إلى الطاغوتية المتجبرة

الصفحة ٢٢٥ إلى الصفحة ٣٨٦

يشمل المطالب التالية :

٢٢٧	جذور الخلاف بين بني أمية وبني هاشم
٢٢٩	نفاق أبي سفيان في تعامله مع المسلمين
٢٣٣	جرائم يزيد الرجس
٢٣٥	عداء أبي سفيان السافر للنبي صلى الله عليه وآله وسلّم
٢٣٧	كان أبو سفيان من المؤلّفة قلوبهم ومن الطلقاء
٢٣٩	كان أبو سفيان يتربص الدوائر بالنبي أبداً
٢٤١	وضع الأحاديث حربة لغلبة بني أمية
٢٤٣	الإسلام الظاهري للبعض من أجل ترويح كتبهم

٢٤٧	ثلاث طوائف في الإسلام وضعت الحديث
٢٤٩	لم يكن معاوية من كتاب الوحي
٢٥١	الأشخاص الذين كانت لهم اليد الطولى في وضع الأحاديث
٢٥٣	الجزيرة الخضراء حكاية خيالية
٢٥٧	حياة الإمام المهدي وإمامته أظهر من الشمس
٢٥٩	رواج سوق الوضّاعين في عصر معاوية
٢٦١	معاوية يرى نفسه أمين وحي الله
٢٦٣	كلام ابن خلدون في طريقة دس الإسرائيليات في التفسير
٢٦٥	انحياز ابن خلدون إلى سلطة معاوية
٢٦٩	تسرّب الإسرائيليات بواسطة أبحار اليهود الحديثي عهد بالإسلام
٢٧١	ترجمة كعب الأبحار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام
٢٧٥	الأحاديث في فضيلة بيت المقدس موضوعة
٢٧٧	الأحاديث الموضوعة في تفضيل بيت المقدس على الكعبة
٢٨١	دور اليهود في الأحاديث التي تفضّل الشام
٢٨٥	الصحابة غير معصومين في معرفة الأشخاص
٢٨٧	كعب الأبحار ومعاوية
٢٨٩	أنواع الطعام الذي كان يأكله معاوية
٢٩٣	لا ينازع معاوية أحد في النفاق والتزوير
٢٩٥	جرائم سمرة بن جندب عامل معاوية
٢٩٧	جوائز معاوية الكبيرة لوضع الحديث ضدّ عليّ عليه السلام
٢٩٩	حديث موضوع في خطبة عليّ عليه السلام لابنة أبي جهل
٣٠١	موضوعات أبي هريرة في فضل عثمان ومعاوية
٣٠٣	لماذا كانت أحاديث أبي هريرة أكثر من سائر الصحابة؟
٣٠٥	انتقاد رشيد رضا لأحاديث الصحيحين

٣٠٩	رواج الكذب في عصر النبي صَلَّى الله عليه وآله
٣١١	لطم موسى مَلِك الموت
٣١٣	سرقة الحجر ثياب موسى
٣١٧	حديث : لَا عَدُوِي وَلَا طَيْرَةَ وَلَا هَامَةَ
٣١٩	حديث الذُّباب
٣٢٣	نقاش عامل شيعي مع فؤاد الأوسِي
٣٢٥	دعم الأوسِي لجريمة نجيب باشا
٣٢٩	حديث خلق الأرض في سبعة أيام !
٣٣٣	بعض الأحاديث الموضوعية
٣٣٥	نبذة تاريخية عن الوهابية
٣٣٧	أبو بكر وعمر أول الوضاعين
٣٣٩	صلاح الدين الأيوبي يقتل الشيعة في حلب
٣٤٥	سبب كتمان النصوص المأثورة في أهل البيت عليهم السلام
٣٤٧	الموالاتة والبراءة أصلان ثابتان من أصول الشيعة
٣٤٩	ثلة من الصحابة القائلين بتفضيل علي عليه السلام
٣٥١	مناظرة في تفضيل علي عليه السلام
٣٥٥	توضيح حول عمر بن عبد العزيز
٣٥٧	الثقافة الشيعية أساس الثقافات
٣٦١	جرائم الوليد بن عبد الملك وولاته
٣٦٣	جرائم سليمان بن عبد الملك
٣٦٥	ثأر معاوية المزيف لدم عثمان ذريعة للتسلط
٣٦٧	غارات معاوية على الولايات الخاضعة لحكومة أمير المؤمنين
٣٧١	غارات معاوية بتنفيذ النعمان بن بشير
٣٧٣	غارات معاوية بتنفيذ بسر بن أرطاة

٣٧٧	منطق معاوية ويزيد في ارتكاب الجرائم
٣٧٩	تعنيف معاوية لقتله حجراً
٣٨١	شعر ابنة أبي الأسود في هدية معاوية لأبيها
٣٨٣	شعر أبي الأسود الدؤلي في رثاء أمير المؤمنين عليه السلام
٣٨٥	التوسل بآل محمد ودعاء العهد لإمام الزمان عليه السلام

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِحَمْسَةِ بَعْدَ اثْنَيْنِ إِلَى الْخَامِسِ وَاسْتَجَابُوا لِبَعْدِ اثْنَيْنِ

الْعُلُومِ الدُّنْيِيَّةِ الْمُتَّوَعَّةِ لِلْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطاهرين
ولعنة الله على أعداءهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا
كَذِبًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ^١
وقال سبحانه قبل هذه الآية :

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ
سَحَابًا ثِقَالًا سَقَّنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

قال العلامة آية الله الطباطبائي أعلى الله درجته في تفسير هذه
الآيات : وفي الآية وهو الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَى
آخر الآية بيان لربوبيته تعالى من جهة العود ، كما أن في قوله : إِنَّ رَبَّكُمْ
اللَّهُ^٢ بياناً لها من جهة البدء . وقوله : بُشْرًا ، وأصله البشر بضمّتين جمع

١- الآية ٥٨ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢- فيما يأتي الآية إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ التي تسمى آية السخرة ، مع الآيتين اللتين تليانها
-وفي قراءتها ثواب كثير كآية الكرسي - إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي

بشير كالنذر جمع نذير . والمراد بالرحمة المطر . وقوله : **بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ** ، أي : قدام المطر ، وفيه استعارة تخيلية بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذي ينتظره أهله فيقدم وبين يديه بشير يبشر بقدومه .

وَالْإِقْلَال : الحمل ، والسحاب والسحابة ، الغمام والغمامة ، كثرم وتمرة . وكون السحاب ثقلاً باعتبار حمله ثقل الماء ، وقوله : **لِبَلَدٍ مَيِّتٍ** ، أي ، لأجل بلد ميّت ، أو إلى بلد ميّت . والباقي ظاهر (ولا يحتاج إلى تفسير) .

والآية تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى ، لأنّهما من نوع واحد . **وَحُكْمُ الْأَمْثَالِ فِي مَا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ وَاحِدٌ** .^١ وليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدين من أصلهم ، فإنّ أنفسهم وأرواحهم باقية محفوظة وإنّ تغيّرت أبدانهم ، كما أنّ النبات يتغيّر ما على وجه الأرض منها ويبقى ما في أصله من الروح الحيّة على انعزال من النشوء والنماء ، ثمّ تعود إليه حياته الفعّالة . كذلك يخرج الله الموتى . فما إحياء الموتى في الحشر الكلّي يوم البعث إلاّ كإحياء الأرض الميتة في بعثه الجزئيّ العائد كلّ سنة . وللكلام ذيل سيوافيك في محلّ آخر إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** .

﴿ سِتَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحَرَاتٌ بَأْمَرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ . (الآيات ٥٤ إلى ٥٦ ، من السورة ٧ : الأعراف) .

١- هذه العبارة قاعدة فلسفيّة مفادها أنّ الأشياء المتماثلة المتشابهة واحدة في الأحكام المثبتة والمنفيّة المترتبة عليها .

النَّكِدِ القليل . والآية بالنظر إلى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحة والآثار الحسنة على الذوات الطيبة الكريمة كخلافها على خلافها ، كما تقدّم في قوله : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ^١ . لكنّها بانضمامها إلى الآية السابقة تفيد أنّ الناس وإن اختلفوا في قبول الرحمة فالاختلاف من قبلهم ، والرحمة الإلهية عامة مطلقة .

وقال سماحة العلامة في البحث الروائي :

وفي «الكافي» بإسناده عن ميسر ، عن أبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام قال : قلت : قول الله عزّ وجلّ : وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ،^٢ قال : فقال : يَا مَيْسِرُ ! إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فَاسِدَةً فَأَحْيَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنَبِيِّهِ ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .

وفي «الدرّ المنثور» : أخرج أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم :

مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ . وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا . وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ؛ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ^٣ .

أجل ، إنّ تفسير البلد الطيب بعلم النبي والإمام وهدايتهما ، وتفسير

١- الآية ٢٩ ، من السورة ٧ : الأعراف : وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

٢- الآية ٥٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣- «الميزان في تفسير القرآن» ج ٨ ، ص ١٦٤ و ١٦٥ و ١٧٧ و ١٧٨ .

إصلاح الأرض بعد مجيء الرسول والإمام وأمثالهما ليسا من المعاني التأويليّة للآيات المباركة ، بل مفاد العمل بظهور المعاني الظاهريّة للقرآن الكريم وبيانها ، إذ إنّ معنى الأرض الصالحة المستعدّة ومفاد الإفساد في الأرض بعد إصلاحها يتيسّران للإنسان ويتبادران إلى الذهن في أوّل وهلة ، ولا حاجة إلى جرّ المعنى الظاهر إلى الباطن واستخراج التأويل .

إنّ وجود الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين أرض فسيحة شاسعة من العلم والعقل والدراية والفتنة والهداية ، يخرج فيها نبات طيب حسن ، فيتحف الدنيا بثمار حلوة ريّانة نافعة ، وفواكه ثمينة وأدوية وعقاقير لمعالجة الأمراض ورفع العلل والأسقام . ولا فائدة للعالم البشريّ والمجتمع الإنسانيّ من وجود المخالفين والمعاندين والمكابرين . ذلك أنّ الأئمّة المعصومين بعيدون عن الهوى والتعطرس وحبّ الذات والدعوة إلى النفس وجعلها محوراً . فما عندهم يترشّح من نفوس طاهرة صفيّة زكيّة متصلة بعالم النور والتجرّد والعرفان الإلهيّ والتوحيد الربوبيّ . ومن الواضح أنّ الظلمة لا تترشّح من النور ، والقُبْح لا يُولّد من الحُسن ، والخبيث لا يخرج من الطيب . أي : لا يسري من الله تعالى وأصفيائه المخلصين إلى العالم الخارجيّ إلاّ العلم الحقيقيّ الدنيّ الخالد الثابت الأصيل .

إنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام من تلك النبتة الفريدة التي نمت في أرض التوحيد الطيبة . ولم تنفح آثاره العلميّة الهاديّة الشيعة فحسب ، بل نفحت الأجيال البشريّة برمتها ، ولم تُظلّل المدينة المنوّرة وحدها بل ظلّت العالم بأسره ، ولم تقتصر على عصر واحد فقط ، بل هي للعصور كلّها خالدة إلى الأبد .

ولمّ ذاك ؟ ذاك لأنّه عليه السلام معصوم ، ولكلّ معصوم أبدية كأبدية القرآن الكريم ذي العصمة . ولكلمة كلّ فقيه وفتواه وحكمه ورأيه حجّية

في حياته اعتباراً من الشيخ الطوسي والعلامة الحلبي حتى آية الله البروجردي وآية الله الحكيم ومن شابههم ، بيد أن تلك الحجية تسقط بموت هؤلاء الفقهاء ، إذ إنهم غير معصومين ، وعلى الناس أن يقلدوا المجتهد الحي الأعلم الجامع للشرائط ، أما الآيات القرآنية الكريمة ، والسنة النبوية الثابتة ، والسيرة الإمامية المسلم بها فهي حجة إلى يوم القيامة .

قال آية الله السيد علي خان المدني الشيرازي رفع الله رتبته في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام : وجعفر بن محمد هو الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم .

إلى أن قال : قال الشيخ المفيد : لم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته مثل ما نقل عنه من العلوم والآثار ، فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل .

وقال الشيخ كمال الدين بن طلحة الشافعي : **أَمَّا مَنَافِيهُ وَصِفَاتُهُ فَتَكَادُ تَفُوتُ عَدَدَ الْحَاصِرِ ، وَيَحَارُّ فِي أَنْوَاعِهَا فَهَمُّ الْيَقِظِ الْبَاصِرِ ، حَتَّى أَنْ مِنْ كَثْرَةِ عُلُومِهِ الْمُفَاضَةِ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ سِجَالِ التَّقْوَى صَارَتْ الْأَحْكَامُ الَّتِي لَا تُدْرِكُ عِلْلَهَا ، وَالْعُلُومُ الَّتِي تَقْصُرُ الْأَفْهَامُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِحُكْمِهَا تُضَافُ إِلَيْهِ وَتُرَوَى عَنْهُ .^١**

١- وردت هذه المطالب عينها في كتاب «مطالب السؤل» ص ١٨ ، الطبعة الحجرية الرحلية . قال الشيخ عباس القمي في كتاب «الكنى والألقاب» ج ١ ، ص ٣٣٢ : هو كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي المعروف بابن طلحة . له «مطالب السؤل في مناقب آل

وقال الذهبيّ في «الكاشف»: قال أبو حنيفة: ما رأيتُ أفقه منه . وقد دخلني له من الهيبة ما لم يدخلني من المنصور^١ .
 وعن عمرو بن أبي المقدم ، قال : كنتُ إذا نظرتُ إلى جعفر بن محمّد علمتُ أنّه من سلالة النبيّين .
 وعن صالح بن الأسود ، قال : سمعتُ جعفر بن محمّد يقول : سلّوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَإِنَّهُ لَا يَحْدُثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي بِمِثْلِ حَدِيثِي^٢ .
 قال العلامة الجليل الشيخ محمّد حسين المظفر : وما كان فقهاء الشيعة عيالاً عليه فحسب ، بل أخذ كثير من فقهاء السُنّة الذين عاصروه الفقه عنه ، أمثال مالك ، وأبي حنيفة ، والسُفيانيّين (سفيان الثوريّ ، وسفيان ابن عُيينة) ، وأيوب ، وغيرهم ، كما ستعرفه في بابهِ ، بل إنّ أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» (ج ١ ، ص ٦) أرجع فقه المذاهب الأربعة إليه .
 وهذا الألوسيّ في «مختصر التّحفة الاثني عشرية»^٣ ص ٨ يقول :

«الرسول»، و«العقد الفريد للملك السعيد». توفّي بحلب سنة ٦٥٢ هـ .

١- «الكاشف» ج ١ ، ص ١٨٦ . في «الكنى والألقاب» ج ٢ ، ص ٢٣٨ : هو محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ . وُلد بدمشق سنة ٦٧٣ هـ ، وطلب الحديث ، ورحل في طلبه إلى مصر حتّى رجع أستاذاً فيه . وأكثر من التصنيف في تاريخ الرجال ، منها : «تذكرة الحفاظ» ، و«ميزان الاعتدال» ، و«تجريد أسماء الصحابة» . توفّي سنة ٧٤٨ هـ .

٢- «رياض السالكين» ص ٨ ، الطبعة الحجرية؛ وفي طبعة جماعة المدرّسين بقم : ج ١ ، ص ٧١ إلى ٧٣ . ومصدر الحديث الأخير «كشف الغمّة» ج ٢ ، ص ١٥٥ .

٣- من الحريّ بالعلم أنّ علماء السُنّة في الهند ألفوا كتباً باللغة الفارسيّة في نهاية القرن الثاني عشر الهجريّ فبادر علماء الشيعة فيها إلى ردّها والجواب عنها باللغة نفسها ، وكشفوا بطلانها بإفاداتهم العلميّة وبحوثهم الدقيقة العميقة ، وبدّدوا رماد تلك التّهم الملتصقة بالشيعة . ومن هذه الكتب «متهى الكلام» المعنون بـ«تنبيهات أهل الخوض لاعتراضهم على حديث الحوض» الذي طُبِع سنة ١٢٥٠ هـ مرّةً ، وأعيد طبعه سنة ١٢٨٢ هـ مرّةً أُخرى ،

وهذا أبو حنيفة وهو بين أهل السنة كان يفتخر ويقول بأفصح لسان: لَوْلَا

«مؤلفه هو حيدر علي فيض آبادي. ومنها: «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» تصنيف شاه ولي الله الدهلوي (المولود سنة ١١١٤ هـ والمتوفى سنة ١١٧٦ هـ كما ذكر الألوسي في مقدمته على كتاب «مختصر التحفة الاثني عشرية» ص ١٠٠)، طبع هذا الكتاب لأول مرة في لاهور، باكستان سنة ١٣٩٦ هـ. ومنها: «التحفة الاثني عشرية» تصنيف نجل المذكور شاه عبدالعزيز الدهلوي (ولادته سنة ١١٥٩ هـ، ووفاته سنة ١٢٣٩ هـ كما أورد الألوسي في كتابه المار ذكره، ص ١٠٠). كانت طبعته الثالثة في لاهور أيضاً سنة ١٣٩٦ هـ، سمّاه مؤلفه في ديباجته «نصيحة المؤمنين وفضيحة الشياطين». وقال أيضاً: سبب تسميته بـ«التحفة الاثني عشرية» هو تأليفه في نهاية القرن الثاني عشر، واحتوائه على جميع مطالب الشيعة خلال هذه القرون الاثني عشر، مع الردود عليها.

أجل، ما إن طبعت هذه المخطوطات بالهند حتى بادر سماحة السيد محمد قلي الموسوي النيسابوري الهندي إلى جوابها جواباً مفحماً مدهشاً من خلال تصنيفه كتاب «الأجناد الاثنا عشرية المحمدية في رد التحفة الاثني عشرية الدهلوية».

ثم قام نجل هذا الرجل الرباني السيد مير حامد حسين بن محمد قلي النيسابوري الكنتوري بتأليف كتاب «عبقات الأنوار في مناقب الأئمة الأطهار» راداً عليها رداً عجيباً محيراً.

ونقل فيما يأتي موجزاً ومنتخباً لما ذكره العلامة الشيخ آغا بزرك الطهراني في كتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» حول هذين الرجلين الباحثين العظيمين الجليلين. قال في ج ٤، ص ١٩٢ و ١٩٣ من هذه الموسوعة تحت الرقم ٩٥٨: «تشيد المطاعن لكشف الضغائن» هو بجميع أجزائه الآتية ثامن مجلدات «الأجناد الاثنا عشرية المحمدية في رد التحفة الاثني عشرية الدهلوية» المرتبة على اثني عشر باباً في الرد على الإمامية. والتشيد هذا رد على خصوص الباب العاشر من «التحفة» الذي هو في دفع المطاعن، ورد الباب الأول منه الذي هو في حدود فرق الشيعة اسمه «السيف الناصري»، ورد الباب الثاني منه الذي هو في نسبة المكائد إلى الشيعة اسمه «تقليب المكائد»، ورد الباب السابع منه الذي هو في الإمامة اسمه «برهان السعادة»، ورد الباب الحادي عشر منه الذي هو في الأوهام والتعصبات والهفوات اسمه «مصارع الأفهام». كل هذه الكتب من مجلدات كتاب «الأجناد» باللغة الفارسية مطبوعة بالهند... وجميع هذه الكتب من تأليفات العلامة السيد محمد قلي بن السيد

السَّتَانِ لَهْلَكَ النُّعْمَانُ.

يريد السنتين اللتين صحب فيهما الإمام جعفر الصادق عليه السلام
لأخذ العلم.^١

وقال أيضاً تحت عنوان «حياته العلميّة»: علمه إلهاميّ. وقال في
شرحه: لا فضيلة كالعلم، فإنّ به حياة الأمم وسعادتها ورقيتها وخلودها، وبه
نباهة المرء وعلوّ مقامه وشرف نفسه.

ولا غرابة لو كان العلم أفضل من العبادة أضعافاً مضاعفة. لأنّ العابد
صالح على طريق نجاة قد استخلص نفسه فحسب، ولكن العالم مصلح
يستطيع أن يستخرج عوالم كبيرة من غياهب الضلال، وصالح في نفسه
أيضاً، وقد فتح عينيه في طريقه. ومن فتح عينه أبصر الطريق.

وليس في الفضائل ما يصلح الناس وينفعهم ويبقى أثره في الوجود
مثل العلم، فإنّ العبادة والشجاعة والكرم وغيرها إذا نفعت الناس فإنّما
نفعها مادام صاحبها في الوجود، وليس له بعد الموت إلّا حسن الأُحدوث.

⇨ محمد حسين ابن حامد حسين بن زين العابدين الموسويّ النيسابوريّ الكنتوريّ المولود
في ١١٨٨ والمتوفّي في تاسع المحرم ١٢٦٠، ترجمه مفصّلاً في آخر «نجوم السماء». وعلى
«التحفة» ردود أخرى أيضاً كـ«العباقت»، و«النزهة الاثني عشرية»، وغيرها.

١- «الإمام الصادق» ج ١، ص ١٤٣، طبعة جماعة المدرّسين بقم. من الجدير بالذكر
أنّ هذه العبارة موجودة في «مختصر التحفة الاثني عشرية» ص ٨، ط ٢، القاهرة، سنة
١٣٨٧، بيد أنّ هذه العبارة التي حكّاها الألويسيّ هي من إنشاء الألويسيّ نفسه، لا من إنشاء
صاحب «التحفة» شاه عبد العزيز الدهلويّ، والعبارة هي: وهذا أبو حنيفة رضي الله تعالى
عنه وهو هو بين أهل السنّة كان يفتخر ويقول... إلى آخره. وعبارة عبد العزيز في «التحفة»
ص ٤٦ هي: نعم، ذكر الإمام الشافعيّ فضائل من أدرك من أهل البيت. ولا يقتصر هذا عليه،
فجميع أهل السنّة يذكرونها. ورواية الحديث عن أئمّة أهل البيت كثيرة في كتب السنّة.
وسمّوا سلسلة الآباء من أهل البيت «سلسلة الذهب».

ولكن العالم يبقى نفعه مادام علمه باقياً ، وأثره خالداً .
وقد جاء في السنة الثناء العاطر على العلم وأهله ، كما جاء في الكتاب
آيات جمّة في مدحه ومدح ذويه . وهذا أمر مفروغ عنه ، لا يحتاج إلى
استشهاد واستدلال .

نعم ، إنّما الشأن في أنّ هذا الثناء خاصّ بالعلم الدينيّ وعلمائه ، أو
عامّ لكلّ علم وعالم !؟

اعتقد بشكل قاطع أنّه مختصّ بعلم الدين وعلمائه .
والأحاديث قد صرّحت به . وكفى من الكتاب قوله تعالى : **إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**^١ .

وقد لا تجد خشية عند علماء الصنعة وما سواهم غير علماء الدين ، بل
إنّ بعضهم قد لا تجده يعترف بالوجود أو بالوحدانية .

وما استحقّ علماء الدين هذا الثناء إلاّ لأنّهم يريدون الخير للناس
ويسعون له ما وجدوا سبيلاً . ومتى كانوا وجدتهم أدلاءً مرشدين هداةً
منقذين .

وعلم الدين إلهاميّ وكسبيّ . والكسبيّ يقع فيه الخطأ والصواب
والصحيح والغلط . وغلط العالم وخطأه يعود على العالم كلّ بالخطأ والغلط ،
لأنّ الناس أتباع العلماء في الأحكام والحلال والحرام ، والله جلّ شأنه
لا يريد للناس إلاّ العمل بالشرعية التي أنزلها ، والأحكام التي شرّعها . فلا بدّ
من أن يكون في الناس عالم لا يخطأ ولا يغلط ، ولا يسهو ولا ينسى ،
ليرشد الناس إلى تلك الشرعية المنزلة منه جلّ شأنه ، والأحكام المشرّعة
من لدنه سبحانه ، فلا تقع الأمة في أشراك الأخطاء وحبائل الأغلاط ،

١- الآية ٢٨ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

ولا يكون ذلك إلا إذا كان علم العالم وحيّاً أو إلهاماً .
 فمن هنا كان حتماً أن يكون علم الأنبياء وأوصيائهم من العلم
 الإيحائيّ أو الإلهاميّ صوتاً لهم وللأمم من الوقوع في المخالفة خطأً .
 والله تعالى قد أنزل شريعة واحدة لا شرائع ، وفي كلّ قضية حكماً
 لا أحكاماً ، ونصب للأمة في كلّ زمن مرشداً لا مرشدين . ونجدها اليوم
 شرائع ولها مشرّعون لا شريعة واحدة ومشرّعاً واحداً . ونرى في كلّ قضية
 أحكاماً لا حكماً واحداً . وفي كلّ زمن مرشدين متخالفين متنازعين ، بل
 يكفّر بعضهم بعضاً ، ويبرأ بعضهم من بعض لا مرشداً واحداً . وليس هذا ما
 جاء به المصلح الأكبر رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ولا ما أراده لأُمَّته .
 فلا غرابة لو حكم العقل بأنّ الواجب عليه سبحانه أن ينصب في كلّ
 فترة زمنيّة عالماً يدلّ الناس على الشريعة كما جاءت ، ويأتيهم بالأحكام
 كما نزلت . وهل يجوز ذلك على أحد سوى عليّ وبنيه ؟
 وهذه آثارهم العلميّة بين يديك فاستقرئها لعلّك تجد على النور
 هدىً . ولو لم يكن لدينا أثر أو دليل إلا قوله صلّى الله عليه وآله : **أَنَا مَدِينَةُ
 الْعِلْمِ وَعَلِيِّ بَابُهَا** ،^١ وقوله : **إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ
 بَيْتِي** ،^٢ لكفى في كون أهل البيت علماء الشريعة والكتاب الذين أخذوا
 العلم من معدنه ، واستقوه من ينبوعه . ولو كان علمهم بالاكتساب لما جعلهم
 الرسول علماء الكتاب على طول الدهر دون الناس . وما الذي ميّزهم على
 الناس إذا كانوا والناس في العلم سواء !؟

١- الخطيب في «تاريخ بغداد» ج ٢، ص ٣٧٧؛ والملا عليّ المتقيّ الهنديّ في «كنز
 العمّال» ج ٦، ص ١٥٦ .

٢- «مسند أحمد بن حنبل» ج ٤، ص ٣٦٦؛ و«صحيح الترمذي» ج ٢، ص ٣٠٨ .

ومما يسترعي الانتباه أنّ الناس كانوا محتاجين إلى علمهم أبدأً .
وكلّموا رجعوا إليهم في أمر وجدوا علمه عندهم ، وما احتاجوا هم إلى علم
الناس أبدأً .

ولا نريد أن نلمسك هذه الحقيقة بالأخبار دون الآثار ، فإنّ في الآثار
ما به غنى للبصر . وهذه آثارهم شاهدة على صدق ما ادّعوه وادّعي فيهم .
وأمر حقيق بأن تنتبه إليه ، وهو أنّ الجواد عليه السلام انتهت إليه الإمامة
وهو ابن سبع ، ونهض بأعبائها ، وقام بما قام به آباؤه من التعليم والإرشاد ،
وأخذ منه العلماء خاضعين مستفيدين . وما وجدت فيه نقصاً عن علوم
آبائه .

وهذا عليّ بن جعفر شيخ العلويين في عهده سنّاً وفضلاً ، إذا أقبل
الجواد يقوم فيقبل يده ، وإذا خرج يسوّي له نعله . وسئل عن الناطق بعد
الرضا عليه السلام ، فقال : أبو جعفر ابنه ! فقيل له : أنت في سنك وقدرك
وأبوك جعفر بن محمد تقول في هذا الغلام ؟! فقال : ما أراك إلا شيطاناً ،
ثم أخذ بلحيته وقال : فما حيلتي إن كان الله رآه أهلاً ولم ير هذه الشيبة
لها أهلاً ؟^١

علماً أنّ عليّ بن جعفر هو أخو الإمام الكاظم عليه السلام ، والإمام
الكاظم هو جدّ الإمام الجواد عليهما السلام . فماذا ترى بينهما من السنّ ؟
وعليّ أخذ العلم من أبيه الصادق ، وأخيه الكاظم ، وابن أخيه الرضا عليهم
السلام . فلو كان علمهم بالتحصيل لكان عليّ أكثر من الجواد تحصيلاً ، أو
لو كانت الإمامة بالسنّ لكان عليّ أكبر العلويين سنّاً .

على أنّ الجواد قد فارقه أبوه يوم سافر إلى خراسان وهو ابن خمس .

١- «الإمام الصادق»، للمظفر، ج ١، ص ١٣٤.

فمن الذي كان يؤدّبه ويثقفه بعد أبيه حتّى جعله بتلك المنزلة العليّة لو كان ما عندهم عن تعلّم وتأدّب؟! ولم لا يكون المعلّم والمثقف هو صاحب المنزلة دونه؟! ولم لم يُقِلّ الجواد؟!

أجل ، توفي الجواد وهو ابن خمس وعشرين سنة . وأنت تعلم أنّ ابن هذا السنّ لم يبلغ شيئاً من العلم لو أنفق عمره هذا كلّه في طلبه ، فكيف يكون عالم الأئمة ومرشدها ، ومعلّم العلماء ومثقفهم ، وقد رجعت إليه الشيعة وعلمائها من يوم وفاة أبيه الرضا عليه السلام ؟

وهكذا الحال في ابنه عليّ الهاديّ عليه السلام . فقد قضى الجواد ، وابنه الهاديّ ابن ست أو ثمان . فمن الذي ثقفه وجعله بذلك المحلّ الأرفع ؟ وكيف رجعت إليه العلماء والشيعة وهو ابن هذا السنّ ؟ وماذا يُحسن من كان هذا عمره لو كان علمه بالاكتساب ؟

فالصادق - كسائر الأئمة - لم يكن علمه كسبياً وأخذاً من أفواه الرجال ومدارستهم . ولو كان كذلك ، فممن أخذ وعلى يد من تخرّج ؟ وليس في تاريخ واحد من الأئمة عليهم السلام أنّه تتلمذ أو قرأ على واحد من الناس حتّى في سنّ الطفولة . فلم يذكر في تاريخ طفولتهم أنّهم دخلوا الكتاتيب^١ أو تعلّموا القرآن على المقرئين كسائر الأطفال من الناس . فما علم الإمام إلاّ وراثته عن أبيه ، عن جدّه ، عن الرسول ، عن جبرئيل ، عن الجليل تعالى . وسنشير إلى بعض آثاره العلميّة وإلى تعليمه لتلامذته . وما سواها ممّا هو دخيل في حياته العلميّة .

١- للكتاتيب معنيان : أحدهما جمع كتاب ، وكتاب جمع كاتب ، فهو جمع الجمع .
والآخر مكان التعليم بصيغة كتاب وجمعه كتاتيب .

كيفية المدرسة العلمية

للإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

لم يُؤخذ العلم عنه على هيئة ما هو عليه اليوم من الحوزات العلمية والنقاش في الدليل والمأخذ، بل كان تلامذته يرون إمامته عدا قليل منهم. والإمامية - كما تقدّم - ترى أنّ علم الإمام لا يدخل فيه الرأي والاجتهاد ليحاسب الإمام على المصدر والمستند. وإنما علمه إلهي موروث. نعم، ربّما يسأله السائل عن علة الحكم، سؤال تعلّم واستفادة لا سؤال ردّ وجدل. على أنّ من أخذ عنه العلم من غير الإمامية كانوا يرون جلالاته وسيادته وإمامته،^١ وقد عدّوا أخذهم عنه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها.^٢ وهذا ابن أبي الحديد قد أرجع علم المذاهب الأربعة إليه في الفقه.^٣

فكان السائل يأتي إليه ويستعلمه عمّا أشكل عليه. وكان الكثير منهم قد استحضر الدواة والقرطاس ليكتب ما يمليه عليه الإمام ليرويّه عنه عن تثبت.

وإذا أردت أن تعرف مبلغ علمه فانظر إلى كثرة من استقى منه العلم. فقد بلغ من عرفوه منهم أربعة آلاف أو يزيدون. ولماذا روى هؤلاء كلّهم عنه ولم يرووا عن غيره، مع وفرة العلماء في عصره؟! ولماذا إذا روى أحد منهم عنه وقف عليه ولا يسأل عمّن يروي ما أملاه، إلا أن يخبر هو أنّ ما أملاه عن آبائه، عن جدّه الرسول صلّى الله عليه وآله.

١- «تهذيب الأسماء واللغات»؛ و«ينابيع المودة».

٢- «مطالب السؤل» ص ٨١.

٣- «شرح نهج البلاغة» ج ١، ص ٦.

وما كانت تلك المدرسة التي خرّجت ذلك العدد الجَمّ مدرسة تريد أن تعلّم العلوم للذكر والصيت والفخر والشرف . وما كان هدف تلامذتها إلا أن يتعلّموا العلم للعلم وخدمة الدين والشريعة . ومَن خالف هذه السيرة أبعده الإمام عن حوزته . فكم طرد أناساً ولعن قوماً خالفوه في سيرته وسريرته . وما زالت عظاته وإرشاداته تسبق تعاليمه ، أو تطرّد مع بيانه .

تعاليم الإمام عليه السلام لتلاميذه

ما أكثر تعاليمه وأكثر عظاته ونصائحه ! وإتّما نذكر منها هاهنا ما يخصّ طلب العلم .

قال عمرو بن أبي المقدام ^١ : قال لي أبو عبد الله عليه السلام في أوّل مرّة دخلتُ عليه : **تَعَلَّمُوا الصَّدَقَ قَبْلَ الْحَدِيثِ** .^٢

ما أثنمها من نصيحة ! وما زال يوصي كلّ مَن دخل عليه من أوليائه بالصدق وأداء الأمانة . ولا بدع فإنّ بهما سعادة المرء في هذه الحياة ، ووفرة المال والجاه ، والطمأنينة إليه ، والرضى به للحكومة بين الناس .

وأما إرشاده إلى طلب العلم ، فما أكثر قوله فيه ! فتارةً يقول عليه السلام : **لَسْتُ أَحِبُّ أَنْ أَرَى الشَّابَّ مِنْكُمْ إِلَّا غَادِيًا فِي حَالَيْنِ : إِمَّا عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَرَطَ ، وَإِنْ فَرَطَ ضَيَّعَ ، وَإِنْ ضَيَّعَ أَثِمَ** .^٣

وأخرى يقول : **اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ** !^٤ وما اقتصر على حتّهم على طلب العلم ، بل حتّهم على ما يزدان به من الحلم

١- هو من ثقات مشاهير رجال الإمام الصادق عليه السلام.

٢- «أصول الكافي» باب الصدق وأداء الأمانة.

٣- «المجالس» للشيخ الصدوق رحمه الله، المجلس الحادي عشر.

٤- «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٣٦ ، الحديث الأوّل.

والوقار ، بل التواضع ، كما في قوله عليه السلام : **وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَهُ الْعِلْمَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ ، وَلَا تَكُونُوا عُلَمَاءَ جَبَّارِينَ ، فَيَذْهَبُ بِاطْلُكُمْ بِحَقِّكُمْ** .^١

ما أدقها من نصيحة ، وأسماء من تعليم ! فإن العلم لا ينفع صاحبه ولا الناس ما لم يكن مقروناً بالتواضع ، سواء كان المتحلي به معلماً أو متعلماً ، وإن الناس لتنفّر من ذي الكبرياء ويذهب جبروت النفس ذلك المقدار من العلم الذي عند الإنسان ويقضي عليه .

ويقول عليه السلام في إرشاده لطالب العلم :

وَلَا تَطْلُبِ الْعِلْمَ لِثَلَاثٍ : لِثَرَائِي بِهِ ، وَلَا لِتُبَاهِي بِهِ ، وَلَا لِتُمَارِي بِهِ . وَلَا تَدْعُهُ لِثَلَاثٍ : رَغْبَةً فِي الْجَهْلِ ، وَزَهَادَةً فِي الْعِلْمِ ، وَاسْتِحْيَاءٍ مِنَ النَّاسِ ، وَالْعِلْمُ الْمَصُونُ كَالسَّرَاجِ الْمُطْبَقِ عَلَيْهِ .^٢

إن الصادق عليه السلام يريد أن يكون طلب العلم للعلم ولنفع الأمة . فلو طلبه المرء للرياء أو المباهاة أو المجادلة لما انتفع ونفع ، بل لتضرر وأضر ، كما أنّ تركه للرغبة في الجهل والزهد في العلم كاشف عن الحمق ، ولا خير في حياء يُقيمك على الرذيلة ويبعد عنك الفضيلة . ولا يكون انتفاع الناس بالعلم إلا بنشره . وما فائدة السراج إذا أُطبق عليه .

ولنفاسة العلم حصّ على طلبه وإن كلف غالياً ، فقال :

اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِخَوْضِ الْمُهْجِ وَشَقِّ اللَّجَجِ .^٣

١- «المجالس» للشيخ الصدوق، المجلس ١٧؛ و«بحار الأنوار» ج ٢، ص ٤١، الحديث الثاني، الطبعة الحديثة.

٢- «بحار الأنوار» ج ١٧، ص ٢٧٠.

٣- «أصول الكافي» ج ١، ص ٣٥، الحديث الخامس.

ولمّا كان للعلم أوعية ومعادن فقد نهاهم عن أخذ العلم من غير أهله ،
فقال عليه السلام : **اطبُّبُوا الْعِلْمَ مِنْ مَعْدِنِ الْعِلْمِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْوَلَايِحَ فَهُمْ
الصَّادُونَ عَنِ اللَّهِ .**^١

إننا لنجد عياناً أنّ المتعلّم يتغذّى بروح معلّمه ، ويتشبع بتعاليمه .
فالتلميذ إلى الضلالة أدنى إن كان المعلّم ضالّاً ، وإلى الهداية أقرب إن كان
هادياً ، لأنّ غريزة المحاكاة تقوى عند التلميذ بالقياس إلى معلّمه .

وما حتّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام على طلب العلم فحسب ،
بل أراد منهم إذا تعلّموه أن يعملوا به ، فقال عليه السلام : **تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مَا
شِئْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا فَلَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِالْعِلْمِ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهِ ، لَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هَمُّهُمْ
الرِّعَايَةَ ، وَالسُّفَهَاءَ هَمُّهُمْ الرِّوَايَةَ .**^٢

وقال : **الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُعْمَلُ بِهِ كَالْكَنْزِ الَّذِي لَا يُنْفَقُ مِنْهُ ، أَتَعَبَ نَفْسَهُ
فِي جَمْعِهِ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى نَفْعِهِ .**^٣

وقال : **مِثْلُ الَّذِي يَعْلَمُ الْخَيْرَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ مِثْلُ السَّرَاحِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ
وَيُحْرِقُ نَفْسَهُ .**^٤

وقال : **إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَمَا
يَزِلُّ الْمَطْرُ عَنِ الصِّفَا .**^٥

وقد دلّهم على ما يحفظون به ما يتعلّمونه ، فقال عليه السلام : **اكتُبُوا
فإنَّكُمْ لَا تَحْفَظُونَ حَتَّى تَكْتُبُوا .**^٦

١- «كتاب زيد الزّاد» وهو من الأصول المعتمدة .

٢ و٣- «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٣٧ ، الحديث ٥٤ .

٤- «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٣٨ .

٥- «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٣٩ .

٦- «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٥٢ ، الحديث ٩ .

ومما قاله للمفضل بن عمر: اَكْتُبْ وَبُتَّ عِلْمَكَ فِي إِخْوَانِكَ فَإِنَّ مِتَّ فَوَرَّثَ كُتُبَكَ بَنِيكَ فَإِنَّهُ يَأْتِي زَمَانٌ هَرَجَ مَا يَأْتُسُونَ فِيهِ إِلَّا بِكُتُبِهِمْ^١.
وقال: احْفَظُوا بِكُتُبِكُمْ فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا.^٢

ولم يُرد عليه السلام فضيلة العلم لأهل زمانه فحسب ، بل أرادها لكل جيل وعصر ، كما أنه ما أوصاهم بالتعلم إلا لأن يجمعوا كل فضيلة معه ، كما ستعرفه من وصاياهم ، وكما تعرفه من قوله عليه السلام: فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا وَرَعَ فِي دِينِهِ ، وَصَدَقَ الْحَدِيثَ ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَحَسَّنَ خُلُقَهُ مَعَ النَّاسِ ، قِيلَ: هَذَا جَعْفَرِيٌّ ، وَيَسْرُنِي ذَلِكَ وَيَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْهُ السُّرُورُ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيَّ بِلَاؤُهُ وَعَارُهُ ، وَقِيلَ: هَذَا آدَبُ جَعْفَرٍ.^٣

إنَّ الصادق وآبائه من قبل وأبناءه من بعد جاهدوا في حسن تربية الأُمَّة وتوجيههم إلى الفضائل ، وردعهم عن الرذائل بشتى الوسائل . ولكن ما حيلتهم إذا كان الناس يأبون أن يسيروا بنهج الحق ، وأن يتنكبوا عن جادة الباطل!؟

وما حضَّ على طلب العلم إلا وحضَّ على العناية بشأن العلماء والعطف عليهم ، فقال عليه السلام:

ثَلَاثَةٌ يَشْكُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَسْجِدٌ خَرَابٌ لَا يُصَلِّي بِهِ أَهْلُهُ ، وَعَالِمٌ بَيْنَ جُهَالٍ ، وَمُصْحَفٌ مُعَلَّقٌ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ غُبَارٌ لَا يُقْرَأُ فِيهِ.^٤

وقال إسحاق بن عمّار الصيرفي: قلتُ للصادق عليه السلام: مَنْ قَامَ

١- «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٥٢ ، الحديث ١١ .

٢- «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٥٢ ، الحديث ١٠ .

٣- «أصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٣٦ .

٤- «بحار الأنوار» ج ٩٢ ، ص ١٩٥ .

مَنْ مَجْلِسِهِ تَعْظِيمًا لِرَجُلٍ؟! قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَكْرُوهٌ إِلَّا لِرَجُلٍ فِي الدِّينِ .
 وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ أَكْرَمَ فَقِيهًا مُسْلِمًا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ
 عَنْهُ رَاضٍ، وَمَنْ أَهَانَ فَقِيهًا مُسْلِمًا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ
 غَضَبَانٌ.^١

وما أكثر ما جاء عنه عليه السلام في رعاية أهل العلم وتقديرهم ،
 وإكرام العلماء وتوقيرهم ، وهكذا كان مجاهداً في تثقيف أتباعه وتهذيبهم
 وتعليمهم الأخلاق الفاضلة.^٢

علم التفسير وكيفية استخراج معاني القرآن الكريم

كان في الحديث عن أهل البيت الذي أشرنا إليه موارد جمّة للتفسير
 حتّى أنّ بعض المفسّرين جعلوا تفسيرهم كلّه مبنياً على الحديث . وإذا
 شئت أن تعرف شيئاً من كلام الصادق عليه السلام في التفسير ، فدونك
 «مجمع البيان» فإنّه قد أورد شيئاً من أحاديثه في تفسيره ، وقد يُشير إلى
 رأي أهل البيت مستظهراً ذلك من حديثهم .

وهناك مؤلّفات عديدة في آيات الأحكام ، وقد علّق عليهما
 المؤلّفون ما جاء في تفسيرها والإشارة إلى مفادها من طريق أهل البيت
 وأحاديثهم . والحديث الوارد عن سيّد الرسل في عدّة مقامات ومن عدّة
 طرق : الذي يعرّفنا مبلغ علمهم بالقرآن ، وإنّ في كلّ زمن عالماً منهم
 بالقرآن .

إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي . مَا إِنْ

١- «بحار الأنوار» ج ٤٧ ، ص ٤٤ ، الحديث ١٣ .

٢- «الإمام الصادق» ج ١ ، ص ١٣١ إلى ١٤٠ ، الطبعة الرابعة ، مؤسّسة النشر الإسلامي .

تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا . فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ
الْحَوْضَ .

وتشفع لهذا الحديث الأخبار الكثيرة الواردة عن أهل البيت في شأن علمهم بالقرآن . والصادق نفسه يقول :

وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ كِتَابَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِهِ إِلَى آخِرِهِ كَأَنَّهُ فِي كَفِّي . فِيهِ خَبْرُ
السَّمَاءِ وَخَبْرُ الْأَرْضِ وَخَبْرُ مَا كَانَ وَخَبْرُ مَا هُوَ كَائِنٌ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
فِيهِ تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ١ .

ويفرج أصابعه مرّة أخرى فيضعها على صدره ويقول : وَعِنْدَنَا وَاللَّهِ
عِلْمُ الْكِتَابِ كُلِّهِ ٢ . إلى كثير أمثال ذلك .

ولابد في كلّ زمن من عالم بالقرآن الكريم على ما نزل ، كما يشهد لذلك حديث الثقلين ، ولأنّ القرآن إمامٌ صامتٌ وفيه المحكم والمتشابه ، والمجمل والمبين ، والناسخ والمنسوخ ، العام والخاص ، والمطلق والمقيّد ، إلى غير ذلك ممّا خفي على الناس علمه . وكلّ فرقة من الإسلام تدّعي أنّ القرآن مصدر اعتقادها ، وتزعم أنّها وصلت إلى معانيه واهتدت إلى مقاصده . وتأتي على ذلك بالشواهد .

فالقرآن مصدر الفرق بزعم أهل الفرق . فمن هو الحَكَم الفصل ليردّ قوله وتفسيره شبه هاتيك الفرق ، ومزاعم هذه المذاهب ؟ وقد دلّ حديث الثقلين على أنّ علماء القرآن هم العترة أهل البيت خاصّة ومنهم يكون العالم به في كلّ عصر .

١- يريد الإشارة إلى قوله : وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ . (الآية ٨٩ من السورة ١٦ : النحل).

٢- «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٢٢٩ ، الحديث ٥ .

وفي عصره عليه السلام إذا لم يكن هو العالم بالقرآن فمن غيره؟! ليس في الناس من يدعي أنّ في أهل البيت أعلم من الصادق في عهده في التفسير أو في سواه من العلوم.^١

دروس الإمام الصادق عليه السلام في عرفان الذات المقدّسة للحقّ المتعال

فتح المرحوم المظفّر هذا البحث تحت عنوان علم الكلام ، وقال :
نعني من علم الكلام العلم الذي يبحث عن الوجود ، والوحدانية ، والصفات (صفات الباري تعالى) وما يلزم هذه المباحث من نبوة ، وإمامة ، ومعاد بالأدلة العقلية المبتنية على أسس منطقيّة صحيحة ، ولا نعني به علم الجدل الذي تاه فيه كثير من الناس لاعتمادهم فيه على خواطر توحّوها إليهم نفوس ساقها إلى الكلام حبّ الغلبة في المجادلة دون أن يستندوا إلى ركن وثيق أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح .

وإن جاء ذمّ على السنة الأحاديث للمتكلّمين ، فيعني بهم الذين تعلّموا الجدل للظهور والغلبة ولم يستقوا الماء من منبعه ، ولم يعبأوا بما يجزّهم إليه الكلام من لوازم فاسدة . وأمّا الذين انتهلوه من مورده الروي ، وبنوه على أسس صحيحة ودعائم وجدانية فإنّهم السنة الحقّ وهداته ودعاة الإيمان وأدلاؤه .

وإنّ أوّل من برهن على الوجود ولوازم الوجود بالأدلة العقلية والآثار المحسوسة أمير المؤمنين عليه السلام حتّى كاد أن يشكّ في تلك الخطب بعض من يجهل أو يتجاهل مقام أبي الحسن من العلم الربانيّ بدعوى أنّ

١- «الإمام الصادق» لأية الله المظفّر، ج ١، ص ١٤٥ إلى ١٤٧، الطبعة الرابعة.

العلم على تلك الأصول لم يكن معهوداً في ذلك الزمن . وليت شعري إن لم يعترف هذا الجاهل بأن علم أبي الحسن الإلهامي يستقيه من المنبع الفياض ، فإنه لا يجهل ما قاله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيهِ : **أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأُيُوبِهَا** .

ونسج على منوال أبي الحسن بنوه في هذا العلم ، فإنهم مازالوا يفيضون على الناس من علمهم الزاخر عن الوجود ولوازمه . وكيف يعبد الناس رباً لا يعرفونه ، ويطيعون نبياً يجهلونه ، ويتبعون إماماً لا يفقهون مقامه ؟! فالمعرفة قبل كل علم وأفضل كل علم . يقول الصادق عليه السلام : **أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ** .^١

وليس للسمع في تلك القواعد والأصول مدخل ، لأن التقليد في العقليات لا يصح عند أرباب العقول .

أجل ، قد يجيء النقل دليلاً ، ولكنّه من الإرشاد إلى حكم العقل ، أو الإشارة إلى الفطرة كما في قوله تعالى : **أَفِي آلِهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** .^٢ وأمثاله من القرآن المجيد . فإنّ هذه الآية الكريمة لم تحملك على القول بالوجود حتماً ، بل لفتتك إليه من جهة الأثر ومشاهدته .

فإذا جاء عن الرسول وعترته أدلة على هذه الأصول فما كلامهم في هذا إلا إرشاد إلى حكم العقل . فإنهم مازالوا يدلّون على العقل ويهدون إلى دلالته . وهذا الصادق نفسه يقول : **العقل دليل المؤمن** ؛ ويقول : **دِعَامَةُ الْإِنْسَانِ الْعَقْلُ** ؛ ويقول : **لَا يُفْلِحُ مَنْ لَا يَعْقِلُ** . ولو قرأت ما أملاه الكاظم عليه السلام على هشام بن الحكم في شأن العقل والعقلاء لعرفت كيف

١- «بحار الأنوار» ج ١ ، ص ٢١٥ .

٢- الآية ١٠ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

عرفوا حقيقة العقل ، ودلّوا عليه ، وحثّوا على الاستضاءة بنوره .
 ولقد جاء في كلامهم الشيء الكثير من الاستدلال على هذه الأصول .
 وهذا «نهج البلاغة» قد جمع من البراهين ما أبهر العقول وحيّر الألباب ، كما
 جمعت كتب الحديث والكلام كثيراً من تلك الحجج . ومن تلك الكتب :
 «الاحتجاج» للطبرسي ، و«أصول الكافي» ، و«التوحيد» للصدوق . والأول
 والثاني من «بحار الأنوار» . وفي كتبه الأخرى التي يترجم فيها الأئمة عليهم
 السلام ، ويذكر كلامهم طيّ تراجهم ، إلى نظائر هذه الكتب الجليلة !
 روى المجلسي رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» عن «الاحتجاج» ،
 عن هشام بن الحكم قال : دخل ابن أبي العوجاء على الصادق عليه السلام ،
 فقال له الصادق عليه السلام : يَا بَنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ ! أَمْصُوعٌ أَنْتَ أَمْ غَيْرُ
 مَصْنُوعٍ ؟!

قال : لستُ بمصنوع !

فقال له الصادق : فَلَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ كُنْتَ ؟!

فلم يحر ابن أبي العوجاء جواباً . وقام ، وخرج . وورد مثل هذا
 الحديث أيضاً عن هشام في توحيد الصدوق بسند آخر .
 قال المجلسي في بيانه موضحاً هذا الحديث : لما كان التصديق
 بوجود الصانع تعالى ضرورياً ، نبهه عليه السلام بأنّ العقل يحكم بديهةً
 بالفرق بين المصنوع وغيره . وفيك جميع صفات المصنوعين ، فكيف
 لم تكن مصنوعاً ؟!

أشكل أستاذنا العلامة الطباطبائي قدس الله سرّه في تعليقه على
 التوضيح المذكور ، وقال : لَا يَخْفَى أَنَّ الرّواية غير مسوقة للتنبية على ما

١- «الإمام الصادق» ج ١ ، ص ١٤٧ إلى ١٤٩ ، الطبعة الرابعة .

ذكره ؛ بل إلزام له بالترجيح بلا مرجح ، فإنّ اختياره عدم المصنوعيّة مع جواز مصنوعيّته قول بلا دليل . (ط) .^١

إنّ ما أفاده أستاذنا العلامة قدّس الله سرّه أفضل ممّا أفاده جدنا الأقدم من جهة الأمّ العلامة المجلسيّ رضوان الله عليه ، بل هو الأولى والمتعين .

وروى العلامة المجلسيّ أيضاً عن «الاحتجاج» أنّ أبا شاهر الديصانيّ وهو زنديق^٢ دخل على أبي عبد الله عليه السلام فقال له : يا جعفر بن محمّد ! دلّني على معبودي !

فقال أبو عبد الله عليه السلام : اجلس ! فإذا غلام صغير في كفّه بيضة يلعب بها . فقال أبو عبد الله عليه السلام : ناولني يا غلام البيضة ! فناوله إيّاها !

فقال أبو عبد الله عليه السلام :

يَا دَيْصَانِي ! هَذَا حِصْنٌ مَكْنُونٌ لَهُ جِلْدٌ غَلِيظٌ ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ
جِلْدٌ رَقِيقٌ ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الرَّقِيقِ ذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ وَفِضَّةٌ ذَائِبَةٌ ، فَلَا الذَّهَبَةُ
الْمَائِعَةُ تَخْتَلِطُ بِالْفِضَّةِ الذَّائِبَةِ ، وَلَا الْفِضَّةُ الذَّائِبَةُ تَخْتَلِطُ بِالذَّهَبَةِ الْمَائِعَةِ .

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٣١ ، كتاب التوحيد ، الباب ٣ : إثبات الصانع والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته ، الطبعة الحديثة .

٢- قال في الهامش : الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة ، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية ، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، أو هو معرّب زنّ دين ، أي : دين المرأة . قاله في «القاموس» . وفي «المصباح» : المشهور على السنة الناس أنّ الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة ويقول بدوام الدهر . والعرب تعبّر عن هذا بقولهم : ملحد ، أي : طاعن في الأديان ، انتهى . ونقل عن «مفاتيح العلوم» أنّ الزنادقة هم المانوية . وكانت المزدكية يسمون بذلك . أقول : والظاهر أنّ الزنديق معرّب لزند دين ، والزند اسم لكتاب المجوس جاء به زردشت الذي يزعم المجوس أنّه نبيّ ، أو معرّب زنديّ ، أي : المنسوب إلى زند ، فأخذ كلمة واحدة وزيد عليه القاف - انتهى .

فَهِيَ عَلَى حَالِهَا لَمْ يَخْرُجْ^١ مِنْهَا خَارِجٌ مُصْلِحٌ فَيُخْبِرُ عَنْ إِصْلَاحِهَا ،
وَلَمْ يَدْخُلْ^٢ فِيهَا دَاخِلٌ مُفْسِدٌ فَيُخْبِرُ عَنْ إِفْسَادِهَا . لَا يَدْرِي لِلذِّكْرِ خُلِقَتْ
أَمْ لِلْأُنثَى ؟!

تَنْفَلِقُ عَنْ مِثْلِ الْوَانَ الطَّوَاوَيْسِ . أَتَرَى لَهَا مُدَبَّرًا ؟!
قَالَ : فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّكَ إِمَامٌ وَحُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ،
وَأَنَا تَائِبٌ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ .

روى في «التوحيد» للصدوق بسنده المتصل عن عبد الله الديصاني
أنه أتى باب أبي عبد الله عليه السلام فاستأذن عليه ، فأذن له ، فلما قعد قال
له : يا جعفر بن محمد ! دلّني على معبودي !

فقال له أبو عبد الله عليه السلام : ما اسمك ؟! فخرج عنه ولم يخبره
باسمه . فقال له أصحابه : كيف لم تخبره باسمك ؟! قال : لو كنت قلتُ له :
عبد الله ، كان يقول : من هذا الذي أنت له عبدٌ ؟! فقالوا له : عُدْ إليه فقل :
يدلك على معبودك ولا يسألك عن اسمك ! فرجع إليه ، فقال له : يا جعفر !
دلّني على معبودي ولا تسألني عن اسمي . فقال له أبو عبد الله عليه السلام :
اجلس ، وإذا غلام صغير ... إلى آخر الخبر .

قال المجلسي في بيانه : قد أوردنا الخبر بتمامه في باب القدرة ،
وتقرير استدلاله عليه السلام أنّ ما في البيضة من الأحكام والإتقان
والاشتغال على ما به صلاحها وعدم اختلاط ما فيها من الجسمين السّياليين
- والحال أنّه ليس فيها حافظ لها من الأجسام فيخرج مخبراً عن صلاحها ،

١- في «الاحتجاج» المطبوع : لا يخرج .

٢- وفيه أيضاً : ولا تدخل .

ولا يدخلها جسمانيّ من خارج فيفسدها ، وهي تنفلق عن مثل ألوان الطواويس - يدلّ على أنّ له مبدأ غير جسم ولا جسمانيّ ، ولا يخفى لطف نسبة الاصلاح إلى ما يخرج منها ، والإفساد إلى ما يدخل فيها ، لأنّ هذا شأن أهل الحصن الحافظين له وحال الداخل فيه بالقهر والغلبة .^١

وروى المجلسي أيضاً عن «الأمالي» للصدوق ، عن أحمد بن عليّ بن إبراهيم بن هاشم ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن هشام بن الحكم ، قال : دخل أبو شاكر الديصانيّ على أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، فقال له : إِنَّكَ أَحَدُ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ ، وَكَانَ أَبَاؤُكَ بُدُورًا بَوَاهِرَ ، وَأُمَّهَاتُكَ عَقِيْلَاتٍ عِبَاهِرَ ، وَعَنْصُرُكَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَنَاصِرِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الْعُلَمَاءُ فَبِكَ تَثْنَى الْخَنَاصِرُ ، فَخَبَّرْنِي أَيُّهَا الْبَحْرُ الْخِضَمُّ الزَّآخِرُ : مَا الدَّلِيلُ عَلَيَّ حَدَثِ [حُدُوثِ] الْعَالَمِ ؟!^٢

فقال الصادق عليه السلام : يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِأَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ !

قال : وَمَا هُوَ ؟!

قال : فدعى الصادق عليه السلام ببيضة فوضعها على راحته ، ثمّ قال : هَذَا حِصْنٌ مَلْمُومٌ ، دَاخِلُهُ غَرْقِيٌّ رَقِيقٌ ، تُطِيفُ بِهِ فِضَّةٌ سَائِلَةٌ وَذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ ، ثُمَّ تَنْفَلِقُ عَنِ مِثْلِ الطَّائُوسِ ، أَدْخَلَهَا شَيْءٌ ؟!

قال : لا !

قال : فَهَذَا الدَّلِيلُ عَلَيَّ حَدَثِ [حُدُوثِ] الْعَالَمِ !

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٣١ و ٣٢ .

٢- قال المجلسي في سياق بيانه : قوله : فَبِكَ تَثْنَى الْخَنَاصِرُ ، أي : أنت تُعَدُّ أَوْلَى قَبْلَهُمْ لكونك أفضل وأشهر منهم ، وإنما يُبَدَأُ فِي الْعَدِّ بِالْخَنَصِرِ . والملموم المضموم بعضه إلى بعض . والخضم بكسر الخاء وفتح الضاد وتشديد الميم : الكثير العطاء .

قال [الديصاني]: أَخْبَرْتُ فَأَوْجَزْتَ، وَقُلْتَ فَأَحْسَنْتَ، وَقَدْ عَلِمْتَ
أَنَّ لَا نَقْبُلُ إِلَّا مَا أَدْرَكْنَاهُ بِأَبْصَارِنَا، أَوْ سَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا، أَوْ لَمَسْنَاهُ بِأَكْفُنَا، أَوْ
شَمَمْنَاهُ بِمَنَاخِرِنَا، أَوْ دُقْنَاهُ بِأَفْوَاهِنَا، أَوْ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ بَيَانًا، وَاسْتَنْبَطَهُ
الرُّوَايَاتُ إِيقَانًا!

فقال الصادق عليه السلام: ذَكَرْتَ الْحَوَاسَّ الْخَمْسَ، وَهِيَ لَا تَنْفَعُ
شَيْئًا بَغَيْرِ دَلِيلٍ كَمَا لَا تَقْطَعُ الظُّلْمَةَ بِغَيْرِ مِصْبَاحٍ.

قال العلامة المجلسي في بيانه: قوله عليه السلام: وهي لا تنفع شيئاً
بغير دليل، أي: هي عاجزةٌ يتوقّف إدراكها على شرائط، فكيف تنفي ما
لم تدركه بحسّك؟ كما أنّ البصر لا يبصر الأشياء بغير مصباح. ويحتمل أن
يكون المراد بالدليل العقل، أي: لا تنفع الحواسّ بدون دلالة العقل، فهو
كالسراج لإحساس الحواس. وأنت قد عزلت العقل وحكمه واقتصرت
على حكم الحواس!

قال العلامة الطباطبائي في الهامش: بل المراد أنّ الحواسّ إنّما لها
الإدراك التصوريّ، وأمّا التصديق والحكم فللعقل. (ط).^١

وروى المجلسي عن «الاحتجاج» عن عيسى بن يونس، قال: كان
ابن أبي العوجاء^٢ من تلامذة الحسن البصريّ، فانحرف عن التوحيد، فقيل

١- «بحار الأنوار» ج ٣، ص ٣٩ و ٤٠.

٢- قال في الهامش: عدّه السيّد المرتضى رحمه الله في كتابه «الأمالي» ممّن كان
يستترّ بإظهار الإسلام، ويحقن بإظهار شعائره والدخول في جملة أهله دمه وماله. وكان في
الباطن زنديقاً ملحداً، وكافراً مشركاً، وقال: حكي أنّ عبد الكريم بن أبي العوجاء قال: -لما
قبض عليه محمّد بن سليمان وهو والي الكوفة من قبل المنصور، وأحضره للقتل، وأيقن
بمفارقة الحياة- لئن قتلتموني لقد وضعتُ في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكدوبة
مصنوعة!

له : تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة ؟
قال : إن صاحبي كان مخلطاً يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر ، فما
أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه . فقدم مكة تمرّداً وإنكاراً على من يحجّ ،
وكان يكره العلماء مجالسته ومساءلته لخبث لسانه وفساد ضميره . فأتى
أبا عبد الله عليه السلام فجلس إليه في جماعة من نظرائه ، فقال :
يا أبا عبد الله ! إن المجالس بالأمانات ، ولا بدّ لكلّ من به سعال أن يسعل ،
أفتأذن لي في الكلام ؟! فقال الصادق عليه السلام : تكلم بما شئت . فقال :
إِلَى كَمِّ تَدُوْسُونَ هَذَا الْبَيْدَرَ ،^١ وَتَلُوذُونَ بِهَذَا الْحَجْرِ ، وَتَعْبُدُونَ هَذَا
الْبَيْتَ الْمَرْفُوعَ بِالطُّوبِ وَالْمَدْرَ ، وَتَهْرُوْلُونَ حَوْلَهُ كَهْرَوْلَةِ الْبَعِيرِ إِذَا نَفَرَ ؟!
إِنَّ مَنْ فَكَّرَ فِي هَذَا وَقَدَّرَ عِلْمَ أَنَّ هَذَا فِعْلٌ أَسَّسَهُ غَيْرُ حَكِيمٍ وَلَا ذِي
نَظَرٍ . فَقُلْ فَإِنَّكَ رَأْسُ هَذَا الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ ، وَأَبُوكَ أُسُّهُ وَنِظَامُهُ !
فقال أبو عبد الله عليه السلام : إِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَأَعْمَى قَلْبَهُ
اسْتَوْخَمَ الْحَقَّ وَلَمْ يَسْتَعِدِّبْهُ ، وَصَارَ الشَّيْطَانُ وَلِيُّهُ يُورِدُهُ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ ثُمَّ
لَا يُضِدِرُهُ .

وَهَذَا بَيْتٌ اسْتَعْبَدَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيُخْتَبَرَ طَاعَتُهُمْ فِي إِتْيَانِهِ ، فَحَثَّهُمْ
عَلَى تَعْظِيمِهِ وَزِيَارَتِهِ ، وَجَعَلَهُ مَحَلَّ أَنْبِيَائِهِ ، وَقِبْلَةً لِلْمُصَلِّينَ لَهُ .
فَهُوَ شُعْبَةٌ مِنْ رِضْوَانِهِ ، وَطَرِيقٌ يُؤَدِّي إِلَى غُفْرَانِهِ ، مَنْصُوبٌ عَلَى
اسْتِوَاءِ الْكَمَالِ ، وَمُجْتَمَعِ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ ، خَلَقَهُ اللَّهُ قَبْلَ دُخُولِ الْأَرْضِ
بِأَلْفِي عَامٍ . فَأَحَقُّ مَنْ أُطِيعَ فِيمَا أَمَرَ وَانْتَهِيَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ : اللَّهُ
الْمُنْشِئُ لِلْأَرْوَاحِ وَالصُّوَرِ .

١- البيدر : الموضع الذي يُجمع فيه الحصيد ويُداس ويُدقّ .

فقال ابن أبي العوجاء: ذَكَرْتَ اللَّهَ ١ فَأَحَلَّتْ عَلَيَّ غَائِبًا!
فقال أبو عبد الله عليه السلام: وَيَلْكَ كَيْفَ يَكُونُ غَائِبًا مَنْ هُوَ مَعَ
خَلْقِهِ شَاهِدًا؟! وَإِلَيْهِمْ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ، وَيَرَى
أَشْخَاصَهُمْ، وَيَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ!

فقال ابن أبي العوجاء: فَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ؟! أَلَيْسَ إِذَا كَانَ فِي السَّمَاءِ
كَيْفَ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ؟! وَإِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يَكُونُ فِي السَّمَاءِ؟
فقال أبو عبد الله عليه السلام: إِنَّمَا وَصَفْتَ الْمَخْلُوقَ الَّذِي إِذَا انْتَقَلَ
مِنْ مَكَانٍ اشْتَغَلَ بِهِ مَكَانٌ وَخَلَا مِنْهُ مَكَانٌ، فَلَا يَدْرِي فِي الْمَكَانِ الَّذِي
صَارَ إِلَيْهِ مَا حَدَثَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ!
فَأَمَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ فَلَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، وَلَا يَشْتَغِلُ
بِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَكُونُ إِلَى مَكَانٍ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى مَكَانٍ!

وروي مثلها في «الأمالى» للصدوق بسندٍ، وفي «علل الشرائع» بسند
آخر أيضاً.

وروى الصدوق مثلها في توحيده بسند آخر. وأضاف في آخرها أن
الإمام عليه السلام قال في آخرها: وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ،
وَالْبَرَاهِينَ الْوَاضِحَةِ وَأَيْدِهِ بِنَصْرِهِ، وَاخْتَارَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، صَدَقْنَا قَوْلَهُ بِأَنَّ
رَبَّهُ بَعَثَهُ وَكَلَّمَهُ.

فقام عنه ابن أبي العوجاء وقال لأصحابه: مَنْ أَلْقَانِي فِي بَحْرِ هَذَا!
وفي رواية ابن الوليد: مَنْ أَلْقَانِي فِي بَحْرِ هَذَا! سَأَلْتُكُمْ أَنْ تَلْتَمِسُوا لِي
حُمْرَةً فَأَلْقَيْتُمُونِي عَلَى جَمْرَةٍ!

قالوا: ما كنت في مجلسه إلا حقيراً. قال: إِنَّهُ ابْنُ مَنْ حَلَقَ رُؤُوسَ

١- في «الأمالى»: ذَكَرْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.

مَنْ تَرَوْنَ!

قال المجلسي في بيانه: الخمرة بالضم حصيرة صغيرة من السعف .
أي: طلبت منكم أن تطلبوا لي خصماً لعب به كالخمرة فألقيتموني على
جمرة ملتهبة!

وفي «الاحتجاج» للطبرسي روي أن الصادق عليه السلام قال لابن
أبي العوجاء: إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ - وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُ - نَجَوْنَا وَنَجَوْتَ ،
وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ نَجَوْنَا وَهَلَكْتَ !^١

وروي المجلسي عن «الخصال» للصدوق ، بسنده عن هشام بن سالم ،
عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : سمعتُ أبي يحدثُ عن أبيه عليه
السلام أن رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ !؟

قال : بِفَسْخِ الْعَزْمِ ،^٢ وَنَقْضِ الْهَمَمِ . لَمَّا أَنْ هَمَمْتُ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ
هَمِّي . وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي . فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي !

قال : فَبِمَاذَا شَكَرْتَ نِعْمَاءَهُ ؟!

قال : نَظَرْتُ إِلَى بَلَاءٍ قَدْ صَرَفَهُ عَنِّي وَأَبْلَى بِهِ غَيْرِي ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ
أَنْعَمَ عَلَيَّ فَشَكَرْتُهُ .

قال : فَبِمَاذَا أَحْبَبْتَ لِقَاءَهُ ؟!

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٣٣ إلى ٣٥ .

واحتجاج الإمام عليه السلام هذا مأخوذ من القرآن الكريم : الآية ٢٨ ، من السورة : ٤٠ :
غَافِرٍ : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ .

٢- وفي نسخة : بفسخ العزائم .

قال: لَمَّا رَأَيْتُهُ قَدِ اخْتَارَ لِي دِينَ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، عَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِهَذَا لَيْسَ يَنْسَانِي فَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ .

ومثل هذه الرواية في «التوحيد» للصدوق بسنده المتّصل عن الإمام أبي جعفر محمّد الباقر عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عليهما السلام .^١ وأيضاً في «التوحيد» للصدوق بسنده المتّصل عن هشام بن سالم ، عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام عندما قيل له : بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟! قال: بَفَسْخِ الْعَزْمِ وَنَقْضِ الْهَمِّ . عَزَمْتُ فَفَسَخَ عَزْمِي ، وَهَمَمْتُ فَفَقَضَ هَمِّي .^٢

وروى المجلسي أيضاً عن «التوحيد» للصدوق بسنده المتّصل عن أحمد بن محسن الميثمي ،^٣ قال : كنت عند أبي منصور المتطبّب ، فقال : أخبرني رجل من أصحابي قال : كنتُ أنا وابن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام . فقال ابن المقفّع : ترونَ هذا الخلق ؟ - وأومى بيده إلى موضع الطواف - مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ أُوجِبُ لَهُ اسْمُ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا ذَلِكَ الشَّيْخُ الْجَالِسُ - يَعْنِي جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَأَمَّا الْبَاقُونَ فَرَعَاعٌ وَبَهَائِمٌ .

فقال له ابن أبي العوجاء : وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء ؟!

قال : لأنّي رأيتُ عنده ما لم أرَ عندهم !

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٤٢ .

٢- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٤٩ .

٣- أشار المستشار عبد الحليم الجنديّ المصريّ إلى هذا الحديث في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٨٥ و ٢٨٦ في سكون الإمام وهدوئه، في سياق البحث .

فقال ابن أبي العوجاء : ما بُدَّ من اختبار ما قلت فيه منه .
 فقال له ابن المقفع : لا تفعل فإنِّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك !
 فقال : ليس ذا رأيك ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في
 إجلالك إياه المحل الذي وصفت .

فقال ابن المقفع : أمّا إذا توهّمت عليّ هذا فقم إليه وتحفظ ما
 استطعت من الزل ، ولا تثنّ عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال ، وسمه
 مالك أو عليك .

قال : فقام ابن أبي العوجاء وبقيت وابن المقفع ، فرجع إلينا ، وقال :
 يابن المقفع ما هذا ببشر . وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا رُوحَانِيَّيْتَجَسَّدُ إِذَا شَاءَ
 ظَاهِرًا ، وَيَتَرَوَّحُ إِذَا شَاءَ بَاطِنًا فَهَؤُوهَذَا !
 فقال له : وكيف ذاك ؟!

قال : جلستُ إليه فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني ، فقال : إِنْ يَكُنْ
 الأَمْرُ عَلَيَّ مَا يَقُولُ هَؤُولَاءِ - وَهُوَ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ - يَعْنِي أَهْلَ الطَّوَافِ ، فَقَدْ
 سَلِمُوا وَعَطِبْتُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ الأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ - وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ - فَقَدْ
 اسْتَوَيْتُمْ وَهُمْ !

فقلتُ له : يرحمك الله ! وأيّ شيء نقول ؟ وأيّ شيء يقولون ؟ ما
 قولي وقولهم إلا واحداً .

فقال : كيف يكون قولك وقولهم واحداً ، وهم يقولون : إنّ لهم معاداً
 وثواباً وعقاباً ، ويدينون بأنّ للسماء إلهاً ، وأنّها عمران ، وأنتم تزعمون أنّ
 السماء خراب ليس فيها أحد ؟!

قال : فاغتنمتها منه ، فقلتُ له : ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن
 يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتّى لا يختلف منهم اثنان ، ولما احتجب
 عنهم وأرسل إليهما الرسل ؟! ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به .

فقال لي: وَيَلَكَّ! وَكَيْفَ احْتَجَبَ عَنْكَ مَنْ أَرَاكَ قُدْرَتَهُ فِي نَفْسِكَ؟
 نَشْوَأَكَ وَلَمْ تَكُنْ، وَكِبْرَكَ بَعْدَ صِغْرِكَ، وَقُوَّتَكَ بَعْدَ ضَعْفِكَ، وَضَعْفِكَ
 بَعْدَ قُوَّتِكَ، وَسُقْمَكَ بَعْدَ صِحَّتِكَ، وَصِحَّتَكَ بَعْدَ سُقْمِكَ، وَرِضَاكَ بَعْدَ
 غَضَبِكَ، وَغَضَبَكَ بَعْدَ رِضَاكَ، وَحُزْنَكَ بَعْدَ فَرَحِكَ، وَفَرَحَكَ بَعْدَ
 حُزْنِكَ، وَحُبَّكَ بَعْدَ بُغْضِكَ، وَبُغْضَكَ بَعْدَ حُبِّكَ، وَعَزَمَكَ بَعْدَ إِبَائِكَ،
 وَإِبَاءَكَ بَعْدَ عَزَمِكَ، وَشَهْوَتَكَ بَعْدَ كِرَاهَتِكَ، وَكِرَاهَتَكَ بَعْدَ شَهْوَتِكَ،
 وَرَغْبَتَكَ بَعْدَ رَهْبَتِكَ، وَرَهْبَتَكَ بَعْدَ رَغْبَتِكَ، وَرَجَاءَكَ بَعْدَ يَأْسِكَ،
 وَيَأْسَكَ بَعْدَ رَجَائِكَ، وَخَاطِرَكَ بَعْدَ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَهْمِكَ، وَعُزُوبَ مَا
 أَنْتَ مُعْتَقِدُهُ مِنْ ذِهْنِكَ.

وَمَا زَالَ يَعُدُّ عَلَيَّ قُدْرَتَهُ الَّتِي فِي نَفْسِي الَّتِي لَا أَدْفَعُهَا حَتَّى ظَنَنْتُ
 أَنَّهُ سَيُظْهِرُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ.^١

وروى المجلسي أيضاً عن «التوحيد» للصدوق، عن الدقاق، عن
 الكليني بإسناده رفع الحديث: أن ابن أبي العوجاء حين كلمه أبو عبد الله
 عليه السلام عاد إليه في اليوم الثاني فجلس وهو ساكت لا ينطق. فقال أبو
 عبد الله عليه السلام: كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه! فقال: أردتُ ذلك
 يا ابن رسول الله! فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أعجب هذا تنكر الله
 وتشهد أنني ابن رسول الله!

فقال: العادة تحملني على ذلك.

فقال له العالم عليه السلام: فما يمنعك من الكلام؟

قال: إِجْلَالاً لَكَ وَمَهَابَةً مَا يَنْطِقُ لِسَانِي بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنِّي شَاهَدْتُ
 الْعُلَمَاءَ وَنَازَرْتُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَمَا تَدَاخَلَنِي هَيْبَةٌ قَطُّ مِثْلُ مَا تَدَاخَلَنِي مِنْ

١- «بحار الأنوار»، ج ٣، ص ٤٢ و ٤٣.

هَيْبَتِكَ!

قال : يكون ذلك ، ولكن أفتح عليك بسؤال وأقبل عليه ! فقال له :
أَمْصُنُوعٌ أَنْتَ أَوْ غَيْرُ مَصْنُوعٍ؟!

فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء : بل أنا غير مصنوع !
فقال له العالم عليه السلام : فَصِفْ لِي لَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ كُنْتَ
تَكُونُ؟!

فبقي عبد الكريم مليئاً لا يحير جواباً ، وولع بخشبة كانت بين يديه
وهو يقول : طَوِيلٌ عَرِيضٌ ، عَمِيقٌ قَصِيرٌ ، مُتَحَرِّكٌ سَاكِنٌ . كل ذلك صفة
خلقه .

فقال له العالم عليه السلام : فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها
فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأمور !
فقال له عبد الكريم : سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ،
ولا يسألني أحد بعدك عن مثلها !^١

فقال له أبو عبد الله عليه السلام : هبك علمت أنك لم تُسأل فيما
مضى ، فما علمك أنك لا تُسأل فيما بعد؟! على أنك يا عبد الكريم نقضت
قولك ، لأنك تزعم أنّ الأشياء من الأوّل سواء ، فكيف قدّمت وأخرت؟!
ثم قال : يا عبد الكريم أزيدك وضوحاً ، أرايت لو كان معك كيس
فيه جواهر ، فقال لك قائل : هل في الكيس دينار؟ فنفيت كون الدينار في
الكيس . فقال لك قائل : صف لي الدينار ، وكنت غير عالم بصفته ، هل كان
لك أن تنفي كون الدينار عن الكيس وأنت لا تعلم؟!

١- ذكر الشيخ محمد حسين المظفر هذا الخبر إلى هنا في كتاب «الإمام الصادق» ج ١ ،
ص ١٦٩ و ١٧٠ ، الطبعة الرابعة ، من كتاب «التوحيد» للصدوق ، باب إثبات حدوث العالم .

قال : لا !

فقال أبو عبد الله عليه السلام : فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس ، فلعلّ في العالم صنعة من حيث لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة !

فانقطع عبد الكريم وأجاب إليّ الإسلام بعض أصحابه ، وبقي معه بعض ، فعاد في اليوم الثالث ، فقال : أقلب السؤال ؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام : اسأل عمّا شئت ! فقال : ما الدليل على حدث الأجسام !؟

فقال : إتيّ ما وجدتُ شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلّا وإذا ضمّ إليه مثله صار أكبر ، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى . ولو كان قديماً ما زال ولا حال ، لأنّ الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، وفي كونه في الأزل دخوله في القدم ، ولن تجمع صفة الأزل والحدوث ، والقدم والعدم في شيء واحد .

فقال عبد الكريم : هبك علمت في جري الحاليتين والزمانين على ما ذكرت واستدللت على حدوثها . فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدلّ على حدثها !؟ فقال العالم عليه السلام : إنّما نتكلّم على هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره ؛ ولكن أجبتك من حيث قدّرت أن تلزمنا ونقول : إنّ الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنّه متى ما ضمّ شيء إلى مثله كان أكبر . وفي جواز التغيير عليه خروجه من القدم كما بان في تغييره دخوله في الحدث ليس لك وراءه شيء يا عبد الكريم ! فانقطع وخزي .

فلمّا أن كان من العام القابل التقى معه في الحرم ، فقال له بعض

شيئته : إن ابن أبي العوجاء قد أسلم .

فقال العالم عليه السلام : هو أعمى من ذلك لا يسلم . فلما بصر
بالعالم ، قال : سَيِّدِي وَمَوْلَايَ ! فقال له العالم : ما جاء بك إلى هذا الموضع ؟
فقال : عَادَةُ الْجَسَدِ ، وَسُنَّةُ الْبَلَدِ ، وَلِنَبْضِ مَا النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْجُنُونِ
وَالْحَلْقِ وَرَمِي الْحِجَارَةَ !

فقال له العالم : أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم !
فذهب يتكلم ، فقال له : لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .^١ ورفض رداءه من يده ،
وقال : إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا نَقُولُ - وَلَيْسَ كَمَا نَقُولُ - نَجُونَا وَنَجُوتَ ! وَإِنْ
يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا نَقُولُ - وَهُوَ كَمَا نَقُولُ - نَجُونَا وَهَلَكْتَ !
فأقبل عبد الكريم على من معه ، فقال : وجدتُ في قلبي حرارةً !
فردوني . فردوه ومات ، لا رَحِمَهُ اللهُ .

وفي «الاحتجاج» للطبرسي بعض هذا الحديث مرسلًا .
وتحدث المجلسي عن هذا الحديث مفصلاً تحت عنوان «تَوَيَّرُ» .^٢
وكذلك روى المجلسي عن «التوحيد» للصدوق بسنده المتصل عن
مروان بن مسلم قال : دخل ابن أبي العوجاء على أبي عبد الله عليه السلام
فقال : أليس تزعم أن الله خالق كل شيء ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام :
بلى !

فقال له : أنا أخلق . فقال له : كيف تخلق !؟
قال : أحدث في الموضع ثم ألبث عنه فيصير دواباً . فأكون أنا الذي
خلقتها .

١- الآية ١٩٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٤٥ إلى ٤٩ ، الحديث العشرون .

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه؟! قال له: بلى! قال: فتعرف الذّكر منها من الأنثى؟! وتعرف كم عمرها؟! فسكت.^١

وروى عنه أيضاً بسنده المتّصل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَصْغَرَ مِنَ الْبَعُوضِ، وَالْجِرْجِسِ أَصْغَرَ مِنَ الْبَعُوضِ، وَالَّذِي يُسَمُّونَهُ الْوَلَعُ أَصْغَرَ مِنَ الْجِرْجِسِ، وَمَا فِي الْفِيلِ شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ مِثْلُهُ، وَفُضِّلَ عَلَى الْفِيلِ بِالْجَنَاحَيْنِ.^٢

قال المجلسي في بيانه: قال الفيروزآبادي: الجرجس بالكسر: البعوض الصغار - انتهى. إلى أن قال: والولع هنا بالغين المعجمة، وفي «الكافي» بالمهملة. وهما غير مذكورين فيما عندنا من كتب اللغة. والظاهر أنه أيضاً صنف من البعوض.

والغرض بيان قدرته تعالى. فإنّ القدرة في خلق الأشياء الصغار أكثر وأظهر منها في الكبار، كما هو المعروف بين الصنّاع من المخلوقين.

١- «بحار الأنوار»، ج ٣، ص ٥٠ و ٥١، الحديث ٢٤.

٢- نقل المعلق في الهامش عن كتاب «حياة الحيوان» للدميري، ما نصّه: وبالرجلين، وخرطوم الفيل المصمت، وخرطومه مجوّف نافذ للجوف. فإذا طعن به جسد الإنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو كالبلعوم والحلقوم، ولذلك اشتدّ عضّها، وقويت على حرق الجلود الغلاظ. وممّا ألهمه الله تعالى أنّه إذا جلس على عضو من أعضاء الإنسان لا يزال يتوخّى بخرطومه المسام التي يخرج منها العرق، لأنّها أرقّ بشرة من جلد الإنسان. فإذا وجدها وضع خرطومه فيها، وفيها من الشّره أن يمصّ الدم إلى أن ينشقّ ويموت، أو إلى أن يعجز عن الطيران فيكون ذلك سبب هلاكه. ومن عجيب أمره أنّه ربّما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيبقى طريحاً في الصحراء، فتجتمع السباع حوله، والطير التي تأكل الجيف، فمن أكل منها شيئاً مات لوقته... إلى آخر كلام الدميري.

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^١.

قال سماحة أستاذنا الأفخم الأعظم العلامة الطباطبائي في تعليقه على توضيح المجلسي وتعليقه: هذا بحسب الدقة واللفظ، وكأنه عليه السلام في هذا المقام، وأما بحسب القدرة فالأمر بالعكس من جهة توفيق الذرات وتوديع القوى العظيمة الهائلة. قال تعالى: لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. (المؤمن: ٥٧) ط^٢.

وروى المجلسي أيضاً عن «التوحيد» للصدوق بسنده المتصل عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو شاهر الديصاني: إن لي مسألة تستأذن لي على صاحبك. فإني قد سألت عنها جماعة من العلماء فما أجابوني بجواب مشبع!

فقلت: هل لك أن تخبرني بها ففعلت عندي جواباً ترضيه؟

فقال: إنني أحب أن ألقى بها أبا عبد الله عليه السلام!

قال: فاستأذنت له، فدخل، فقال له: أتأذن لي في السؤال؟! فقال

له: سل عما بدا لك! فقال له: ما الدليل على أن لك صانعاً؟!

فقال: وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أن أكون صنعتها

أنا (أو غيري)، فلا أخلو من أحد معنيين: إما أن أكون صنعتها وكانت

موجودة، أو صنعتها وكانت معدومة. فإن كنت صنعتها وكانت موجودة

فقد استغنيت بوجودها عن صنعتها. وإن كانت معدومة، فإنك تعلم أن

المعدوم لا يحدث شيئاً. فقد ثبت المعنى الثالث أن لي صانعاً وهو الله ربُّ

العالمين. فقام وما أجاب جواباً.

١- الآية ١٤، من السورة ٢٣: المؤمنون.

٢- «بحار الأنوار»، ج ٣، ص ٤٤ و ٤٥، الحديث التاسع عشر.

قال المجلسي في بيانه : هذا برهان متين مبني على توقّف التأثير والإيجاد على وجود الموجود والمؤثر . والضرورة الوجدانيّة حاكمة بحقيقتها ، ولا مجال للعقل في إنكارها .^١

وروى المجلسي أيضاً عن «التوحيد» للصدوق بسنده المتّصل عن هشام بن الحكم قال : كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله عليه السلام ، فخرج إلى المدينة ليناظره ، فلم يصادفه بها . فقيل له : هو بمكة . فخرج الزنديق إلى مكة ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام ، فقاربنا الزنديق - ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام - في الطواف ، فضرب كتفه كتف أبي عبد الله عليه السلام . فقال له جعفر عليه السلام : ما اسمك ؟ قال : اسمي عبد الملك . قال : فما كنتك ؟ قال : أبو عبد الله . قال : فمن الملك الذي أنت له عبدٌ . أمن ملوك السماء أم من ملوك الأرض ؟! وأخبرني عن ابنك ، أعبد إله السماء أم إله الأرض ؟! فسكت .

فقال له أبو عبد الله عليه السلام : قُلْ مَا شِئْتَ تُخَصِّمْ!

قال هشام بن الحكم : قلتُ للزنديق : أما تردّ عليه ! ففتح قولي . فقال له أبو عبد الله عليه السلام : إذا فرغتُ من الطواف فأتنا ! فلما فرغ أبو عبد الله عليه السلام أتاه الزنديق فقعد بين يديه ونحن مجتمعون عنده . فقال للزنديق : أتعلم أنّ للأرض تحت وفوق ؟!

قال : نعم ! قال : فدخلتَ تحتها ؟! قال : لا !

قال : فما يُدريك بما تحتها ؟!

قال : لا أدري إلا أنّي أظنّ أن ليس تحتها شيء .

قال أبو عبد الله عليه السلام : فالظنّ عجز ما لم تستيقن !

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٥٠ ، الحديث ٢٣ .

قال أبو عبد الله عليه السلام : فصعدت إلى السماء؟! قال : لا . قال : فتدري ما فيها؟ قال : لا . قال : فعجباً لك لم تبلغ المشرق ، ولم تبلغ المغرب ، ولم تنزل تحت الأرض ، ولم تصعد إلى السماء ، ولم تجز هنالك فتعرف ما خلقهنّ وأنت جاحد ما فيهنّ ! وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! فقال الزنديق : ما كلمني بهذا أحد غيرك !

قال أبو عبد الله عليه السلام : فأنت في شكّ من ذلك ! فلعلّ هو ، أو لعلّ ليس هو . قال الزنديق : ولعلّ ذاك .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : أيها الرجل ! ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، فلا حجة للجاهل - يا أخا أهل مصر ! تفهّم عني فإننا لا نشكّ في الله أبداً . أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ليس لهما مكان إلا مكانهما . فإن كانا يقدران على أن يذهبا ولا يرجعا ، فلم يرجعا؟! وإن لم يكونا مضطرينّ فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟! اضطرّا والله يا أخا أهل مصر إلى دوامهما ، والذي اضطرّهما أحكم منهما وأكبر منهما . قال الزنديق : صدقت !

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام : يا أخا أهل مصر ! الذي تذهبون إليه وتظنون به بالوهم ، فإن كان الدهر يذهب بهم ، لم لا يردّهم؟! وإن كان يردّهم لم لا يذهب بهم؟! القوم مضطرون يا أخا أهل مصر . السماء مرفوعة ، والأرض موضوعة ، لم لا تسقط السماء على الأرض؟! ولم لا تنحدر الأرض فوق طباقها فلا يتماسكان ولا يتماسك من عليهما؟!

فقال الزنديق : أمسكهما والله ربّهما وسيدهما . فأمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام .

فقال له حمران بن أعين : جُعلت فداك ! إن آمنت الزنادقة على يدك فقد آمنت الكفّار على يدي أبيك .

فقال المؤمن الذي آمن على يدي أبي عبد الله عليه السلام: اجعلني من تلامذتك! فقال أبو عبد الله عليه السلام لهشام بن الحكم: خذني إليك فعلمه. فعلمه هشام. فكان معلّم أهل مصر وأهل الشام. وحسنت طهارته حتّى رضي بها أبو عبد الله عليه السلام.^١

وروى المجلسيّ مثله عن «الاحتجاج» عن هشام بن الحكم. وذكر بعده شرحاً مفصّلاً مهمّاً نوعاً ما، وهو تحت عنوان: «إيضاح». وقال في آخره: تفصيل القول في شرح تلك الأخبار الغامضة يقتضي مقاماً آخر. وإنّما نُشير في هذا الكتاب إلى ما لعلّه يتبصّر به أولو الأذهان الثاقبة من أولي الأبواب. وسنبسط الكلام فيها في كتاب «مرآة العقول» إن شاء الله تعالى.^٢

كتاب «توحيد المفضّل»، وكتاب «الإهليلجة» المنسويين إلى مولانا الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليهما أفضل الصلاة والسلام^٣

قال المجلسيّ رحمه الله: ولنذكر بعد ذلك «توحيد المفضّل بن عمر»، ورسالة «الإهليلجة» المرويّتين عن الصادق عليه السلام لاشتمالهما على دلائل وبراهين على إثبات الصانع تعالى. ولا يضرّ إرسالهما لاشتهار

١- ذكر الكلينيّ هذا الخبر أيضاً في كتاب «الكافي» ج ١، ص ٧٢ إلى ٧٤، بسنده المتّصل، كما أورده المرحوم المظفرّ في كتاب «الإمام الصادق» ج ١، ص ١٨٩ إلى ١٩١، الطبعة الرابعة.

٢- «بحار الأنوار» ج ٣، ص ٥١ إلى ٥٤، الحديث ٢٥.

٣- أشار عبد الحليم الجنديّ إلى هذه الرواية في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٨٥، في لزوم الاستدلال العقليّ.

انتسابهما إلى المفضل . وقد شهد بذلك السيّد ابن طاووس^١ وغيره ، ولا ضعف محمّد بن سنان والمفضل ، لأنّه في محلّ المنع ، بل يظهر من الأخبار الكثيرة علوّ قدرهما وجلالتهما . مع أنّ متن الخبرين شاهداً صدق على صحّتهما . وأيضاً هما يشتملان على براهين لا تتوقّف إفادتها العلم على صحّة الخبر .

قال سماحة أستاذنا الأكرم العلامة الطباطبائيّ قدّس الله تربته في تعليقه على كلام المجلسيّ على صحّة الخبر : أمّا متن الخبر الأوّل المشتهر بـ «توحيد المفضل» فهو مطابق لجلّ الأخبار المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام المطابقة لمعارف الكتاب العزيز ، وما يشتمل عليه من الأدلّة براهين تامّة لا غبار عليها .

وأما خبر «الإهليلجة» فمحصل ما فيه إثبات حجّية حكم العقل وعدم

١- قال المعلّق في الهامش : قال ابن طاووس في ص ٩ من كتابه «كشف المحجّة»: وانظر: «كتاب المفضل بن عمر» الذي أملاه عليه مولانا الصادق عليه السلام فيما خلق الله جلّ جلاله من الآثار! وانظر: كتاب «الإهليلجة» وما فيه من الاعتبار . فإنّ الاعتناء بقول سابق الأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم أفضل السلام (المراد هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام) موافق لفطرة العقول والأحلام . وقال في ص ٧٨ من كتاب «الأمان من أخطار الأسفار والأزمان»: ويصحّب معه كتاب «الإهليلجة» وهو كتاب مناظرة مولانا الصادق عليه السلام مع الطبيب الهنديّ في معرفة الله جلّ جلاله بطريق غريبة عجيبة ضروريّة، حتّى أقرّ الهنديّ بالإلهية والوحدانية . ويصحّب معه «كتاب المفضل بن عمر» الذي رواه عن الصادق عليه السلام في معرفة وجوه الحكمة في إنشاء العالم السفليّ وأسراره، فإنّه عجيب في معناه .

قال المعلّق: وعدّ النجاشيّ من كتبه (المفضل) كتاب الفكر كتاب في بدء الخلق والحثّ على الاعتبار وصيّة المفضل . وذكر طريقه إليه هكذا: أخبرني أبو عبد الله بن شاذان قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن يحيى عن أبيه، عن عمران بن موسى، عن إبراهيم بن هاشم، عن محمّد بن سنان، عن المفضل . (انتهى) ولعلّ المراد منه هو كتاب توحيده هذا.

كفاية الحواسّ في الأحكام ، وإثبات وجود الصانع من طريق السببيّة ، وإثبات وحدته من طريق اتّصال التدبير . وهذا لا شكّ فيه من جهة العقل ، ولا من جهة مطابقته لسائر النقل ، غير أنّه مشتمل على تفاصيل لا شاهد عليها من النقل والعقل ، بل الأمر بالعكس ، كاشتماله على كون علوم الهيئة وأحكام النجوم مستنداً إلى الوحي ، وكذا كون علم الطبّ والقرايين (علم الأدوية) مستندين إلى الوحي ، مستدلّاً بأنّ إنساناً واحداً لا يقدر على هذا التتبع العظيم والتجارب الوسيعة .

مع أنّ ذلك مستند إلى أرصاد كثيرة ومحاسبات علميّة وتجارب ممتدّة من أُمم مختلفة في أعصار وقرون طويلة تراكمت حتّى تكوّنت في صورة فنّ أنتجه مجموع تلك المجاهدات العظيمة .

والدليل عليه أنّ النهضة الأخيرة سبكت على الهيئة والطبّ في قالب جديد أوسع من قالبهما القديم بما لا يقدر من السعة . ولا مستند له إلاّ الأرصاد والتجارب والمحاسبات العلميّة . وكذا ما هو مثلهما في السعة كالكيمياء ، والطبيعيّات ، وعلم النبات ، والحيوان ، وغير ذلك . نعم من الممكن استناد أصلهما إلى الوحي وبيان النبيّ .

ومما يشتمل عليه الخبر كون البحار باقية على حال واحدة دائماً من غير زيادة ونقيصة ، مع أنّ التغيّرات الكلّيّة فيها ممّا هو اليوم من الواضحات . على أنّ الكتاب والسنة يساعده أيضاً .

والذي أظنّه - والله أعلم - أنّ أصل الخبر ممّا صدر عنه عليه السلام ، لكنّه لم يخل عن تصرّف المتصرّفين فزادوا ونقصوا بما أخرجهم عن استقامته الأصليّة . ويشهد على ذلك النسخ المختلفة العجيبة التي سينقلها المصنّف رحمه الله . فإنّ النسخ يمكن أن تختلف بالكلمة والكلمتين والجملة والجملتين لسهولة من الراوي في ضبطه أو من الكاتب في

استنساخه . وأما بنحو الورقة والورقتين وخمسين سطراً ومائة سطر فمن المستبعد جداً ، إلا أن يستند إلى تصرف عمدي . ومما يشهد على ذلك أيضاً الاندماج وعسر البيان الذي يشاهد في أوائل الخبر وأواسطه . والله أعلم . (ط) .^١

نقل المجلسي رواية «التوحيد» عن محمد بن سنان ، عن المفضل بن عمر أنه قال : كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر ، إلى أن قال : فقال ابن أبي العوجاء لصاحبه : دَعِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَدْ تَحَيَّرَ فِيهِ عَقْلِي ، وَضَلَّ فِي أَمْرِهِ فِكْرِي ، وَحَدَّثْنَا فِي ذِكْرِ الْأَصْلِ الَّذِي يُمَشَى بِهِ !

ثُمَّ ذَكَرَ ابْتِدَاءَ الْأَشْيَاءِ وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِإِهْمَالٍ لَا صَنْعَةَ فِيهِ وَلَا تَقْدِيرَ ، وَلَا صَانِعَ لَهُ وَلَا مُدَبِّرَ ، بَلِ الْأَشْيَاءُ تَتَكَوَّنُ مِنْ ذَاتِهَا بِلَا مُدَبِّرٍ ، وَعَلَى هَذَا كَانَتِ الدُّنْيَا لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ !

قال المفضل : فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً ، فقلت : يا عدو الله ! أألحدت في دين الله ، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم ، وصورك في أتم صورة ، ونقلك في أحوالك حتى بلغ بك إلى حيث انتهيت . فلو تفكرت في نفسك وصدّقتك لطيف حسك ، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة ، وشواهدة جلّ وتقدس في خلقك واضحة ، وبراهينه لك لا تحصى .

فقال : يَا هَذَا ! إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ كَلَّمْنَاكَ ، فَإِنْ تَبَّتْ لَكَ حُجَّةٌ تَبَعْنَاكَ . وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ فَلَا كَلَامَ لَكَ !
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَصْحَابِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ فَمَا هَكَذَا يُخَاطِبُنَا ،

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٥٥ و ٥٦ .

وَلَا بِمِثْلِ دَلِيلِكَ يُجَادِلُنَا . وَلَقَدْ سَمِعَ مِنْ كَلَامِنَا أَكْثَرَ مِمَّا سَمِعْتَ ، فَمَا أَفْحَشَ فِي خُطَابِنَا ، وَلَا تَعَدَّى فِي جَوَابِنَا .

وَإِنَّهُ لِلْحَلِيمِ الرَّزِينِ الْعَاقِلِ الرَّصِينِ ، لَا يَعْتَرِيهِ خُرْقٌ وَلَا طَيْشٌ وَلَا نَزْقٌ . وَيَسْمَعُ كَلَامَنَا وَيُصْغِي إِلَيْنَا وَيَسْتَعْرِفُ حُجَّتَنَا حَتَّى اسْتَفْرَعْنَا مَا عِنْدَنَا وَظَنَّنَا أَنَّا قَدْ قَطَعْنَاهُ أَدْحَضَ حُجَّتَنَا بِكَلَامٍ يَسِيرٍ وَخِطَابٍ قَصِيرٍ يُلْزِمُنَا بِهِ الْحُجَّةَ ، وَيَقْطَعُ الْعُدْرَةَ ، وَلَا نَسْتَطِيعُ لِحُجَابِهِ رَدًّا . فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَخَاطِبُنَا بِمِثْلِ خُطَابِهِ !

قال المفضل : فخرجتُ من المسجد محزوناً مفكراً فيما بلي به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها . فدخلت على مولاي صلوات الله عليه فرآني منكسراً ، فقال : ما لك ؟ فأخبرته بما سمعتُ من الدهريين وبما رددتُ عليهما .

فقال : لألقينّ إليك من حكمة الباري جلّ وعلا وتقدّس اسمه في خلق العالم والسباع والبهائم والطير والهوام ، وكلّ ذي روح من الأنعام ، والنبات والشجرة المثمرة وغير ذات الثمر والحبوب والبقول المأكول من ذلك وغير المأكول ما يعتبر به المعتبرون ، ويسكن إلى معرفته المؤمنون ، ويتحير فيه الملحدون . فبكرتُ عليّ غداً !

قال المفضل : فانصرفت من عنده فرحاً مسروراً وطالت عليّ تلك الليلة انتظاراً لما وعدني به ... إلى أن قال :

فَقَالَ : يَا مُفْضَلُ ! إِنَّ اللَّهَ كَانَ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَهُوَ بَاقٍ وَلَا نِهَآيَةَ لَهُ . فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَلْهَمَنَا ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا مَنَحَنَا ، وَقَدْ خَصَّنَا مِنَ الْعُلُومِ بِأَعْلَاهَا ، وَمِنَ الْمَعَالِي بِأَسَاهَا ، وَاصْطَفَانَا عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ بِعِلْمِهِ ، وَجَعَلَنَا مُهَيِّمِينَ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِهِ !

قال المفضل : فقلتُ : يا مولاي ! أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه ؟!

- وكنْتُ أعددْتُ معي ما أكتب فيه - فقال لي : افعل !^١

وذكر المجلسيّ رضوان الله عليه هنا الخبر بحذافيره مع شرح موجز لبعض المفردات والمطالب . واستوعب الخبر خمساً وتسعين صفحة من القطع الوزيريّ اعتباراً من ص ٥٧ إلى ص ١٥١ . وهو زاخر بنفائس المعاني ودُرر العِلْم والمنطق والعقل والدراية حقّاً . كما أنه آية بارزة على ربوبيّة الحقّ جلّ وعزّ ووحدته في مظاهر عالم الإمكان جميعها . وقد سُردَ بنحوٍ مستدلّ لطيف حتّى أنّ البصر لا يشبع من مطالعته ، والبصيرة لا ترتوي من درايته . من هنا أمر السيّد ابن طاووس أعلى الله درجته بمطالعه وملازمته . ومن هنا أيضاً ترجمه المجلسيّ إلى الفارسيّة ، وصنّفه في رسالة مستقلّة ، أُعيد طبعها مراراً . ومن هنا أيضاً طُبِع ذلك الكُرّاس من «البحار» باللّغة العربيّة مستقلّاً وأصبح في متناول أيدي العامّة من العرب والعجم .

وما كان أحسن أن نُورد الرسالة كلّها هنا ، بيّد أنّه متعذّر بسبب تفصيلها وضيق هذه المجموعة عن استيعابها . ويبدو أنّ اختيار بعض الفقرات دون بعض أمر لا مبرّر له . لهذا تأسّيّاً بالعالم الجليل والحبر النبيل الشيخ محمّد حسين المظفر نكتفي بما يأتي :

قال في كتاب «الإمام الصادق عليه السلام» : حقّاً لقد ألقى الصادق عليه السلام على المفضّل من البيان ما أنار به الحجّة ، وأوضح الشبهة ، ولم يدع للشكّ مجالاً ، وللشبهة سبيلاً . وأبدى من الكلام عن بدائع خلائقه ، وغرائب صنائعه ما تحار منه الألباب ، وتدهش منه العقول . وأظهر من خفايا حكّمه ما لا يهتدي إلاّ أمثاله ممّن أُوتي الحكمة وفصل الخطاب .

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٥٧ إلى ٥٩ ، الباب ٤ : الخبر المشتهر بتوحيد المفضّل

ابن عمر .

وكَلِّمًا حاولت أن أنتخب فصولاً خاصّة من تلك البدائع لم أطق ، لأنّي أجدها كلّها منتخبة ، وأن أقتطف من كلّ روضة زهرتها اليانعة لم أستطع ، لأنّي أراها كلّها وردة واحدة في اللون والعرف . فما رأيتُ إلا أن أذكر من كلّ فصل أوّله ، وأشير إلى شيءٍ منه ، والفصول أربعة :

- ١ -

قال عليه السلام بعد أن ذكر عمى الملحدين وأسباب شكّهم وتهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه وانتظامها . نبتدئ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به ! فأوّل ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة^١ . حيث لا حيلة عنده في طلب غذاه ، ولا دفع أذّي ، ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة . فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات . فلا يزال ذلك غذاءه حتّى إذا كمل خلقه ، واستحكم بدنه ، وقوي أديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقة الضياء ، هاج الطلق بأمّه فأزعجه أشدّ إزعاج وأعنفه حتّى يولد .

وإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثديها . فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء ، وهو أشدّ موافقة للمولود من الدم ، فيوافيه في وقت حاجته إليه . فحين يولد قد تلمّظ وحرك شفّتيه طلباً للرضاع . فهو يجد ثدي أمّه كالأدواتين المعلّقتين لحاجته إليه ، فلا يزال يغتذي باللبن مادام رطب البدن رقيق الأمعاء ليّن الأعضاء ، حتّى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتدّ ويقوى بدنه طلعت له الطواحن

١- المشيمة كيس لحمي يكون فيه الجنين ، وهو بمنزلة الثوب له .

من الأسنان والأضراس ، ليمضغ بها الطعام فيلين عليه وتسهل له إساغته .
فلا يزال كذلك حتى يدرك . فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في
وجهه ، فكان ذلك علامة الذّكر وعزّ الرجل الذي يخرج به من حدّ الصبيّ
وشبه النساء . وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقيّاً من الشعر لتبقى لها البهجة
والنضارة التي تحرّك الرجال لما فيه دوام النسل وبقاؤه .

اعتبر يا مُفضّل فيما يدبّر الإنسان في هذا الأحوال المختلفة . هل
ترى يمكن أن يكون بالإهمال؟! أفرايت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في
الرحم ، ألم يكن سيدوي ويجفّ كما يجفّ النبات إذا فقد الماء؟! ولو
لم يزعجه المخاض عند استحكامه ، ألم يكن سيبقى في الرحم كالموؤد في
الأرض؟! ولو لم يوافق اللبن مع ولادته ، ألم يكن سيموت جوعاً أو
يغتذي بغذاء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه!! ولو لم تطلع عليه الأسنان في
وقتها ، ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام وإساغته؟! أو يقيمه على الرضاع
فلا يشدّ بدنه ولا يصلح لعمل ، ثمّ كان تشتغل أمّه بنفسه عن تربية غيره من
الأولاد؟

ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ، ألم يكن سيبقى في هيئة
الصبيان والنساء ، فلا ترى له جلالاً ولا وقاراً؟! فمن هذا الذي يرصده حتى
يوافيه بكلّ شيء من هذه المآرب إلّا الذي أنشأه خلقاً بعد أن لم يكن ، ثمّ
توكّل له بمصلحته بعد أن كان . فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد
يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال ، لأنّهما ضدّ
الإهمال . وهذا فظيغ من القول وجهل من قائله ، لأنّ الإهمال لا يأتي
بالصواب ، والتضادّ لا يأتي بالنظام تعالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُلْحِدُونَ عُلُوّاً
كبيراً .

قال المظفر: إنّ الإهمال دوماً يأتي بالخطأ كما نشاهده عياناً . رأيت

لو وجّهت الماء إلى الزرع ، وأهملت تقسيمه على الألواح ، أيسقي الألواح كلّها من دون خلل؟! أو إذا نثرت البذر في الأرض من دون مناسبة ، أ يخرج الزرع بانتظام ، أو إذا جمعت قطعاً من خشب وواصلتها بمسامير ، أتكون كرسيّاً أو باباً من دون تنسيق!؟

ثمّ قال عليه السلام : ولو كان المولود يولد فهمّاً عاقلاً لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف ، وورد عليه ما لم يَرَ مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطيور إلى غير ذلك ممّا يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم ، واعتبر ذلك بأنّ من سبي من بلد إلى بلد وهو عاقل يكون كالواله الحيران فلا يسرع في تعلّم الكلام وقبول الأدب كما يسرع الذي يُسبى صغيراً غير عاقل .

ثمّ لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصباً بالخرق مسجّى في المهد ، لأنّه لا يستغني عن هذا كلّه لرقّة بدنه ورطوبته حين يولد . ثمّ كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل . فصار يخرج إلى الدنيا غيبياً غافلاً عمّا فيه أهله فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة . ثمّ لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً وشيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال ، حتّى يألّف الأشياء ويتمرّن ويستمرّ عليها ، فيخرج من حدّ التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرّف والاضطراب في المعاش بعقله وحيلته ، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية . وفي هذا أيضاً وجوه أُخر . فإنّه لو كان يولد تامّ العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد ، وما قدّر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة ، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافاة بالبرّ والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم . ثمّ كان الأولاد لا يألّفون آباءهم ولا يألّف الآباء أبناءهم ، لأنّ الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء

وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون ، فلا يعرف الرجل أباه وأمه ، ولا يمتنع من نكاح أمه وأخته وذوات المحارم منه ، إذ لا يعرفهن . وأقل ما في ذلك من القباحة ، بل هو أشنع ، وأعظم ، وأفظع ، وأقبح ، وأبشع لو خرج المولود من بطن أمه وهو يعقل أن يرى منها ما لا يحل له ، ولا يحسر به أن يراه . (عورة الأم) . أفلا ترى كيف أُقيم كل شيء من الخلق على غاية الصواب وخلا من الخطأ دقيقه وجليله !؟

قال المظفر : إنّ بعض هذا البيان البديع من الإمام عن تدرج الإنسان في نموه ، ونموه في أوقاته كافٍ في حكم العقل بأن له صناعاً صنعه عن علم ، وحكمة ، وتقدير ، وتدبير . ثم إنّ الصادق عليه السلام جعل يذكر فوائد البكاء للأطفال من التجفيف لرطوبة الدماغ ، وإنّ في بقاء الرطوبة خطراً على البصر والبدن .

ثم ساق البيان إلى جعل آلات الجماع في الذكر والأنثى على ما يشاكل أحدهما الآخر . ثم ذكر أعضاء البدن والحكمة في جعل كل منها على الشكل الموجود .

وها هنا يقول له المفضل : **يَا مَوْلَايَ !** إنّ قوماً يزعمون أنّ هذا من فعل الطبيعة ، فيقول له الإمام : سلهم عن هذه الطبيعة أهى شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال ، أم ليست كذلك؟! فإن أوجبوا لها العلم والقدرة ، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإنّ هذه صفته . وإن زعموا أنّها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد ، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، علم أنّ هذا الفعل للخالق الحكيم ، وأنّ الذي سمّوه طبيعة هو سنة في خلقه الجارية على ما أجراه عليه .

قال المظفر : انظر إلى قول أهل الطبيعة فإنهم جروا على نسق واحد من عهد الصادق عليه السلام إلى اليوم ، وكأنّهم لم يتعقلوا هذا الجواب

القاطع لحججهم أو أغضوا عنه إصراراً على العناد والجحود .
 إنّ الإمام عليه السلام حصر الطبيعة بين اثنين لا ثالث لهما ، وذلك
 لأنها إمّا تكون ذات علم وحكمة وقدرة ، أو تكون خالية عن ذلك كلّ . فإن
 كان الأوّل فهي ما نشبته للخالق ، ولا فارق إذن بينهم وبيننا إلا التسمية . وإن
 كان الثاني كان اللازم أن تكون آثارها مضطربة لا تقدير فيها ولا تدبير ،
 شأن من لا يعقل ويبصر ويسمع في أفعاله ، ولكننا نشاهد الآثار مبنية على
 العلم ، والحكمة ، والقدرة ، والتقدير . فلا تكون إذن من فعل الطبيعة
 العمياء الصمّاء ، وكانت الطبيعة غير الله العالم القادر المدبّر ، ولا تكون
 الطبيعة إذن إلا ستته في خلقه ، لا شيء آخر له كيان مستقلّ عن خالق
 الكون .

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام عاد إلى كلامه الأوّل ، فتكلّم عن وصول
 الغذاء إلى البدن وكيفية انتقال صفوه من المعدة إلى الكبد في عروق رقاق
 واشجة بينها قد جعلت كالمصفاى لغذاء ، ثمّ صيرورته دماً ونفوذته إلى البدن
 كلّ في مجارى مهية لذلك ، ثمّ كيفية تقسيمه في البدن وبروز الفضلة منه .
 فكأنّما الإمام كان الطيب النطاسي الذي لم يماثله أحد في الطبّ ، والعالم
 الماهر في التشريح الذي قضى عمره في عملية التشريح ، بل كشف الإمام
 في هذا البيان الدورة الدموية التي يتغنى الغرييون باكتشافها . وقد سبقهم
 إليها بما يقارب اثني عشر قرناً^١ . ثمّ ساق كلامه إلى نشوء الأبدان ونموّها

١- لفظ الإمام الصادق عليه السلام : ثمّ إنّ الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً
 وينفذ إلى البدن كلّ في مجاري مهية لذلك ، بمنزلة المجاري التي تهياً للماء حتّى يطردي
 الأرض كلّها . وينفذ ما يخرج من الخبث والفضول إلى مفاض قد أعدت لذلك إلى
 آخره .

من الحرّي بالعلم أنّ في كلامه عليه السلام نقاطاً تُميط اللثام عن الدورة الدموية ⇨

حالا بعد حال ، وما شرف الله به الإنسان من الميزة في الخلقه على البهائم ، ثم استطرد الكلام إلى الحواس التي خص الله بها الإنسان وفوائد جعلها على النحو الموجود ، واختصاص كل منها بأثر لا تؤدّيه الثانية .

وهكذا يفيض في بيانه عن الأعضاء المفردة والمزدوجة والأسباب التي من أجلها جعلها على هذا التركيب . إلى أن يطرد في بيانه عمّا منحه الجليل من النعم في المطعم والمشرب ، وما جعل فيه من التمايز في الخلقه حتى لا يشبه أحد الآخر .

إلى أن يقول عليه السلام : لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط فقال لك قائل : إنّ هذا ظهرها هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع ، أكنت تقبل ذلك ؟ بل كنت تستهزئ به ، فكيف تنكر هذا في تمثال مصوّر جماد ، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق ؟!

قال المظفر : ما أقواها حجّة ، وأسماء بياناً ، وإنّ كلّ ناظرٍ فيه من أهل كلّ قرن يكاد أن يقول : إنّ أتى به لأهل زمانه وقرنه في الحجّة والأسلوب لما يجده من ملائمة البيان والبرهان .

⇨ التي اكتشفها العالم الإنجليزي وليم هارفي William Harvey (وُلد سنة ١٥٧٨م وتوفي سنة ١٧٥٦م). لقد تحدّث الإمام عليه السلام هنا مفصلاً عن دوران الدم في الشرايين والأوردة التي يكون القلب مركزها . لهذا يتسنّى لنا أن نقول بجرأة : إنّ أوّل مكتشفٍ للدورة الدموية هو الإمام عليه السلام . وكان الأطباء جميعهم يعتقدون أنّ توزيع الدم في الجسم يجري بصورة الشجر وأغصانه وأوراقه . وأنّ الدم في هذه الأوردة الكبيرة والصغيرة حتّى العروق الشعرية ثابت غير متحرك . والإمام الصادق عليه السلام بيانه هذا قد وضح وشرح بأنّ شجرية الدم غير صحيحة ، بل الصحيح هو دوران الدم . (نقلنا كلام الإمام عن «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٦٨).

- ٢ -

ثمّ إنّ في اليوم الثاني أورد على المفضّل الفصل الثاني ، وهو في خلقه الحيوان ، فقال عليه السلام : أبتدئ لك بذكر الحيوان ليّتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره . فكّر في أبنية أبدان الحيوان وتهيئتها على ما هي عليه ، فلا هي صلاب كالحجارة ، ولو كانت كذلك لا تنشني ولا تتصرّف في الأعمال ، ولا هي على غاية اللين والرخاوة ، فكانت لا تتحمل ولا تستقلّ بأنفسها ، فجعلت من لحم رخو ينشني تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشدّه وتضمّ بعضه إلى بعض ، وعليت فوق ذلك بجلدٍ يشتمل على البدن كلّه .

ومن أشباه ذلك هذه التماثيل التي تُعمل من العيدان ، وتلفّ بالخرق ، وتشدّ بالخيوط ، ويطلّى فوق ذلك بالصمغ ، فتكون العيدان بمنزلة العظام ، والخرق بمنزلة اللحم ، والخيوط بمنزلة العصب والعروق ، والطلاء بمنزلة الجلد . فإن جاز أن يكون الحيوان المتحرّك حدث بالإهمال من غير صانع ، جاز أن يكون ذلك في هذه التماثيل الميّتة . فإن كان هذا غير جائز في التماثيل فبالحرّيّ الآلّا يجوز في الحيوان .

وفكّر بعد هذا في أجساد الأنعام فإنّها خُلقت على أبدان الإنس من اللحم والعظم والعصب ، أعطيت أيضاً السمع والبصر ، ليبلغ الإنسان حاجياته منها . ولو كانت عمياً صمّاً لما انتفع بها الإنسان ، ولا تصرّفت في شيء من مآربه . ثمّ منعت الذهن والعقل لتندلّ للإنسان ، فلا تمتنع عليه إذا كدّها الكدّ الشديد ، وحملها الحمل الثقيل .

فإن قال قائل : إنّ قد يكون للإنسان عبيد من الإنس يذّلون ويذعنون بالكّد الشديد ، وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن . فيقال في جواب ذلك : إنّ هذا الصنف من الناس قليل . فأما أكثر البشر ، فلا يذعنون بما

تذعن به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك ، ولا يقومون بما يحتاجون إليه منه . ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال ، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد إلى عدة أناسي . فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل لشيء من الصناعات ، مع ما يلحقه من التعب الفادح في أبدانهم والضييق والكّد في معاشهم .

ثم إنه عليه السلام أخذ يذكر المميّزات لكلّ نوع من الأنواع الثلاثة للحيوان وهي : الإنسان ، وآكلات اللحوم ، وآكلات النبات ، وما يقتضي كلّ نوع منها حاجته من كميّة الأعضاء والجوارح ، فيأتيك بلطائف الحكمة ، وبدائع القدرة ، ومحاسن الطبيعة .

ويدلّك على الحكمة في جعل العينين في وجه الدابة شاخصتين ، والفم مشقوقاً شقاً في أسفل الخطم ، ولم يجعل كفم الإنسان ، إلى غير ذلك من خصوصيات الأعضاء والجوارح .

ويرشدك إلى الفطنة في بعضها اهتداءً لمصلحته كما تمنع الأيّل الأكل للحيات عن شرب الماء ، لأنّ شرب الماء يقتله^١ . واستلقاء الثعلب على ظهره ونفخ بطنه إذا جاع ، حتى تحسبه الطير ميتاً . فإذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها ، إلى غيرهما من الحيوانات ، فيقول الصادق عليه السلام : من

١- هذا الحيوان كما جاء في الرواية هو الأيّل بفتح الهمزة وتشديد الياء وجمعه أيائل . ويشبهه حيوان من ذوات الظلف ، لذكره قرون متشعبة غير مجوّفة ، وليس لأنثاه قرون . في رواية المفضل يقول الإمام عليه السلام : فإنّ الأيّل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع من شرب الماء خوفاً من أن يدبّ السمّ في جسمه فيقتله . ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً ، فيعجّ عجيجاً عالياً ولا يشرب منه ، ولو شرب لمات من ساعته . («أنوار الأنوار» ج ٣ ، ص ١٠٠) .

جعل هذه الحيلة طبعاً في هذه البهيمة لبعض المصلحة؟! ثمّ إنّ عليه السلام تعرّض في كلامه للذّرة ، والنملة ، والليث وتسمّيه العائمة أسد الذباب ، وتمام خلقة الذّرة مع صغر حجمها ، والنملة وما تهتدي إليه لاقتناء قوتها ، والليث وما يهتدي إليه في اصطياد الذباب ، ثمّ يقول : فانظر إلى هذه الدويبة كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الإنسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات ! فلا تزدر بالشيء إذا كانت العبرة فيه واضحة كالذّرة والنملة وما أشبه ذلك ، فإنّ المعنى النفيس قد يمثّل بالشيء الحقير فلا يضع منه ذلك ، كما لا يضع من الدينار وهو ذهب أن يوزن بمثقال من حديد .

ثمّ إنّ عليه السلام استطرد ذكر الطائر وكيف خفّف جسمه وأدمج خلقه وجعل له جؤجؤاً ليسهل عليه أن يخرق الهواء إلى غير ذلك من خصوصيّات خلقته ، والحكمة في خلق تلك الخصوصيّات . وهكذا يستطرد الحكمة في خصوصيّات خلقة الدجاجة ، ثمّ العصفور ، ثمّ الخفّاش ، ثمّ النحل ، ثمّ الجراد ، وغيرها من صغار الطيور ، وما جعله الله فيها من الطبائع ، والفظن ، والهداية لطلب الرزق ، وما سوى ذلك ممّا فيها من بدائع الخلق .

ثمّ استعرض خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدّر أن يكون عليه . ثمّ يقول عليه السلام : فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين ، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودوابّ الماء والأصداف والأصناف التي لا تُحصى ولا تُعرف منافعها إلاّ الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث ... إلى آخر كلامه ، وبه انتهى هذا الفصل .

قال المظفر : ليس العجب من خالق أمثال هذه الذّرة والدودة وأصناف الأسماك الغريبة التي اختلفت أشكالها ، وتنوّعت الحكمة فيها .

وليس العجب ممّن يهتدي إلى الحكمة في كلّ واحد من تلك المصنوعات بعد وجودها وتكوينها ، وإنّما العجب ممّن ينكر فاطر السماوات والأرضين وما فيهنّ وبينهنّ مع إتقان الصنعة ، وإحكام الخلق ، وبداعة التركيب . ولو نظر الجاحد إلى نفسه مع غريب الصنع وتمام الخلق لكان أكبر برهان على الوجود ووحدانية الموجود .

- ٣ -

ثمّ بكرّ المفضّل في اليوم الثالث ، فقال له الصادق عليه السلام : قد شرحت لك يا مفضّل خلق الإنسان وما دبّر به ، وتنقله في أحواله ، وما فيه من الاعتبار ، وشرحت لك أمر الحيوان . وأنا أبتدئ الآن بذكر السماء ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والفلك ، والليل ، والنهار ، والحرّ ، والبرد ، والرياح ، والمطر ، والصخر ، والجبال ، والطين ، والحجارة ، والمعادن ، والنبات ، والنخل ، والشجر ، وما في ذلك من الأدلّة والعبر .

فكرّ في لون السماء وما فيه من صواب التدبير ، فإنّ هذا اللون أشدّ الألوان موافقة وتقوية للبصر ، حتّى أنّ من وصفات الأطباء لمن أصابه شيء أضرّ ببصره إدمان النظر إلى الخضرة ، وما قرب منها إلى السواد . وقد وصف الحدّاق منهم لمن كلّ بصره الاطلاع في إجانة خضراء مملوءة ماءً . فانظر كيف جعل الله جلّ وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ، ليمسك الأبصار المنقلبة عليه ، فلا تنكأ فيها بطول مباشرتها له ، فصار هذا الذي أدركه الناس بالفكر والروية والتجارب يوجد مفروغاً عنه في الخلق ، حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون ، ويفكرّ فيها الملحدون .
قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ^١

١- الآية ٣٠ ، من السورة ٩ : التوبة؛ والآية ٤ ، من السورة ٦٣ : المنافقون.

فكّر يا مفضّل في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار . فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه ، فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ، وينصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ، ولم يكن يتهنّون بالعيش مع فقدهم لذّة النور وروحه . والأرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطئاب في ذكره ، والزيادة في شرحه . بل تأمل المنفعة في غروبها . فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم ، ووجوم حواسهم ، وانبعاث القوّة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثمّ كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم . فإنّ كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار حرصاً على الكسب والجمع والادّخار .

ثمّ كانت الأرض تستحي بدوام الشمس ضياءها ، وتحمي كلّ ما عليها من حيوان ونبات . فقدرها الله بحكمته وتدييره ، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً ، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ، ثمّ يغيب عنهم مثل ذلك ليهدأوا ويقرّوا ، فصار النور والظلمة مع تضادّهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

إلى أن يقول عليه السلام في آخر هذا الفصل : فكّر في هذه العقاقير وما خصّ بها كلّ واحد منها من العمل في بعض الأدواء . فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول مثل الشيطرج ، وهذا ينزف المرّة السوداء مثل الأفتيمون ، وهذا ينفي الرياح مثل السكبينج ، وهذا يحلّل الأورام وأشباه هذا من أفعالها . فمن جعل هذه القوى فيها إلّا من خلقها للمنفعة؟! ومن فطن الناس بها إلّا من جعل هذا فيها؟!

إلى أن يقول : واعلم أنّه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته ، بل

هما قيمتان مختلفتان بسوقين . وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيساً في سوق العلم . فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته . فلو فطن طالبو الكيمياء لما في العذرة لاشتروها بأنفس الأثمان وغالوا بها .

- ٤ -

ثم إنَّ المفضَّل بكَرِّ إليه في اليوم الرابع ، فقال له الصادق عليه السلام : يا مفضَّل ! قد شرحتُ لك من الأدلَّة على الخلق والشواهد على صواب التدبير والعمد في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والشجر ، وغير ذلك ما فيه عبرة لمن اعتبر !

وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها أناس من الجهَّال ذريعة إلى جحود الخالق والخلق والعمد والتدبير ، وما أنكرت المعطَّلة والمانويَّة^١ من المكاره والمصائب ، وما أنكروه من

١- المعطَّلة كما عرّفهم الإمام عليه السلام في كلامه هنا هم بعض الملاحدة الذين راموا أن يدركوا بالحسّ ما لا يدرك بالعقل . فلما أعوزهم ذلك ، خرجوا إلى الجحود والتكذيب ، فقالوا : ولم لا يدرك بالعقل ؟ قيل : لأنّه فوق مرتبة العقل ، كما لا يدرك البصر ماهو فوق مرتبته . فإنك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت أنّ رامياً رمى به . فليس هذا العلم من قبل البصر ، بل من قبل العقل ، لأنّ العقل هو الذي يميّزه ، فيعلم أنّ الحجر لا يذهب علوّاً من تلقاء نفسه . أفلا ترى كيف وقف البصر على حدّه ، فلم يتجاوزه . فكذلك يقف العقل على حدّه من معرفة الخالق فلا يعدوه ، ولكن يعقله بعقل أقرّ أنّ فيه نفساً ولم يعاينها ، ولم يدركها بحاسة من الحواس . وعلى حسب هذا أيضاً أنّ العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ، ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته - انتهى كلام الإمام («توحيد المفضَّل» ص ١١٧ و ١١٨ ، طبعة بيروت ، مؤسّسة الوفاء ، الطبعة الثانية) .

وقال الشيخ كاظم المظفر في تعليقه على هذه الطبعة ، ص ١٠ و ١١ : المانويّة هم أصحاب الحكيم الفارسيّ ماني بن فاتك الذي ظهر في أيام سابور ثاني ملوك الدولة ⇨

الموت والفناء ، وما قاله أصحاب الطبائع ، ومن زعم أن كون الأشياء بالعرض والاتفاق ليتسع ذلك القول في الردّ عليهم ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^١.

اتَّخَذَ أَنَاسٌ مِنَ الْجَهَّالِ هَذِهِ الْآفَاتِ الْحَادِثَةَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ كَمَثَلِ الْوَبَاءِ وَالْيَرْقَانِ وَالْبَرْدِ وَالْجَرَادِ ذَرِيْعَةً إِلَى جُحُودِ الْخَلْقِ وَالتَّدْيِيرِ وَالْخَالِقِ . فيقال في جواب ذلك : إنّه إن لم يكن خالق ومدبّر ، فَلِمَ لا يكون ما هو أكثر من هذا وأفظع ؟! فمن ذلك أن تسقط السماء على الأرض ، وتهوى الأرض فتذهب سفلاً ، وتتخلّف الشمس عن الطلوع أصلاً ، وتجفّ الأنهار والعيون حتّى لا يوجد ماء للشفة ، وتركد الرياح حتّى تحمّ الأشياء وتفسد ، ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها !

ثمّ هذه الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما أشبه ذلك ، ما بالها لا تدوم وتمتدّ حتّى تجتاح كلّ ما في العالم ، بل تحدث في الأحايين ، ثمّ لا تلبث أن ترفع ؟! أفلا ترى أنّ العالم يَصان ويحفظ من تلك الأحداث الجليّة التي لو حدث عليه شيء منها كان فيه بواره ، ويلدغ أحياناً بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ، ثمّ لا تدوم هذه الآفات ، بل

⇨ الساسانيّة. ومذهبه مزيج من المجوسيّة والنصرانيّة. وقد تبعه في معتقده خلق كثير، وبقي قسم كبير منهم في الدور العبّاسيّ الأوّل ثمّ تسرّبت آراؤه إلى أوروبا وبقية الأقطار الآسيويّة. وماني هذا كان راهباً بحرّان. ولد حوالي سنة ٢١٥ م وقتله بعدئذٍ بهرام بن هرمز (انظر في ذلك: «الملل والنحل» للشهرستاني، ج ٢، ص ٨١؛ و«مروج الذهب» ج ١، ص ١٥٥؛ و«الفهرست» ص ٤٥٦؛ و«معرب الشاهنامه» ج ٢، ص ٧١؛ و«الفرق بين الفرق» ص ١٦٢ و ٢٠٧؛ و«الأثار الباقية» للبيروني، ص ٢٠٧؛ و«تاريخ الفكر العربي» لإسماعيل مظهر، ص ٣٩؛ و«حرّيّة الفكر» لسلامة موسى، ص ٥٥).

١- الآية ٣٠، من السورة ٩: التوبة؛ والآية ٤، من السورة ٦٣: المنافقون.

تكشف عنهم عند القنوط منهم ، فيكون وقوعها بهم موعظة ، وكشفها عنهم رحمة ؟!

وقد أنكرت المعطلة ما أنكرت المانوية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس ، فكلاهما يقول : إن كان للعالم خالق رؤوف رحيم ، فلم يحدث فيه هذه الأمور المكروهة ؟! والقائل بهذا القول يذهب به إلى أنه ينبغي أن يكون عيش الإنسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر . ولو كان هكذا كان الإنسان يخرج من الأشرّ والعتوّ إلى ما لا يصلح في دين ودنيا ، كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والأمن يخرجون إليه ، حتى أن أحدهم ينسى أنه بشراً وأته مربوب أو أن ضرراً يمسه أو أن مكروهاً ينزل به ، أو أنه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً ، أو يواسي فقيراً ، أو يرثي لمبتلى ، أو يتحنن على ضعيف ، أو يتعطف على مكروب .

فإذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وأبصر كثيراً ممّا كان جهله وغفل عنه ، ورجع إلى كثير ممّا كان يجب عليه . والمنكرون لهذه الأدوية المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرّة البشعة ، ويتسخطون من المنع من الأطعمة الضارّة ، ويتكروهون الأدب والعمل ، ويحبّون أن يتفرّغوا للهو والبطالة ، وينالوا كلّ مطعم ومشرب ، ولا يعرفون ما تؤدّيهم إلى البطالة من سوء النشو والعادة ، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارّة من الأدواء والأسقام ، وما لهم في الأدب من الصلاح ، وفي الأدوية من المنفعة ، وإن شاب ذلك بعض المكاره .^١

١- قال الإمام الصادق عليه السلام في آخر خبر المفضل : فأما أصحاب الطبايع فقالوا: إنّ الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا تتجاوز عمّا فيه تمام الشيء في طبيعته ، وزعموا أنّ الحكمة تشهد بذلك . فقيل لهم : فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة والوقوف

قال المظفر : وعلى هذا ومثله مثل الصادق عليه السلام أقوال أولئك الملحدّين في شأن الآفات وأجاب عنها بنّير البرهان ، إلى أن انتهى في البيان إلى ذات الخالق تعالى في شبه الملحدّين ، فقال : وإنّه كيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ولا يحيط به ؟

فيقول في الجواب : إنّما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه ، ولم يكلفوا الإحاطة بصفته ، كما أنّ الملك لا يكلف رعيّته أن يعلموا أطويل هو أم قصير ، أبيض هو أم

على حدود الأشياء بلا مجاوزة لها، وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب؟! فإن أوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال، فقد أقرّوا بما أنكروا، لأنّ هذه هي صفات الخالق. وإن أنكروا أن يكون هذا للطبيعة، فهذا وجه الخلق يهتف بأنّ الفعل للخالق الحكيم. وقد كان من القدماء طائفة أنكروا العمد والتدبير في الأشياء، وزعموا أنّ كونها بالعرض والاتّفاق، وكان ممّا احتجّوا به هذه الآفات التي تلد غير مجرى العرف والعادة كالإنسان يولد ناقصاً أو زائداً أصبغاً، أو يكون المولود مشوّهاً مبدل الخلق، فجعلوا هذا دليلاً على أنّ كون الأشياء ليس بعمد وتقدير، بل بالعرض كيف ما اتّفق أن يكون. وقد كان أرسطاطاليس ردّ عليهم فقال: إنّ الذي يكون بالعرض والاتّفاق إنّما هو شيء يأتي في الفرط مرّة لأعراض تعرض للطبيعة فتزيلها عن سبيلها، وليس بمنزلة الأمور الطبيعيّة الجارية على شكل واحد جرياً دائماً متتابعاً. («بحار الأنوار» ج ٣، ص ١٤٩).

قال الشيخ كاظم المظفر في هامش ص ١٢١ من «توحيد المفضّل» المطبوع في بيروت: أرسطاطاليس لفظة يونانيّة معناها محبّ الحكمة. ويقال : أرسطو. وهو إحدى الشخصيات العالميّة التي اشتهرت منذ قرون بعيدة. كان تلميذاً لأفلاطون بعد أن خلفه على دار التعليم عند غيبته إلى صقلية. نظر في الفلسفة بعد أن أتى عليه من العمر ٣٠ عاماً. كان بليغ اليونانيين وأجلّ علمائهم، كما كان من ذوي الأفكار العالية في الفلسفة، ويعرف بالمعلّم الأوّل، لأنّه أوّل من جمع علم المنطق وربّبه واخترع فيه. وقد عظم محلّه عند الملوك حتّى أنّ الإسكندر الأكبر كان يمضي الأمور عن رأيه. عاش سبعاً وستين سنة، بعد أن توفّي في خلكيس عام ٣٢٢ ق. م، وله كتب كثيرة في مختلف العلوم.

أسمر . وإنما يكلفهم الإذعان بسلطانه والانتهاه إلى أمره . ألا ترى أن رجلاً لو أتى إلى باب الملك ، فقال : اعرض عَلَيَّ نفسك حتى اتقَصَى معرفتك ، وإلا لم أسمع لك ، كان قد أحلّ نفسه العقوبة . فكذا القائل إنه لا يقترّ بالخالق سبحانه حتى يحيط بكنهه متعرّض لسخطه .

قال المظفر : وعلى مثل هذا البديع من البيان ، والساطع من البرهان ، أتّم الصادق عليه السلام دروسه التي ألقاها على المفضل بن عمر ، فقال في آخر كلامه : يَا مُفْضَلُ ! خُذْ مَا أُتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، وَلَا لِآئِهِ مِنَ الْحَامِدِينَ ، وَلَا لِوَلِيَّائِهِ مِنَ الْمُطِيعِينَ . فقد شرحتُ لك من الأدلة على الخلق والشواهد على صواب التدبير والعمد قليلاً من كثير وجزءاً من كل ، فتدبّره ! وفكر فيه ! واعتبر به !

يقول المفضل : فانصرفت من عند مولاي بما لم ينصرف أحد بمثله ^١ .

قال المظفر : حقيق بأن يغتنم أرباب المعارف جلائل هذه الحكّم كما اغتنمها المفضل ، فقد أوضح فيها أبو عبد الله من حكّم الأسرار وأسرار الحكّم ما خفي على الكثير علمه وصعب على الناس فهمه . وهذه الدروس كما دلّتنا على الحكيم في صنائعه تعالى أرشدتنا إلى إحاطته عليه السلام بفلسفة الخلقة ، بل تراه في هذه الدروس فيلسوفاً إلهياً ، وعالماً كلامياً ، وطبيباً نطاسياً ، ومحللاً كيميائياً ، ومشرّحاً فنياً ، وفناناً في

١- قال في الهامش : طُبع هذا التوحيد المعروف بـ«توحيد المفضل» عدّة مرّات . ورواه في «بحار الأنوار» ١٧/٢٠ إلى ٤٧ . وكانت الطبقات كلّها غير خالية من الغلط المطبعي ، فكان النقل عنه بعد التدبّر والتطبيق . وأصحّها طبعاً ما طُبع في المطبعة الحيدريّة في سنة ١٣٦٩ هـ . والشواهد على نسبة هذا التوحيد إلى الصادق عليه السلام كثيرة ، ليس هذا محلّ ذكرها .

الزراعة والغرس ، وعالمًا بما بين السماء والأرض من مخلوقاته ، وقادرًا على التعبير عن أسرار الحكم في ذلك الخلق !^١
 ذكر المجلسي رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» في آخر هذا الحديث بعد قول الإمام عليه السلام للمفضّل : فتدبره ! وفكر فيه ! واعتبر به ! أنّ المفضّل قال :

بِمَعُونَتِكَ يَا مَوْلَايَ أَقْوَى عَلَى ذَلِكَ وَأَبْلُغُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي فَقَالَ : أَحْفَظْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَلَا تَنْسَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ!
 فَخَرَزْتُ مَعْشِيًا عَلَيَّ فَلَمَّا أَفَقْتُ قَالَ : كَيْفَ تَرَى نَفْسَكَ يَا مُفْضَلُ؟!
 فَقُلْتُ : قَدْ اسْتَعْنَيْتُ بِمَعُونَةِ مَوْلَايَ وَتَأْيِيدِهِ عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتَهُ ، وَصَارَ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيَّ كَأَنَّمَا أَقْرَأَهُ مِنْ كَفِّي ! وَلِمَوْلَايَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحَقُّهُ !

فقال عليه السلام : يَا مُفْضَلُ ! فَرَّغْ قَلْبَكَ وَاجْمَعْ إِلَيْكَ ذِهْنَكَ وَعَقْلَكَ وَطَمَأْنِئْتِكَ ! فَسَأَلْتَنِي إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ مَلَكَوَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا وَفِيهِمَا مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِهِ وَأَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ وَصُفُوفِهِمْ وَمَقَامَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَسَائِرِ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى وَمَا تَحْتَ الثَّرَى حَتَّى يَكُونَ مَا وَعَيْنُهُ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ .

انصرفت إذا شئت مصاحباً مكلوئاً ! فأنت منا بالمكان الرفيع ، وموضعتك من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى ! ولا تسألن عما وعدتك حتى أحدث لك منه ذكراً !

١- «الإمام الصادق» للشيخ محمد حسين المظفر، ج ١، ص ١٥٠ إلى ١٦٤، مؤسسة النشر الإسلامي .

قال المفضّل : فانصرفت من عند مولاي بما لم ينصرف أحد بمثله !
قال المجلسي في آخر هذا الخبر : ثم اعلم أنّ بعض تلك الفقرات
تومئ إلى تجرّد النفس ، وَاللّهُ يَعْلَمُ وَحُجْبُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .
قال أستاذنا الأكرم سماحة العلامة الطباطبائي قدّس الله تربته في
تعليقه على كلام المجلسي : بل إلى وجود أمورٍ أُخرى غير النفس
مجرّدة كما يشعر به قوله عليه السلام : وَكَذَلِكَ الْأُمُورُ الرُّوحَانِيَّةُ اللَّطِيفَةُ .
ومنه يظهر أنّ وصف شيء بأنّه روحانيّ أو لطيف في الأخبار يُشعر
بتجرّده . (ط) .^١

إنّ ما ذكرناه هنا بحمد الله ومنّه يدور حول الخبر المشهور بتوحيد
المفضّل . وما يأتي بعدُ يحوم حول ما رواه العلامة المجلسي رضوان الله
عليه عن المفضّل بن عمر ، عن الإمام الصادق عليه السلام في خبر
«الإهليجة» التي كانت بيد طيب هندي . قال :

الخبر المروي عن المفضّل بن عمر في التوحيد المشتهر بالإهليجة^٢

حدّثني محرز بن سعيد النحويّ بدمشق قال : حدّثني محمّد بن أبي
مسهر^٣ بالرملة ، عن أبيه ، عن جدّه قال : كتب المفضّل بن عمر الجعفيّ إلى

١- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ١٥٠ و ١٥١ . ومن الحرّيّ بالعلم أنّ حديث المفضّل الذي
ذكره المجلسي استوعب خمساً وتسعين صفحة من الجزء الثالث من «البحار» ص ٥٧ إلى
١٥١ .

٢- أشار المستشار عبد الحليم الجنديّ في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٨٦ ، إلى
هذا الحديث في استعمال الإمام عليه السلام الجدل العلميّ لتوعية الشكّاكين .

٣- وفي نسخة : محمّد بن أبي مشتهر .

أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يُعلمه أن أقواماً ظهرُوا من أهل هذه الملة يجحدون الربويّة، ويجادلون على ذلك، ويسأله أن يردّ عليهم قولهم، ويحتجّ عليهم فيما ادّعوا بحسب ما احتجّ به على غيرهم. فكتب أبو عبد الله عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد؛ وفقنا الله وإيتاك لطاعته! وأوجب لنا بذلك رضوانه برحمته! وصل كتابك تذكر فيه ما ظهر في ملتنا، وذلك من قوم من أهل الإلحاد بالربويّة قد كثرت عدّتهم واشتدّت خصومتهم. وتساءل أن أصنع للردّ عليهم والنقض لما في أيديهم كتاباً على نحو ما رددت على غيرهم من أهل البدع والاختلاف.

ونحن نحمد الله على النعم السابعة، والحجج البالغة، والبلاء المحمود عند الخاصّة والعامة (النعمة التي يُثني عليها الخاصّة والعامة ويرونها قريبة منّا هي العلم، أو النعمة التي تصل إلى الخاصّة والعامة من ساحتنا).

فكان من نعمه العظام وآلائه الجسام التي أنعم بها تقريره قلوبهم بربوبيّته، وأخذه ميثاقهم بمعرفته، وإنزاله عليهم كتاباً فيه شفاء لما في الصدور من أمراض الخواطر ومشتبهات الأمور. ولم يدع لهم ولا لشيء من خلقه حاجة إلى من سواه، واستغنى عنهم، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا^١. ولعمري ما أتي الجهال من قبل ربّهم (وما يصيبهم من جميع أقسام الضرر والهلاك فهو من أنفسهم فحسب) وأنهم ليرون الدلالات الواضحات والعلامات البيّنات في خلقهم، وما يعاينون من ملكوت السماوات

١- الآية ١٣١، من السورة ٤: النساء.

والأرض ، والصنع العجيب المتقن الدالّ على الصانع ، ولكنهم قوم فتحوا على أنفسهم أبواب المعاصي ، وسهلوا لها سبيل الشهوات ، فغلبت الأهواء على قلوبهم ، واستحوذ الشيطان بظلمهم عليهم ، وَكَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ^١.

والعجب من مخلوق يزعم أنّ الله يخفي على عباده ، وهو يرى أثر الصنع في نفسه بتركيب يبهر عقله ، وتأليف يبطل حجّته^٢ . ولعمري لو تفكّروا في هذه الأمور العظام لعانوا من أمر التركيب البين ، ولطف التدبير الظاهر ، ووجود الأشياء مخلوقة بعد أن لم تكن ، ثمّ تحوّلها من طبيعة إلى طبيعة ، وصنّعة بعد صنّعة ما يدلّهم ذلك على الصانع فإنّه لا يخلو شيء منها من أن يكون فيه أثر تدبير وتركيب يدلّ على أن له خالقاً مدبّراً ، وتأليف بتدبير يهدي إلى واحد حكيم^٣.

أجل ، هذا الحديث مفصّل أيضاً ، وهو دلالة تامّة على حجّية العقل . ولما كان ذكره بحذافيره لا يناسب كتابنا هذا ، لذا نكتفي هنا بذكر صدره تأسياً بالشيخ العلامة المظفر رحمة الله عليه . قال في كتاب «الإمام الصادق» : الإهليلجة .

سُمّي هذا التوحيد بالإهليلجة لأنّ الصادق عليه السلام كان مناظراً فيه لطبيب هنديّ في إهليلجة كانت بيّد الطبيب . وذلك أنّ المفضّل بن عمر كتب إلى الصادق عليه السلام يخبره أنّ أقواماً ظهروا من أهل هذه الملة

١- في الآية ٧٤ من السورة ١٠ : يونس . كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ . ويستبين من هذا أنّ كلام الإمام عليه السلام بصيغة الغائب اقتباس من الآية المباركة ، لا ذكرها نصّاً .

٢- وفي نسخة : وتأليف يبطل جحوده .

٣- «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ١٥٢ و ١٥٣ .

يجحدون الربوبية ويجادلون على ذلك ، ويسأله أن يردّ عليهم قولهم ويحتجّ عليهم فيما ادّعوا بحسب ما احتجّ به على غيرهم .

فكتب إليه الصادق عليه السلام فيما كتب : وقد وافاني كتابك ورسمت لك كتاباً كنت نازعتُ فيه بعض أهل الأديان من أهل الإنكار . وذلك أنّه كان يحضرني طيب من بلاد الهند ، وكان لا يزال ينازعني في رأيه ويجادلني عن ضلّالته . فبينما هو يوماً يدقّ إهليلجة ليخلطها دواءً احتجت إليه من أدويته إذ عرض له شيء من كلامه الذي لم يزل ينازعني فيه من ادّعائه أنّ الدنيا لم تنزل ولا تزال شجرة تنبت وأخرى تسقط ، ونفس تولد وأخرى تتلف . وزعم أنّ انتحالي المعرفة لله دعوى لا بينة عليها ولا حجة لي فيها ، وأنّ ذلك أمر أخذه الآخر عن الأوّل والأصغر عن الأكبر ، وأنّ الأشياء المختلفة والمؤتلفة والباطنة والظاهرة إنّما تعرف بالحواس الخمس : النظر ، والسمع ، والشمّ ، والذوق ، واللمس . ثمّ قاد منطقته على الأصل الذي وضعه ، فقال : لم يقع شيء من حواسي على خالق يؤدّي إلى قلبي (فلا أستطيع أن أقرّ بالخالق) إنكاراً لله تعالى .

ثمّ قال : أخبرني بم تحتجّ في معرفة ربّك الذي تصف قدرته وربوبيته . وإنّما يعرف القلب الأشياء كلّها بالدلالات التي وصفت لك ؟ قلتُ : بالعقل الذي في قلبي ، والدليل الذي أحتجّ في معرفته ! قال : فأنتي يكون ما تقول وأنت تعرف أنّ القلب لا يعرف شيئاً بغير الحواس ؟! فهل عاينت ربّك ببصر ، أو سمعت صوته بأذن أو شمّمته بنسيم ، أو ذقته بفم ، أو مسسته بيدي ، فأدّى ذلك المعرفة إلى قلبك ؟!

قلتُ : رأيت إذا أنكرت الله وجحدته لأنك زعمت أنّك لا تحسّه بحواسك التي تعرف بها الأشياء وأقررت أنّا به ، هل بدّ من أن يكون أحدنا صادقاً ، والآخر كاذباً ؟!

قال : لا .

قلتُ : رأيت إن كان القول قولك ، فهل تخاف عليَّ شيئاً ممّا أخوّفك به من عقاب الله ؟

قال : لا !

قلتُ : أفرأيت إن كان كما أقول والحقّ في يدي ، ألسنت قد أخذت فيما كنتُ أحاذر من عقاب الله بالثقة ، وأنك قد وقعت بجحودك وإنكارك في الهلكة ؟!

قال : بلى !

قلتُ : فأيتنا أولى بالحزم وأقرب من النجاة ؟!

قال : أنت ! إلا أنك من أمرك على ادّعاء وشبهة ، وأنا على يقين وثقة ، لأنني لا أرى حواسي الخمس أذركته . وما لم تدركه حواسي فليس عندي بموجود !

قلتُ : إنّه لمّا عجزت حواسك عن إدراك الله أنكرتّه ، وأنا لمّا عجزت

حواسي عن إدراك الله صدّقت به ! قال : وكيف ذلك ؟!

قلتُ : لأنّ كلّ شيء جرى فيه أثر التركيب لجسم ، أو وقع عليه بصر للون . فما أدركته الأبصار ونالته الحواس فهو غير الله سبحانه ، لأنّه لا يشبه الخلق ولا يشبهه الخلق ، وأنّ هذا الخلق ينتقل بتغيير وزوال ، وكلّ شيء أشبه التغيير والزوال فهو مثله ، وَلَيْسَ الْمَخْلُوقُ كَالْخَالِقِ وَلَا الْمُحَدَّثُ كَالْمُحَدِّثِ .

ثم إنّ الصادق عليه السلام قال : قلتُ له : أخبرني هل أحطت بالجهات كلّها وبلغتّ منتهاها ؟ قال : لا ؟ قلتُ : فهل رقيت إلى السماء التي ترى ، أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجلت في أقطارها ؟! أو هل خضت في غمرات البحور ، واخترقت نواحي الهواء فيما فوق السماء أو تحتها إلى

الأرض وما أسفل منها فوجدت ذلك خلاءً من مدبّر حكيم عالم بصير؟! قال: لا!

قلتُ: فما يدريك لعلّ الذي أنكره قلبك هو في بعض ما لم تدركه حواسك ولم يُحط به علمك!

قال: لا أدري! لعلّ في بعض ما ذكرت مدبّراً، وما أدري لعلّه ليس في شيءٍ من ذلك!

قال المظفّر: ربّما يتوهّم بأنّ في كلام الصادق هذا إشعاراً بالتجسيم، لأنّه جوّز أن يكون في جهة معيّنة، وهو من شؤون الجسم، ولكن ذلك كان منه إنكاراً على الطبيب الذي يريد أن يستدلّ على عدم الوجود بعدم الوجدان، وإتّما أراد الصادق أن يكذّب دعواه بعدم الوجدان، فيورد عليه احتمال وجوده في جهة لم يصل إليها الطبيب، وأنّ احتمال وجوده في جهة كافٍ في ردّ دعواه بعدم الوجدان. وهذا من باب الإلزام للنخصم وإبطال حجّته، لا من باب إثبات وجوده في جهة. وقد سبق من كلامه إنكار إدراكه بالحواس، والمثبت في جهة خاصّة مدرك بالحواس.

ثمّ قال الصادق عليه السلام: قلتُ: أما إذ خرجت من حدّ الإنكار إلى منزلة الشكّ فإنّي أرجو أن تخرج إلى المعرفة!

قال: فإنّما دخل عليّ الشكّ لسؤالك إتياني عمّا لم يُحط به علمي، ولكن من أين يدخل عليّ اليقين بما لم تدركه حواسي؟!!

قلتُ: من قبيل اهليلجتك هذه! قال: ذاك إذن أثبت للحجّة، لأنّها من آداب الطبّ الذي أُدْعِن بمعرفته!¹

١- قال في هامش ص ١٥٥ من الجزء الثالث من «بحار الأنوار»: وفي نسخة: لأنّها من أداة الطبّ الذي أُدْعِن معرفته. أي: جاءت كلمة «أدْعِن» مكان كلمة «أدْعِن».

ثم إن الصادق عليه السلام صار يلقي عليه الأسئلة عما يخص الإهليلجة من كيفية صنعها ، ومن وجود أمثالها في الدنيا ، والطبيب يراوغ في الجواب حذراً من الالتزام بالصنعة الدالة على الصانع ، إلى أن ألزمه بما لا يجد محيصاً من الاعتراف به ، وهو أنها خرجت من شجرة .

ثم قال الصادق عليه السلام :

أَرَأَيْتَ الْإِهْلِيلِجَةَ قَبْلَ أَنْ تَعْقِدَ؟! إِذْ هِيَ فِي قَمْعِهَا^١ مَاءٌ بَغِيرِ نَوَاةٍ،
وَلَا لَحْمٍ، وَلَا قِشْرٍ، وَلَا لَوْنٍ، وَلَا طَعْمٍ، وَلَا شِدَّةٍ؟!
قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُلْتُ لَهُ : أَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَرْفُقِ^٢ الْخَالِقُ
ذَلِكَ الْمَاءَ الضَّعِيفَ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الْخَرْدَلَةِ فِي الْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ ، وَلَمْ يُقَوِّهِ
بِقُوَّتِهِ ، وَيَصَوِّرَهُ بِحِكْمَتِهِ وَيَقْدِّرَهُ بِقُدْرَتِهِ ، هَلْ كَانَ ذَلِكَ الْمَاءُ يَزِيدُ عَلَى
أَنْ يَكُونَ فِي قَمْعِهِ غَيْرَ مَجْمُوعٍ بِجِسْمٍ وَلَا قَمْعٍ وَتَفْصِيلٍ؟!
فَإِنْ زَادَ زَادَ مَاءً مُتْرَاكِبًا غَيْرَ مُصَوَّرٍ ، وَلَا مُخَطَّطٍ ، وَلَا مُدَبَّرٍ بِزِيَادَةٍ
أَجْزَاءٍ وَلَا تَأْلِيفٍ أَطْبَاقٍ؟!

١- قال المجلسي في شرح هذه العبارة («بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ١٥٩) : قوله عليه السلام: في قمعها ، قال الفيروزآبادي: القمع محرّكة : بثرة تخرج في أصول الأشجار ، وقال: القمع بالفتح والكسر ، وكعب : ما التزق بأسفل التمرة والبسرة ونحوهما - انتهى . وعلى التقديرين استعير لما يبدو من الإهليلجة ابتداءً في شجرها من القشرة الرقيقة الصغيرة التي فيها ماء . والأوّل أبلغ .

قوله عليه السلام : غير مجموع بجسم ... أي : هل كان يزيد بغير أن يُضمّ إليه جسم آخر من خارج ، أو قمع آخر مثله ، أو بغير قمعه . أي : قلعه وتفصيله - أي : تفريقه - ليدخل فيه شيء أو يضمّ إلى شيء .

٢- في النسخة المطبوعة من كتاب المظفر : «لو لم يرقق» بالقاف . ولكن في طبعتي «بحار الأنوار» بالفاء . وهو أصح ، لأن الرفق بمعنى المعاونة والمساعدة ، وهو أشبه .

قال : أريتني من تصوير شجرتها وتأليف خلقتها وحمل ثمرتها وزيادة أجزائها وتفصيل تركيبها أوضح الدلالات وأظهر البيّنات على معرفة الصانع . ولقد صدقت بأنّ الأشياء مصنوعة ، ولكنّي لا أدري لعلّ الإهليلجة والأشياء صنعت نفسها .

ثمّ إنّ الصادق عليه السلام أثبت له أنّها مصنوعة لغيرها ، لسبقها بالعدم ،^١ ولأنّ صنعتها تدلّ على أنّ صانعها حكيم عالم ، إلى غير ذلك من البراهين .

ثمّ ما زال الصادق يسايره في الكلام ، ومحور الكلام الإهليلجة ، إلى أن أرغمه الدليل على الاعتراف بالصانع الواحد ، بعد أن صار كلامهما إلى النجوم والمنجمين .

ثمّ صار الصادق يدلي عليه بالبيان عن تلك العلامات على ذلك الصانع الواحد ، والدلالات على ذلك الحكيم القدير والعالم البصير من مصنوعاته من السماء ، والأرض ، والشجر ، والنبات ، والأنعام ، وغيرها ، وكيفيّة دلالتها عليه . ثمّ أخذ في بيان صفاته من اللطف ، والعلم ، والقوّة ،

١- يواصل الإمام عليه السلام بحثه إلى أن يقول : ... وكيف صنعت [الإهليلجة] نفسها مفضولة مأكولة مرّة قبيحة المنظر لا بهاء لها ولا ماء ؟ قال : لأنّها لم تقو إلا على ما صنعت نفسها أو لم تصنع إلا ما هويت . قلتُ : أمّا إذ أبيت إلا التمادي في الباطل فأعلمني متى خلقت نفسها ودبّرت خلقها قبل أن تكون أو بعد أن كانت ؟ فإن زعمت أنّ الإهليلجة خلقت نفسها بعدما كانت ، فإنّ هذا لمن أبين المحال ! كيف تكون موجودة مصنوعة ثمّ تصنع نفسها مرّة أخرى ؟! فيصير كلامك إلى أنّها مصنوعة مرّتين ؛ ولئن قلت : إنّها خلقت نفسها ودبّرت خلقها قبل أن تكون ، إنّ هذا من أوضح الباطل وأبين الكذب ! لأنّها قبل أن تكون ليس بشيء ، فكيف يخلق لا شيء شيئاً ؟! وكيف تعيب قولي : إنّ شيئاً يصنع لا شيئاً ، ولا تعيب قولك : إنّ لا شيء يصنع لا شيئاً ؟! فانظر أيّ القولين أولى بالحقّ ؟! («بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ١٥٨).

والسمع ، والبصر ، والرأفة ، والرحمة ، والإرادة .

قال المظفر : وما حداني على الإشارة إلى مواضع هذه الرسالة دون إيرادها إلا رعاية الإيجاز ، على أن هذه الرسالة جمعت فنوناً من العلم إلى قوة الحجّة وجودة البيان ، وما كان محور المناظرة فيها إلا إهليلجة ، وهي من أضعف المصنوعات ، وأصغرها جرماً وشأناً^١ .

وقال الشيخ المظفر أيضاً : تعرف المواهب الغزيرة من المقدرة في البيان ، فبينما تجده يطنب في الدليل كما في توحيد المفضل وغيره ، إذ تراه يأتي بأوجز بيان في البرهان مع الوفاء بالقصد ، وذلك حين يُسأل عن الدليل على الخالق فيقول عليه السلام : **مَا بِالنَّاسِ مِنْ حَاجَةٍ**^٢ .

قال المظفر : ما أوجزها كلمة ، وأكبرها حجّة ! فإننا نجد الناس في حاجة مستمرة في كلّ شأن من شؤون الحياة . وهذه الحاجة تدلّ على وجود مآل لهم في حوائجهم غني عنهم بذاته ، وأنّ ذلك المآل واحد . إلا لاختلف السير والنظام^٣ .

١- «الإمام الصادق» للعلامة الجليل الشيخ محمد حسين المظفر، قدّس سرّه، ص ١٦٤ إلى ١٦٨ ، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي .

٢- لم أعثر عليه في «تحف العقول» ولا في «بحار الأنوار» .

٣- في كلام مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام مثل هذه الأدلّة الموجزة القاطعة . روي في «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ٥٥ ، عن «جامع الأخبار» . قال : سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن إثبات الصانع ، فقال : **الْبُعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ ، وَالرَّوْثَةُ تَدُلُّ عَلَى الْحَمِيرِ ، وَأَثَارُ الْقَدَمِ تَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ . فَهَيْكَلُ عَلَوِيِّ بِهِدِهِ اللَّطَافَةِ ، وَمَرْكَزُ سِفْيِيِّ بِهِدِهِ الْكَثَافَةِ كَيْفَ لَا يَدُلُّانِ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ !؟**

وروي أيضاً عن «جامع الأخبار» عن أمير المؤمنين عليه السلام حين سئل : ما الدليل على إثبات الصانع ؟! قال : **ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ : تَحْوِيلُ الْحَالِ ، وَضَعْفُ الْأَرْكَانِ ، وَنَقْضُ الْهِمَّةِ .**

وروي مثله أيضاً في الإيجاز وإفادة المعنى التام في ج ٣ ، ص ٣٦ من «البحار» عن ☞

ويسأله مرّة هشام بن الحكم بقوله: مَا الدَّلِيلُ عَلَيَّ أَنْ اللّٰهَ تَعَالَى
وَاحِدٌ؟! فَيَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اتِّصَالَ التَّدْبِيرِ، وَتَمَامُ الصُّنْعِ.^١
قال المظفّر: إنّ كلّ واحدة من هاتين الكلمتين تصلح لأن تكون
دليلاً برأسه، وذلك لأنّ اتصال التدبير شاهد على وحدانيّة المدبّر، إذ لو
كان اثنين أو أكثر لكان الخلاف بينهما سبباً لحدوث فترة أو تضارب،
فلا يكون التدبير متّصلاً والتقدير دائماً. كما أنّ تمام الصنعة في الخلق
دائماً شاهد آخر على الوحدانيّة، لأنّ استمرار الاتفاق في الاثنين مع
التكافؤ في كلّ شأن لا يكون أبداً، كما نشاهده في الذين يديرون دولاب
البلاد. فإن حصل اختلاف ولو برهة، فسد المخلوق، فأين تمام الصنعة؟
فالتمام دليل الوحدة أيضاً.^٢

دروس الإمام الصادق عليه السلام في:

الكلام، الفلسفة، الحكمة، الطبّ، الكيمياء، الصيدلة،
وجميع العلوم الطبيعيّة من المعدن، النبات، الحيوان،
الإنسان، التنجيم، وغير ذلك

ذكر العالم الجليل والخبير النبيل الشيخ محمّد حسين المظفّر في كتابه

ما نصّه:

«الصدوق في «التوحيد» و«الألمالي» و«عيون أخبار الرضا عليه السلام» بسنده عن الإمام
أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام. قال: دخل عليه رجل، فقال له:
يا بن رسول الله! ما الدليل على حدوث العالم؟ فقال: أَنْتَ لَمْ تَكُنْ ثُمَّ كُنْتَ، وَقَدْ عَلِمْتَ
أَنَّكَ لَمْ تُكُونَ نَفْسَكَ وَلَا كَوْنَكَ مَنْ هُوَ مِثْلَكَ!

١- «التوحيد» للصدوق، باب الردّ على الثنويّة والزنادقة، ص ٢٤٣.

٢- «الإمام الصادق» للمظفّر، ج ١، ص ١٦٨ و ١٦٩.

علم الطبّ

نزل الله تعالى الكتاب تبياناً لكلّ شيء ،^١ وقد جمع الكتاب الطبّ كما يقولون في كلمتين ، وهما قوله تعالى : **كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**.^٢ فلا غرابة إذن لو كان العلماء بما في القرآن علماء في الطبّ أيضاً ، وكان ما يظهر منهم ، من البيان عن طبائع الأشياء والأمزجة والمنافع والمضارّ يرشدنا إلى وجود هذا العلم لديهم . ولقد جمع بعض علماء السلف شيئاً كثيراً من كلامهم في ذلك ، وسمّاه «طبّ الأئمة» . وأحال أنّ الكتاب لا وجود له اليوم ، غير أنّ المجلسيّ طاب ثراه يروي عنه كثيراً في «بحار الأنوار» ، كما يروي عنه الحرّ العامليّ في «وسائل الشيعة» .

وكفى دلالة على علم الصادق بالطبّ ما جاء في «توحيد المفضل» من الأخبار عن الطبائع وفوائد الأدوية ، وما جاء فيه من معرفة الجوارح التي تكفل بها علم التشريح . وسيأتي ما في بعض مناظراته مع الطبيب الهنديّ ممّا يدلّ على ذلك .

ويسع الكاتب أن يجمع كتاباً فيما ورد عنه في خواصّ الأشياء وفوائدها ، وفي علاج الأمراض والأوجاع ، وفي الحميّة والوقاية . وهي متفرّقة في غضون كتب الأحاديث ونحوها . وربّما لم يكشف عنها إلاّ العلم الحديث مثل مداواة الحمى بالماء البارد ، فإنّه ذكروا له الحمى ، فقال عليه السلام : **إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا تَدَاوَى إِلَّا بِإِفَاضَةِ الْمَاءِ الْبَارِدِ يُصَبُّ عَلَيْنَا** . ونحن نحيلك على كتاب الأطعمة والأشربة من «الوسائل» : ج ٣ ، ص ٢٧٦ إلى ٣١١ ، لترى الشيء الكثير من ذلك .

١- الآية ٨٩ ، من السورة ١٦ : النحل : **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** .

٢- الآية ٣١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

علم الجفّر

الجفر في الأصل ولد الشاة إذا عظم واستكرش . ولعلّ مبدأ هذا العلم كان يكتب على جلد ولد الشاة فسُمّي به . وعلم الجفر على الحروف الذي تعرف به الحوادث المستقبلية .

وجاء عن الصادق عليه السلام أنّ عندهم الجفر وفسّره بأنّه وعاء من آدم فيه علم النبيّين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل . وجاء عنهم الشيء الكثير عن الجفر الذي عندهم . وإنّا وإن لم نعرف هذا العلم وما القصد منه إلّا أنّنا نعرف من هاتيك الأحاديث التي ذكرت الجفر ، وأنّه من مصادره ، أنّ هذا العلم شريف منحهم الله إياه . وجاء في «الكافي» أحاديث كثيرة عن الجفر الذي عندهم .

وذكر بعض علماء أهل السّنة الجفر ، وأنّه ممّا يعلمه الصادق عليه السلام . قال : الشلبنجيّ في «نور الأبصار» ص ١٣١ : وفي «حياة الحيوان الكبرى» فائدة . قال ابن قتيبة في كتاب «أدب الكاتب» : وكتاب الجفر كتبه الإمام جعفر الصادق بن محمّد الباقر ، فيه كلّ ما يحتاجون إلى علمه إلى يوم القيامة . وإلى هذا الجفر أشار أبو العلاء بقوله :

لَقَدْ عَجِبُوا لِأَلِ الْبَيْتِ لَمَّا
فَمِرَاةُ الْمُنْجِمِ وَهِيَ صُغْرَى
أَتَاهُمْ عِلْمُهُمْ فِي جِلْدِ جَفْرٍ
تُرِيهِ كُلَّ عَامِرَةٍ وَقَفْرٍ

وقال في «الفصول المهمّة» : نقل بعض أهل العلم أنّ كتاب الجفر

١- «نور الأبصار» ص ١٤٥ و١٤٦ ، طبعة القاهرة ، مطبعة حجازي ، والطبعة السادسة ، سنة ١٣٧٤ ، مطبعة محمّد عاطف ؛ وفي طبعة دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ : ص ١٦٠ و١٦١ . علماً أنّنا تحدّثنا عن علم الجفر بصورة وافية في هذه الدورة من العلوم والمعارف الإسلاميّة ، قسم «معرفة الإمام» ج ١٤ ، درس ٢٠١ إلى ٢١٠ ، لذا يُرجع من أجل التعرّف على خصائص هذا العلم .

الذي بالمغرب يتوارثونه بنو عبد المؤمن بن عليّ من كلام جعفر الصادق .
وله فيه المنقبة السنيّة ، والدرجة التي في مقام الفضل عليه .^١

الكيمياء وجابر بن حيان

ذكر علم الصادق عليه السلام بالكيمياء كثير من المؤلفين . وإنّ تلميذه جابر بن حيان الصوفيّ الطرطوسيّ أخذ عنه هذا العلم ، وألّف خمسمائة رسالة فيه في ألف ورقة ، وهي تتضمّن رسائل جعفر الصادق عليه السلام .^٢

وللقدماء والمتأخّرين من المستشرقين كلام كثير في شأن جابر . وقد ذكره ابن النديم في «الفهرست» ، ص ٤٩٨ إلى ٥٠٣ . وأطال فيه الكلام وذكر له من الكتب والرسائل في مختلف العلوم لاسيّما الكيمياء ، والطبّ ، والفلسفة ، والكلام شيئاً كثيراً لا يكاد يتّسع وقت الإنسان في العمر الطبيعيّ لتأليفها . نعم إلا لأفذاذ في الدهر منحوا ذكاءً وفطنة مفرطين وانكبوا على الكتابة والتأليف . وذكر أنّ له تأليف على مذاهب الشيعة . ومن ثمّ استظهر تشييعه . ولعلّ أخذه عن الصادق وائتمان الصادق به على هذا العلم شاهد على تشييعه .

وذكره في «الذريعة» في عداد مؤلّفي الشيعة في ج ٢ ، ص ٤٥١ و ٤٥٢

١- «الفصول المهمّة في معرفة أحوال الأئمّة عليهم السلام» تأليف ابن الصبّاغ المالكيّ المتوفّى سنة ٨٥٥ ، ص ٢٣٥ ، الطبعة الحجرية ، نصريّ ؛ وفي طبعة مطبعة العدل بالنجف: ص ٢٠٥ .

٢- ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ج ١ ، ص ١٨٥ ، أحوال الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، طبعة بولاق ؛ وفي طبعة بيروت ، دار صادر بتحقيق الدكتور إحسان عباس: ج ١ ، ص ٣٢٧ .

عند ذكره لكتابه «الإيضاح» في الكيمياء .
ولو تصفّحت شيئاً من رسائله التي نشرها المستشرق «كراوس»
لأيقنت بتشيّعه وأخذه عن الإمام الصادق ، لأنّه أخذ عنه كإمام مفترض
الطاعة متّبع الرأي ، ولعرفت أنّه لم يأخذ عنه الكيمياء فحسب ، بل الكلام
وغيره .

وقد أكبر مؤلفو الإسلام منزلة جابر وعدّوه مفخرة من مفاخر
الإسلام ، ولا بدع فإنّ من تزيد مؤلفاته على ثلاثة آلاف كتاب ورسالة في
مختلف العلوم ، وجلّها من العلوم النظريّة والطبيعيّة التي تحتاج إلى زمن
طويل في تجاربها وتطبيقها - هذا عدا الفلسفة والكلام - لجدير بالتقدير
والإكبار وأن يكون مفخرة يعتزّ به .

وقد كبر على المستشرقين أن يكون عربيّ مسلم ومن أهل القرن
الثاني للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة ، وتكون نظريّاته الأُسّ العامّة
التي قام عليها علم الكيمياء قديمه وحديثه ، فصاروا يخبطون في تعرّضهم
لكتبه كحاطب ليل ، فمرّة يشكّون في وجوده ، وتارة في زمانه ، وأخرى
فيما نُسب إليه من تلك الكتب ، ورابعة في نسبة البعض ممّا يرويه عن
أستاذه الصادق عليه السلام ، وخامسة في التبويب والوضع والأسلوب ،
لأنّه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر ، إلى غير ذلك .

وقد فنّد بعض تلك الشكوك والمزاعم الكاتب إسماعيل مظهر
صاحب مجلّة «العصور» فيما نشره في «المقتطف» (٦٨/٥٤٤ - ٥٥١) ومن
٦١٧ - ٦٢٥ . وجرى في هذه الحلبة الأستاذ أحمد زكي صالح فيما كتبه في
مجلّة «الرسالة» المصريّة ، السنة الثامنة (ص ١٢٠٤ - ١٢٠٦ ، ومن ١٢٣٥ -
١٢٣٧ ، ومن ١٢٦٨ - ١٢٧٠ ، ومن ١٢٩٩ - ١٣٠٢) ، ولقد فنّد تلك الأوهام
والمزاعم تفنيداً حكيمياً علمياً . وصرّح مراراً بتشيّعه .

وقال في مناقشة رأي الأستاذ كراوس ، ص ١٢٩٩ : ومن الجليّ الواضح لدى كلّ من درس علم الكلام أنّ فِرَق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلاميّة حركةً ، وكانت أولى من أسّس المذاهب الدينيّة على أسس فلسفيّة ، حتّى أنّ البعض ينسب فلسفة خاصّة لعليّ بن أبي طالب . وكان هذا الكلام من أحمد زكي لتصحيح ما يُنسب إلى جابر من المقارنة بين الآراء الكلاميّة والفلسفيّة .

وجملة القول : أنّه قد أصبح من الواضح تشييع جابر وتقدّمه في عدّة علوم لا سيّما الكلام ، والفلسفة ، والطب ، والكيمياء ، والطبيعيّات عامّة . وما كادت لتكون آراؤه الأسّ العامّ لدعائم علم الكيمياء إلّا لأنّه أخذ ذلك من معدنه الصحيح الإمام الصادق عليه السلام .

وكنت قد جمعت عدّة مصادر عن جابر لأتبسّط في ترجمته ، غير أنّي اكتفيتُ بهذا الوجيز عن الإطالة فيها . فإنّا لو استقصينا الكلام على كلّ ما يقتضي التوسعة في البحث عنه لكان هذا الكتاب عدّة أجزاء ، وهو وإن كان لا يخلو من فائدة ، غير أنّه يكون أبعد عن حياة الصادق الخاصّة .

سائر العلوم

لا نعني بما ذكرناه من العلوم التي كتبنا عنها وأوضحنا أخذ الناس عن الصادق فيها أنّ تلك جميع ما لديه ، بل إنّ الإمام على رأي الإماميّة يجب أن يكون عالماً بكلّ شيء وأعلم الناس في كلّ علم وفنّ ولسان ولغة ، كما يقتضيه حكم العقل .

ولو نظرنا إلى الدليل السمعيّ من دون أن نشبت له الإمامة الإلهيّة لفهمنا منه أنّ في كلّ زمان عالماً من العترة بالكتاب والسنة كما هو مفاد حديث الثقلين ، وأنّ عالم الكتاب الذي نزل على الرسول تبياناً لكلّ شيء

يجب أن يكون عالماً بكلّ شيء . وما دام الكتاب موجوداً فالعالم به من العترة موجود إلى يوم الحشر ، ولا يعدو أن يكون ذلك العالم في عهد الصادق عليه السلام نفسه ، إذ ليس في زمانه من هو أعلم منه في العترة . وكفت آثاره دلالة على ذلك العلم .

فصادق أهل البيت إذن عالم أهل البيت في عصره ، وعالم العترة بالكتاب الجامع للعلوم والفنون . فمن ثمّة نستغني بما سلف عن التعرّض لبقية العلوم ، والشواهد على علمه فيها . فليس غريباً لو جاء الحديث أنّ الصادق عليه السلام كَلَّمَ الفُرْس بلسانهم وأهل اللغات بلغاتهم . وناظر أهل كلّ علم وفنّ فخصمهم ، مثل علماء النجوم ، والفلك ، والطبيعيّات ، والطبّ وما عداها . وكلّ ذلك نطقته به الأخبار ودلّت عليه الآثار .^١

قال المستشار عبد الحلیم الجندیّ : جابر بن حيان أوّل من استحقّق في التاريخ لقب كيميائيّ ، كما تسمّيه أوربة المعاصرة .^٢

١- «الإمام الصادق» ج ١ ، ص ١٧٨ إلى ١٨٣ ، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي .

٢- قال آية الله الميرزا أبو الحسن الشعرانيّ رحمه الله في ص ٣٩ من كتابه «فلسفة أولى أو ما بعد الطبيعة» الذي طُبِع في العديدين ٥٠ و ٥١ من مجلّة «نور علم» (= نور العلم) لتخليد الذكرى العشرين لوفاته : نشطت الحركة العلميّة عند المسلمين في جميع العلوم أيّام المنصور الدوانيقيّ وبداية الدولة العبّاسيّة بعد استتاب الهدوء وحمود الفوضى . وأوّل من ترجم كتاباً في المنطق هو عبد الله بن المقفّع . ونقل صاحب «أخبار الحكماء» أنّه عرّب قسماً من منطق أرسطو .

والآخر هو محمّد بن إبراهيم الفزاريّ الذي ألف أوّل كتاب وترجمه في الفلك . والثالث هو نوبخت المعروف الذي كان يروّج علم النجوم كثيراً . ونبغ يومئذ رجل عجيب أيضاً وهو أبو موسى جابر بن حيان الصوفيّ . وهو مؤسس علم الكيمياء في الإسلام ، ويعرف عند الأوروبيّين (Gebere) . ذكره ابن خلكان في سياق ترجمته للإمام جعفر الصادق عليه السلام فقال: وتلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفيّ الطرطوسيّ ، ألف كتاباً يشتمل على ⇨

وهو الذي يُشير إليه أبو زكريا الرازي (٢٤٠ - ٣٢٠) - جالينوس العرب - فيقول: «أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان». والمؤرخون - إلا بعضاً من غير المسلمين - متفقون على تلمذته للإمام، وعلى صلته أو تأثيره به في العلم والعقيدة. وأكثرهم على أنه صار بعد موت الإمام من الشيعة الإسماعيلية.

يقول جابر في كتابه «الحاصل»: «لَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَبَّخَنِي سَيِّدِي (يقصد الإمام الصادق) عَلَيَّ عَمَلِي فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا جَابِرُ! لَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ لَا يَأْخُذُهُ عَنْكَ إِلَّا مَنْ يَسْتَأْهِلُهُ، وَأَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ مِثْلُكَ لَأَمْرُتُكَ بِإِبْطَالِ هَذِهِ الْكُتُبِ مِنَ الْعِلْمِ».

وكانت له كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها. قيل: إنه أخذ علمه عن خالد بن يزيد، ثم أخذ عن الإمام جعفر. وهو يشير إلى الإمام دائماً بقوله: سيدي، ويحلف به. ويعتبره مصدر الإلهام له.

يقول في مقدمة كتابه «الأحجار»: «وَحَقَّ سَيِّدِي لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ بِاسْمِ سَيِّدِي صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَا وَصَلْتُ إِلَى حَرْفٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْأَبَدِ».

ذكر له المستشرق كراوس Kraus ناشر كتبه في العصر الحديث أربعين مؤلفاً. وأضاف ابن النديم في القرن الرابع للهجرة عشرين كتاباً أخرى. وينقل ابن النديم قوله: «أَلْفَتْ ثَلَاثَمِائَةَ كِتَابٍ فِي الْفَلْسَفَةِ وَأَلْفًا

⇨ ألف ورقة يتضمّن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.

وذكره صاحب كتاب تاريخ «دزيري» بالفرنسية بعدما يقول: كتابه أقدم كتاب كيميائي وصل إلينا في تاريخ البشرية، وينقل تفاصيل أخرى. وما زال كتاب جابر حائزاً على مقام مهم في الطريقة الجديدة. وطبعت ترجمته اللاتينية المستنسخة من مخطوطة الفاتيكان في مدينة دانتزيك سنة ١٦٨٢م.

وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة ، وآلات الحرب ، ثم ألّفت في الطبّ كتاباً عظيماً ، ثم ألّفت كتاباً صغاراً وكباراً ، وألّفت في الطبّ نحو خمسمائة كتاب . ثم ألّفت في المنطق على رأي أرسطاطاليس . ثم ألّفت كتاب الزيج أيضاً نحو ثلاثمائة ورقة . ثم ألّفت كتاباً في الزهد والمواعظ . وألّفت كتاباً في العزائم كثيرة حسنة . (وهي الأدعية والعوذ التي يكتبونها ويحملونها معهم) . وألّفت في الأشياء التي يعمل بخواصّها كتباً كثيرة . ثم ألّفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة . ثم ألّفت كتاباً في الصنعة يعرف بـ « كتب الملك » . وكتاباً يعرف بـ « الرياض » .^١

قال هنري كوربان مدير التدريس في معهد الدراسات العالي وصاحب كرسي التخصص في الشؤون الشيعة في جامعة السوربون والمدير العام لقسم الإيرانيات في المعهد الإيراني الفرنسي بطهران حول جابر بن حيّان :

١- إنّ المجموعة الضخمة من المؤلفات التي تحمل اسم جابر بن حيّان هي بدورها أيضاً هرمتيّة في عدد من مصادرها . ولا يسعنا إلا أن نحيل القارئ إلى العمل الضخم الذي وقفه لها المستشرق بول كراوس^٢ الذي بقي ردحاً من الزمن المرشد الأمين في الدراسات الجابريّة . إنّ إعطاء الحكم الفصل على هويّة مؤلّف هذه المجموعة لهو موضوع خطير ، بيد أن المستشرق برتلو^٣ الذي انصرف بشكل خاص إلى دراسة

١- «الإمام جعفر الصادق» لعبد الحليم الجندي المصري ، مستشار جمهورية مصر العربية في المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة ، ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ .

٢- Paul Kraus .

٣- Marcelin Bertheloty كيميائي وسياسي فرنسي (١٨٢٧ - ١٩٠٧ م) ، ولد بباريس . مؤلّف لكتب حول تركيب الأجسام العضويّة الكيماويّة والحرارة . عضو مجمع اللغة ⇨

مؤلفات جابر اللاتينية انتهى به البحث إلى إنكار كليّ وغير مدعوم برهانياً ، لكون الوثائق صعبة المنال . مقابل ذلك قام المستشرق هوليمار^١ بجمع عدد من الوثائق الملازمة التي تدعم العرف السائد . فهو يؤكد أنّ جابراً عاش في حدود القرن الثامن الميلاديّ (الثاني للهجرة) ، وأنّه كان تلميذاً للإمام جعفر الصادق [عليه السلام] ، الإمام السادس ، وهو فعلاً صاحب المجموعة الضخمة التي تُنسب إليه والتي يناهز عددها نحواً من ثلاثة آلاف رسالة (وليس هذا الأمر ببعيد التصديق ، إذا ما قايسنه بمؤلفات ابن عربي أو المجلسي مثلاً) .

حاول المستشرق رسكا^٢ أن يجد سبيلاً وسطاً بنفيه التأثير المباشر للإمام جعفر (وهذا النفي يتجاهل وجود تراث شيعي ثابت ولكنه يقرّ بوجود تراث له مراكزه في إيران) . أمّا بول كراوس فقد خلص من أبحاثه وانتقاداته المتحفّظة إلى إثبات عدّة مؤلّفين . وتكون هكذا قد نشأت مجموعات عدّة من المؤلفات حول نواة أصلية ؛ وذلك وفق ترتيب نكاد على وجه التقريب نتوصّل إلى إقامته من جديد . ويجعل (كراوس) تأريخ نشأة هذه المجموعات في حدود القرنين التاسع والعاشر للميلاد (الثالث أو الرابع للهجرة) لا في حدود القرن الثامن (الثاني للهجرة) . ونحبّ أن نشير إلى أنّه بالرغم من التناقض القائم بين «المجموعات التقنيّة» والمجموعات الأخرى هناك صلة عضويّة بينها جميعاً ومصدر إلهاميّ ثابت . وإذا كان صحيحاً أنّ واحدة من هذه المجموعات تُسند إلى كتاب

← الفرنسية .

١ - Holmyard .

٢ - Ruska .

«سرّ الخليقة» المنسوب لأبولونيوس الطواني^١ في القرن التاسع للميلاد (الثالث للهجرة) فلسنا على شيء من اليقين من أنّ صاحب هذه المجموعة قد أوجد هو بنفسه تعابير الخاصّة وموضوعاته الخاصّة، وأنّه لم يستقها هو الآخر من مفكّر غيره.^٢

إنّ شهادة الفيلسوف سليمان المنطقيّ السجستانيّ (المتوفى حوالي سنة ٣٧١ هـ - ٩٨١ م) التي يوردها ضدّ جابر بن حيان لتتناقض مع ذاتها. وإذا شئنا أن نتكلّم صراحة فإننا نعتقد في مثل هذا الميدان (حيث ضاع قسم كبير من مؤلّفات ذلك العصر) أنّ الرغبة في إظهار ما يفسّر التقليد والعرف، وما يدلّ عليه هذا التقليد، هي أشدّ خصباً وفائدة من الانتقاد التاريخي المتطرّف الذي يطأ أرضاً غير ثابتة لا تلبث في كلّ لحظة أن تنخسف وتغور.^٣ وإذا كنّا حقّاً لا نودّ أن نبخس أئمة الشيعة حقهم، ولا أن نتجاهل جملة كلّ ما روي لنا عنهم (وتأخّر الدراسات الشيعة يظهر بشكل خاصّ هنا). وإذا كنّا نذكر أنّ الإسماعيلية تكوّنت في البدء مع أتباع الإمام إسماعيل بن الإمام جعفر، فإنّ الصلات بين جابر والإسماعيلية وبين جابر

١ - Apollonios Tyane

٢ - يقول المجريطي الذي كان يعيش بعد جابر بن حيان بمائة وخمسين سنة تقريباً: مع أنّي أعيش بعد جابر بأكثر من قرن، بيد أنّي تلميذه بالواسطة. وكان أستاذ الفلاسفة الإسلاميين جميعهم في العلوم الطبيعية.

٣ - قال مؤلّف هذا الكتاب: القصد هو مع ضياع الكتب فإننا إذا بذلنا قصارى جهودنا واستنبطنا رواية توضّح لنا سنّة عمليّة أو رواية تبين لنا مطلباً في أمر من الأمور التاريخية وأمثالها فذلك أفضل من الانتقاد التاريخي العنيف ورفض رجلٍ مثل جابر بن حيان الذي ننكر وجوده قبل البحث في الروايات المأثورة عنه. وانتقادنا حينئذٍ كحفر معدن بدون أن يكون فيه جوهر، فلا نجني إلاّ العناء الذي لا ثمر فيه.

والإمام جعفر تظهر لنا على وجهها الحقيقي . وإذا كانت السيرة المتلاحمة لحياة جابر التي استخلصها الكيميائي «الجلدكي» من مجمل المصنّفات الجابريّة تؤكّد أنّ هناك بالفعل رجلاً يدعى جابر بن حيان ، وأنّه كان كيميائياً وتلميذاً للإمام السادس [عليه السلام] ومن أتباع الإمام الثامن عليّ الرضا [عليه السلام] ، وأنّه مات في طوس (في خراسان) في العام ٢٠٠ هـ / ٨٠٤ م ، فإنّه لم يعد هناك سبب وجيه لإنكار ذلك . وأمّا أن تفترض المجموعات المختلفة عدّة مؤلّفين ، فليس في ذلك شيء من الخلف ، إذ سوف نرى أخيراً أنّ الفكر الجابريّ ، والشخصيّة الجابريّة أخذت في النهاية معنىً خاصّاً يتخطّى حدود وضع محدود ومتحجّر في تأريخ الحوادث .

٢ - تميل الأبحاث التي قام بها المستشرق بول كراوس إلى أنّ النظرية الجابريّة عن «الميزان» «تمثّل في العصر الوسيط محاولة دقيقة لبناء نظام كميّ في العلوم الطبيعيّة» .

كان من الممكن أن تظهر صحّة هذه العبارة واضحة لولا أن حالت وفاة بول كراوس دون إنجاز أبحاثه . بقي بعد ذلك تحقيق القصد الرامي إلى إظهار العلاقات بين الكيمياء الجابريّة والفلسفة الدينيّة عند الإسماعيليّة ، إذ إنّ العلوم «الكميّة» الجابريّة لا تؤلّف فقط فصلاً في التأريخ البدائيّ للعلوم ، كما نعني اليوم بكلمة «علوم» ولكنّها «نظرة شاملة في الكون» قائمة بذاتها . فعلم الميزان يكاد يشمل معطيات المعرفة البشريّة بأكملها ، وهو لا يطبّق فقط على العوالم الثلاثة المؤلّفة لفلك ما دون القمر [أي : المواد المرتبطة بالحيوان والنبات والمعدن] ، ولكنّه يشمل أيضاً حركات الكواكب وأقانيم العالم الروحيّ . وكما يذكر كتاب «الخمسينيّات» فإنّ هناك موازين لقياس كلّ من العقل ونفس العالم ، والطبيعة ، والصور ، والأفلاك ،

والكواكب ، والطبائع الأربعة ، والحيوان ، والنبات ، والمعدن ، وأخيراً ميزان الحروف الذي هو أشرف الموازين جميعاً . لذلك يُخشى أن تخلق كلمة « كميّ » في إطلاقها على العلوم الجابريّة بعض الإبهام والالتباس .

إنّ ما قصد إليه كتاب « علم الميزان » هو اكتشاف العلاقة القائمة في كلّ جسم من الأجسام بين ظاهره وباطنه . والعملية الكيميائية تظهر هكذا ، كما أشرنا سابقاً ، وكأنّها حالة مثاليّة من حالات التأويل ، أي : إخفاء الظاهر ، وإظهار الخفي . وكتاب « ميدان العقل » يشرح بإسهاب أنّ قياس طبائع الشيء (من حرارة ، وبرودة ، ورطوبة ، ويبوسة) هو في الآن نفسه قياس للكميّات التي اختصّها منه نفس العالم ، أي : مدى شوق النفس لحلولها في المادّة . ومن هذا الشوق الذي يحدو النفس نحو العناصر الطبيعيّة ينشأ المبدأ الذي هو في أصل الموازين . وباستطاعتنا إذن أن نقول : إنّ تحوّل الأجسام مرهون بتحوّل النفس المرتدّة إلى ذاتها . والنفس هي عين المكان الذي يحدث فيه التحوّل . فالعملية الكيميائية تظهر وكأنّها عملية نفسية - روحيّة - . لا نقول ذلك لكي نجعل من النصوص الكيميائية رموزاً خرافيّة عن النفس ، ولكن لأنّ مراحل العملية المطبّقة حقّاً على مادّة حقيقيّة ملموسة ترمز إلى مراحل ارتداد النفس إلى ذاتها .

إنّ المقاييس المعقّدة ، والأعداد الكبيرة التي يتوصّل إليها جابر بدقّة متناهية ليس لها أيّ معنى بالنسبة لمختبراتنا اليوم . ولمّا كان المبدأ والهدف لـ « علم الميزان » هو الوصول إلى قياس رغبة « نفس العالم » وتشوّقها للحلول في المادّة ، يصعب علينا إذن أن نرى فيه سبقاً في موضوع العلم الكميّ الحديث ، ولكنه ، بالمقابل ، يمكن أن ينظر إليه على أنّه سبق علميّ في موضوع « الطاقة النفسيّة » التي تستدعي في أيّامنا هذه مجموعة كبيرة من الأبحاث .

كان «ميزان» جابر «علم الجبر» الوحيد الذي يخوّله أن يلاحظ درجات «الطاقة الروحية» للنفس التي تحلّ في الطبايع ، ثم تتحرّر من هذه بواسطة الكيمياء الذي بتحريره للطبايع يحرّر نفسه أيضاً في آن واحد .

٣ - أشرنا إلى أنّ جابر بن حيّان كان ينظر لميزان الحروف على أنّه أشرف الموازين جميعاً .

وقد توسّع الغنوصيون في الإسلام بنظرية حول الغنوص القديم ، ورأوا أنّ الحروف الهجائية لكونها في أساس الخلق تمثّل تجسماً أو تجسيداً للكلام الإلهي (انظر : ماركوس^١ الغنوصي ، وفي هذا الكتاب العرفان الشيعي «المغيرة»).

وقد أجمع الرأي على أنّ الإمام جعفرّاً هو معرّف الناس لـ «علم الحروف» . وقد أخذ المتصوّفون السنّة ، هم أيضاً ، هذا العلم عن الشيعة منذ النصف الثاني للقرن التاسع الميلاديّ (الثالث للهجرة) . كما بحث ابن عربي وتلاميذه في هذا العلم . أمّا عند الإسماعيلية فإنّ النظر في الإسم الإلهي يقابل «الغنوص» اليهودي حول «الكلمات الرباعية»^٢ .

يهتمّ جابر بنوع خاصّ بـ «ميزان الحروف» هذا في رسالة له بعنوان «كتاب المجيد»^٣ ؛ هذه الرسالة ، بالرغم من كونها عويصة الفهم ، إلّا أنّها تُفصح لنا عن الروابط بين مذهب جابر الكيمياء و«الغنوص» الإسماعيليّ ، لا بل إنّها قد تؤدّي بنا إلى معرفة سرّ شخصيّة جابر .

١- Marco le gnostique

٢- Tetragramme اسم إله اليهود وهو مركّب من أربعة حروف : الباء ، الهاء ، الواو ، الهاء ، وتركيبه يهوه (بسكون الهاء). بيّد أنّ هذا الاسم مقدّس ينبغي أن لا تلفظه الألسن . ويجب أن يحلّ محله «أدونا» وهو اسم الله أيضاً .

٣- Livredu Glorieux

تحلّل هذه الرسالة مطوّلاً قيمة الحروف الرمزية ومعناها . هذه الحروف الرمزية ثلاثة : العين (رمز الإمام الصامت عليّ) ، والميم (رمز النبيّ الناطق المعبر عن الشريعة محمّد [صلّى الله عليه وآله] ، والسين (تذكّر سلمان الحجّة) .

وقد سبقت الإشارة إلى أنّه حسب ترتيب المقامات التي نجعلها لكلّ من هذه الحروف يكون لدينا الترتيب الرمزيّ المميّز للشيعّة الاثني عشرية والإسماعيلية الفاطمية (ميم - عين - سين) أو للإسماعيلية الأولى (وهم الذين تشير إليهم رسالة «أمّ الكتاب» تحت فصل «معارك سلمان السبعة») أو إسماعيلية أموت (عين - سين - ميم) : في هذه الحالة يكون المقام الأوّل لسلمان «الحجّة» على الميم . ويبرّر جابر هذا الترتيب المقاميّ بتطبيق دقيق للقيمة التي يكتشفها الميزان لكلّ من الحروف الثلاثة موضوع حديثنا .

وبعد ، فمن هو «السين» المجيد ؟ لم يُشر جابر في أيّ من كتاباته إلى أنّه الإمام المنتظر ، الإكسير الذي يفيض من الروح الإلهيّ سوف يبدّل الأمور في هذه الحياة الدنيا . (وهذه الفكرة تقابل علم المعاد في كلّ الفرق الشيعيّة ، والتي حاول الشراخ الغريّبون أن يسيّسوها) .

السين هو الغريب ، هو اليتيم ، هو ذاك الذي اهتدى إلى الطريق السويّ وتبع الإمام ، بمجرد جهده ونظره . ذاك الذي يظهر نور الـ «عين» (الإمام) لكلّ الغرباء أمثاله ، ذلك النور الخالص الذي يبطل الشريعة ، تلك الشريعة التي تردّي من حال الأجسام والأنفس ، نور انتقل منذ شيث بن آدم حتّى المسيح ، ومنه إلى محمّد في شخص سلمان .

ولكن «كتاب المجيد» ينصّ على أنّ فهم هذا الكتاب ، وفهم الترتيب نفسه لكلّ المؤلّفات الجابريّة . يعني أن يكون المرء وكأ أنّه جابر نفسه .

وفي مكان آخر ، وتحت ستار اللغة الحميريّة والشيخ الغامض الذي علّمه إياها ، يقول جابر لقارئه : «إذا قرأت كتابنا المعروف بالتصريف ،^١ فحينئذٍ تعرف فضل هذا الشيخ وفضلك أيّها القارئ والله يعلم أنك أنت هو». إنّ شخصيّة جابر بن حَيّان ليست أسطورة ولا خرافة ، ولكنّ جابراً هو أكثر من شخصيّة التّاريخيّة .

«المجيد» هو النموذج والمثال .^٢ فإن كان هناك أكثر من مؤلّف لمجموع المصنّفات المنسوبة إلى جابر لكان على كلّ منهم أن يعاود الكتابة تحت اسم جابر بن حَيّان ، ومأثرة المثال نصب عينيه .

هذه المأثرة هي الكيمياء التي نقدر أن نرسم لها طريقاً إلاّ بذكر بعض الأسماء منها : مؤيد الدين حسين الطغرائيّ ، شاعر كبير وكاتب وكيميائيّ شهير من إصفهان . (أُعدم سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) . ومحبي الدين أحمد البونيّ (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) الذي درس نحواً من مائتي كتاب من مؤلّفات جابر . والأمير المصريّ «أيدمور الجلدقيّ»^٣ (توفي سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م ، أو سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م) وهو يُحيل دائماً إلى كتب جابر . وبين كتبه العديدة واحد بعنوان كتاب «البرهان في أسرار الميزان» وهو مؤلّف من أربع مجلّدات ضخمة (وهذا المؤلّف يهتم بنوع خاصّ بالتحوّل الروحيّ ويمثله بالعملية الكيميائية) .

الفصل الأخير من كتاب «نتائج الفكر» وعنوانه «حلم الكاهن»^٤ يشير

١ - Morphologie .

٢ - Archetype .

٣ - Aydamour .

٤ - Songedu Pretre .

إلى اتصال هرمس بطبيعته التامة .

في إيران ، وفي القرن الخامس عشر علّق أحد شيوخ التصوّف في كرمان ، وهو «شاه نعمة الله ولي» ، علّق بخطّ يده على نسخة لديه من كتاب «نهاية الطالب» للجلدكيّ . وبين القرن الثامن عشر والتاسع عشر أعرب شيوخ النهضة الصوفيّة في إيران ، بدورهم ، عن مراحل الاتّصال الصوفيّ ببعض الإشارات والملاحظات الكيمياءيّة ، نذكر منهم «نور علي شاه» و«مظفر علي شاه» . أمّا في المدرسة الشيعيّة فإنّ تصوّرات الكيمياءيّة متعلّقة بالمذهب الحكميّ لجسد القيامة .^١

وفي سنة ١٣٥٤ هـ نشرت مجلّة «خواندنيها» في طهران مقالات متسلسلة في أعداد كثيرة حول العلوم البديعة التي اكتشفها الإمام جعفر الصادق عليه السلام . تلك العلوم التي لم تخطر في بال أحد حتّى ذلك الحين ، ولم يُعرف لها حلّ حتّى عصرنا هذا عصر التجدّد العلميّ . وكانت هذه المقالات في غاية الروعة ، ولقيت ترحيباً عاماً حتّى بلغ الأمر أنّ دار منشورات «شركة الإسمنت المساهمة في فارس و خوزستان» التي كان يشرف عليها المهندس سالور قامت بطبعها على شكل كراسات جيبيّة صغيرة ووزّعتها في أرجاء البلاد مجاناً .

ذهبتُ ذات يوم من طهران إلى قم ، والتقيت بالعلامة الطباطبائيّ قدّس سرّه وجرى الحديث عن الكراسات المذكورة . فكان مسروراً ينظر بإعجاب ولم تفارق البشاشة والابتسامة وجهه الصبيح حتّى ساعة من

١- «تاريخ الفلسفة الإسلاميّة» تأليف هنري كوربان بالتعاون مع السيّد حسين نصر وعثمان يحيى، ترجمة نصير مروّة وحسين قبيسي ص ٢٠٢ إلى ٢٠٩، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، حزيران ١٩٦٦م.

الوقت . وكان يُثني على جهود المهندس سالور ورغبته في هذه الأمور . ولما عدتُ إلى طهران راسلتُ سالور على مدينة درود ، فبعث لي الجزآن ٢٢ و ٢٣ من الكتراسات فوراً^١ .

وهذه المقالات والكتراسات مأخوذة من كتاب بعنوان «مغز متفكر جهان شيعه» (= العقل المفكر للعالم الشيعي) أو (= الإمام الصادق عليه السلام كما عرفه علماء الغرب) الذي ترجمه ذبيح الله منصورى إلى الفارسيّة .

قامت دار منشورات «جاويدان» بطبع الكتاب المذكور لأول مرة سنة ١٣٩٥ هـ . وذكر مترجمه في مقدمته أنّه حصل عليه من مركز الدراسات الإسلاميّة في مدينة ستراسبورغ^٢ . ولم يقتصر هذا المركز على الدراسات الإسلاميّة بل يتناول جميع الأديان في العالم بالدراسة ، ومنها الإسلام .

الباحثون في المركز المذكور ليسوا من سكّان ستراسبورغ الدائمين . فهم يعيشون في أقطار أخرى ، ما عدا أساتذة جامعة ستراسبورغ (الأعضاء في المجمع المتخصص بالبحث والدراسة في أديان العالم) . بيد أنّهم يرسلون دراساتهم إلى أمانة المجمع الواقع في المركز . ويجتمعون أحياناً في ستراسبورغ مرة في كلّ سنتين لتبادل الآراء ، كما أخبرني أحد أساتذة اللغة الفارسيّة الذين يزاولون التدريس في جامعة ستراسبورغ .

١- لما زادت طلبات العلماء، وتعدّرت إعادة طبعتها، لهذا جمعت الكتراسات التسع عشرة الأولى في ثلاثة أجزاء جيّبة وعُرّضت للبيع . وهي بقلم السيّد محمّد صُحفي وتحمل عنوان «تعاليم الإسلام السماويّة» .

٢- وهي مدينة تقع في شرق فرنسا على الحدود الألمانيّة . جاء في مُعجم «دهنخدا» الفارسيّ: قاعدة الألزاس، مركز بارن، وتبعد (٥٠٣) آلاف (كز) عن باريس . (الكز: مقياس طول يعادل (١٦) عقدة أو ذراع . (ج ٦، ص ٢١٤٧) .

وقد تناولت إحدى الدراسات التي قام بها العلماء في المجمع المذكور المذهب الشيعي الإمامي الأثني عشري . وساهم فيها خمسة وعشرون عالماً من أعضاء المجمع . ونقلتُ قسماً من تلك الدراسة في كتاب «الإمام الحسين وإيران» ، كما أنّ قسماً آخر منها يترجم للإمام السادس جعفر الصادق عليه السلام .

ويعدّ المترجم هنا أسماء العلماء الخمسة والعشرين ، وأولهم (أرمان بيل) أستاذ جامعتي بروكسل وغان ، وآخرهم (هانس رومر) أستاذ جامعي في ألمانيا الغربيّة .

جميع الأسماء غير معروفة ما عدا (هنري كوربان) وهو أستاذ جامعي ومدير الدراسات المرتبطة بعلوم الأديان ، و(توفيق فحل) وهو أستاذ في جامعة ستراسبورغ ، والسيد حسين نصر ، وهو أستاذ في جامعة طهران ، والسيد موسى الصدر مدير المعهد العلمي للدراسات الإسلاميّة في صور .

من الحرّيّ بالعلم والاطلاع أنّ أهميّة الكتاب تعود فقط إلى موقف أشخاص غير مسلمين وغير شيعة من العلوم اللدنيّة المتنوّعة للإمام جعفر الصادق عليه السلام ، التي أفصحت عنها العلوم المعاصرة . كما تعود إلى اعترافهم بعظمته وأبته العلميّة من خلال ما بلغوه ، وإن كان ذلك ضئيلاً قاصراً بالنسبة إلينا نحن الشيعة الذين نعتقد بولايته وعلومه الغيبية وأسراره الملكوتية عليه السلام .

ومن مباحث الكتاب المذكور مناظرات جابر بن حيان المستغرقة في أربعة فصول منه بالتفصيل . وقد اخترنا من كلّ فصل مطالب موجزة جداً . وهي كما يأتي :

قال جعفر الصادق : بلى يا جابر قلتُ هذا وهو رأيي .

فقال جابر : أنت تقول : الله موجود في كلّ مكان فلا بدّ أن تصدّق أنّه

موجود في كل شيء أيضاً .

فأجابه جعفر الصادق بالإيجاب .

قال جابر : فقول من يذهب إلى أنّ الخالق والمخلوق شيء واحد صحيح إذن . إذ لو قلنا : إنّ الله موجود في كل شيء فلا بدّ أن نؤمن بأنّ كل شيء هو الله حتّى لو كان حجراً أو ماءً أو نباتاً .

قال جعفر الصادق : ليس كذلك وقد أخطأت . والله موجود في الحجر والماء والنبات ، لكنّها ليست هي الله ، كما أنّ الزيت موجود في السراج لكن السراج ليس زيتاً .

الله موجود في كل شيء ، لكنّه يكون فيه من أجل أن يتحقّق وجود ذلك الشيء أوّلاً ، ويواصل حياته الجماديّة أو النباتيّة أو الحيوانيّة ويبقى ولا يفنى ثانياً .

الأصل في نور السراج هو بقاء زيتته وفتيلته ، لكنّ السراج ليس زيتاً وفتيلة . فوجود الزيت والفتيلة هو من أجل خلق النور في السراج . وليس للسراج أن يزعم أنّه هو الزيت والفتيلة لوجودهما فيه . ومحال أن يكون المخلوق الذي أوجده الخالق خالقاً . وكلّ من كان يعتقد بوحدة الخالق والمخلوق فيما مضى فهو مخدوع بالشكل الظاهريّ لاستدلّاله . وكانوا يقولون : لمّا كان الخالق موجوداً في كلّ ما وُجد في هذا العالم ، فكلّ ما فيه هو الله .

ولو صحّت هذه العقيدة فلكلّ موجود من الموجودات في العالم قدرة إلهيّة كالله . لكن العالم يخلو من موجود له قدرة إلهيّة .

هل استطاع القائلون بهذا الرأي أن يوجدوا حصيّةً واحدةً؟! إذ إنّ ما تستلزمه وحدة الخالق والمخلوق هو أن يكون الإنسان إلهاً ، وتستلزم إلهيّة أن يفعل ما يفعله الله ، ويخلق الكون بكلمة « كن » ، ويخلق الإنسان

من نطفة .

هل استطاع القائلون بوحدة الخالق والمخلوق الذين يرون أنفسهم
آلهة أن يفعلوا ما يستبين أنّ له صفات إلهية؟!

عندما يقال لهؤلاء: أنتم تذهبون إلى أنكم آلهة، فافعلوا واحداً من
أفعال الله لنستيقن أنكم هو، يقولون: نحن كذلك لكننا لا ندري أننا هو .

فهل يمكن أن نقرب بهذا الكلام الفارغ الذي يُشبهه كلام الأطفال؟!^١
إلى أن يقول: قال الإمام: لَمَّا كان الأصل في الحكمة، سواء في
عصر الإغريق أم في عصرنا، أنّ الأشياء لا تفنى وإنّما تتغيّر أشكالها،
فالإنسان لا يفنى أيضاً ويتغيّر شكله بعد الموت. ويتغيّر فكره كما يتغيّر
هو ذاته، ولا شكّ أنّه يبقى بشكل آخر. وما يبقى من عوامله وصفاته
المعنويّة بعد الموت هو الروح.^٢

إلى أن قال: اعلم يا جابر أنّ الدين هو غير الحكمة. فكلّ ما يقال في
الحكمة يستند إلى الاستدلال ليقبله عقل السامع. والسامع قضية فلسفيّة
لن يقبلها إلاّ أن يُثبت قائلها صحتها بالدليل. لأنّ السامع حكيم كالقائل .
ولو لم يكن حكيماً فله في الحكمة رغبة وإلاّ فلا يرغب أن يسمع قضية
فلسفيّة ويفهمها .

كلّ مسألة متعلّقة بالحكمة إذا قيلت للحكماء أو لمن كان لهم ذوق
فلسفيّ ينبغي أن تتوكّأ على الدليل ويثبتها أصحابها كي يقبلها الحكماء .

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» (= العقل المفكّر للعالم الشيعي) أو (= الإمام الصادق
عليه السلام كما عرفه علماء الغرب) ص ٥١٥ إلى ٥١٧ الطبعة الأولى.

ولم نعر على نصّ كلام الإمام الصادق عليه السلام، فاكتمينا بتعريب ما ورد في الكتاب
المذكور، لذا اقتضى التنويه. (م)

٢- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٥١٨.

لذا لا بدّ من الدليل أو الأدلة في كلّ قضية فلسفيّة . وأنّ لكلّ مسألة فلسفيّة ارتباط بعقل الإنسان وما لم يقبلها العقل فلا تثبت صحتها^١ .
إلى أن قال : لا فائدة في كلّ توضيح يُقدّم للعوامّ حول المصلحة في حقائق الإسلام ، إذ لا معدّل للمرء عن طيّ مقدمات العلم من أجل أن يفهم الموضوع من الوجهة العلميّة ، وإلا لن يفهم شيئاً ، وأنّ سبّر غور الحقائق الدينيّة للعوامّ مع الدليل يعني تقديم التوضيح العلميّ لهم . ولا يفهم التوضيح العلميّ إلاّ من كان عالماً أو كان قد طوى مقدمات العلم . وتعلّم العلم يحتاج إلى إرادة ، ويجب أن تتوقّر هذه الإرادة عند الإنسان كي تحقّزه على طلب العلم . وهي معدومة لدى العوامّ ، وسبب ذلك أنّ العامّي يعلم أنّه إذا بدأ بطلب العلم فسوف تمرّ السنون بلا فائدة يقطفها .

بيد أنّه لو استبدل الزراعة أو تربية المواشي بطلب العلم فسوف يستفيد كثيراً ، ولا يتسنى استنباط النتائج المعنويّة التي تعود على الإنسان بالنع .

فالأفضل للعوامّ أن يكونوا من أولي الإيمان فحسب ، ولا يفهموا من أصول الدين وفروعه إلاّ ما يُستنبط من الظواهر^٢ .

إلى أن قال : قال جابر : آسى على عوامّ الناس ، لأنّهم لا يفهمون مصلحة أحكام الدين المبين ومفهوم كلام الله . وأحسب أنّهم لو فهموا ذلك لآتسع دين الله أكثر ممّا نراه اليوم .

فأجاب جعفر الصادق أنّ الأقلّيّة وحدها في الأديان السابقة جميعها هي التي تفهم أحكام الدين جيّداً وتقف على مصلحة كلّ ما تقرّر فيه ، فتلي قيادة الناس من الوجهة الدينيّة .

١ و٢- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٢٠، ٢٢ .

وهكذا الأمر في الإسلام ، فكما أنّ الأقلّيّة اليوم تلي قيادة الناس دينياً ، فالأقلّيّة من علماء المسلمين ستتقلّد زعامة الناس من الوجهة الدينيّة في المستقبل أيضاً ، واعلم أنّ هذا الوضع سيدوم مادام العلم غير عامّ^١.

٢- سؤال جابر بن حيّان حول الآلهة الثلاثة للهنود

طرح جابر هنا أسئلة مفصّلة حول السبب الذي دعا إلى تغيير قبلة المسلمين ، وواصل كلامه إلى أن قال : سمعتُ من التجّار الهنود الوافدين إلى جُدّة^٢ أنّ للهنود ثلاثة آلهة ، فهل تعرف أسماءهم؟! قال جعفر الصادق : أسماؤهم بالهنديّة براما (أو برهما) ، ويشنو وشيوا .

قال جابر : أعجب أنّهم لماذا يعبدون ثلاثة آلهة مكان التوحيد؟! قال جعفر الصادق : لأنّهم لم يريدوا أن يقبلوا كلام الله الواحد الحقيقيّ ، فاخترعوا ثلاثة آلهة من عند أنفسهم وعبدوهم . وهم يعتقدون أنّ براما ، أو برهما هو الإله الذي خلق العالم ، ويوردون شرحاً حول ذلك خلاصته : خلق براما العالم من نفسه ، وبعد خلقه تكفّل إليه آخر يُدعى ويشنو بحفظه ، والإله الثالث هو شيوا ، وهو إله الموت والفناء عند الهنود . وكلّ ما أوجده ويوجده الإله الأوّل براما يُفنيه الإله الثالث . ولا يستطيع الإله الثاني أن يحول دون عمل الإله الثالث المتمثّل بالإماتة والإفناء ، مع أنّه حافظ العالم^٣.

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٥٢٣ .

٢- جُدّة (بضمّ الجيم) : ميناء على ساحل البحر الأحمر ، يبعد عن مكّة قرابة ثلاثة عشر فرسخاً ، وجُدّة (بالفتح) سهو .

٣- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٥٤٢ و ٥٤٣ .

٣- سؤال جابر بن حيّان حول الحياة بعد الموت

دار هنا بحث مفصّل حول علماء اليونان ، إلى أن قال جعفر الصادق :
هل كنت في بطن أمّك إنساناً كاملاً ، لكنك صغير ، أم لا ؟!
قال جابر : نعم ، كنتُ إنساناً كاملاً .

فسأله جعفر الصادق : هل تذكر أنّك كنت تفكّر بالموت في بطن
أمّك أو لا ؟!

قال جابر : لا أعلم هل كنت أفكّر به أو لا ؟!

قال جعفر الصادق : دع ذكر الموت ، ماذا كنت تأمل في بطن أمّك ؟!
قال جابر : لا أذكر شيئاً عن حياتي في بطن أمّي .

قال جعفر الصادق : مع أنّك لا تذكر شيئاً عنها ، فهل ترى حياتك في
هذا العالم أفضل أو حياتك في بطن أمّك ؟!

قال جابر : كانت حياتي في بطن أمّي قصيرة لم تتجاوز تسعة أشهر .
قال جعفر الصادق : لعلّ التسعة الأشهر التي أمضيتها في بطن أمّك
تبدو لك أطول من الثمانين أو التسعين سنة التي ستقضيها في هذه الدنيا .
ذلك أنّ الزمان ليس واحداً بالنسبة إلى جميع الأشخاص في كافّة
الحالات ، وكلّ إنسان أدرك هذا الموضوع في حياته بقدر ما .

وأنا على يقين أنّ عدداً من الساعات قد تمرّ عليك بسرعة وكأنّها
ساعة واحدة ، وقد تمرّ عليك ساعة منها تطول وتطول حتّى تظنّها عدداً من
الساعات .

إنّ ما أقوله هو أنّ تلك الأشهر التسعة التي أمضيتها في بطن أمّك
لعلّها أكثر من العمر الذي ستعيشه في هذا العالم !

قال المترجم المحترم في الهامش معلّقاً : نلاحظ أنّ الإمام السادس
عليه السلام قد سبق بكرل الفرنسيّ ، وأينشتين الألمانيّ ، وهينتون

الإنجليزيّ باثني عشر قرناً في القول بنسبيّة الزمان ، ونحن ندرك ذلك في حياتنا العاديّة بخاصّة في الأحلام ، فقد نرى حُلماً يستغرق عدداً من السنين حين الرؤيا ، وعندما نستيقظ ندرك أننا لم نَنمَ أكثر من ساعة واحدة .

أجل ، إذا تجاوزنا كلام المترجم ، فإنّ الإمام عليه السلام يقول : يا جابر ! كنت في بطن أمك إنساناً حياً كاملاً ذا شعور ، ولعلّك كنت تأمل شيئاً بسبب هذا الشعور ، وها أنت تعيش في هذا العالم ولم يبق في ذاكرتك أدنى شيء من حياتك في بطن أمك .

ألا تفكر أنّك عندما كنت في بطن أمك ، كنت تريد أن تبقى فيها ولا تخرج منها أبداً ، وتتصوّر عدم وجود عالم أفضل من بطن الأم وأكثر راحة منه ؟ وغضبت بسبب الخروج الذي ربّما يعدّ نوعاً من الموت حتّى أنّك كنت تصرخ حين دخلت في هذا العالم ؟ لكنك تصدّق اليوم أنّ الدنيا التي تعيش فيها أفضل من الدنيا التي كنت تعيشها في بطن أمك !

قال جابر : مع أنّي لا أعلم كيف كانت حياتي في بطن أمي ، بيد أنّي أعتقد أنّ الدنيا التي أعيش فيها الآن أفضل من الدنيا التي كنت أعيشها في بطن أمي !^١

وللإمام عليه السلام مناظرة طويلة مع جابر يثبت فيها بقاء الروح بعد الموت وتجرّدها . وواصل كلامه حتّى قال : هل تشكّ في وجود الروح وحياتها المستقلّة حين الرؤيا (الحلم) أو لا ؟! قال جابر : لا أشكّ في ذلك .

قال جعفر الصادق : هل تقرّ بأصل الحكمة القائلة بأنّ شيئاً إذا وُجد لا يفنى ؟!

١- «مغز متفكر جهان شيعه» ص ٥٥٧ إلى ٥٥٩ .

قال جابر: نعم، أقرّ بذلك.

قال جعفر الصادق: فروحك التي وُجدت، ولا تشكّ في وجودها لا تفنى بعد موتك. ولما كان ما تعرفه «الأنا» هو روحك، لذا ستبقى أنت «الأنا» أيضاً، وستعرف نفسك بعد الموت.

قال جابر: لا أشكّ في وجود روحي حين الرؤيا (الحلم). لكنّ هذا الوجود تبعي لا انفرادي ومستقلّ. لأنّه لولا جسمي لا أرى حلماً، ولو لم أرَ حلماً فلا أشاهد روحي المجرّدة ذات الحياة المستقلّة.

قال جعفر الصادق: عندما تشرق عليك الشمس، ويكون ظلّك في الأرض، فهل ذلك الظلّ تبعي أو لا؟!

قال جابر: هو تبعي.

فسأله جعفر الصادق: لأيّ شيء يتبع؟!

أجاب جابر: يتبع شيئين: الأوّل: نور الشمس، والثاني: وجودي أنا. وبدونهما لا يوجد الظلّ.

قال جعفر الصادق: وفقاً لأصل الحكمة فإنّ ظلّك الذي يسقط على الأرض ويزول في الظاهر بعد غروب الشمس، لن يزول أبداً فضلاً عن روحك، ولو كانت ذات حياة تبعيّة^١.

٤- سؤال جابر بن حيّان حول النجوم

واصل جابر أسئلته بعد أن استفسر من الإمام عليه السلام عن سبب استمرار الكواكب السيّارة في الحركة، فقال: كيف تكون الكواكب في الفضاء؟!

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٥٦٤ و ٥٦٥.

قال جعفر الصادق : بعض الكواكب السماوية أجرام جامدة ، وبعضها الآخر أجرام سائلة ، وقسم منها وُجد من الأبخرة .
فسأله جابر متعجباً : كيف يمكن أن نقبل وجود الكواكب السماوية من الأبخرة ؟!

وهل يتسنى للبخار أن يتلألأ كما نشاهد الكواكب ليلاً ؟!

قال جعفر الصادق : لم تتكوّن جميع النجوم من الأبخرة ، لكن الكواكب التي تكوّنت من الأبخرة حارة ، والحرارة الكثيرة تسبّب تلالؤ الكوكب كما تسبّب تلالؤ الشمس . وأرى أنّ الشمس من الأبخرة أيضاً .

قال جابر : ما بال حركة الكواكب لا تمنع من سقوطها ؟!

قال جعفر الصادق : هل أدرت مقلعاً فيه حجر حول رأسك ؟!

أجاب جابر بالإيجاب .

قال جعفر الصادق : هل أوقفته فجأة عند التدوير ؟!

قال جابر : لا ، لم أوقفه !

قال جعفر الصادق : أوقفه مرّة عند تدويره لتعرف ماذا يحدث ، وبعد توقيفه يسقط ويهوي الحجر الذي فيه إلى الأرض ، وهذه قرينة على أنّ الكواكب تسقط إذالم تكن في حركة دائميّة .

سأل جابر قائلاً : أنت قلت إنّ كلّ كوكب نراه عالم بذاته .

فصدّقه جعفر الصادق .

سأل جابر : هل يعيش الإنسان في تلك العوالم كما يعيش في هذا

العالم ؟!

قال جعفر الصادق : لا أستطيع أن أجيبك حول الإنسان وأقول : هل

يعيش الإنسان في العوالم الأخرى أو لا ؟! ولكنتي لا أشكّ في أنّ كائنات

حيّة تعيش في العوالم الأخرى ، ونحن لا نراها بعد الكواكب عنّا .^١
ويواصل جابر أسئلته إلى أن يقول : كنتُ أتحدّث سابقاً مع رجل
يزعم أنّه مطلع ، فقال : يُؤاخِذُ بنو آدم جميعهم بذنب جدّهم . فسألته عن
سبب ذلك ، فقال : لا وجود للماضي والمستقبل عند الله ، فكُلّ ما هو
موجود زمان حاضر بالنسبة إليه . ولَمّا كان الآن هو الزمان الذي وجد فيه
آدم عنده ، فبنوه - وهم نحن - يؤاخِذون بذنب آدم وحوّاء .
قال جعفر الصادق : غفل هذا الشخص عن أنّه لا وجود للزمان عند
الله ، فيشملة الزمان ولو كان حاضراً . واشتمال الزمان من خصائص
المخلوق لا الخالق .

لو كان هذا الرجل مسلماً لقلت له : إنّ الله حسب كلامك قد صرّح
بأنّه يُدخل المطيعين الجنّة ويُدخل العاصين النار . ولكن لَمّا كان غير مسلم
(والآل لم يحدّثك بهذا الكلام) فينبغي إجابته بحكمة .
هذا الرجل فهم - من جهة - حقّاً وهو أنّ الله لا يشمله الماضي
والمستقبل ، لكن لا بمعنى عدم وجود الماضي والمستقبل بالنسبة إليه ،
أي : لا يستطيع أن يستنبط الماضي والمستقبل . وشتان بين من لا يشمله
الماضي والمستقبل ، وبين من لا يستطيع أن يفهم معنى الماضي
والمستقبل ! وأضرب مثلاً ليتيسر فهم الموضوع :

إذا حرثت الأرض وزرعت فيها قمحاً فإنّك تعلم ماذا سيكون القمح
في المستقبل ، لكنك سوف لن يشملك مستقبل تلك الغلّة . وحبّات القمح
التي بذرتها في الأرض ، لا تعلم ماذا سيكون مستقبلها ، لكنك تعلم ذلك
أسبوعاً بعد أسبوع ، وتعلم في كلّ أسبوع كيف يكون القمح ، ودرجة نموّه ،

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٥٧١ و ٥٧٢ .

ووقت حصاده .

القمح نفسه ، بناءً على استنباطنا ، لا يعلم عن ماضيه ومستقبله شيئاً (أقول : بناءً على استنباطنا ، لأنّ للقمح شعوراً لكننا لا نعلم كيفيته ، ونعتقد بأنّ القمح لا يعلم عن ماضيه ومستقبله شيئاً) لكنك أنت زارعه تعلم عن ماضيه ومستقبله جيّداً بدون أن يشملك ذلك الماضي والمستقبل !
الله أيضاً لا يشمل ماضينا ومستقبلنا . ولا يشمل ماضي هذا العالم ومستقبله ، لكنّه يعلم ماضي ومستقبل هذا العالم وكلّ موجود في هذه الدنيا .^١

سأل جابر : هل يأتينا يوم نعرف فيه الوسائل التي صُنِعَ بها العالم (أو الحياة) ؟!

قال جعفر الصادق : نعم يا جابر ! إذ إنّ ما أثبتته التجربة حتّى الآن هو أنّ للعلم فترات ركود وحركة . ولعلّ فترات حركة علميّة تظهر في المستقبل يفهم فيها الإنسان الوسائل التي صُنِعَ بها العالم .
سأل جابر : ممّ تنشأ الشيخوخة ؟!

قال جعفر الصادق : الأمراض التي تعتري الإنسان على نوعين :
أمراض حادة تعتريه فجأةً فيبرأ منها سريعاً أو تسبّب موته .

وأمراض مُزمنة وهي تدريجيّة وطويلة ، وتبقى في جسم الإنسان مدّةً ، وقد لا تُعالج حتّى تهلكه ، والشيخوخة نوع من المرض لكنّه مزمن .
قال جابر : هذه أوّل مرّة أسمع فيها أنّ الشيخوخة مرض .

قال جعفر الصادق : يصل هذا المرض إلى بعض الأشخاص عاجلاً ، وإلى بعضهم الآخر آجلاً . فالذين لا يتبعون تعاليم الله ولا ينتهون عن

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٥٨٦ و ٥٨٧ .

نواهيه يشيخون عاجلاً، بيد أن الذين يعملون بها يشيخون آجلاً^١.
قال المترجم المحترم في الهامش: لاحظوا كيف ينطبق كلام الإمام عليه السلام مع النظرية العلميّة الجديدة التي تذهب إلى أن الشيخوخة مرض. وقرأنا في مجلّة «علم وزندگی» (= العلم والحياة) الصادرة بباريس أن الشيخوخة ناتجة عن فيروس. ويعيش فيروس الشيخوخة في دور النمو ثلاثين سنة بنحو متوسط إلى أن يبلغ مرحلة الكمال. وإذا ما بلغها فإنه يقتل الإنسان، ولولا خشية الإطناب لنقلنا للقراء عمله كما جاء في المجلّة المذكورة^٢.

سأل جابر: هل يتسنى لأحد الموجودات في الدنيا أن يشدّ عن القواعد التي وضعها الله للعالم، ويعصيها؟!

قال جعفر الصادق: يا جابر! محال أن يستطيع موجود الخروج على القواعد التي أقرّها الله لإدارة هذا العالم ولو كانت نملة أو أصغر منها وهي الذرّة، وما تسبيح الموجودات التي لا روح لها في رأينا (لكن حركتها الحيويّة أكثر منّا) إلا طاعة للقواعد التي أقرّها الله لإدارة العالم.

قال المترجم المحترم في الهامش: صرّح الفيزيائيّ الإنجليزيّ السير آرتور دادينغتون المتوفّي سنة ١٩٤٤م بأنه إذا شدّت قطرة دم واحدة في جسم الإنسان أو أحد الأحياء الأخرى عن قانون الجاذبيّة العام فإنّ ردّ الفعل الناتج عن ذلك يدمر كحدّ أدنى عالم الشمس التي نعرف بأنّها لا تشدّ عن القانون المذكور.

وإذا كان هذا القانون سائداً في العالم كلّ بالشكل الموجود في عالم

١- «مغز متفكر جهان شيعه» ص ٥٩٣.

٢- «مغز متفكر جهان شيعه» ص ٥٩٤.

الشمس فسيُدَمَّر العالم (وتدلّ الاكتشافات التي جرت في الربع الأخير من القرن الحالي أنّ هذا القانون سائد في نقاط أُخرى من العالم أيضاً).
ويقول الفيزيائيّ المذكور: لو شدّت ذرّة واحدة في عالم الشمس عن قانون الجاذبيّة العامّ فسيُدَمَّر عالم الشمس، ويؤدّي إلى موتنا نحن المعدودين من كائنات هذا العالم.^١

سؤال المُفضَّل بن عمّرو^٢ حول ساعات السعد والنحس

كان المفضَّل بن عمرو أحد تلاميذ جعفر الصادق، وخلف آثاراً من دروس أستاذه.

سأله ذات يوم قائلاً: هل تصحّ ساعات السعد والنحس التي يعينها المنجّمون وأصحاب الطوالع؟! قال جعفر الصادق: كلّ ما كان من السّحر باطل، والله نهى عن السّحر.

قال المفضَّل بن عمرو: المنجّمون هم الذين يعيّنون ساعات السعد والنحس وهم ليسوا سحرة.

قال جعفر الصادق: ما كان من علم النجوم معيّن لساعات السعد والنحس فهو سحر، وهو باطل كسائر أقسام السّحر، والله نهى عن كلّ نوع منه.

قال المفضَّل بن عمرو: فجميع الذين كانوا يعتقدون بساعات السعد

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٦٠٢.

٢- ذكر علماء الرجال أنّ اسمه عمّرو، وقال بعضهم عمرو أيضاً. وأوردناه هنا كما أورده صاحب النص من أجل أن لا نتصرّف فيه.

والنحس هم على باطل .

قال جعفر الصادق : بلى يا مفضل ، ولكن في حياة الإنسان ساعات مساعدة وغير مساعدة .

قال المفضل بن عمرو : لو كان الأمر كذلك فماذا تختلف عن ساعات السعد والنحس التي يعينها المنجمون !؟

أجاب جعفر الصادق : ساعات السعد والنحس التي يعينها المنجمون تقوم على قواعد السحر . أمّا الساعات المساعدة وغير المساعدة الموجودة في الإنسان فهي مرتبطة بمزاج الإنسان ولا علاقة لها بالسحر .

يظهر الوضع المساعد أو غير المساعد عند كلّ أحد مرّة في عدد من الأيام ، وأخرى في يوم واحد . وسببه هو أنّ الأخلاط ليست على حالة واحدة في وجود الإنسان دائماً ، وتختلف في ساعات الليل والنهار ، وتقوم بعض الأعضاء الباطنية في الجسم بأعمال لا تتشابه في الليل والنهار . وكانوا يعرفون هذا الموضوع في الأزمنة القديمة ، وأحد الذين وقفوا عليه هو بقراط الطبيب ، وهو القائل إنّ الكبد يقوم بعدد من الأعمال في البدن ، لكنّه لا يقوم بها في لحظة واحدة ، بل يجعل لكلّ واحد منها موعداً . وهذا الترتيب الذي يضعه الكبد للأعمال قد يؤثّر في وضعنا المزاجي أياً ما وقد يؤثّر نهاراً وليلاً .

أذكرك بشيءٍ لأبّين لك كيف تكون ساعات السعد والنحس في وجودنا لا بالشكل الذي يذكره السحرة ، فأقول قد تختلف غلظة دمنا في اليوم حتّى الخمس أو حتّى الربع أحياناً . فعندما نستيقظ من النوم فجرّاً للصلاة فإنّ غلظة الدم تكون أقلّ من الزمان الذي ننام فيه بعد الأعمال اليومية بخمس أو حتّى بربع .

هذا الموضوع يؤثّر في حالنا وقد يُخملنا وقد يجعل نشاطنا قليلاً .

ومن ثمّ فقد نشط في يوم واحد عندما تكون غلظة الدم قليلة ، وقد نخمل حين تكون كثيرة .

المصابون بالربو إذا استعملوا دواءهم منتصف الليل فأثره أكثر ممّا لو استعملوه في النهار ، إذ تتولّد عندهم حالة في الليل تضاعف أثر الدواء . فمنتصف الليل ساعة سعد لهؤلاء في استعمال الدواء ، لأنّه يساعد في إزالة الانزعاج الناتج من الربو . ومع أنّ الربو لا يُعالج باستعمال الدواء منتصف الليل ، بيد أنّ الانزعاج يزول آنثذ فيستطيع المصاب أن ينام .

بعض الأطعمة التي نتناولها سعدٌ لنا وبعضها نحسّ . فالأطعمة التي لا تثقلنا ، ولا تحول دون قيامنا بأعمالنا ، ونشعر بالقوّة والخفة والنشاط إذا تناولناها يمكن أن نعبر عنها أنّها سعد .

أمّا الأطعمة التي تثقلنا فلا نستطيع القيام بأعمالنا من جرّائها فهي نحسّ إذ تولّد فينا آثاراً سلبية .

هذا هو السعد والنحس في حياتنا يا مفضل ، ولا وجود للسعد والنحس خارج المسائل المتعلقة بمزاجنا .^١

أجل ، هذه المطالب المذكورة نزر يسير من الكتاب الضخم ذي القطع الوزيريّ ، البالغ عدد صفحاته (٦٢١) صفحة .

وأشعر هنا أنّي أضنّ على القراء إذا لم أتُحفهم بذكر مقدار موجز آخر من هذا الكنز الذي راق أستاذنا العلامة . وهو نُخبة من بعض محتويات الكتاب التي لا تتعلّق بجابر بن حيّان والمفضل بن عمر . وتمثّل هذه النخبة عددين خاصّين من كتراسات (دائرة انتشارات درود ، دفتر مذهبي سيمان وفارسيت) (= مركز «دُرُود» للنشر ، مكتب «سيمان

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٦١٥ إلى ٦١٧ .

وفارسية) «الديني». وهاتان الكترستان هما اللتان وافتاني بريدياً .
 الكتراسة الأولى وعددها (٢٢) تحمل عنوان «حقائق علمية في
 الإسلام». ونقلها فيما يأتي نصاً لإيجازها وانتخابها ، ونورد في الهامش
 المواضع المذكورة مطابقة لأصل الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما تقدّم العلم البشريّ وخطا العلماء خطوات جديدة في اكتشاف
 أسرار الكون ، بانت قيمة التعاليم الإسلامية وعظمة قاداتها أكثر فأكثر .
 إنّ القوانين التي وضعها خالق الإنسان والعالم وبارئ الموجودات
 والعالم بأسرار الخلقة ورموزها تنسجم مع الفطرة ، ولن تبلى وتفقد شأنها
 واعتبارها أبداً .

الباحثون الواعون المنصفون الذين حصلوا على دراسة التعاليم
 الإسلامية أكبروا الدين وعبروا عن احترامهم له والثناء عليه بكلّ تواضع .
 واعتنق فريق منهم هذا الدين المقدّس وألزموا أنفسهم باتباعه حتّى
 آخر أعمارهم .^١ وذهب فريق آخر - بنظرته المنفتحة - إلى أنّ الإسلام
 دين العالم في المستقبل .

يقول الكاتب الإنجليزي الشهير برنارد شو (Bernard shaw) :

I have always held the religion of mohammad in the
 highest esteem because of its wonderful vitality it is the only
 religion wich appears to me possess assimilating

وتعريبه : أنا أحترم دين محمد غاية الاحترام دائماً لحيويّته العجيبة .

١- انظر : كتاب «لماذا أسلمتُ ؟ وكيف ؟» .

وهو الدين الوحيد الذي يبدو لي أنّه يستوعب شتى الظروف الحياتية المتغيّرة

هكذا أتوقع وقد ظهرت آثاره منذ الآن ، إذ ستقبل أوروبا دين محمّد في المستقبل . وكان رجال الدين في القرون الوسطى يقدّمون صورة مظلمة لدين محمّد نتيجة لجهلهم أو تعصّبهم . وكانوا يرونه ضدّ المسيح من منطلق حقدهم وتعصّبهم . ولقد طالعتُ حول هذا الرجل المتفوّق وتوصّلتُ إلى أنّه لم يكن ضدّ المسيح ، بل ينبغي أن يُسمّى منقذ البشرية .

وأحسب لو أنّ رجلاً مثله يقود العالم اليوم فسينجح في علاج مشاكله بنحوٍ يُضمن فيه السلام والسعادة التي يتوق إليها جميع الناس^١ .
إنّ الآثار التي تركها الأئمّة الطاهرون عليهم السلام وعلماء الإسلام الكبار قد أدهشت الباحثين والدارسين .

نحن الذين نعتقد بأنّ قادة الإسلام هم صفوة الله وعلومهم منبثقة من العلم الإلهي لا نعجب حين نقرأ النبوءات العلميّة لهؤلاء العلماء ، بيد أنّ الباحثين غير المسلمين الذين يريدون تحليل الأشياء من منظار العلوم البشرية الماديّة يُصابون بالدهشة والحيرة حتّى أنّهم لا يستطيعون كتمان دهشتهم وحيرتهم .

قامت مجلّة «خواندنيها» قبل مدّة بترجمة كتاب بعنوان «مغز متفكّر جهان شيعه» ونشره . والكتاب المذكور ألفه لفييف من العلماء والباحثين المسيحيّين (مركز الدراسات الإسلاميّة في استراسبورغ) .^٢ ويتناول

١- «عبادة الله والأفكار المعاصرة» ص ٢١ .

٢- Strasbourg من مدن فرنسا، مركز ولاية الألزاس، على نهر الراين. نفوسها ١٩٥٠٠٠ نسمة، وفيها كنائس فخمة. («فرهنگ عميد» (= معجم عميد). معلومات عامّة) فارسيّ .

الكتاب المذكور حياة الإمام السادس جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وعلومه بالدراسة والتحليل . وقد طبّق مؤلفوه الذين يتخصّص كلّ واحد منهم في فرع من الفروع العلميّة كلمات الإمام مع العلوم والاكتشافات الحديثة ، وكلّهم حائرون مندهشون ولسان حالهم : من أيّ مصدر أخذ الإمام الصادق عليه السلام ؟ وننقل فيما يأتي أقساماً من الكتاب المذكور ك نماذج :

تدريس علم الطبّ

لدينا روايتان : إيجابيّة وسلبية حول تدريس علم الطبّ بين يدي محمد الباقر عليه السلام . ويقول البعض إنّ الطبّ كان يُدرّس هناك ، في حين أنكر البعض الآخر ذلك . ولكن لا شكّ في أنّ جعفرأ الصادق حين شرع بالتدريس فإنّه كان يدرّس علم الطبّ ، وقد تركت آراؤه العلميّة في هذا المجال بصماتها على العلم المذكور . وكان الأطباء في القرنين الثاني والثالث الهجريين يستفيدون من آرائه الطيبيّة .^١

قلنا : إنّنا لا نعلم هل كان محمد الباقر عليه السلام يدرّس الطبّ أو لا ؟ وهل تعلّم ابنه ذلك العلم عليه أو لا ؟ ولكن لا نشكّ أنّ جعفرأ الصادق نفسه كان يدرّس علم الطبّ ، وقد أتى فيه بأشياء لم يأت بها الأطباء في الشرق من قبله . ولا نريد من الشرق شبه الجزيرة العربيّة لخلوّها من علم الطبّ ، وإنّما وصل إليها الطبّ من مناطق أخرى بعد الإسلام . وإذا سلّمنا أنّ الصادق عليه السلام تعلّم الطبّ من أبيه ، فذلك يستلزم أخذ الأب علم الطبّ من مكان معيّن ، ولا ندرى من أين أخذه .^٢

١ و ٢- مجلة «خواندنيها» بالفارسيّة العدد ٣٧ ، السنة ٣٣ .

ونحن نعلم أنّ جعفرأ الصادق عليه السلام لم يزاوِل الطّب فيستنبط تلك القواعد في سياق عمله . ولذا يبدو أنّه تعلّم تلك القواعد من أحدٍ . وإذا ما تعلّمها من أبيه ، فمن أين تعلّمها الأب نفسه ؟^١

التراب والهواء ليسا عنصراً واحداً

كان جعفر الصادق ذات يوم في درس أبيه الأستاذ - أي : الإمام محمّد الباقر عليه السلام - فدار الحديث حول رأي أرسطو^٢ في أصل الكون ، وأنّه يتألّف من عناصر أربعة هي التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ، فانقد هذا الرأي وقال : أستغرب أنّ رجلاً مثل أرسطو لم ينتبه إلى أنّ العناصر الأربعة ومنها التراب ليست عناصر بسيطة غير قابلة للتجزئة ، وقال : إنّ التراب مركّب من أجزاء وعناصر كثيرة ، وكلّ فلزّ من الفلزّات الموجودة في التراب عنصر مستقلّ .

وكان الاعتقاد بوجود عناصر أربعة سائداً من عصر أرسطو وإلى أيام الإمام الباقر عليه السلام ، أي ما يقرب من ألف سنة . والناس تذهب إلى ما ذهب إليه فلاسفة اليونان حول أصل الكون ، وكانت العناصر الأربعة تعتبر ركناً هاماً في علم الأشياء ، ولم يشكّك أحد في صحّة هذه النظريّة طوال هذه الفترة الممتدّة .

وبعد ألف سنة قال فتىّ لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره : إنّ التراب ليس عنصراً بسيطاً ، بل هو مركّب من عناصر كثيرة .

١- مجلة «خواندنيها» بالفارسيّة ، العدد ٣٧ ، السنة ٣٣ .

٢- Aristoteles من حكماء اليونان الكبار ، وهو الملقّب بالمعلّم الأوّل (٣٨٤-

٣٢٢ ق.م).

وهذا الفتى نفسه بعد أن بدأ في التدريس خطأ عنصراً آخر من حيث البساطة ، وقال :الهواء ليس عنصراً بسيطاً ، بل هو مركّب من عدّة عناصر . وقد سبق جعفر الصادق عليه السلام علماء القرن الثامن عشر الميلاديّ في أوروبا ، الذين اكتشفوا أجزاء الهواء وحلّوه ، بألف ومائة سنة فقال :الهواء ليس عنصراً بسيطاً ، بل هو مركّب من عناصر شتى .

إذا كان الجميع قد سلّموا بعد التفكير والتعقل أنّ التراب ليس عنصراً بسيطاً ، بل عناصر عدّة ، فلم يشكّ أحد في أنّ الهواء عنصر بسيط واحد .

لم يعلم أبرز علماء الفيزياء في العالم بعد أرسطو أنّ الهواء ليس عنصراً بسيطاً حتّى في القرن الثامن عشر الميلاديّ الذي كان من قرون العلم الزاهرة إلى عصر لافوازييه^١ الفرنسيّ . وكان عدد من العلماء يرى أنّ الهواء عنصر بسيط ، ولم يحسب أنّه مركّب من عدّة عناصر . بعد أن استخرج لافوازييه الأوكسجين وفصله عن سائر الغازات وبرهن على أثره الحيويّ الفعّال في التنفّس وفي حياة الإنسان وعمليّات الاحتراق ، سلّم جمهور العلماء أنّ الهواء ليس بسيطاً ، بل هو مركّب من عدّة غازات . وفي يوم من أيّام سنة ١٧٩٤م فصل رأس لافوازييه عن بدنه بالمقصلة^٢ . وانتهت حياة أبي الكيمياء الحديثة ، الذي لو قد مدّ في عمره لحقّق إنجازات أُخرى .

فلا بدّ إذن من الاعتراف بأنّ جعفرأ الصادق ، بذهابه إلى أنّ الهواء مركّب من عناصر مختلفة ، قد سبق العلماء بألف ومائة سنة .

١- Lawoisier كيميائيّ فرنسيّ يعدّ مؤسس الكيمياء الحديثة (١٧٤٣ - ١٧٩٤م).

٢- Guillotine آلة استعملت في فرنسا سنة ١٧٩٢م لإعدام المحكومين وفصل

ويذهب الشيعة إلى أنّه استنبط هذه الحقيقة العلميّة وغيرها من الحقائق بالعلم اللدنيّ، أي: علم الإمامة^١.
 يظهر هذا الموضوع لنا عادياً اليوم، إذ نعلم أنّ في الكون مائة وعنصرين، أمّا في القرن السابع الميلادي والأوّل الهجري فقد كانت نظريّة ثوريّة كبيرة. ولم تسلّم العقول البشريّة يوماً بأنّ الهواء عنصر مركّب، ونقول مرّة أخرى إنّّه لم يسع أوروبا في ذلك العصر والأعصار اللاحقة بعده حتّى القرن الثامن عشر الميلاديّ أن تستوعب ذلك الرأى العلميّ الثوريّ وأشياء أخرى نطق بها جعفر الصادق عليه السلام وسنذكرها في الفصول القادمة...^٢.

الأوكسجين

قال في درسه: الهواء مركّب من عدّة أجزاء، وينفذ أحد أجزائه في بعض الأجسام ويغيّرهما، وهو الذي يساعد على الاحتراق، ولولا مساعدته لا تحترق الأجسام القابلة للاحتراق.

وجعفر الصادق عليه السلام هو الذي وسّع هذه النظريّة، وهو القائل في دروسه أيضاً: إنّ الذي يساعد على احتراق الأجسام لو فصل عن الهواء وتحصّل بشكل خالص لكان من فعله النفاذ في الأجسام وتذويب الحديد.
 إذن، فقد سبق جعفر الصادق عليه السلام بريستلي^٣ ولافوازييه بألف سنة في اكتشاف الأوكسجين، وإن كان لم يطلق عليه اسم الأوكسجين أو مؤلّد الحموضة.

١- مجلة «خواندنيها» العدد ٣٩، السنة ٣٣؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» ص ٦٩ و ٧٠.

٢- مجلة «خواندنيها» العدد ٣٩، السنة ٣٣؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» ص ٧٢.

٣- Priestely عالم إنجليزيّ اكتشف الأزوت (١٧٣٣ - ١٨٠٤م).

ومع أن بريستلي قد اكتشف الأوكسجين لكنه لم يمكنه أن يتوصّل إلى أنه يُذِيب الحديد . ومع أن لافوازييه قد استنبط أقساماً من خواصّ الأوكسجين بالتجربة بيّد أنه لم يوفق إلى تجربة ذوبان الحديد بفعل الأوكسجين . أمّا جعفر الصادق عليه السلام فقد أدرك هذا الموضوع قبله بألف سنة . ونحن نعرف اليوم أنه متى حُمّي الحديد بالنار إلى درجة الاحمرار ، ثم وُضع في أوكسجين خالص ، اشتعل وانبعث منه شعلة مضيئة شبيهة بالفتيل الذي كان يغمس في الزيت في المصابيح القديمة . ويتسنى صناعة مصباح فتيله من حديد ويغمس في أوكسجين سائل ، وإذا اشتعل الفتيل إلى درجة الاحمرار فإنه يضيء الليل بنور متلألئٍ جداً .

وقد جاء في رواية أنّ الإمام محمّداً الباقر عليه السلام قال في درسه : إنّ الماء الذي يطفئ النار يستطيع أن يوقدها بفضل العلم . فحسب البعض أنّ هذا القول ملقّى على عواهنه ، أو أنه من قبيل الفكاهة أو خيالات الشعراء ، ولكن الذي تحقّق فعلاً منذ القرن الثامن عشر أنّ الماء يزيد النار اشتعالاً ، ويولّد قوّة محرقة أشدّ بكثير من نار الحطب ، لأنّ لغاز الهيدروجين ، وهو أحد العنصرين الهامّين في تركيب الماء ، قوّة إحراق إذا أُضيفت إلى قوّة الأوكسجين بلغت درجة حرارتهما ٦٦٦٤ درجة . ويطلق على هذه العملية اسم العملية الأوكسجينية الهيدروجينية ، وهي تستخدم في لحام الحديد والفولاذ ، أو في تقطيع الفولاذ وتثقيبه .^١

دوران الأرض حول نفسها

كان هنري بوانكاره^٢ الذي توفي سنة ١٩١٢م عن عمر ناهز السابعة

١- مجلة «خواندنيها» العدد ٤٠ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» ص ٧٤ .

٢- Poincare فيلسوف ورياضي فرنسي معروف (١٨٥٤ - ١٩١٢م).

والخمسين يُعدّ ألمع عالم في الرياضيات في عصره . ويدلّ تأريخ وفاته على أنّه أدرك بداية القرن العشرين .

مع هذا كان يقول : إنني غير متأكد من أنّ الأرض تدور حول نفسها . فإن صحّ بأنّ عالماً كهنري بوانكاره شكّك في مطلع القرن العشرين بدوران الأرض حول نفسها ، فمن اليسير علينا أن ندرك ماذا كان الناس يتصوّرون أو يقولون بشأن هذه النظرية في النصف الأوّل من القرن الثاني الهجريّ . ودوران الأرض حول نفسها لم يثبت عملياً إلاّ بعدما وضع الإنسان قدميه على سطح القمر ، وشاهد الكرة الأرضية من هناك .

وفي السنين الأولى من غزو الفضاء لم يستطع رواد الفضاء أن يروا دوران الأرض حول نفسها ، إذ لم تكن لهم قاعدة ثابتة يومذاك ، وكانوا في مراكب فضائية تنطلق بسرعة فائقة وتدور حول الأرض مرّة في كلّ تسعين دقيقة أو أكثر ، ولم تثبت أقدامهم في نقطة ما ليشهدوا منها حركة الأرض . ولكنهم عندما استقروا على سطح القمر ووجهوا أجهزة تصويرهم إلى الأرض شاهدوا عندئذٍ دوران الأرض حول نفسها ببطء ، فثبت دورانها عملياً آنذاك

صحيح أنّ غاليليو^١ كان يدرك جيّداً أنّ الكرة الأرضية تدور حول الشمس كغيرها من كواكب المنظومة الشمسية ، ولا يستبعد أبداً أن يكون قد انتهى إلى أنّ الأرض تدور حول نفسها . ولكننا لا نجد في مؤلفاته أثراً لهذا الكشف ... ولم يتحدّث في حياته عن دوران الأرض حول نفسها ، كما لم يُلحظ في كتاباته شيء يدلّ على أنّه كان قد عرف ذلك .

١- Galilee عالم ورياضيٍّ ومنجمٍ إيطاليٍّ معروف اخترع المنظار الفلكي (١٥٦٥- .

١٦٢٢م).

وفي القرن السادس عشر الميلاديّ كان عالم فلكيّ آخر يعيش في الدانمارك وهو «تيخو براهة» أو «تيكو براهة»، يعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وكان ينتمي إلى طبقة الأشراف المترفة في بلاده على النقيض من «كوبرنيكوس»^١ البولونيّ الذي كان رقيق الحال لا يجد ما يسدّ به جوعه ، في حين كان يتظاهر بالتترف ويقيم في قصره المآدب الفخمة .

وقد مهّدت أبحاث تيخو براهة - الذي توفي سنة ١٦٠١م - في علم الفلك طريق الكشف أمام العالم الألمانيّ كبلر^٢، فوضع هذا الأخير بفضل قواعده الفلكيّة الثلاثة المشهورة الخاصّة بحركة السيّارات - ومنها الكرة الأرضيّة - حول الشمس .

ولكن تيخو براهة لم يهتد بدوره إلى أنّ الأرض تدور حول نفسها . ولو اهتدى إلى هذه النتيجة لبادر إلى إعلانها ، كما كان يدعم حركة الأرض حول الشمس علناً .

وظلّت القوانين الثلاثة التي وضعها كبلر - المتوفّي سنة ١٦٣٠م - عن حركة السيّارات تظفر بإعجاب الأوساط العلميّة في ذلك الوقت إلى يومنا هذا . وذلك العالم الكبير الذي أثبت للعالم نبوغه العلميّ باكتشافه القوانين الثلاثة لم يهتد إلى حركة الأرض .

ولكنّ جعفرّاً الصادق عليه السلام اكتشف هذه الحقيقة العلميّة قبله باثني عشر قرناً ، وقال : إنّ الأرض تدور حول نفسها ، وإنّ تعاقب الليل والنهار ليس سببه حركة الشمس حول الأرض (وكان يرى ذلك مستحيلاً عقلاً) وإنّ الليل والنهار ناشئان عن حركة الأرض حول نفسها ، فيصبح

١ - Copernic عالم فلكيّ بولونيّ (١٤٧٣ - ١٥٤٣م).

٢ - Kepler فلكيّ ورياضيّ ألمانيّ مشهور (١٥٧١ - ١٦٣٠م).

نصف الكرة الأرضيّة في نهار مشرق ، ونصفها الآخر في ليل مظلم .
والقدماء الذين كانوا يعتقدون بكروية الأرض يعرفون أنّ نصف
الكرة الأرضيّة ليل ونصفها الآخر نهار ، بيد أنّهم كانوا يرون أنّ الليل
والنهار ناشئان عن حركة الشمس حول الكرة الأرضيّة .

فما الذي جعل الإمام جعفرًا الصادق عليه السلام يكتشف أنّ الأرض
تدور حول نفسها فيتعاقب الليل والنهار بسبب ذلك ؟

في حين أنّ علماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين
الذين ذُكرت أسماء بعضهم قد اهتموا إلى قسم من القوانين الميكانيكية
للنجوم دون أن يتوصّلوا إلى حقيقة دوران الأرض حول نفسها . بينما كان
الإمام الصادق عليه السلام يعيش في منطقة - المدينة - بعيدة كلّ البعد عن
عواصم العلوم ، فكيف اكتشف هذه الحقيقة ؟^١

نشأة الكون

قال جعفر الصادق بشأن نشأة الكون :

نشأ الكون من جرثومة ، وهذه الجرثومة أصبحت قطبين متضادين ،
وهذان القطبان المتضادان سببا نشوء الذرّة ، ثمّ نشأت المادّة ، وتنوّعت ،
وتنوّعها ناشئ من قلة ذرّاتها أو زيادتها .

ولا تختلف هذه النظرية عن النظرية العصريّة الخاصّة بالذرّة وأصل
الكون . وقد أشار الإمام إلى وجود قطبين متضادين ، وهو ما يماثل القوتين
الإيجابيّة والسلبيّة داخل الذرّة ، ومنهما تتألّف الذرّة نفسها ، وتتولّد المادّة

١- مجلة «خواندنيها» العددان ٤٧ و ٤٨ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» منتخب
من ص ١١٧ إلى ١٢٠ .

من الذرّة ، والتفاوت الملحوظ بين الموادّ (أي : العناصر) ناشئ من قلّة أو كثرة الأشياء التي يمثّل داخل الذرّة فيها العناصر الموجودة
ترى الشيعة أنّ اهتداء الإمام إلى أسرار الكون والنجوم وعلوم الفيزياء والرياضيات وما إليها إنّما هو من خصائص الإمامة ، أي : من مقتضيات العلم اللدنيّ ... وقد شرعنا القول في علم الإمام الصادق عليه السلام بالجغرافية وعلم الهيئة والنجوم والفيزياء في مبحث نشأة الكون ، وها نحن نواصل كلامنا في علم الإمام بالفيزياء ، وسنصل بعده إلى مباحث أُخرى ، ونقول : تعرّض جعفر الصادق في مباحث الفيزياء لمسائل لم يتعرّض لها أحد ، لا قبله ولا بعده إلى منتصف القرن الثامن عشر وإلى القرنين التاسع عشر والعشرين^١ .

تركيب الإنسان

كان من رأي الإمام الصادق عليه السلام كغيره من المسلمين أنّ الإنسان خُلِق من تراب ، ولكن التوضيح الذي أتى به لم يقل به غيره من المسلمين لا قبله ولا بعده في العصور المتعاقبة . ولم يقدّم أحد بشرح أفكار الإمام الصادق عليه السلام بشأن الكيان البشريّ . فإن وجدنا شرحاً في العصور التالية للإمام فهو من صنع تلاميذه أو روّاد مدرسته .

يقول الإمام الصادق : إنّ جسم الإنسان يتألّف من نفس العناصر الموجودة في الأرض ، ولكن بنسب متفاوتة ، فهناك عناصر توجد في جسم الإنسان بنسبة أكبر من نسبة وجودها في الأرض ، وهناك عناصر

١- مجلة «خواندنيها» العددان ٤٧ و٤٨ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» منتخب من ص ١٢٣ إلى ١٢٥ .

أخرى توجد بنسبة أقلّ منها. كما كان يقول: إنّ هناك أربعة أشياء توجد في جسم الإنسان بصورة أكبر من سواها، كما أنّ هناك ثمانية أشياء تأتي في مرحلة ثانية، وثمانية أشياء هي أقلّ ممّا في القسمين الأوّلين. ولا ريب في أنّ هذه النظرية غريبة وبعيدة عن فهم الإنسان، وأنّ المرء ليتساءل تلقاءها: هل كان للإمام الصادق علم باطنيّ (غيبّي) كما تقول الشيعة؟ وهل استنبط هذه النظرية بعلم الإمام دون العلم البشريّ؟ وفي رأينا أنّ من العسير التوصل إلى مثل هذه الحقائق العلميّة دون مختبرات علميّة عصريّة، ولكن هذا هو ما تناهى إلى علم الصادق قبل اثني عشر قرناً ونصف القرن ...

إنّ جعفرّاً الصادق سواء كان له علم الإمامة باعتقاد الشيعة، أم انتفع بشعوره الباطنيّ حسب نظريّة القائلين بالشعور الباطنيّ غير المحدود، أم كان يتمتّع باندفاع قويّة للحياة كما يراه برجسون،^١ قال شيئاً حول تركيب جسم الإنسان أثبت أنّه لا نظير له في علم التشريح بين معاصريه ومن جاء بعدهم في العصور اللاحقة.

إذ برهن التمحيص العلميّ الدقيق لنظريّة الإمام الصادق عليه السلام بعد اثني عشر قرناً ونصف قرن على أنّها نظريّة صحيحة، حتّى وإن كان الإمام لم يعط أسماء معيّنة لأجزاء الجسم والموادّ التي يحتويها. وقد قال الصادق: إنّ العناصر الموجودة في الأرض، وعددها مائة واثنان، موجودة في جسم الإنسان بدرجات متفاوتة. وإنّ بعضها يذهب من القلّة مذهباً يحول دون تعيين مقداره وحجمه بالدقّة المطلوبة... كما

١- Bergson فيلسوف فرنسيّ معروف، حائز على جائزة نوبل ١٩٢٧م (١٨٥٩-).

(١٩٤١م).

قلنا : ثبتت هذه النظرية اليوم .

إنّ العناصر الثمانية التي توجد في جسم الإنسان بمقدار ضئيل هي :
الموليبدينوم - السليوم - الفلور - الكوبلت - المنغنيز - اليود - النحاس -
الرصاص .

وأما العناصر الثمانية التي توجد في جسم الإنسان بكمية أكبر قليلاً
فهي : المغنيسيوم - الصوديوم - البوتاسيوم - الكالسيوم - الفوسفور -
الكلور - الكبريت - الحديد .

أما العناصر الأربعة التي توجد في جسم الإنسان بوفرة ، فهي :
الأوكسجين - الكربون - الهيدروجين - الأزوت (النيتروجين) .

لم يتسنّ للعلماء الاهتداء إلى هذه العناصر في جسم الإنسان في
غضون يوم أو يومين . فقد بدأ هذا العمل بعمليات تشريح دقيقة منذ بداية
القرن الثامن عشر الميلاديّ ، وكان لفرنسا والنمسا دور رياديّ في أوروبا
في علم التشريح .

لم يزاوّل علم التشريح في البلدان الأخرى إلا نادراً . ولم يكن له
وجود في الأقطار الشرقية ، وفي البلدان الأوروبية كانت الكنائس
الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية تخالف التشريح . أما في
النمسا وفرنسا فقد كانت عمليات التشريح تجري خفية خوفاً من معارضة
الكنيسة .

مع هذا ، لم يتسع نطاق التشريح في فرنسا حتى عهد الطبيب
الفرنسيّ (مارا) ، وكان يجري بخفاء تقريباً . وقام مارا بالاشتراك مع عدد
من العلماء الفرنسيين ومنهم لافوازييه الشهير - الذي قطع رأسه بالمقصلة
سنة ١٨٩٤م - بتحليل الأنسجة والخلايا في جسم الإنسان للوقوف على
أسرارها ومكوناتها .

وبعد وفاة مارا ، استمرّت التجارب والتحليل على جسم الإنسان يُجريها تلامذته والمتأثرون به ، وظلّت هذه التجارب تجري طوال القرن التاسع عشر وإلى مطلع القرن العشرين .

كان التشريح في بداية القرن الثامن عشر الميلاديّ مقتصرأً على فرنسا والنمسا ، ثمّ راج في سائر البلدان الأوروبّيّة ، وبلدان القارّات الأخرى . وأصبح اليوم متداولاً في كلّ مكان من العالم إلاّ بعض البلدان التي ليس فيها كليّة الطبّ والجراحة .

أيّما كان التشريح فإنّ التحقيق يجري حول العناصر التي يتألّف منها جسم الإنسان . وقد تختلف نتيجة التحقيق في الجزئيات بين مركزين ، أمّا في الأرقام الكبرى فلا اختلاف بينهما ، والتناسب الذي ذكره جعفر الصادق محفوظ بشأن جميع الأشخاص السالمين في كافّة الأقطار .^١

الأوكسجين والهيدروجين في الماء

لم يتمثّل إعجاز جعفر الصادق في تحريك الجبل ، بل يتمثّل في كشفه وجود الأوكسجين في الهواء قبل اثني عشر قرناً ونصف القرن ، وكذلك اهتدى آنذاك إلى أنّ في الماء شيئاً يحترق . من هنا ذكر أنّ الماء يتبدّل ناراً .

الذين يقولون : أبرز إعجاز لأحد الأنبياء كلامه ، ينطقون بكلام له أساسه القويّ كما يبدو ... إذ إنّنا عندما نسمع أنّ جعفرأً الصادق اهتدى في النصف الأوّل من القرن الثاني الهجريّ إلى وجود الأوكسجين

١- مجلة «خواندنيها» العدد ٧١، السنة ٣٣؛ و«مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٢٦٢ إلى

والهيدروجين معاً (في الماء) نصدّق في قلوبنا أنه إعجاز
 يذهل الإنسان في كَيْفِيَّةِ اهْتِدَاءِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ أَوْ أَبُوهِ (مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ)
 إِلَى وَجُودِ غَازِ الْهَيْدْرُوجِينِ الَّذِي لَا وَجُودَ لِخَالِصِهِ فِي الطَّبِيعَةِ ، وَلَيْسَ لَهُ
 لَوْنٌ وَرَائِحَةٌ وَطَعْمٌ !؟

جَعْفَرِ الصَّادِقِ أَوْ أَبُوهِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى وَجُودِ الْهَيْدْرُوجِينِ
 إِلَّا فِي الْمَاءِ ، وَلَمْ يَتَسَنَّ لَهُ أَنْ يَعْرِفَ ذَلِكَ بِلَا تَحْلِيلٍ لِلْمَاءِ .
 إِنَّ تَحْلِيلَ الْمَاءِ يَسْتَلْزِمُ اسْتِخْدَامَ التِّيَّارِ الْكَهْرِبَائِيِّ ، إِذْ لَمْ يَتَيَسَّرْ تَحْلِيلُ
 الْمَاءِ بِشَكْلِ آخَرَ . وَهَلْ اسْتَطَاعَ أَحَدُ الْاِثْنَيْنِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ التِّيَّارَ الْكَهْرِبَائِيَّ
 لِتَحْلِيلِ الْمَاءِ ، وَهُوَ مَا لَا يَقَعُ مَوْقِعَ الْقَبُولِ .
 إِنَّ أَوَّلَ مَنْ نَجَحَ فِي فَصْلِ الْهَيْدْرُوجِينِ عَنِ الْمَاءِ فِي الْأَعْصَارِ الْجَدِيدَةِ
 هُوَ هَنْرِي كَفَنْدِيشِ الْإِنْجِلِيزِيِّ الَّذِي تَوَفَّى سَنَةَ ١٨١٠مَ عَنْ إِحْدَى وَثَمَانِينَ
 سَنَةً .

لَقَدْ جَهَدَ هَذَا الْعَالَمَ عِدَّةَ سِنِينَ لِتَحْلِيلِ الْمَاءِ ، وَحَصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى
 الْهَيْدْرُوجِينِ الَّذِي سَمَّاهُ الْهَوَاءَ الْقَابِلَ لِلْاِحْتِرَاقِ ، وَكَادَ يَحْتَرِقُ هُوَ وَبَيْتُهُ فِي
 أَوَّلِ مَرَّةٍ أَوْقَدَ فِيهَا الْهَيْدْرُوجِينِ

تَمَّ اكْتِشَافُ غَازِ الْهَيْدْرُوجِينِ فِي وَقْتِ كَانِ اسْتِخْدَامَ الطَّاقَةِ الْكَهْرِبَائِيَّةِ
 قَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ بِنَحْوِ تَيَسَّرِ فِيهِ تَحْلِيلِ الْمَاءِ بِاسْتِخْدَامِهَا .

أَمَّا فِي عَصْرِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ فَقَدْ كَانِ اسْتِخْدَامُ الطَّاقَةِ الْكَهْرِبَائِيَّةِ فِي
 حُدُودِ اسْتِعْمَالِ الْقَشِّ وَالْكَهْرِبَاءِ لِلْهَوِّ وَاللَّعْبِ ، وَكَانُوا يَدْلُكُونَ قِطْعَةً مِنْ
 الْكَهْرِبَاءِ بِقِمَاشِ صَوْفِيٍّ وَيَقْرَبُونَهَا مِنَ الْقَشِّ فَتَجْذِبُ الْكَهْرِبَاءَ الْقَشَّ .

هَلْ اهْتَدَى جَعْفَرُ الصَّادِقِ أَوْ أَبُوهُ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ إِلَى وَسِيلَةٍ لِفَصْلِ
 الْهَيْدْرُوجِينِ عَنِ الْمَاءِ ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا الْعُلَمَاءُ بَعْدَ ؟ وَهَلْ اسْتَطَاعَا أَنْ
 يَفْصِلَاهُ عَنِ الْمَاءِ بِوَسِيلَةٍ غَيْرِ التِّيَّارِ الْكَهْرِبَائِيِّ ؟

لم تُعرف وسيلة لفصل الهيدروجين عن الماء غير التيار الكهربائيّ منذ اليوم الذي نجح فيه كفنديش لأوّل مرّة في الحصول على الهيدروجين حتّى يومنا هذا ، ولم يستطع العلماء لحدّ الآن أن يفصلوه عن الماء إلاّ بهذه الوسيلة^١.

تلوّث البيئة

لم يعرف عصر جعفر الصادق عليه السلام من الصناعات إلاّ ما كان يدويّاً تقليديّاً ، ولم تكن الصناعة الحديثة قد عرفت في ذلك الحين . وكانت عمليّة صهر الحديد والفولاذ تتمّ داخل أوان كرويّة صغيرة على نار الحطب ، وهذا لا يخلق مشكلة خاصّة بتلوّث البيئة .

وحتّى لو استخدمت في صهر الحديد والفولاذ كمّيّات من الفحم الحجريّ بدلاً من الحطب ، فإنّ حجم هذه العمليّة لم تكن بالقدر الذي يؤثّر في تلوّث البيئة . وعندما شرعت ألمانيا الغربيّة وفرنسا وبريطانيا في إنتاج الحديد والفولاذ في مطلع القرن الثامن عشر الميلاديّ ، ثمّ تلتها دول أوروبيّة أُخرى ، لم تكن هناك شكوى من تلوّث البيئة بفعل هذه المصانع التي كانت تستخدم الفحم الحجريّ في صهر المعادن ، والتي كان دخانها يتصاعد من المداخن طوال السنة دون توقّف .

فإذا كانت هذه الدول لم تشكّ من التلوّث ، ولديها صناعة ضخمة للحديد والفولاذ وقودها الفحم الحجريّ ، فكيف وعصر الصادق عليه السلام الذي لم يعرف هذه المصانع الضخمة أصلاً ولم يعرف حتّى الفحم الحجريّ ؟

١- مجلة «خواندنيها» العدد ٧٥ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٩٣ و ٢٩٤ .

مع هذا قال جعفر الصادق ، وكأنه يرى العالم اليوم : «إن على الإنسان ألا يلوّث ما حوله» لكي لا يجعل الحياة شاقّة له ولغيره .

ولم يُعن العالم بموضوع تلوث البيئة إلا من نحو ثلاثين سنة عندما أُقيمت القنبلة الذريّة على اليابان ولوّث إشعاعها المنطقة المحيطة بمكان الانفجار .

ولو اكتفوا بذلك الانفجار لما تلوّثت البيئة ، فقد واصلت البلدان الحائزة على السلاح النوويّ إجراء تجاربها على ذلك السلاح ، وإلى جانب هذه التجارب تمّ تشغيل المصانع المولّدة للكهرباء بالطاقة الذريّة فازداد تلوث الجوّ من النفايات السامّة .

وأدّت المصانع الضخمة في أوروبا وأميركا دوراً كبيراً آخر في تلوث مياه الأنهار والبيئة ، لأنها كانت تلقي بنفاياتها في الأنهار الجارية ، مثل نهر (الرون) في أوروبا الغربيّة ، فقتلت الأسماك ، وتعرّضت بحيرات المياه العذبة في أميركا الشماليّة لمصير مماثل . وأخطر من تلوث الجوّ تلوث المحيطات ، لأنّ العوالق البحريّة (البلانكتون) التي تعيش فيها معرّضة للفناء لاسيّما وهي تعيش قريباً من اليابسة . ومن فوائد هذه العوالق البحريّة أنّها تولّد حوالي ٩٠٪ من الأوكسجين المنتشر في الأرض ، وإن فتك بها التلوّث هبطت نسبة الأوكسجين إلى ١٠٪ ، وهو ما لا يفي بحاجات التنفّس للإنسان والحيوان والنبات ، ممّا يهدّد الحياة نفسها ، وينذر بانقراض نسل الحيوان والنبات . وهذه النتيجة ليست مجرد نظريّة تحتمل الصدق والكذب ، بل هي محاسبة علميّة . فبسبب تلوث المحيطات يتناقص عدد العوالق البحريّة في كلّ سنة ، وسينخفض عددها إلى النصف بعد خمسين سنة ، مع ما يترتّب على ذلك من انخفاض الأوكسجين في الأرض بنسبة مماثلة .

ومعنى هذا أنّ الطفل الذي يولد اليوم ، والذي تكتب له الحياة إلى أن يبلغ الخمسين من عمره سيتنفس وقتذاك وكأنّه يتسلّق جبال الهملايا دون الاستعانة بجهاز أوكسجين .

وإذا استمرّ تلوث مياه المحيطات فسيكون تنفس الإنسان والحيوان بعد خمسين سنة كتنفس المصابين بالاختناق .

وإذا رغب امرؤ بعد خمسين سنة في إشعال عود ثقاب أو موقد الطهي ، لوجد صعوبة في ذلك لعدم توفر القدر الكافي من الأوكسجين في الهواء ، هذه حقيقة وليست خرافة ...

وقوفاً على عدم الالتزام بوصيّة جعفر الصادق عليه السلام بالألوث الإنسان ما حوله ، وكيف يفضي هذا إلى تورط شعب غنيّ بالمشاكل الناجمة عنه ، نضرب مثلاً باليابان ونقول :

ها نحن نرى اليابان متقدّمة في صناعات السيّارات ، والحاسوب الإلكترونيّ ، والأقمشة المصنوعة من الألياف الصناعيّة (السليوز) ، وفي صناعة السفن ، وأجهزة المذياع والتلفاز ، وأجهزة التصوير ، والدراجات الناريّة ، وهلمّ جرّاً ، ولعلّها تحتلّ المنزلة الثانية بعد أميركا في هذه الصناعات .

إذا أردنا أن نعرف كيف استطاعت اليابان أن تصل إلى هذا المستوى الصناعي والتجاريّ خلال فترة قصيرة وهي التي بدأت من الصفر ، خرجنا من نطاق بحثنا الذي يحوم حول تلوث البيئة . ونقول بإيجاز : ثمة عاملان أصليّان أوصلها إلى هذا المستوى ، وهما : الإدارة الجيّدة الكفوءة ، وإخلاص العامل اليابانيّ في عمله .

بيد أنّ هذا الشعب الغنيّ الفعّال لمّا لم ينتبه إلى أن يمسك عن تلوث البيئة ، فإنّه الآن لم يُمنَ بإشكال كبير فحسب ، بل عرض نفسه للخطر ،

ظهرت في اليابان أمراض لم يعهد تأريخ الطبّ مثلها بسبب تلوث البيئة ...^١

الآن أدرك الإنسان الأخطار الناجمة عن تلوث البيئة ، بخاصة الأرض والأنهار والبحار . أمّا أولوا الألباب الغابرون كجعفر الصادق عليه السلام فقد أدركوا ذلك قبل ألف ومائتي سنة فقالوا : إنّ على الإنسان أن يعيش بنحو لا يلوّث فيه ما حوله .^٢

إنّ ما تقدّم كان نموذجاً لآراء الباحثين في استراسبورغ حول أقسام من المعطيات العلميّة للإمام الصادق عليه السلام وقد نقلناها من مجلّة «خواندنيها» بيد أنّ الباحثين المذكورين قد حصلوا على دراسة حياة إمامنا السادس فحسب فأصابهم الذهول ، فكيف بهم إذا قاموا بدراسة حياة سائر الأئمّة عليهم السلام ؟ إذ لو ألقوا نظرة عليها لألفوهم مستودعاً للعلوم الإلهيّة كالصادق عليه السلام .

يتصدّر القرآن الكريم العلوم والآثار الإسلاميّة . وهو زاخر بالمسائل العلميّة التي اهتدى العلماء المعاصرون إلى بعضها .

الجادبيّة العامّة

يقولون : إنّ نيوتن^٣ هو الذي اكتشف قوّة الجاذبيّة ، والذي مهّد لهذا الاكتشاف هو سقوط تفّاحة من شجرة كان جالساً تحتها فخمّن وجود

١- «مغز متفكرّ جهان شيعه» مقتطفات من ص ٣٧٩ إلى ٣٨٧.

٢- مجلّة «خواندنيها» الأعداد ٨٩ إلى ٩١ ، السنة ٣٣ .

٣- Isaac Newton رياضيّ وفلكيّ إنجليزيّ مشهور ، وهو واضع نظريّة الضوء (١٦٤٢- .

١٧٢٧م).

جاذبيّة دائميّة بين الأجسام . وأيدت التجارب التي أجريت بعده صحّة هذه النظرية . بيد أنّنا لو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه قد صرّح بوجود هذه القوّة في العالم قبل أربعة عشر قرناً . قال تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...**^١

نصّت هذه الآية على أنّ الكرات السماوية ثابتة بفضل أعمدة لا تُرى ، وهذه الأعمدة هي قوّة الجاذبيّة العامّة .

إنّ البحث في هذا المجال ، وذكر أدلّة أُخرى يتطلّبان فرصة كبيرة . فعلى الراغبين مراجعة الكتب المفصّلة التي ألفها العلماء في هذا المجال . علماً أنّنا سنتحدّث أيضاً عن هذه الأمور في المستقبل بفضل الله تعالى - انتهى^٢ .

وننقل فيما يأتي الكراسة الثانية المتمثّلة بالعدد ٢٣ من مجلّة «الحقائق العلميّة في الإسلام» على نفس النسق الذي نهجناه في العدد ٢٢ المارّ ذكره .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ المباحث الواردة في القرآن الكريم وسائر الآثار الإسلاميّة ، التي هي بين أيدي العلماء ، تشتمل على مسائل علميّة عميقة وقد ظفر الباحثون أولو البصائر ببعضها وأدركوها .

لم تستخدم الاصطلاحات المعاصرة المتداولة في تلك الآثار ، بيد أنّ

١- الآية ٢ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢- كراسة «حقائق علمي در اسلام» (= الحقائق العلميّة في الإسلام) العدد ٢٢ ، مركز نشر شركة الإسمنت المساهمة في فارس وخوزستان ، درود ، المكتب الدينيّ لمعامل «سيمان وفارسيت» .

الباحثين على علم بأنّ عدم استخدامها يعود إلى عدم استعداد الناس يومئذٍ . وقد عرض أئمة الإسلام وقادته المطالب العلميّة العميقة بنحو يفهمه مجتمعهم نوعاً ما .

ففي عصرٍ لم يُصنَع فيه المِرْقَب (التلسكوب) ، ولم يُؤسَّس فيه المرصد ، ولم يُطَلَّع فيه أحد على الكون الفسيح . وفي عصرٍ لم تُكْتَشَف فيه الجراثيم ، ولم يُعْرَف فيه المجهر ، ولم يُطَلَّع فيه أحد على الكائنات الدقيقة المجرّدة . وفي عصرٍ لم يسخّر فيه العلماء الطاقة الكهربائيّة ، ولم تُطْرَح فيه الاكتشافات المتعلّقة بها ، تكون الأرضيّة غير مساعدة لإبراز الحقائق العلميّة ، ولا سبيل إلى تفهيمها وتبيانها إلاّ الإشارة أو استعمال العبارات والمصطلحات المتداولة آنذاك .

من هنا ، جاءت المسائل العلميّة جميعها في آثار أئمة أهل البيت عليهم السلام بمستوى تفهمه مجتمعاتهم وبألفاظٍ قابلة لإدراكهم . نقلنا في البحث المتقدّم مقتطفات من كتاب «مغز متفكر جهان شيعه» الذي يعرض قسماً من علوم الإمام السادس جعفر الصادق عليه السلام . ولما كان لهذه البحوث التي كتبها من الباحثين والعلماء المحايدين أثرها المطلوب على القراء ، ننقل فيما يأتي أقساماً أخرى منها :

ذكرنا سابقاً أنّ مجلّة «خواندنيها» قامت بنشر الكتاب على شكل مقالات متسلسلة بعد أن ترجمه الأخ منصوري إلى الفارسيّة .

وهذا الكتاب أعدّه لفيف من العلماء والباحثين المسيحيّين في مركز الدراسات الإسلاميّة في استراسبورغ ، وكلّ منهم متخصص في فرع من العلوم المختلفة .

تأسّس المركز المذكور في مدينة استراسبورغ مركز مقاطعة الألزاس الفرنسيّة على نهر الرون . ويزاول عمله في تحقيق ودراسة المسائل والآثار

والعلوم الإسلاميّة،^١ ويستأثر هذا الكتاب بدراسة آثار الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

النقطة التي ينبغي أن ننبه عليها هي أننا لم نغيّر في عبارات الكتاب شيئاً مراعاةً للأمانة. وإذا ما ذُكر اسم الإمام السادس عليه السلام مجرداً بلا تبجيل، فذلك يعود إلى أسلوب المؤلفين المحترمين أنفسهم. وفيما يأتي أقساماً من الكتاب:

الجنين في الجانب الأيسر من الأمّ

من مظاهر عبقرية جعفر الصادق توصيته للأمّهات بأن يرضعن أطفالهنّ وهم راقدون إلى الناحية اليسرى منهنّ.

وظلّت هذه التوصية طوال قرون ممتدة كتزيّد لا لزوم له أو تدخّل فيما لا يعني وسبب ذلك أنّ أحداً لم يدرك فائدتها. ولعلّ البعض كان يرى خطراً في تنفيذها ويخال أنّ الطفل الرضيع لو رقد إلى الجانب الأيسر من أمّه فربّما تتحرّك الأمّ عند نومها وتخنقه تحتها.

وعندما سئل محمّد بن إدريس الشافعيّ - الذي وُلد بعد وفاة جعفر الصادق بعامين (أي: في سنة ١٥٠هـ) في مدينة غزّة، وتوفّي في القاهرة في سنة ١٩٩هـ - عن رضاعة الطفل، وهل الأسلم أن يرضع الطفل وهو راقد إلى الجانب الأيمن من أمّه أو إلى جانبها الأيسر، ردّ قائلاً: لا فرق بين الأيمن والأيسر، وللأمّ أن تُرضع طفلها كما تشاء وبالأسلوب الذي يشعره

١- ذكر المترجم المحترم في مقدّمة الكتاب أنّ هذه المؤسسة متخصصة للتحقيق في جميع الأديان ولا تقتصر على الدين الإسلاميّ وحده. أمّا تلك اللجنة المؤلّفة من خمسة وعشرين عالماً ذُكرت أسماؤهم، فإنّها تتخصّص في الدراسات المرتبطة بالمذهب الشيعيّ.

بالراحة .

ورأى البعض أنّ كلام جعفر الصادق يغيّر العقل السليم ، وأنّه خالف ما جرت عليه الأمّهات من وضع الطفل في الناحية اليمنى عند إرضاعه ، وأنّ من الأكرم للأمّ وللطفل أن يكون في ناحية الميمنة عند الرضاع .

وهكذا خفيت الحكمة من هذه النظرية في الشرق وفي الغرب ، ولم يُقَمَّ أحد فيهما وزناً لها ، حتّى في عصر النهضة والتجديد حيث يهتم العلماء بكلّ موضوع علمي من منظار نقديّ . ولم يقع أحد على الفوائد المرجاة من تطبيقها عملياً عند الرضاعة .

ومرّت القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلاديّ ، وهي قرون التجديد ، ثمّ حان القرن التاسع عشر فأُنشئت جامعة كورنيل في ولاية نيويورك وبدأت عملها في النصف الثاني من ذلك القرن .

يُعزى الفضل في تأسيس هذه الجامعة إلى عزرا كورنيل الذي عانى في صغره عناءً شديداً من مشكلات الرضاعة ومتاعبها . ومن هنا اعتزم أن يُلحق بالجامعة مستشفى ، وأن يُلحق بالمستشفى معهداً لدراسة مشكلات الرضاعة والطفولة .

أنشأت جامعة كورنيل هذا المعهد في أوّل سنة دراسيّة . والتحق بكلّيّة الطبّ . وها هو يواصل عمله في دراسة كلّ ما يتعلّق بالطفولة والرضاعة منذ ما يربو على قرن من الزمان .

وقلّ أن تجد موضوعاً يتعلّق بالطفل أو بالرضاعة إلّا وقاه هذا المعهد دراسةً وبحثاً وخرج فيه بأسلم النتائج العلميّة . ولا يفوقه مركز علمي في العالم من حيث المعلومات المرتبطة بالرضع .

ويستحيل أن تجد موضوعاً مرتبطاً بهم إلّا وقد نال نصيبه من

الدراسة ، حتى اللوحات الزيتية التي رسمها كبار الفنانين للأطفال والتي تقتنيها متاحف الرئيسة ، ولوحظ أنّ معظم هذه الصور كانت تمثّل الأمّ حاملّة طفلها من الناحية اليسرى . ذلك أنّ عدد الصور التي دُرست كان ٤٦٦؛ صورة ، تبين أنّ ٣٧٣ صورةً منها تمثّل أمّهات يحضنّ أطفالهنّ في الناحية اليسرى ، في حين أنّ ٩٣ صورة كان الطفل فيها محمولاً من الناحية اليمنى . أي : أنّ ٨٠٪ من الصور الموجودة في المتاحف المعروفة ، والتي تمثّل الأمومة ، قد أظهرت الطفل محمولاً من الناحية اليسرى .

وفي ولاية نيويورك عدد من مستشفيات الولادة التابعة لمؤسسة كورنيل الجامعيّة للأطفال . والأطباء العاملون فيه يوافقون المعهد العلميّ للجامعة بالتقارير والملفات الطبيّة الخاصّة بالأطفال والأمّهات لدراستها .

ويستشفّ من التقارير المرسلة إلى هذا المعهد العلميّ في فترة غير قصيرة أنّ الطفل في أيامه الأولى يكون أهدأ وأقلّ بكاءً لو نام إلى الجانب الأيسر لأمّه . أمّا إن نام إلى الناحية اليمنى ، فهو يستيقظ في فترات قصيرة متقطّعة ويجهش في البكاء .

ويلاحظ أنّ هذه الدراسة تناولت الأطفال البيض والسود دون تفرقة . وقد برهنت في جميع الحالات على أنّ الطفل ، سواء كان أبيضاً أم سوداً أم هنديّاً أحمر ، يجد مزيداً من الراحة والهدوء إذا رقد إلى الجانب الأيسر لأمّه . وقد أنفقت جامعة كورنيل وقتاً طويلاً متواصلًا في بحث هذا الموضوع . وتوقّر للأطباء في مركز البحوث على فحص بطن الحامل بأشعة مجهولة حتى يروا الجنين فيها . لكنّ رؤيته لم تُضف إلى معلوماتهم شيئاً إلى أن تمّ اختراع جهاز هولوجرافي^١ .

١- هولوجرافي بمعناه البسيط : تصوير الأشياء الدقيقة جداً ، وهذا التصوير ذو

وبعد اختراع هولوغرافي حاول الأطباء تصوير الجنين في بطن أمه في وقت كشفته الأشعة المجهولة ، فتبين أن ضربات قلب الأم تُحدث أمواجاً تنتشر في جسمها وتصل إلى سمع الطفل . وبعد أن عرف الأطباء هذه الحقيقة ، رغبوا في معرفة الآثار التي تظهر في الطفل عند توقف ضربات قلب الأم . ولما لم يستطيعوا أن يوقفوا قلب الأم إذ يعني الموت للأم وللطفل معاً . فأجروا تجاربهم على الحيوانات المرضعة ، فتبين لهم أن إيقاف نبضات قلب الحيوان الحامل ينعكس على جنينه فوراً . وهي نتيجة تحققت من التجارب التي أُجريت على فصائل شتى من الحيوانات . وقطع الأطباء بأن توقف قلب الأم يؤثر تأثيراً مباشراً على الجنين ، وبوفاة الأم يموت الجنين بدوره ، لأن الجنين يتغذى من الشريان الأورطي المتصل بقلب الأم ويتأثر بنبضات قلبها . ولو توقف هذا النبض لانقطع الغذاء عن الجنين ولمات في بطن أمه .

وقد استنتج الأطباء من هذه التجارب أن الجنين لا يعتاد سماع ضربات قلب أمه فحسب ، بل إن حياته ترتبط أيضاً بهذه الضربات . فإن توقفت الضربات انقطع الغذاء عن الجنين ومات .

وقد اعتاد الجنين على سماع ضربات قلب أمه بنحو أنه إذا لم يسمعها بعد ولادته فإنه يشعر بالقلق . ويشخص تلك الضربات جيداً . وهذا هو السرّ في أن حمل الطفل من ناحية الأم اليسرى يجعله أكثر اطمئناناً

⇐ ثلاثة أبعاد. ولا يصورون به اليوم الأشياء الدقيقة فحسب، بل يصورون الصوت أيضاً. وتصل أمواج الصوت إلى العين على فيلم فوتوغرافي بشكل دوائر وأشكال بيضوية منظمة. وتبلغ قوة الجهاز المذكور في تصوير الأشياء مبلغاً يُرى فيه الكريّة البيضاء أو الحمراء في الدم بحجم الفيل.

وهودعاً ، وهو ما يفتقر إليه الجانب الأيمن للأمّ .

ولولا جهود المعهد العلميّ الجامعيّ الذي أسّسته جامعة كورنيل في دراسة أوضاع الطفل ومشكلاته الصحيّة والنفسيّة وأسباب الرعاية السليمة التي تُتاح له في أيامه الأولى ، لما عرفنا أهميّة النظرية التي ساقها جعفر الصادق في هذا المقام ، ومؤدّاها أنّ الرضاعة السليمة تقتضي من الأمّ توسيد طفلها إلى جانبها الأيسر لا الأيمن .

وقد ارتأى مركز الولادة ورعاية الطفل التابع لجامعة كورنيل تجهيز جميع فروعه ووحداته بجهاز يوضع في غرفة الأطفال الحديثي العهد بالولادة ، ومهمّته بثّ صوت شبيه بنبضات قلب الأمّ ، وزوّدت أسرّة الأطفال بجهاز مهمّته نقل صوت هذه الضربات إليهم . ومعروف أنّ قلب الشخص البالغ السليم يدقّ عادةً ٧٢ مرّة في الدقيقة .

ومن التجارب التي أُجريت على الأطفال زيادة عدد نبضات القلب إلى ١١٠ أو ١٢٠ نبضة في الدقيقة ، فكان من أثر ذلك انزعاج الأطفال وارتفاع أصواتهم بالبكاء . فإن أُعيدت النبضات إلى وضعها الطبيعيّ ، وهو ٧٢ دقة في الدقيقة كفّ الأطفال عن البكاء . وقد جُربَت هذه التجربة وأُعيدت في مراكز الرضاعة مرّات كثيرة فكانت نتيجتها واحدة .

وهناك تجربة أُخرى أُجريت على الأطفال الرضّع ، فقد وُضعت مجموعة منهم في غرفة بها جهاز يقلّد ضربات قلب الأمّ بحيث لا يسمعه الأطفال ، وُضعت مجموعة أُخرى في غرفة بحيث يسمعون ضربات قلبها ، فاتّضح للأطباء أنّ الأطفال الذين يسمعون صوت النبضات يزيد وزنهم بسرعة تفوق سرعة الوزن لدى الذين لا يسمعون ، في حين أنّ الغذاء المقدّم للمجموعتين متشابه من حيث النوع .

لكن في الغرفة التي يسمع فيها الأطفال صوت النبضات يأكلون

بشهيّة تفوق شهية الذين لا يسمعونه .

وبحثوا أيضاً في الصوت الاصطناعي لقلب الأم من حيث شدته ، وذلك في مراكز الولادة لمعهد الدراسات في جامعة كورنيل فعرفوا أنّ ذلك الصوت إذا كان أشد من الصوت الطبيعي لنبضات قلب الأم فإنه يُقلق الأطفال ويدفعهم إلى البكاء .

وقد قام الدكتور لي سولك ، وهو طبيب متخصص في طب الأطفال في معهد كورنيل الجامعي بجولة حول العالم لدراسة التقاليد التي تجري عليها الشعوب والأمم في إرضاع الطفل ورعاية الطفولة ، وكتب في تقريره يقول إنه رأى في مناطق شتى من العالم أمّهات يحتضنّ أطفالهنّ في الجانب الأيسر ، وذلك أثناء نهوضهنّ بأعمالهنّ أو عند عبور الطرق . كما لاحظ أنّ معظم الأمّهات اللاتي يحضنّ أطفالهنّ من الناحية اليمنى هنّ عسراوات (أي : يستخدمن أيديهنّ اليسرى) . بخاصّة إذا حملن زنبيلاً فإنّهنّ يحتضنّ أطفالهنّ في الجانب الأيمن حتّى يتسنى لهنّ حمل الزنبيل بأيديهنّ اليسرى .

ومما قاله الدكتور لي سولك في تقريره أنّه سأل عدداً من الأمّهات الخارجات من مركز الولادة عن سبب حملهنّ لأطفالهنّ من الناحية اليسرى وإرضاعهنّ لهم في هذا الوضع ، فلم تستطع الأمّهات تعليل ذلك ولا خطر ببال إحداهنّ أن تقول للدكتور سولك بأنّ الطفل يأنس بسماع صوت القلب عندما تحمله أمّه من الناحية اليسرى . والأمّهات يحضنّ أطفالهنّ في الجانب الأيسر بدون أن يعرفن سبب ذلك .

حتّى النساء الإفريقيّات السوداوات فإنّهنّ عندما يحملن أطفالهنّ على ظهورهنّ يجعلنهم في الجانب الأيسر من أجسامهنّ . وفي جميع الطوائف الإفريقيّة السوداء تعرف النساء أنّهنّ عندما يضعن الطفل في

الجانب الأيسر من صدورهن فإنه يرضع بنحو أفضل . وشهيته للارتضاع من الثدي الأيسر أكثر منها للارتضاع من الثدي الأيمن .
 وسمع الدكتور لي سولك من الأمّهات أنّ الطفل عندما يجوع ليلاً فإنه يهتدى إلى الثدي الأيسر في الظلام بسرعة محيرة ويلتقم الثدي ويرضع .
 إنهم يتعجبون لسرعة الطفل في وضع فمه على الثدي بدون أن يكون مصباح مضيء يرى الطفل بواسطته ثدي أمّه .
 ويوضح الدكتور لي سولك للأمّهات أنّ دليل الطفل للرضاع من الثدي أمّه ضربات قلبها ، وأنّه عندما يسمعها يهتدى إلى ثديها الأيسر ويضعه في فمه بلا تردّد .^١

الضوء وسيلة لانتقال المرض

... ومن النظريات التي قال بها جعفر الصادق وكشفت عن نبوغه العلمي وإحاطته الواسعة بدقائق العلوم نظريته المتعلقة بانتقال بعض الأمراض من المريض إلى السليم عن طريق الضوء .
 وذكر جعفر الصادق أنّ أمراضاً ينبعث منها ضوء ، فإذا أصاب الضوء أحداً انتابته العلة .

ولابدّ من ملاحظة أنّ هذا القول لا ينسحب على العدوى بطريق الهواء أو الميكروب (إذ لم تُكشف هذه الحقيقة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري) ، وإنّما ينصبّ هذا القول على الضوء ، وليس كلّ ضوء ، بل الضوء الذي يشعه المريض ، فإذا أصاب سليماً أمرضه .

١- مجلة «خواندنيها» العدد ١٠٠ ، السنة ٣٣ ؛ و «مغز متفكر جهان شيعه» ص ٤٥٥

وقد ذهب علماء الأحياء والطب إلى أنّ هذه النظرية ضرب من الخرافة ، اعتقاداً منهم بأنّ العامل الرئيس في انتقال المرض هو الميكروب أو الفيروس الذي ينتقل بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الحشرات أو الماء أو الهواء الملوث أو الاحتكاك المباشر بين المريض والسليم .

وكان الاعتقاد السائد قبل اكتشاف الميكروب والفيروس أنّ الرائحة هي السبب الفعّال في انتقال المرض . ولهذا صرفوا اهتمامهم إلى الحيلولة دون انتقال الرائحة من المريض إلى السليم . أمّا ما ذهب إليه الصادق عليه السلام من أنّ الضوء المشعّ المنبعث من المريض هو الذي يتسبّب في نقل العدوى ، فهو نظرية لم يقل بها أحد في أيّ مرحلة من مراحل تأريخ الطب الطويل .

وظلّت هذه النظرية معدودة من الخرافات في رأي العلماء والباحثين إلى أن جاءت التجارب العلمية المعاصرة معززة لها ومثبتة لصدق آراء جعفر الصادق ، إذ إنّ بعض الأضواء إذا انتقلت من المريض إلى السليم فإنّها تُمرضه . وكشفت هذه الحقيقة لأول مرّة في الاتحاد السوفييتي (السابق) .

ففي مدينة «نوو - وو - سيبرسك» الواقعة في الاتحاد السوفييتي ، في سيبيريا مركز من أهمّ مراكز البحوث في العلوم الكيميائية والطبية والبايولوجية . وقد استطاع هذا المركز أن يثبت أولاً : أنّ هناك من الأمراض ما يُشعّ ضوءاً . ثانياً : أنّ هذا الضوء قادر في حدّ ذاته على إصابة الخلايا السليمة وإيقاع المرض بها دون أدنى احتكاك بين الخلايا المريضة والخلايا السليمة ، ودون ميكروب أو فيروس ينتقل من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة .

أمّا الأسلوب الذي اتّبعه العلماء في مركز نوو - وو - سيبرسك في

إجراء تجاربهم فكان على النحو الآتي :

اختر العلماء مجموعتين من الخلايا الموجودة في كائن حيّ ، وفصلوهما عن بعضهما فرأوا أنّ تلك الخلايا تشعّ أنواعاً من الفوتون^١ ... وبعد أن اختاروا تينك المجموعتين من الخلايا المتماثلة من كائن حيّ وجعلوهما في قسمين منفصلين ، أدخلوا المرض على مجموعةٍ منها ليتابعوا تأثير إشعاعه ، فوجدوا أنّ الفوتون يشعّ من الخليّة المريضة أيضاً ، وأنّ المرض يمنع الخليّة من الإشعاع .

ثمّ انتقل العلماء إلى المرحلة الثانية من التجارب ، فوضعوا الخلايا السليمة في حافظتين إحداهما «الكوارتز» واسمها الآخر «السليكا» ، والأخرى من الزجاج .

ومعروف أنّ من خواصّ الكوارتز مقاومته للأشعّة ، فلا تخترقه إلاّ الأشعّة فوق البنفسجيّة ، في حين أنّ من خواصّ الزجاج العادي أنّ فوتون أنواع الأشعّة يخترقه ما عدا الأشعّة فوق البنفسجيّة .

وقد تبين للعلماء بعد انقضاء ساعات على الخلايا السليمة الموجودة في الحافظتين أمام الخليّة المريضة أنّ ما كان منها في حافظة الكوارتز أصيب بالمرض ، أمّا الخلايا التي كانت في الحافظة الزجاجيّة فقد بقيت سالمة .

... وقد أُعيدت هذه التجارب على أمراض مختلفة وعلى خلايا متشابهة أو مختلفة طوال عشرين سنة ، وبلغ عدد التجارب التي أُجريت خمسة آلاف ، وذلك للتوصّل إلى رأي علميّ ثابت بالبرهان العلميّ المتكرّر وبدون أيّ تردّد في نتيجة التجارب . وقد تشابهت نتائج هذه

١- تسمّى ذرّة الضوء : الفوتون.

التجارب ، ودلت بصورة قاطعة على أنّ الخلايا المريضة تنبعث منها أشعة مختلفة ، منها الأشعة فوق البنفسجية ، وأنّ الخلايا السليمة إذا ما أصابتها أشعة فوق البنفسجية صادرة عن خلية مريضة (لا أشعة فوق بنفسجية أخرى) ، انتقلت إليها نفس علة الخلية المريضة . وأنّ مرض تلك هو نفس مرض الخلايا المريضة .

ولم يحدث في جميع التجارب التي استمرت عشرين سنة أن تجاورت الخلايا السليمة والخلايا المريضة بحيث يقال إنّ عدوى الميكروب أو الفيروس انتقلت من هذه إلى تلك بالاحتكاك . فثبت للباحثين أنّ سبب انتقال العدوى هو الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلية المريضة ...

... ويستشفّ من التجارب التي أجراها أولئك العلماء أنّ خلايا جسم الإنسان كمحطة الإرسال والاستقبال ، تصدر عنها الأشعة ، كما أنّها تستقبل هذه الأشعة وتسجلها ...

... ولا ريب في أنّ النتائج التي أسفرت عنها هذه التجارب قد فتحت أمام علماء الأحياء والطب ميداناً جديداً يطرقونه لمعالجة الأمراض ...
... وقد أُجريت تجارب علمية مماثلة في الولايات المتحدة الأميركية فجاءت نتائجها متفقة مع ما انتهى إليه مركز الأبحاث السوفيتية . ونشرت المجلات الطبية والعلمية نتائج هذه البحوث ، كما وضع الدكتور «جون أوت» كتاباً في هذا الموضوع .

سُقنا هذا العرض للدّل على أنّ العلم الحديث قد جاء مؤكداً للنظرية التي دعا إليها جعفر الصادق في منتصف القرن الثاني للهجرة ومؤداها أنّ الضوء المنبعث من مرضٍ ما يتسبّب في إصابة الغير بالمرض ، وهي النظرية التي اعتبرت يومها من الخرافات البعيدة عن الواقع . فقد أقام العلم

الحديث البرهان على أنّ الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلايا المريضة تتسبب في نقل الأمراض إلى الخلايا السليمة . أمّا الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس فهي لا تُصيب الإنسان أو الكائنات الحيّة بالمرض إلا إذا وصلت إلى جسم الإنسان والحيوان دون أن تمرّ من الهواء ،^١ أي دون أن يفصل بينها وبين الكائن الحيّ عائق مثل طبقة الهواء . ولولا هذه الطبقة الهوائية العازلة لهلكت الكائنات الحيّة . ولكن هذه الأشعة نفسها ، بعد أن تمرّ بطبقة الهواء وتصل إلى الأرض فإنّها لا تُمرض أيّ كائن حيّ .

وصفوة القول : أنّ التجارب البيولوجيّة والطبيّة العلميّة الحديثة قد أثبتت صحّة نظريّة جعفر الصادق عليه السلام بعد ألف ومائتين وخمسين سنة .^٢

علوم العوالم الأخرى

من الأسئلة التي سئل بها جعفر الصادق سؤال مفاده : من نستطيع أن نعدّه عالماً مطلقاً ؟ ومتى يشعر الإنسان أنّه تعلّم كلّ شيء ؟ قال جعفر الصادق للسائل : اجعل هذا السؤال قسمين واسألني عن كلّ منهما على حدة !

لك أن تسأل في القسم الأول وهو : من نستطيع أن نعدّه عالماً مطلقاً ؟

١- مجلة «خواندنيها» العدد ٨٤ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» مقتطفات من ص ٣٤٨ إلى ٣٥٣ .

٢- مجلة «خواندنيها» العدد ٨٥ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» ص ٣٥٣ .

فأقول في جوابك : لا عالم مطلق إلا الله . ومحال أن يكون أحد أبناء البشر عالماً مطلقاً . إذ إن العلم واسع إلى درجة لا يستطيع المرء أن يعلم كل شيء فيه ولو عمّر آلاف السنين وكان مشغولاً بتعلمه طول المدّة المذكورة . ولعلّه يقف على علوم هذا العالم كلّها بعد آلاف من السنين . ولكن هناك عوالم أخرى ما وراء هذا العالم ، وفيها علوم ، فمن تعلّم كافّة العلوم في هذا العالم ودخل تلك العوالم فهو جاهل . وما عليه إلا أن يبدأ بتعلّمها كي يقف عليها .

فلا وجود لعالم مطلق إلا الله وحده . ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يُلمّ بجميع العلوم أبداً .

وسأل طلاب جعفر الصادق القسم الثاني من السؤال فقالوا : متى يغنى الإنسان بالعلم ؟

قال جعفر الصادق : أجبتُ عن سؤالكم في جوابي السابق وقلتُ : لو عمّر الإنسان آلاف السنين ، وانهمك في تحصيل العلم ، فلن يتسنى له أن يتعلّم كافّة العلوم .

إذن ، لن يأتي زمان يشعر فيه الإنسان أنّه غني بالعلم ، والذين يشعرون أنّهم استغنوا بالعلم هم جهلاء حقّاً ، والجاهل يرى نفسه مستغنياً عن العلم .

وسئل جعفر الصادق عن القصد من علم العوالم الأخرى ، فقال : ثمّة عوالم غير عالمنا الذي نعيش فيه ، وهي أكبر منه ، وفيها علوم تختلف عن علومه .

وسئل عن عددها ، فقال : لا يعلم ذلك إلا الله . وسئل : كيف يختلف علم العوالم الأخرى وعلم هذا العالم ؟ أليس العلم قابلاً للتعلّم ؟ وما كان قابلاً للتعلّم كيف يمكن ألا يُعدّ من علوم هذا العالم ؟

قال جعفر الصادق : في العوالم الأخرى ضربان من العلم . أحدهما يُشبه علوم هذا العالم . وإذا ذهب إليها أحد فإنّه يستطيع أن يتعلّمها . أمّا بعض العوالم الأخرى ففيها علوم تعجز عقول الناس عن إدراكها . إذ لا يتسنى فهمها بعقول الناس في هذا العالم .

كان كلام جعفر الصادق هذا لغزاً عند علماء الأجيال المتأخّرة . فبعضهم لم يره مقبولاً وذكر أنّ ما قاله في هذا المجال لا مسوّغ له .

ومن الذين امتروا فيه ابن الراونديّ الإصفهانيّ ، فقد قال : إنّ عقل الإنسان يستطيع أن يدرك كلّ شيء من العلم سواء علوم هذا العالم ، أم علوم العوالم الأخرى .

بيد أنّ تلاميذ جعفر الصادق قبلوا قول أستاذهم وذهبوا إلى أنّ في بعض العوالم الأخرى علوماً يعجز البشر عن تعلّمها ، لأنّ فكره قاصر عن إدراكها .

وتيسّر اليوم فهم ما قاله جعفر الصادق في هذا الحقل بعدما فتحت نظريّة أينشتين في النسبيّة فصلاً جديداً لا عهد للأذهان به في الفيزياء ، وبعدها تخطّت نظريّة وجود «مضادّ المادّة» حدودها النظريّة ودخلت مرحلة جديدة من العلم ، وثبت للعلماء وجود «مضادّ المادّة» .

ذلك أنّ في العالم المضادّ للمادّة قوانين فيزيائية هي غير القوانين الفيزيائية في عالمنا . وأكثر من ذلك قوانين المنطق والاستدلال فهي غير ما يستطيع عقولنا أن يضعها ويدركها .

العالم المضادّ للمادّة عالم في داخل ذرّاته شحن الإلكترون موجب ، وشحن البروتون «في نواة الذرّة» سالب . أمّا في عالمنا فعلى العكس ، إذ إنّ شحن الإلكترون سالب ، وشحن البروتون «في نواة الذرّة» موجب .

لا يعلم أحد القوانين الفيزيائية السائدة في عالم يكون فيه شحن

إلكترونات الذرّة موجباً ، وشحن البروتونات سالباً .
 في منطقنا واستدلّنا الكّل أعلى من الجزء . أمّا في ذلك فعللّ الجزء
 أعلى من الكّل ، وفكرنا قاصر عن أن يفهم هذا الموضوع ويقبله .
 عندما نغمس جسماً ثقيلاً في الماء فإنّ داخل الماء يخفّ حسب
 القانون الذي اكتشفه أرخميدس . ولكن لو غمسناه في ذلك العالم في داخل
 الماء أو سائل آخر فلعلّه يثقل .

وفي هذا العالم عندما نضغط على نقطة من سائل في إناء فإنّ هذا
 الضغط يصل إلى كافّة النقاط في ذلك السائل حسب قانون باسكال .
 واستُفيد من هذا القانون في صنع مكابح زيتيّة لوسائط النقل ، بخاصّة للثقلية
 منها . وإذا ما ضغط السائق بقدمه على دواسة المكبح التي تضغط على
 الزيت قليلاً ، وبلغ الضغط جميع نقاط الزيت ، فإنّها تضغط على عجلات
 الشاحنة ألف مرّة وتوقفها في لحظة واحدة .

بيد أنّ هذا القانون الفيزيائيّ لعلّه عديم الأثر في العالم المضادّ
 للمادّة ، ولعلّ الضغط البالغ نقطة من السائل لا يصل إلى نقاطه الأخرى .
 إذا دخل شخص من هذا العالم إلى العالم المضادّ للمادّة ؛ فلعلّه ينسجم
 تدريجيّاً مع قوانينه الفيزيائيّة التي تبدو له عجيبة وغير عاديّة كما ينسجم
 رواد الفضاء مع انعدام الوزن عندما يدورون حول الأرض بسفنهم الفضائيّة
 أو يضعون أقدامهم على سطح القمر . ذلك أنّهم تمرّنوا على انعدام الوزن
 في الأرض قبل إرسالهم إلى الفضاء .

أمّا الذي لا يستطيع أن يقبله الإنسان في العالم المضادّ للمادّة فهو
 الأشياء المغايرة لقوانين منطقته واستدلّاله .

فإذا رأى فيه أنّ الجزء أكبر من الكّل ، والناس لا يراعون القواعد
 الأصليّة في العمليّات الحسابيّة الأربع : الجمع والطرح والضرب والتقسيم ،

وشعر أنّ الحرارة فيه تجمّد الماء والبرودة تسبّب تبخيره بدون أن يكون خلاء ، فإنّه لا يستطيع أن يدرك تلك الظواهر اللاعقليّة .

هنا تبدو نظريّة جعفر الصادق القائلة بوجود علومٍ في بعض العوالم ، لا يستطيع الإنسان أن يتعلّمها مقبولة ...^١

... النتيجة المأخوذة من البحث المتقدّم هي : أولاً : كان جعفر الصادق يرى أنّ العلم غير محدود . ثانياً : وكان يذهب إلى أنّ في العوالم الأخرى علوماً لا يستطيع المرء أن يدركها بفكره الذي يدرك به علوم عالمه هذا . واليوم يتسنى لنا أن نفهم ، بعد النظرية النسبيّة لأينشتين ، وبعد النظرية المضادّة للمادّة التي ذكرنا بأنّها تخطّت الحدود النظرية ودخلت مرحلة علميّة ، بأن جعفر الصادق قد عرض نظريّة صحيحة قبل اثني عشر قرناً ونصف القرن .^٢

إنّ النماذج المذكورة الدالّة على قطرة من بحر علوم أهل البيت عليهم السلام اللامتناهي تبين لنا أنّ علومهم نابغة من منهل لا يبلغه الناس العاديون ، ولا يتيسّر الارتشاف منه إلاّ عن طريقهم عليهم السلام .

وتعلّمنا أيضاً أنّنا ينبغي ألاّ نقصّر في تطبيق التعاليم الإسلاميّة والعمل بإرشادات الدين المنجية مهما كان الأمر ، إذ إنّ لكلّ حكم حكمته ولكلّ أمرٍ فلسفة ، وعصيائها يستتبع مضاعفات تصيبنا وربّما لا تعوّض وقد تنسف أساس سعادتنا .

نبتهل إلى الله تعالى في ختام البحث أن يوفق عمّة المسلمين لاتباع

١- مجلة «خواندنيها» العدد ٦٨ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» ص ٢٤٥ إلى

.٢٤٩

٢- مجلة «خواندنيها» العدد ٦٨ ، السنة ٣٣ ؛ و«مغز متفكر جهان شيعه» ص ٢٥١ .

تعاليم القرآن الكريم بتوجيهات أهل بيت العصمة عليهم السلام ، ويسدّد خطاهم - انتهى^١.

قال جعفر الصادق : الهواء مركّب من عناصر ، وعناصره ضرورية للتنفس .

وبعد أن فصل لافوازييه الأوكسجين عن الغازات الأخرى ، ودلّ على أنّه سبب حياة الأحياء ، ذهب العلماء إلى أنّ الغازات الأخرى في الهواء عديمة الفائدة في حفظ الحياة . وهذه النظرية مخالفة لنظرية جعفر الصادق الذي قال : إنّ جميع العناصر الموجودة في الهواء ضرورية للتنفس .

وفي منتصف القرن التاسع عشر صحّح العلماء رأيهم في الأوكسجين بعدما تبينوا أنّ هذا العنصر الهامّ اللازم لتنقية الدم واستمرار الحياة عند الإنسان ليس على هذه الدرجة من الفائدة والنفعة للكائنات الأخرى ، إذ تبين أنّ هناك كائنات حيّة لا تقوى على استنشاق الأوكسجين الخالص فترة طويلة ، لأنّ خلايا أجهزتها التنفسية تتأكسد وتتآكل بتفاعلها مع الأوكسجين ، أي : أنّ هذه الخلايا تحترق بفعل الأوكسجين الخالص .

والأوكسجين في حدّ ذاته لا يحترق ولكنّه يساعد على الاحتراق . فإذا تعرّض له جسم ، وكان قابلاً للاحتراق ، فإنّه يحترق . وإذا تنفّست الخلايا الموجودة داخل رئة الإنسان أو الحيوان الأوكسجين الخالص فترة طويلة ، احترقت هذه الخلايا ، ومات الإنسان أو الحيوان . ولهذا يوجد الأوكسجين في الهواء مختلطاً بغازات أخرى كقيلة بمنع أثره السيئ والضارّ والحوول دون احتراق رئة الكائنات الحيّة نتيجة تنفس الأوكسجين

١- العدد ٢٣ من كراسة «حقايق علمى در اسلام» مركز النشر في شركة فارس و خوزستان المساهمة، المكتب الديني لمعامل سيمان و فارسيت.

الخالص . وبالوصول إلى هذه الحقيقة العلميّة صحّ ما ذهب إليه جعفر الصادق من أنّ الهواء مفيد للإنسان بمجموع أجزائه بما في ذلك أجزاءه من الغازات الأخرى التي يوجد منها مقدار ضئيل فيه .

ومن قبيل المثال ، نذكر أنّ لغاز الأوزون خواصّاً كيميائيّة مشابهة لخواصّ الأوكسجين . وقوام جزيء^١ هذا الغاز ثلاث من ذرّات الأوكسجين . وإذا كان الظاهر أنّ غاز الأوزون لا يقوم بدور هامّ في التنفّس فواقع الأمر أنّ له أثراً فعّالاً في تثبيّت الأوكسجين عند دخوله الدورة الدمويّة . أي : أنّه يحافظ على الأوكسجين في الدم ولا يدعه يذهب هباءً . وهذا يؤيّد ما ذهب إليه جعفر الصادق من أنّ الهواء - بكلّ أجزائه - ضروريّ للحياة . وهي حقيقة أميط عنها اللثام منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ومن خواصّ الغازات الموجودة في الهواء أنّها تمنع الأوكسجين من الترسيب . ونحن نعلم أنّ الأوكسجين غير مركّب في الهواء ، بل هو مختلط بالغازات الأخرى ، ولما كان أثقل الغازات الموجودة في الهواء فلا بدّ أن يترسّب حسب القاعدة . وهو أمر لو حدث لجعل الأوكسجين يملأ سطح الأرض إلى ارتفاع معيّن ، ولا تتخذت الغازات الأخرى مكانها فوق الأوكسجين ، ولأدّى هذا الخلل إلى احتراق جهاز التنفّس عند جميع الكائنات الحيّة ، ولانقرضت هذه الكائنات .

١- قال المترجم : الجزيء (Le Molleculle) هو أصغر وحدات العنصر أو المركّب وله جميع خواصّ العنصر . ولكنّه يفقد بعضاً من خواصّ المادّة متى قُسم إلى أقسام أصغر . وتتجلّى في الجزيء الحالات الثلاث للمادّة ، وهي الحالة الجامدة ، والسائلة ، والغازيّة . فإذا اقتربت الجزيئات بعضها من بعض تكوّنت الحالة الجامدة . وإذا ابتعدت بفعل الحرارة تكوّنت الحالة السائلة . فإن ازداد ابتعادها تكوّنت الحالة الغازيّة أو البخار . ونذكر بأنّ الجزيء هو غير الذرّة .

ولمّا نما نبات ، لأنّ النبات يحتاج بدوره إلى الأوكسجين ومعه الكربون كالكائن الحيّ . ولو حدث هذا الخلل لباتت حياة النبات مهتدة بأشدّ المخاطر . غير أنّ وجود غازات أخرى مختلطة بالأوكسجين في الهواء يحول دون رسوبه ، ويمدّ في حياة الإنسان والحيوان والنبات . وقد كان جعفر الصادق أول من فنّد القول بأنّ هناك عناصر أربعة ، فقوّض هذه النظرية من أساسها بعدما عاشت قرابة ألف سنة ، وكان شاباً يافعاً آنذاك ، بيدّ أنّه ذكر النظرية المتعلقة بالهواء بعد بلوغه سنّ الرُّشد وشرّعه بالتدريس .^١

ومن الأشياء التي ذكرها جعفر الصادق حول ظهور العالم نظرية القطبين المتضادين التي ظهرت أهميتها بعد القرن السابع عشر الميلاديّ عندما أثبت علم الفيزياء وجود هذين القطبين . والذين عاصروا الإمام ومن جاؤوا بعده ظنّوه قائلاً بما قال به القدماء من قبله من أنّ الشيء يُعرف بضدّه . ولكن ثبوت وجود القطبين المتضادين في الفيزياء وما نعرفه اليوم من علوم الذرّة والإلكترونيات قد قطعاً بسلامة هذه النظرية .

لقد بدأنا الكلام بعلوم جعفر الصادق من الجغرافية والهيئة والفيزياء في مبحث نشأة الكون والعناصر . ونواصل كلامنا في مبحث الفيزياء وسنصل منه إلى مباحث أخرى ، ونقول : إنّ جعفرأ الصادق قد تعرّض في الفيزياء لمسائل لم يتعرّض لها أحد ، لا قبله ولا بعده إلى منتصف القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر ، والقرن العشرين .

ومن ذلك مثلاً قانون الأجسام الصلبة . فقد صنّف تلك الأجسام إلى أجسام كدرة وأخرى مصقولة شفافة ، إذ قال : كلّ جسم صلب جامد يكون

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٧١ و٧٢ .

كدرّاً ، وكلّ جسم جامد دافع يكون لمّاعاً وشفافاً . وقال في الردّ على سؤال : ما الذي يجذب ؟ إنّ الحرارة هي التي تجذب .

وقد أصبحت هذه النظريّة في يومنا الحاضر قانوناً علمياً في الكهرباء والفيزياء . أفليس ممّا يُدهش أن يكون القائل بهذه النظريّة منتمياً إلى النصف الثاني من القرن السابع الميلاديّ ، والنصف الأوّل من القرن الثاني الهجريّ ؟

ولو سألنا في يومنا هذا مائة شخص كيف يكون من الأجسام الصلبة ما هو لمّاع وما هو كدير ؟ لما استطاع أحد منهم أن يجيب جواباً صحيحاً ، أي : أن يقول لنا سبب كون الحديد كدرّاً والبلّور لمّاعاً وشفافاً .

يقول القانون الفيزيائيّ الحديث : إنّ كلّ جسم تصدر عنه أمواج وأشعة حراريّة فيكون موصلاً جيّداً للحرارة (مُوصّل الحرارة) وللأمواج الإلكترونيّة (موصّل الكهرباء والأمواج المغنطيسيّة)^١ هو جسم كدر لا لمعان له . وإنّ الأجسام التي لا تنتقل منها الحرارة بسهولة (أي : غير الموصّلة للحرارة) ولا تنقل الأمواج الإلكترونيّة (عازلة) هي أجسام شفّافة لمّاعة .

ولم يتحدّث جعفر الصادق عن أمواج كهرومغنطيسيّة (كهربائيّة مغنطيسيّة) ولكنّه تحدّث عن الحرارة فحسب . وجاءت أقواله مطابقة لقوانين الفيزياء في يومنا هذا . وتقول القوانين الفيزيائيّة : إنّ سبب كدورة

١- الأمواج الإلكترونيّة (الكهرومغنطيسيّة) : هي الأمواج التي بواسطتها نسمع أصوات الإذاعة ونرى صور الإذاعة المرئيّة (التلفاز) ، والعلامات الإذاعيّة للعوالم الأخرى (كما ذكرت ذلك المجالات العلميّة الأوروبيّة والأميريكيّة). وإذا قُدّر للبشر ذات يوم أن يتراسلوا ويتحدّثوا مع سكّان الكواكب الأخرى فأكبر الاحتمالات أنّ ذلك سيتمّ عن طريق الموجات الكهرومغنطيسيّة.(م)

بعض الأجسام (كالحديد) هو أنّها تنقل الأمواج الكهرومغناطيسيّة . وبعبارة جامعة : أنّها مُوصّلة . في حين أنّ الأجسام التي لا توصل الحرارة أو توصلها ببطء وتحويل دون انتقال الأمواج الكهرومغناطيسيّة تعتبر أجساماً عازلة ، وتكون لمّاعة شفّافة .

وتقوم نظريّة جعفر الصادق في كدورة الأجسام أو صفائها على أساس الجاذبيّة . ولمّا سئل عن سبب كدورة الأجسام أو صفائها قال : إنّ الجسم الممتصّ للحرارة كدر ، والأجسام التي لا تمتصّ الحرارة شفّافة على اختلاف مراتبها .

ولا تقلّ نظريّة الجاذبيّة عند جعفر الصادق في أهمّيّتها عن نظريّته القائلة بوجود قطبين متضادّين . وهي تطابق قوانين الفيزياء الحديثة من حيث تعليل أسباب كدورة الأجسام الصلبة أو صفائها^١ .

ذكرنا فيما سبق أنّه قلّ أن يكون هناك موضوع علميّ وليس لجعفر الصادق رأي ذو وزن فيه . وتدلّ بعض نظريّاته على نبوغه العلميّ .

ومن ذلك ما قاله في ضوء النجوم . ومؤدّاها أنّ بين النجوم التي نراها في الليل ما هو أضخم من الشمس ، وإنّ لها من الأشعّة ما تضوّل أمامه الشمس وأشعتها .

إنّ المعلومات البشريّة المحدودة حول الكواكب تحول دون إدراك هذه الحقيقة في عصر جعفر الصادق وبعده إلى فترة أخيرة . وكان العلماء يظنّون أنّ ما قاله جعفر الصادق حول ضوء بعض النجوم بعيد عن العقل ، ولا يمكن قبوله ، ومحال أن تكون هذه النقاط الصغيرة المضيئة المعروفة بالنجوم شديدة الضياء بحيث يتضاءل أمامها ضوء الشمس .

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ١٢٥ و ١٢٦ .

وثبت اليوم بعد مضيّ اثني عشر قرناً ونصف القرن على عصر جعفر الصادق صحّة ما قاله ذلك الرجل العظيم ، إذ تبيّن للعلماء أنّ هناك مجموعات من النجوم السواطع تتضاءل تلقاء حجمها وضيائها الشمس نفسها .

ويطلق على هذه النجوم المضيئة اسم (الكوزرز)^١ الواحدة منها كوزار . وبعضها يبعد عن الأرض بمقدار تسعة آلاف مليون (تسعة مليارات) سنة ضوئية . وما يصل إلى المراقب الفلكية نهاراً وليلاً من الأمواج الصادرة عن هذه المجموعات يقطع المسافة الشاسعة بين هذه المجموعات وبيننا في تسعة آلاف مليون سنة ضوئية .

قلنا (نهاراً وليلاً) . ولعلّ البعض يتصوّر أنّنا قد أخطأنا إذ لا يمكن رؤية النجوم نهاراً ، بيد أنّ عدم رؤيتها نهاراً يعود إلى فترة لم يكن فيها مرقب راديو تلسكوبيّ . أمّا اليوم فإنّنا نشهد مراقب راديو تلسكوبيّة ضخمة ترصد النجوم والأنوار الساطعة المنبعثة منها حتّى في النهار ، منها مرقب (آرسي بوئه) في جزيرة (بورتوريكو) والذي يبلغ قطره ثلاثمائة متر^٢ .

ويساوي الضوء المنبعث من بعض هذه الكوازر ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرّة . وهو رقم ليس فيه خطأ أو شطط .
ووحدة قياس الضوء التي يستند إليها علماء الفلك في قياس ضوء

١- هذه الكلمة اختصار لعبارة إنجليزية هي :

Quasi Stellar radio sources ومعناها مصادر راديوية شبيهة بالنجوم .

٢- تجسيدا لضخامة المرقب الراديويّ التلسكوبيّ ، نقول : يبلغ طول ساحة كرة القدم مائة متر تقريباً . ولذا تكون سعة رصد المرقب المذكور ثلاثة أضعاف الساحة المشار إليه . (م)

النجوم هي ضوء الشمس . وللمرء أن يتصوّر الضخامة المتناهية لبعض المجموعات من الكوازر إذا كان ضوءها يعادل ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرّة . ولذا نقول بلا إغراق : إنّ ضوء الشمس ينحطّ أمامها ويصبح كضوء شمعة صغيرة . وإذا أردنا أن نجسّد عشرة مليارات ضعف الشمس ، نقول : نكتب العدد (١) ونضع أمامه ستّة عشر صفراً .

ورغبةً في رصد هذه المجرّات الضوئيّة الضخمة التي اكتشفت المجرّة الأولى منها في سنة ١٩٦٣م (وهناك أكثر من مائتي مجرّة قد اكتشفت حتّى الآن) فكّر العلماء في صنع مرقب فلكيّ سعة رصده كسعة رصد ثلاثين ألف متر (ثلاثين كيلومتراً) .

نقول : إنّ كسعة رصد ثلاثين ألف متر لاستحالة صنع مرقب راديو تلسكوب له هذه السعة . وبالنظر إلى استحالة ذلك بدأ العلماء يفكّرون في صنع مرقب كهربيّ له هوائيّات قويّة ترتفع على شكل حرف (Y) بحيث تكون المسافة بين كلّ رأس من رؤوس هذا الحرف واحداً وعشرين كيلومتراً ، وتتحرك الهوائيّات بين المحاور الثلاثة ويتمّ التحكّم فيه إلكترونياً .

ويبلغ طول الهوائيّات الثلاثة (٢١) كيلومتراً ، ولها قدرة على الرصد كما لو كانت سعة المرصد ثلاثين ألف متر ، ويتمّ توجيه هذا الجهاز إلى الكوازر لمشاهدتها بمزيد من الدقّة .

وقد اعتاد الفلكيّون منذ القرن الثامن عشر الميلاديّ على اكتشاف كتل ضوئيّة في السماء . وكانت المسافة السحيقة التي تفصل هذه الأجرام المضيئة عنّا من الأمور المألوفة التي لا تثير دهشة العلماء آنذاك .

ولكنّ لمّا رأى علماء الفلك مجموعة الكوازر البعيدة في سنة ١٩٦٣م مستعينين بمرقب (راديو تلسكوب) آرسي بوئه في بورتوريكو ، استولت

عليهم الدهشة ، لأنّها تبعد عنّا بمقدار (٩) مليارات سنة ضوئية ، في حين أنّ العالم أينشتين كان يعتقد بأنّ قطر العالم ثلاثة مليارات سنة ضوئية . ولكي تستطيع الأذهان إدراك مدى ضخامة هذه المسافة الشاسعة نذكر أنّ الضوء يحتاج إلى سنة كاملة كي يقطع بسرّعه الفائقة مسافة (٩٥٠٠) مليار كيلومتر . فإذا أردنا أن نعرف مقدار المسافة الحقيقيّة بين مجرّات الكوازر والأرض ، ضربنا (٩٥٠٠) مليار سنة في (٩٥٠٠) مليار كيلومتر .

وبغضّ النظر عن ضخامة هذه المسافة التي يتعذّر على العقل تصوّرها ، فإنّ ممّا يزيد في حيرة علماء الفلك أنّ مجرّات الكوازر تطلق ضوءاً ساطعاً يساوي ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرّة ، ولم يكتشف العلماء حتّى الآن كنه هذه الكوازر والعناصر التي تتركّب منها وتمكّنها من توليد كلّ هذه الحرارة والطاقة العجيبة .^١

... قال جعفر الصادق : إنّ لبعض النجوم ضوءاً هو من الشدّة بحيث يتضاءل أمامه ضوء الشمس .

وها هو العلم الحديث قد برهن على صدق نظريّة جعفر الصادق ، ودلّل على أنّ لبعض النجوم من الأشعة ما تتضاءل أمامه الشمس وأشعتها . أفلا يُستخلص من ذلك أنّ رجلاً عاش في النصف الأوّل من القرن الثاني الهجريّ كان عبقرياً في المباحث العلميّة ، وأدرك حقيقةً أطلّعنا عليها اليوم ؟

وثمّة سؤال قد يعنّ للباحث هو : أين تقع مجرّات (الكوازر) التي يبعد بعضها عن الكرة الأرضيّة بمسافة تسعة آلاف مليون سنة ضوئية ؟

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٣٦٠ إلى ٣٦٣ .

هل تقع في مركز الكون أو في أوله أو في نهايته ؟^١

قال جعفر الصادق : إنّ الكون لا ينحصر في عالما وحده ، وإنّما هناك عوالم أخرى . وها قد جاء العلم الحديث مبرهنًا على هذه النظرية ، وأقام الأدلة على أنّ هناك آلافًا من العوالم والمنظومات الشمسية ، وأنّها تبنى وتزول ما عدا مجرّات الكوازر ، فهي باقية على الدوام ...^٢

وهذا يؤكّد ما قاله جعفر الصادق . وكلّما تقدّم علم الفلك عرف الفلكيون أنّ عدد المجرّات والمنظومات الشمسية الموجودة في الكون هي أكثر ممّا كانوا يتصوّرون . حتّى أنّ عدد المنظومات الشمسية فيه تفوق العدد الذي ذكره أرخميدس لذرّات الكون قبل الميلاد بثلاثة قرون .

كان أرخميدس يقول : إنّ عدد الذرّات المبعثرة في العالم هو عشرة مضروبة في نفسها ٦٣ مرّة . وإنّ الذرّة هي أصغر أجزاء المادّة ولا تقبل التجزئة ، ولهذا سمّيت بالجزء الذي لا يتجزّأ ...^٣

من هنا ، فإنّ أكثر النظريات منطقيّة حول عدد العوالم الكبيرة والصغيرة هي نظرية جعفر الصادق ، إذ قال : إنّ العوالم الصغيرة والكبيرة لا يعرف عددها إلّا الله ، والمفهوم الآخر لهذه النظرية هو أنّ الإنسان عاجز عن إحصائها .^٤

ولقد سئل جعفر الصادق : متى خُلق العالم ؟ فكان ردّه : أنّ العالم خلقه الله ، ولا سبيل إلى تحديد زمانه . وقيل له : أخبرنا تأريخ نشأته .

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٣٦٥ .

٢- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٣٦٦ .

٣- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٣٦٦ و ٣٦٧ .

٤- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٣٦٨ .

فقال: لا سبيل إلى ذلك!

... وجملة القول: أنّ الشيعة تعتقد بأنّ جعفرأ الصادق كان يعلم بتاريخ ذلك، لكنّه لم يُرد أن يخبر به لئلا يضطرب الناس. قال جعفر الصادق: إن سألتموني مادمتُ حيّاً ماذا كان قبل هذا العالم؟ قلتُ: كان العالم موجوداً. وهذا يدلّ على أنّه كان يعتقد بأزليّة العالم^١.

أجل، هذه العلوم المبتكرة هي التي دفعت مؤلّفي الكتاب المذكور إلى القول في فصل مستقلّ: إذا ادّعينا أنّ النهضة العلميّة الأخيرة أوجدها جعفر الصادق فقد أصبنا. وبه صرّح المستشار عبد الحلّيم الجنديّ المصريّ في كتابه «الإمام جعفر الصادق» وذكر الدليل عليه.

ذلك الإمام الذي دُهِش المتقدّمون والمتأخرون لمعرفته، وحاروا في ذلك، وثنّموا منزلته الشامخة الرقيقة قلباً وفكراً وقولاً، وأقرّوا بإمامته المطلقة كحام لدين النبيّ، وسند رصين للكتاب السماويّ.

روى الشيخ أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ عن هشام بن الحكم أنّه قال: اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاعر الديصانيّ الزنديق، وعبد الملك البصريّ، وابن المقفّع عند بيت الله الحرام، يستهزئون بالحاجّ ويطعنون بالقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كلّ واحد منّا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضوع! نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلّهُ. فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوّة محمّد، وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه. فاتفقوا على ذلك وافترقوا. فلمّا كان من قابل اجتمعوا عند

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٣٦٩ و ٣٧٠.

بيت الله الحرام ، فقال ابن أبي العوجاء : أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية : فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا .^١ فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً ، فشغلتنني هذه الآية عن التفكير فيما سواها .

فقال عبد الملك : وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ مَا اسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .^٢ ولم أقدر على الإتيان بمثلا !

فقال أبو شاكر : وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا .^٣ لم أقدر على الإتيان بمثلا .

فقال ابن المقفع : يا قوم ! إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْءَ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .^٤ لم أبلغ غاية المعرفة بها ، ولم أقدر على الإتيان بمثلا .

قال هشام بن الحكم : فبينما هم في ذلك ، إذ مرّ بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، فقال :

قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .^٥

فنظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقالوا : لئن كان للإسلام حقيقة لما

١- الآية ٨٠ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٢- الآية ٧٣ ، من السورة ٢٢ : الحج .

٣- الآية ٢٢ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٤- الآية ٤٤ ، من السورة ١١ : هود .

٥- الآية ٨٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

أَتَتْهُ أَمْرٌ وَصِيَّةٌ مُحَمَّدٍ إِلَّا إِلَى جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَاهُ قَطُّ إِلَّا هِينَاهُ وَأَقْشَعَرَّتْ جُلُودُنَا لِهَيْبَتِهِ! ^١ ثُمَّ تَفَرَّقُوا مَقْرِينَ بِالْعَجْزِ.

ونقل الشيخ الراونديّ هذه الرواية باختصار في «الخرائج والجرائح»، كما رواها عنه الملام محسن الفيض الكاشانيّ في «الصافي»، واللام عبد علي ابن جمعة في «نور الثقلين»، والمجلسيّ في «بحار الأنوار» ^٢.

جعفر الصادق مؤسس العلوم العرفانيّة في الإسلام

جاء في كتاب «مغز متفكر» أيضاً: أنّ وجود العرفان في دروس جعفر الصادق يلفت نظرنا إلى كيانه المعنويّ أكثر فأكثر ويدلّ على أنّ لذوقه تجليات متنوّعة.

إنّ مبادئ العرفان منذ القرن الثاني الهجريّ الذي ظهر فيه العرفان لم تكن تزيد على سلوك العارف وقوّة تخيّلته وتأمله. وإذا كان من آثار العرفان على العارف تغيير أسلوب حياته والتأثير في خلقه وسلوكه وأدبه، فلسنا نشكّ في أنّ جعفرأ الصادق كان بهذا رائداً وإماماً للغير. ولكن لا علاقة لهذا السلوك المعنويّ بالعلوم التجريبيّة والماديّة في الإسلام.

وكان جعفر الصادق أوّل عالم وخبير في العلوم التجريبيّة في الإسلام. وهو أوّل عالم جمع بين النظرية العلميّة والتجربة العمليّة،

١- «الاحتجاج» ج ٢، ص ١٤٢ و ١٤٣، طبعة النجف.

٢- «الخرائج» ص ٢٤٢، الطبعة الرحليّة الحجريّة؛ و«تفسير الصافي» ج ١، ص ٩٨٨ و ٩٨٩، طبعة إسلاميّة، في تفسير قوله: قل لئن اجتمعت؛ وتفسير «نور الثقلين» ج ٣، ص ٢٢٠ و ٢٢١؛ وفي موضعين من «بحار الأنوار»: الأوّل: كتاب «معجزات القرآن» ج ٦، ص ٢٤٦، طبعة الكمبانيّ، وج ١٧، ص ٢١٣، الطبعة الحديثيّة، والثاني: كتاب «الإمام جعفر الصادق عليه السلام» ج ١١، ص ١٣٧ طبعة الكمبانيّ، وج ٤٧، ص ١١٧، الطبعة الحديثيّة.

ولم يكن يقبل أو يؤيد نظرية في الفيزياء أو الكيمياء إلا بعد التحقق منها بنفسه في التجربة العملية والاختبار. وعالم كهذا لا يهتم بعلوم نظرية بحتة اهتمامه بالعلوم التجريبية، إذ لا يمكن قياس العرفان بتجربة فيزيائية أو كيميائية، ولا يتأتى إلا بعد مدة طويلة من ترويض النفس.

وفي التاريخ الإسلامي أنّ جعفرًا الصادق كان أوّل عالم تحدّث عن الفيزياء والكيمياء، فلا ينبغي أن يُبدي رغبةً في العرفان حسب القاعدة، لكنّه في طليعة العرفاء والزهاد، حتّى أنّ الزمخشريّ المعروف، بعدما أثنى عليه ثناءً كريماً في كتابه «ربيع الأبرار» عدّه من طلائع العرفاء وزعمائهم.

وكان العطار النيسابوريّ صاحب «تذكرة الأولياء» يرى أنّ الصادق رائد للعرفاء. ولكن شتان بين ما سجّله الزمخشريّ، وبين ما أورده العطار. فقيمة ما كتبه الأوّل تفوق قيمة ما كتبه الثاني، إذ مضافاً إلى أنّ بعض الروايات في «تذكرة الأولياء» غير منظّمة من حيث تأريخ الوقوع،^١ إنّ الكاتب كان مغرماً متيّماً حين الكتابة، وكان عاشقاً للعرفان دون أن ينتبه إلى غلوّه في بعضها.

من هنا، نقول: إنّّه لم ينتبه إلى غلوّه، ولو كان فطن له لما غلّا، إذ كان يعلم أنّ المبالغة تقلّل من قيمة الكلام. وإذا وجدت المبالغة إلى التأريخ سبيلاً، فلا يتسنّى اعتباره تأريخاً. ويمكن القول: إنّ القلم في يد الزمخشريّ قلم مؤرّخ يتحكّم فيه العقل والدقّة، أمّا القلم في يد العطار فيتحكّم فيه الحبّ والعشق. وأيّاً كان الأمر، فالصادق يعدّ في تأريخ العلوم

١- يسمّى تنظيم الوقائع من حيث تأريخ الوقوع باللاتينية (كرونولوجي) وهو أحد المعايير المهمّة لتحديد صحّة سرد الوقائع التاريخية وسقمها.

الإسلاميّة من مؤسّسي علم العرفان أو أحد عرفاء العالم الإسلاميّ . وكان يحضر دروسه ويستفيد من علومه عدد من غير المسلمين أيضاً . فقد جاء في عدد من المصادر أنّ نفراً من الصابئة قرأوا عليه . والصابئة بآرائهم الدينيّة هم وسط بين المسيحيّة واليهوديّة ، وكانوا يعدّون من الموحّدين . ومنهم من كان مشركاً ، وبعد أن اتّسع نطاق الإسلام تظاهروا بالتوحيد كي يستطيعوا العيش مع المسلمين ، إذ نعرف أنّ المسلمين كانوا لا يتعرّضون للموحّدين الذين يسمّونهم «أهل الكتاب» بأذى .

وكان مركزهم «حرّان» غرب بلاد ما بين النهرين (العراق) . وكان هذا المركز يسمّى قديماً عند الأوروبّيّين بـ «كاره» بسكون الحرفين الثالث والرابع . ومن عادات الذين كانوا يعبدون الله منهم تعמיד الطفل (غسله) بعد ولادته وتسميته .

... ويقول صاحب كتاب «تذكرة الأولياء» :^١ كانت جميع الفرق تحضر درس الصادق وتنهل من نيميره .

ويقول الشيخ أبو الحسن الخرقانيّ^٢ لقد استفاد كلُّ من المسلم

١- صاحب هذا الكتاب هو فريد الدين محمّد العطار النيسابوريّ الذي اشتهر بالشيخ فريد الدين . ولد سنة ٥٤٠ هـ واستشهد في هجوم المغول على نيسابور سنة ٦١٨ هـ . وجميع كتبه منظومة مثل «منطق الطير»، و«إلهي نامه»، و«أسرار نامه» وغيرها . وله كتاب منشور واحد هو «تذكرة الأولياء» في ترجمة العرفاء والصوفيّة العظام . (م)

٢- ولد الشيخ أبو الحسن الخرقانيّ في قرية خرقان من توابع بسطام سنة ٣٥٢ هـ . وأخذ الخرقه من الشيخ أبي العباس أحمد بن محمّد القصاب الأمليّ . توفّي بخرقان ودفن بها سنة ٤٢٥ هـ . وله هذا الرباعيّ المشهور الذي يظنّ الناس أنّه لعمر الخيام النيسابوريّ :

اسرار ازل را نه تو دانی و نه من و این حرف معما نه تو خوانی و نه من
اندر پس پرده گفتگوی من و تو چون پرده برافتد نه تو مانی و نه من
يقول : «لا أنا ولا أنت نعرف أسرار الأزل ، ولا أنا ولا أنت نستطيع أن نقرأ هذا اللغز .»

والكافر من فضل الصادق عليه السلام وعلمه .

ولا ندري هل كان تسامح الصادق مع غير المسلم راجعاً إلى عرفانه وزهده ، أو أنه كان ينظر إلى الأمور بمنظار شامل . وكان يريد الخير والعلم للجميع . ولهذا فهو يسمح لمن حضر درسه بأن يستمع إليه ولو كان غير مسلم .

ومن الثابت أنّ بين تلامذته من كان صابئياً . وذهب بعض الباحثين الأوروبّيين - كما في «دائرة المعارف الإسلاميّة» - إلى أنّ جابر بن حيان - وهو من أشهر تلاميذ الصادق - كان من الصابئة أيضاً .

وكان الصابئة في درس الصادق أذكياء ، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم لاستيعاب الدروس وفهمها ، وتقدّموا في العلم ، وبهذا استطاعوا وضع أسس علميّة ثقافيّة للصابئة . وبموازنة ثقافة الصابئة قبل عهد الصادق وبعده نرى فرقاً شاسعاً كالفرق بين النور والظلمة .

وكان الصابئة قبل الصادق فئة متخلّفة لا تتجاوز معلوماتها معلومات البدو ، حتّى الموحّدين منهم فإنّهم لم يكونوا يعرفون الكثير ولم يكن علمهم يتجاوز علم البدويّ من العرب . لكنّهم أصبحوا بعد الصادق أولي ثقافة ، واشتهر علماء منهم في «الطبّ» ، و«الفيزياء» ، و«الكيمياء» ، و«الهندسة» . ونقرأ أسماءهم اليوم في دوريات المعارف والمعاجم .

وإلى الصادق يُعزى الفضل في أنّ الصابئة الغارقة في الجهل والحرمان قد أصبحت طائفة متقدّمة متمدّنة اشتهر كثير من أبنائها في ميادين العلوم المتباينة ، كما انتفع العالم بثقافتهم وعلمهم . وبفضل إشعاع مدرسة الصادق بقيت لهؤلاء القوم شخصيّتهم الخاصّة وكيانهم المستقلّ .

⇐ حوارنا أنا وأنت خلف الستار، وإذا أزيح الستار لأنت تبقى ولا أنا.

القوم الذين لا يعرفون عن أنفسهم شيئاً ويجهلون تأريخهم وليس لهم ثقافة تميّزهم ورجال بارزون يعلونهم ، ينقرضون .

أمّا الذين لهم تأريخ ويعرفون عن أنفسهم الشيء الكثير ولهم رجال لامعون وثقافة تميّزهم فإنّهم لا ينقرضون . كما أنّ الصابئة لم ينقرضوا ، ولهم وجودهم اليوم ، وإنّ قلّ عددهم عمّا كان عليه سابقاً . وما زال البعض منهم يعيش في المنطقة نفسها «حران» .

هناك إجماع بين الشيخ أبي الحسن الخرقانيّ ، والزمخشريّ ، والعطّار النيسابوريّ (ومن الطبيعيّ أنّ العطّار كان بعد الخرقانيّ) على أنّ جعفرأ الصادق هو قدوة العرفاء في التأريخ الإسلاميّ ، ولا غرو أن يذكره بعظيم الإجلال والاحترام والودّ .

ويمكن أن نعدّ الشيخ أبا الحسن الخرقانيّ باحثاً تأريخياً أيضاً ، لأنّه تناول جذر العرفان في مباحثه والتفت إلى أنّ العرفان كان موجوداً في الشرق قبل الإسلام^١ .

وبسبب اتّساع علوم الإمام وضخامة مدرسته العلميّة وصفه الشيخ أبو زهرة المصريّ بأنّه أفضل من سقراط ، ورآه وحيد عصره وملجأ علماء زمانه في أنواع العلوم وأقسامها .

يقول الشيخ محمّد جواد مغنّيّة : قال الشيخ أبو زهرة في كتاب «الإمام الصادق» : نشأ جعفر في مهد العلم ومعدنه . نشأ بيت النبوة الذي توارث علمها كابراً عن كابر . وعاش في مدينة جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله فتغذّى من ذلك الغرس الطاهر وأشرق في قلبه نور الحكمة بما درس ، وما تلقى ، وبما فحص ومحصّص .

١- «مغز متفكّر جهان شيعه» ص ٧٩ إلى ٨٣ .

وكان قوّة فكريّة في عصره ، فلم يكتف بالدراسات الإسلاميّة وعلوم القرآن والسنة والعقيدة ، بل اتّجه إلى دراسة الكون وأسراره ، ثمّ حلّق بعقله الجبّار في سماء الأفلاك ، ومدار الشمس والقمر والنجوم ، كما عني عناية كبرى بدراسة النفس الإنسانيّة . وإذا كان التأريخ يقرّر أنّ سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الإنسان ، فإنّ الإمام الصادق قد درس السماء والأرض والإنسان وشرائع الأديان .

وكان في علم الإسلام كلّه الإمام الذي يُرجع إليه . فهو أعلم الناس باختلاف الفقهاء ، وقوله الفصل والعدل . وقد اعتبره أبو حنيفة أستاذه في الفقه .^١

مراحل التشيع وسبب التسمية بالمذهب الجعفريّ

ذكر الشيخ مغنيّة ثلاث مراحل للتشيع وكيفية تبلوره وتمذهبه بالمذهب الجعفريّ .

الدور الأوّل :

قال : والخلاصة أنّه بعد وفاة النبيّ اجتمع الأنصار في سقيفتهم يتداولون فيما بينهم ، لتكون الخلافة فيهم ولهم دون قريش . فقصدهم أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة الجراح ، وتمكّنوا من صرف الخلافة عن الأنصار إلى أبي بكر . وكان بنو هاشم في شغل بمصيبتهم وتجهيز الرسول . وعارض قوم من الأصحاب العارفين لحقّ عليّ ، وأصرّوا على أن تكون

١- «الشيعة والتشيع» ص ٢٥٢ و٢٥٣ ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت .

الخلافة له ، ولكن القوّة كانت ضدّهم . فكفّوا عن المعارضة وأمسكوا وأظهروا التسليم ، ولكنهم بثّوا الدعوة لعليّ بين الناس ، ونقلوا إلى الأجيال ما سمعوه من نصّ النبيّ على عليّ .

فالدعوة إلى التشيع في هذا القرن كانت بسيطة ساذجة تماماً كالدعوة الإسلاميّة في هذا العهد لا فلسفيّة فيها ، ولا شيء سوى حجج القرآن والسنة النبويّة التي قبلها المسلمون الأوّلون ، وآمنوا بها بدون جدال وتعليل وتأويل ، ولا تعمق في الشروح والتفاصيل ، ولم يكن في هذا الدور فقه يعرف بفقه الشيعة ، وآخر يعرف بفقه السنة ، ولذا لم يظهر أيّ فرق بين الشيعة وغيرهم إلّا في مسألة الخلافة ، وإمارة المؤمنين . وكان الشيعة في هذا الدور يعرفون بالتقوى والزهد ، ومناهضة الظلم والظالمين ، ومن هنا لاقوا من حكام الجور ألواناً من التقتيل والتنكيل .

الدور الثاني

يبدأ الدور الثاني بعصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، ونعني به آخر الدولة الأمويّة ، حيث دبّ فيها الضعف ، وأول دولة العباسيين ، حيث تنفّس الشيعة الصعداء بعد الأيّام السود التي عاشوها مع الأمويين ، وأصبحوا على شيء من الحرّيّة والأمن على أرواحهم وأموالهم . وأُتيح لأئمّة أهل البيت أن ينشروا تعاليمهم في هذه الفرصة والفرجة . فرواها الألوّف ، وتقبّلها الملايين إلى أن قام المنصور ، فوضع في طريقها العراقيل ، وعاد الأمر أشدّ وأسوأ ممّا كان في عهد الأمويين إبان قوتهم وعظمتهم .

ازدحم الرواة والعلماء - في هذه الفترة - حول الإمام الصادق ، وقصده الناس من كلّ قطر ينهلون من معينه ، ويأخذون عنه شتى العلوم

والمعارف .

ونقل الشيخ مغنيّة هنا مطالب من «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين ، و«تاريخ الشيعة» للمظفر . أمّا مطالب «الأعيان» فقد أوردناها في سياق الحديث . وأمّا مطالب المظفر فقد ذكرها كالاتي : أحسن أيام مرّت على الشيعة هي الفترة التي امتزجت من أخريات دولة بني مروان ، وأوليات دولة بني العباس ، في اشتغال الأمويين بقتل بعضهم البعض ، وفي انتقاض البلاد عليهم ، وفي اشتغال بني العباس بالحروب مع المروانيين تارة ، واستتاب الأمن أخرى . فانتهز الشيعة هذه الفرصة للارتواء من مناهل علم الإمام الصادق ، فشدّوا الرحال إليه لأخذ أحكام الدين والمعارف عنه .

ولقد روي عنه في كلّ علم وفنّ ، كما تشهد به كتب الشيعة ، ولم تقتصر الرواية عنه على الشيعة فحسب ، بل روت عنه سائر الفرق كما تفصح بذلك كتب الحديث والرجال

وصارت الشيعة في غضون هذه الفترة تنشر الحديث ، وتجهز بولاء أهل البيت . وربما عددهم في مختلف الجهات . ولما قامت دعائم السلطان للمنصور ، ضيق على الإمام الصادق ، وأراد أن يقطع الأصل ليكون به جفاف الفرع^١ .

لقد وافق عصر الإمام الصادق حركة فكرية بلغت الغاية في نشاطها وانتشارها . وظهرت مقالات غريبة ، وتيارات أجنبية عن الإسلام تفسّدت بين المسلمين ، بخاصة بين شبابهم بالنظر لاتساع رقعة الإسلام ، وكثرة

١- إلى هنا كلام المظفر الذي ذكره في «تاريخ الشيعة» ص ٤٣ إلى ٤٥ ، طبعة مكتبة

بصيرتي في قم .

الفتوحات التي فتحها العرب ، واندماجهم بالأُمم العديدة المتباينة في ثقافتها وأديانها .

فكان الملحدون يلقون الشبهات ، والمرجئة يساندون حكام الجور ، والمغالون يدعون مع الله إلهاً آخرًا ، والخوارج يكفّرون المسلمين ، والمتصوّفة يضلّلون ويرأؤون ، والمحدّثون يضعون الأحاديث على رسول الله ، والمؤمنون يريدون إيماناً واعياً . فكان الشغل الشاغل لقادة الدين أن يدافعوا عنه ويثبتوا صحّة العقيدة ، ويفندوا مزاعم المبطلين ، ويزيّفوا أقوالهم .

وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام أوّل من شعر بهذا الخطر ، وأسبق من عمل لدرئه ومناهضته ، فأخذت على نفسها الذبّ عن الحقّ وأهله ، وحملت لواء الشريعة الإسلاميّة أصولها وفروعها ، وتصدّت لكلّ مهاجم ومعاند ، وأعلنت حرباً لا هوادة معها على الغلاة ،^١ وناضلت ضدّ المعتزلة ، والمتصوّفة ، والمرجئة ، والخوارج ، والأشاعرة ، وصحّحت لعلماء الكلام الذين حاولوا إثبات الدين كثيراً ممّا وقعوا فيه من الأخطاء .

وجرت بين هؤلاء من جهة ، وبين الإمام الصادق وتلاميذه من جهة مناظرات ومجادلات كان الفوز والنصر فيها لمدرسة الإمام . فأثبت بالبرهان أنّ أقوالهم تباعد عن الحقّ بمقدار صدودها عن الإسلام وتعاليمه .^٢ لذا اتّجهت الأنظار إلى المعلّم الأكبر ، وتشيع له المفكّرون ،

١- قال في الهامش : ولا أجافي الصواب إذا قلتُ : إنّ الإمام الصادق قرّب مسافة الخلف بين السنّة والشيعة في محاربه الغلاة، وإبطال الكثير من أقوال المعتزلة.
٢- تجد الكثير من هذه المناظرات في كتاب «الاحتجاج» للطبرسيّ، و«البحار» للمجلسيّ، وسائر كتب المناقب والفضائل.

وحفظوا أقواله ودونوها ، واعتبروها الفصل بين الحق والباطل ، وبين الأصيل والدخيل تماماً كأقوال جدّه الرسول صلّى الله عليه وآله .

وكان من نتيجة هذه الفترة ومرافقتها لتلك الحركات الفكرية أن عرف المذهب صافياً على حقيقته في العقائد والتفسير ، والأخلاق والفقہ وأصوله ، وأخذ التشيع معناه ومجراه في إطاره العلمي أصولاً وفروعاً . وقد كان المذهب في أشد الحاجة إلى هذا المتنفس والمنطلق الذي صادف وجود الإمام ، إذ لو أمكنت الفرصة ولم يوجد الإمام ، أو وجد ولم تكن الفرصة ممكنة ، أو تحقّق الأمران ولم تكن تلك الحركات الفكرية ، لم يكن لنا هذا التراث الضخم في شتى العلوم الإسلامية ، خصوصاً الفقه ، بل لم يكن هذا التقارب بين الشيعة والسنة في أصول الدين ومبادئ التشريع . فالفضل في استقلال المذهب وتركيزه كما هو الآن يعود للإمام الصادق بعد أن أسعفته الظروف ، ومهدت له السبيل .

ومن هنا أطلق على الشيعة لفظ الجعفرين ، وعلى فقهم الفقه

الجعفري .

نحن نؤمن وندين بأن كل إمام من الأئمة الأثني عشر عنده علم الكتاب وسنة الرسول بكاملهما . وأنه أعلم أهل زمانه على الإطلاق . ولكن العلم ليس بالسبب الكافي لبثه ونشره ما لم توافقه عوامل أخرى . وقد ساعد الإمام الصادق على بث علومه ومعارفه العامل الحضاري من جهة ، وفترة انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين من جهة ثانية ، ووجود رواة ثقات كثيرين يؤمنون بالصادق ويحسنون الأخذ عنه من جهة ثالثة ، حتى ذهب بعض علماء الإمامية إلى القول بتوثيق الأربعة آلاف راوٍ بدون استثناء . وقد يكون هناك عوامل أخرى خفيت علينا إلى جانب هذه العوامل التي استبانت لنا .

وعلى أية حال ، فإنّ هذه الأسباب مجتمعة لم تتوفّر لأحد من الأئمة غير الإمام الصادق . فقد كان للإمام عليّ حواريّون وأصحاب خلّص كميثم التّمّار ، وكميل بن زياد ، وحجر بن عديّ ، ومحمّد بن أبي بكر وغيرهم ، ولكنّه مُنيّ في خلافته بالحروب والفتن الداخليّة . ولما انتقل إلى جوار ربّه عمل معاوية على طمس آثاره ، وقتل رجاله ، والقضاء على كلّ ما يمتّ إليه بسبب .

أمّا عهد الحسين والإمام السّجاد فهو عهد معاوية ، وولده يزيد ، وزياد ، وابنه عبيد الله ، وعبد الملك وشيطانة الحجاج ، عهد مذابح الشيعة ومجازرهم ، واستشهاد أئمّتهم ، عهد سمّ الحسن ، ومذبحة مرج عذراء ، ومأساة كربلاء ، ووقعة الحرّة ، وما إليها .

أمّا الإمام الباقر فهو المؤسس الأوّل لمدرسة ولده الصادق . فقد كان له أصحاب وتلاميذ من كبار التابعين وأعيان الفقهاء والمحدّثين يتحلّقون حوله للدرس في مسجد جدّه الرسول ، ولكنّ الله سبحانه قد اختاره إليه قبل أن تبلغ هذه المدرسة الغاية في النموّ والازدهار ، فقبض في خلافة هشام ابن عبد الملك ، وهو ابن ٥٧ سنة ، فخلفه ولده الإمام الصادق ، وتوالت على مدرسته حظوظ وتوفيقات شتى ، حيث ربا عدد تلاميذها على ما كانوا أيام أبيه ، وأصبح الذين يفدون إليها ، ويهتدون بهديها يعدّون بالألوف .

وبعد الإمام الصادق عادت الظروف إلى قسوتها ، والحوادث إلى شدّتها على الأئمة وشيعتهم ، ولكن المذهب كان قد انتشر في كلّ قطر ، وعرفت معالمه ، وتركّزت أسسه ، وحُفِظَ ودُوّنَ ، وعمل الناس به منذ أيام الصادق ، حتّى اليوم ، وإلى آخر يوم .

وبالتالي ، فإنّ مذهب أهل البيت تبلور واتخذ صورته واضحةً جليّةً ، وثبتت أركانه ودعائمه في عهد الإمام الصادق ، وأصبح للشيعة فقههم

المستقل ، وعلماؤهم ورواتهم المعروفون ، وآراؤهم الخاصة بالتوحيد والعدل وعصمة الأنبياء وشفاعتهم ، وبالجبر والاختيار ، وما إلى ذلك . وتميّز مذهب التشييع عن بقية المذاهب تميّزاً تاماً كما تميّز مذهب المعتزلة عن مذهب الأشاعرة . أمّا أقوال بقية الأئمة الأطهار منذ الإمام الكاظم إلى نهاية الغيبة الصغرى فهي إمّا تأكيد لأقوال الصادق ، وإمّا متممة لبعض أصول المذهب أو فروعه . أمّا رجالات الشيعة في عهد الإمام الصادق وبعده فكان همّهم واهتمامهم حفظ تعاليمه ، وتدوينها والدفاع عنها .^١

واليوم لا يرتوي تفسير الشيعة الاثني عشرية وعلومهم فحسب من نمير الإمام الصادق عليه السلام ، بل يرتوي منه أيضاً فقه السبعية «الإسماعيلية» وتفسيرهم وعلومهم على كثرتهم ووفور عددهم . وما كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي نعمان التميمي المغربي إلّا نموذج لذلك الفقه على أساس روايات الإمام الصادق عليه السلام .

لذلك فالمذهب الجعفريّ مذهب مشترك بين الطائفة الشيعية الاثني عشرية الحقّة المحقّقة والطائفة السبعية الإسماعيلية التي أقامت مذهبها على العدد سبعة ، إذ ذهبت إلى أنّ إسماعيل ابن الإمام الصادق ، الذي توفّي في حياة أبيه ، هو إمامها السابع .

لهذا تميّزاً بين هاتين الطائفتين أضاف العلماء الأعلام لفظ «الاثني عشرية» بعد «الجعفرية» وقالوا : الشيعة الجعفرية الاثنا عشرية .

إنّ المقصود من الاثني عشرية هم الذين يقرون ويعترفون بإمامة اثني عشر شخصاً من أهل البيت عليهم السلام ، ويجعلون ذلك ديناً لهم .

١- «الشيعة والتشييع» ص ١١٣ إلى ١١٨ .

ويتواضعون أمام هؤلاء الأئمة . ويرونهم أولي ملكة العصمة ، ويذهبون إلى أنّهم عدل القرآن الكريم : كتاب الوحي السماويّ في حجّية كلامهم . وفي ضوء حديث الثقلين فإنّ كلامهم معصوم ككتاب الله . وكذا أفعالهم وأفكارهم . لا يصدر منهم خطأ ، لأنّ جواز الخطأ عليهم يلازم سقوط الحجّية عن أقوالهم . ووفقاً للحديث المذكور الذي قرنهم بالكتاب الأبديّ الثابت الذي لا يقبل الخطأ فإنّ عصمة كلامهم وفعالهم أمر لازم لا يقبل الشبهة .

ذلك أنّنا لو فرضنا جواز الخطأ عليهم ، فإنّنا إمّا نجيز هذا الخطأ على كتاب الله ، وحينئذٍ يلازم ذلك فرض الخطأ في الوحي الإلهيّ وأزليّته وأبديّته ، وهذا محال .

وإمّا أن نسلب احتمال الخطأ عن الإمام ، ونراه معصوماً ككتاب الله ، وعندئذٍ تثبت استقامتهم وعصمتهم في جميع مراحل حياتهم بدون أدنى خطأ أو أقلّ اشتباه سواء في الشؤون التبليغيّة والإرشاديّة والإمارة والرئاسة على المسلمين ، أم في الشؤون الشخصية والاجتماعيّة كالمعاملات ، والمقايضات ، وأمثال ذلك .

هذا هو معنى الإمام في الاصطلاح الشيعي . أي : زعيم العالمين ومقتداهم في الشؤون الظاهريّة والباطنيّة ، والاجتماعيّة والمعنويّة الروحانيّة ، والملكيّة والملكوتيّة . وقد وهبه الله الحصانة والعصمة اصطفاً من لدنه ليكون زعيماً مقدّماً في جميع الأمور .

وهؤلاء الأئمة ينحصرون في اثني عشر شخصاً : أولهم الإمام عليّ ابن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام ، وآخرهم الإمام الحجّة بقيّة الله : محمّد بن الحسن العسكريّ عجل الله تعالى فرجه المبارك .

وهو حيّ حسب عقيدة الشيعة الراسخة ، وبيده ولاية الشؤون

المعنوية والملكويتية في العوالم ، بيد أنه غائب عن الأنظار الآن بسبب غضب الغاصبين للخلافة والإمامة ، ويظلّ غائباً إلى أن يأذن الله تعالى بظهوره فيُقيل المتصدّين للسلطة على الناس باطلاً ، ويتولّى حكومة الناس على أساس الطهارة السريّة والعصمة الإلهية والولاية الحقّة الحقيقية الكبرى .

لهذا عدد هؤلاء الأئمة اثنا عشر كقضاء بني إسرائيل ، لا ينقص ولا يزيد . والعدد (١١) غلط ، كمن يختم الإمامة مثلاً بالإمام الحسن العسكري عليه السلام ، والعدد (١٣) غلط أيضاً ، كمن يختار له إماماً غير الإمام المهديّ بقيّة الله أرواحنا فداه .

من الطبيعيّ أنّ هذا الموضوع يقوم على أساس معتقد الشيعة ومذهبهم واصطلاحهم ، لا كما ورد في اللغة واستعمال العامة الذين يطلقونه على كلّ من كان زعيماً مقدّماً في أمر من الأمور . كما وردت في القرآن الكريم آيات بهذا اللفظ في المعنى المطلق للإمام والقُدوة . كقوله تعالى :

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .^١

لفظ الإمام في هذه الآية يعود إلى مطلق المراد منه هنا طبعاً مطلق الإمام الصالح .

وقوله تعالى : فَاقْتُلُوا أُمَّةً الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَهَوْنَ .^٢ واللفظ هنا أيضاً يراد به مطلق الإمام ، المقصود هنا مطلق أئمة الكفر .

١- الآية ٧٤ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢- الآية ١٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

وقوله تعالى: **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْهَمِهِمْ**^١. ولفظه في هذه الآية يرتبط بمطلق الإمام أيضاً، سواء كان إمام الفجار الذي يسوق الآثمين إلى النار يوم القيامة، أم إمام الأبرار الذي يقود الصالحين إلى الجنة يومئذٍ.

علماً أنّ لفظ الإمام قد ورد في القرآن الكريم بمعنى الإمام حسب مصطلح الشيعة الإمامية أيضاً، كقوله تعالى: **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**^٢.

المراد من لفظ الإمام هنا هو المعنى الأخصّ له. ولهذا لا ينال الظالمون هذا المقام، وإلاّ فمن الواضح أنّهم لا يحرزون مقام الإمامة بمعناها المطلق أيضاً.

أجل، إنّ لفظ الإمام والإمامية في عرف الشيعة هو خصوص المعنى المعهود والمعروف، لا مطلقه، وإلاّ فلا معنى لإطلاق الإمامية على الشيعة الاثني عشرية. وكلّ جماعة تتبع مقتداها تُدعى الإمامية حتماً كالحنابلة، والحنفية، والوهابيين، إذ إنّ لكلّ فرقة من هؤلاء إماماً. ولما كان مقتدوهم أبا حنيفة، أو أحمد بن حنبل، أو محمّد بن عبد الوهّاب، فلا جرم أن يقال لهم: الإمامية أيضاً، ويكون إطلاق هذا اللفظ عليهم صحيحاً، في حين ليس الأمر كذلك.

إنّ لفظ الإمامية يطلق على القائلين بولاية الأئمة المعصومين الاثني عشر وإمارتهم. ويطلقه عليهم المؤرّخون بما فيهم مناوئوهم كأحمد أمين

١- الآية ٧١، من السورة ١٧: الإسراء.

٢- الآية ١٢٤، من السورة ٢: البقرة.

المصريّ ، والشهرستانيّ ، وفريد وجدي ، وابن خلدون ،^١ ومن شابههم . فإنّ هؤلاء يرون أنّ الإماميّة اصطلاح خاصّ لهذه الجماعة خاصّةً . وذكر كلّ منهم فصلاً في كتابه حول الإماميّة . وعقبوه بشرح مشع يتناول مزايا المذهب الشيعيّ الإماميّ الاثني عشريّ ، أو الإسماعيليّ وآثارهما وأخبارهما وخصائصهما .

ولهذا في ضوء عقيدة الشيعة الاثني عشرية المؤمنة بحياة الحجّة عليه السلام وإمامته لا يمكن أن نطلق لقب «الإمام» على غيره .^٢ وفي عرف الشيعة يطلق على المجتهدين العظام أولي الفقهة والعدالة الجامعين للشرائط ألقاب نحو «نائب الإمام» وأمثاله . جاء في مجلّة «الحوزة» :

كان المرحوم الكلينيّ يُدعى «ثقة الإسلام» ، لأنّه كان متبحراً في حفظ آثار أهل البيت وأحاديثهم .

وكان كلٌّ من الميرزا حسين النوريّ ، والشيخ عباس القمّيّ يسمّى «المحدّث» ، وأطلقوا على المرحوم الصدوق «رئيس المحدّثين» . ودُعي المرحوم السيّد محمّد مهدي الطباطبائيّ «بحر العلوم» لسعة علمه وغزارته . واشتهر المرحوم الحسن بن يوسف الحلّيّ بـ «العلامة» لجامعيّته في

١- قال ابن خلدون في مقدّمته، ص ٢٠١ : وأمّا الاثنا عشرية فربّما خُصّوا باسم الإماميّة عند المتأخّرين منهم، فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياة أبيهما جعفر، فنصّ على إمامة موسى هذا، ثمّ ابنه عليّ الرضا الذي عهد إليه المأمون ومات قبله فلم يتمّ له أمر، ثمّ ابنه محمّد التقيّ، ثمّ ابنه عليّ الهاديّ، ثمّ ابنه الحسن العسكريّ، ثمّ ابنه محمّد المهديّ المنتظر الذي قدّمناه قبل .

٢- تحدّثنا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب عن هذا الموضوع ، وذلك في الدرس ١٢

الكمالات المختلفة وغزارة علمه في الفقه والكلام .

كما عُرف المرحوم الطبرسيّ صاحب «مجمع البيان» بـ «أمين الإسلام» ، والرحوم الأردبيليّ بـ «المقدّس» ، والرحوم الشفتيّ بـ «حجّة الإسلام» ، والشيخ الطوسيّ بـ «شيخ الطائفة» ، وصاحب «الكفاية» بـ «الآخوند» ، وأبو القاسم نجم الدين جعفر بن محمّد صاحب «شرائع الإسلام» بـ «المحقّق» بسبب دراساته العميقة ونفاذ بصره في المسائل الفقهية .

وألحق العلماء الذين كانوا يدركون المستوى العلميّ والإيمانيّ للمرحوم الميرزا الشيرازيّ ألقاباً وأوصافاً باسمه الشريف ، بسبب ما اتّصف به من علم ، وبصيرة ، وتقوى ، وما عرف به من جهود سياسيّة . ويعبّر كلّ منها عن بُعد من أبعاد شخصيّته .

١ - حجة الإسلام : كان المرحوم الملاً أسد الله البروجرديّ المتوفّي سنة ١٢٧٠ هـ ، والملاً محمّد النراقيّ ، والمولى محمّد تقي المامقانيّ يتلقّبون بهذا اللقب قبل المرحوم السيّد محمّد باقر الشفتيّ البيدآبادي أحد مراجع إصفهان الكبار .^١

١ - العددان ٢ و٣ ، السنة التاسعة ، سنة ١٣٧١ شمسيّ ، والعددان ٥١ و٥٢ من مجلّة «الحوزة»: عددان خاصان بالذكرى المئويّة لوفاة الميرزا الشيرازيّ ، ص ٣٦٧ . يتناول العددان المجلّدان في جزء واحد ترجمة وافية لذلك الزعيم الكبير ، بخاصّة فتواه الشهيرة بتحريم التبغ . وعندما وفقت على بعض أعداد المجلّة المذكورة وجدتها مجلّة مضرّة ملحده لما يُلاحظ فيها من موضوعات مضادّة للدين . فلهذا لا أقتنيتها في مكتبتني . أمّا المجلّد المذكور فقد أهدانيه صهري المكرّم السيّد محمّد سيادت الموسويّ حفظه الله . وذكر أنّ فيه معلومات مفيدة حول المرحوم حجّة الإسلام الشيرازيّ قدّس سرّه . فرحّبت به وطلعته إلى آخره بدقّة . والحقّ وجدته كما قال ، إذ إنّ الموضوعات المجموعة فيه تحكي ما في ⇨

ويُلاحظ أنّ أياً من هؤلاء وأمثالهم لم يلقّب بلقب «الإمام»، حتّى الشيخ المفيد الذي لا خلاف عند الشيعة والعامّة في رئاسته العلميّة والكلاميّة وزعامته، والشريف المرتضى والشريف الرضّي مع زعامتهما الظاهريّة ومنزلتهما عند السلاطين، وغزارة علومهما، وتقواهما الفريدة، وعلوّ همّتهما وشهامتهما ومنعتهما التي استأثرا بها.

ومن المناسب أن نذكر القصّة الآتية دعماً للموضوع وتأكيداً له: الرسالة الآتية هي الرسالة التي أرسلها لي صديقي العزيز المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين صاحب العلم والتقوى والشخصيّة الميرزا حسن النوري الهمداني رحمه الله. وقد بعثها من قم إلى مشهد استجابة لطبي، ووافنتني في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٤١٠ هـ. علماً أنّه كان قد شافهني بمضمونها ومحتواها بعد عودته من لندن التي أمضى فيها مدّة ممثلاً للمرحوم آية الله العظمى السيّد محمّد رضا الكلبايكاني^١، وكنتُ يومها في طهران

⇨ الكتب الأخرى، وقد أنصف في الجرح والتعديل ووفّى الموضوع حقّه وأجاد فيه أحسن الإجابة.

١- توفّي سيّد الفقهاء والمجتهدين حجّة الإسلام والمسلمين آية الله تعالى في العالمين السيّد الكلبايكانيّ أسكنه الله بحبوحه جنّته، وكان من المبرزين في العلم والتقوى، ذا نفس طيّبة لطيفة نقيّة من شوائب الهوى، وأحد مراجع الشيعة العظام الذي انحصرت المرجعيّة به تقريباً في الفترة الأخيرة. وكانت لي معه سوابق لامة. وقد توفّي بعد وعكة دامت ثلاث سنين رقد على أثرها في أحد مستشفيات طهران أياماً. وكانت وفاته في ليلة الجمعة عن أذان المغرب ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ، وهو ابن ست وتسعين سنة. وتمّ تشييعه من تلك المستشفى الواقعة في حي شميران إلى محطة القطار لينقل إلى قم. ثمّ شُيّع في قم يوم السبت قبل الظهر بثلاث ساعات (ودُفن عصر ذلك اليوم بسبب كثرة المشييعين وازدحامهم العجيب) من مسجد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام إلى صحن السيّدة فاطمة ابنة موسى الكاظم عليهما السلام. ودفن جوار قبر أستاذه المرحوم آية الله الشيخ ⇨

ولم أُغادرها إلى مشهد المقدّسة بعد . وطلبت منه أن يوافيني بها تحريرياً
 رغبة منّي في ضبط محتواها .

ولمّا كانت الثورة الإسلاميّة في إيران قد انتصرت في ربيع المولد
 سنة ١٣٩٩ هـ ، وبعد سنة وشهرين غادرتُ طهران إلى مشهد ، أي : في
 ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، لهذا كانت هذه الواقعة الواردة في رسالته
 المرسلة في شهر رمضان قد حدثت في شهر رمضان من السنة الأولى
 للثورة ، أي : سنة ١٣٩٩ هـ . وفيما يأتي نصّ الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ أَدْرِكُنَا

عندما كنت في لندن جاء ذات يوم مستخدم البناية التي كنت أعيش
 فيها ، وكان الوقت رمضان ، ويبدو أنّه اليوم السادس عشر منه ، فقال
 لي : جاء ثلاثة أشخاص وهم يريدونك . فنزلت إلى الطابق الأرضيّ حيث
 صالة الاستقبال فرأيت ثلاثة فتیان ، عمر أحدهم ٢٨ سنة تقريباً ، وعمر
 الآخرين بين ٢٢ سنة و ٢٣ سنة .

جلسنا للحديث . وكانت آثار الصلاح بادية في سيماهم . قالوا : جئنا
 لنأخذ منك القرآن حتّى نقرأه ، إذ لا يتوفّر في مكاتب البيع والمطالعة في
 لندن . فقدّمت لهم ثلاثة مصاحف ، ثمّ ودّعوني وذهبوا . وما أن غادروا
 المكان حتّى رجع أكبرهم إلى الباب فقال : لنا لقاء بأبي عبد الله الحسين
 عليه السلام مساء غدٍ ، فهل لك شغل أو وصيّة أو سؤال !؟

« عبد الكريم الحائريّ تغمّده الله برحمته . فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَنْظِرُ وَمَا
 بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . (الآية ٢٣ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب) .

قلتُ: كيف يمكن أن يتم هذا اللقاء؟!
قال: أنت تعلم. أُلقيَ في روعنا أن نقول لك. وأراد أن يرجع،
فقلتُ له: إذا رغبتَ فاسأله عن ثورة إيران (كانت الثورة في سنينها الأولى)
وماذا سيحدث؟!

قال: سألنا أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك في الأسبوع الماضي،
فأسأل عن شيء آخر!

قلتُ: أسألوا عن الوقت الذي يظهر فيه وليّ العصر أرواحنا فداه فإذا
سألتم فإني آخذ بعين الاعتبار موضوعاً أو موضوعين، فاسألوا عن جواب
ذلك؟ ثم ذهبوا. وبعد أيام جاؤوا إلى ذلك المكان وكنت مشغولاً في
محاضرةٍ فرأيتهم، وأنهيت محاضرتي بسرعة، وأقبلتُ عليهم. فبدأ
الحديث وسألتهم عن الأشياء التي كنت قد طلبتها منهم.

قالوا: أمّا مسألة الظهور، فكما جاء عنها في الأخبار والأحاديث،
واختيار ذلك وعلمه عند الله تعالى. وأمّا الأسئلة الأخرى التي كانت على
بالي، فقد أتوني بأجوبة مساعدة عنها تقريباً.

وقالوا لي: وأوصانا لكم أن لا تسموا السيّد الخمينيّ إماماً، بل سموه
نائب الإمام، هكذا كما يبدو. وأعطانا دعاءً موجزاً نقرأه، وذكر لنا
موضوعاً آخر وأوصانا أن نخبرك به ولا نخبر به أحداً، وحكوه لي.

قلتُ: أنتم ذكرتُم لي أنكم كنتم قد سألتُم أمير المؤمنين عليه السلام
عن الثورة الإسلاميّة في إيران! فماذا قال لكم؟!

قالوا: قال لنا: نحن رفعنا راية التوحيد أو راية لا إله إلا الله (الشكّ
مّني) في إيران، وسيمّر الشعب الإيرانيّ بمحنٍ وابتلاءات، فكيف
يجتازها؟

قلتُ: ما هي طبيعة اتّصالكم؟! وكيف تلتقون بالإمام؟!

قالوا: لنا أستاذ يرتّب لنا اللقاء ، ويبلغنا بوقته . قلتُ : مثلاً كيف ؟
وأين هو ؟! فتلكأوا ولم يتكلّموا أكثر من ذلك ، أو قالوا : لا نستطيع أن
نتكلّم .

وعندما أرادوا الذهاب ، قلتُ : متى سيكون موعدنا القادم ؟!
قالوا : لا ندري ! فلسنا مختارين . ولو قيل لنا : اذهبوا إلى إفريقية
السوداء ، لتحزّرتنا فوراً ، كما أنّ قدومنا إلى لندن لم يكن باختيارنا .
وودّعوني وذهبوا ولم يرجعوا .

هذا ما أذكره من اللقاء . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . علماً
أنّ أكبرهم سنّاً كان يتحدّث معي أكثر منهم . أمّا الآخرون فقلّمَا كانا
يتكلّمان ^١ .

أجل ، لم نعهد أحداً من علماء الشيعة قد تلقّب بلقب الإمام إلاّ
المرحوم المغفور له سماحة آية الله الشيخ محمّد الحسين آل كاشف
الغطاء الذي كان من المعاصرين للطبقة التي سبقتني . ومع أنّي لم أدرس
عنده في النجف الأشرف ، بيدّ أنّه يعدّ في طبقة أساتذتي .
كان هذا الشيخ نسيج وحده في العربيّة والأدب والفقه والعرفان
والفلسفة والتفسير والتأريخ والكلام ، وبخاصّة في الدفاع عن حريم
التشيّع . وكان ذا قلم قويّ ولسان بليغ في الخطابة والتدريس . وهو من
أحفاد مالك الأشتر النخعيّ رضوان الله عليه صاحب أمير المؤمنين عليه

١- كان المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الميرزا حسن نوري زاده الله رحمة وغفراناً
من أصدقائي وأعزّ أحبّتي ورفقائي . وكان مهذباً فاضلاً غيوراً محبباً للدين . تمتدّ مودّتي له
قرباًة خمسين سنةً . التحق بالرفيق الأعلى في حادثة اصطدام مؤسف عندما كان متوجّهاً نحو
سيرجان في أواخر شعبان المعظّم سنة ١٤١٢ هـ . ونقل جثمانه إلى موطنه الدائم قم ، ودفن
في إحدى الغرف الواقعة في الشمال الغربيّ من الصحن الكبير . رحمه الله رحمةً واسعةً .

السلام .

وكانت له مدرسة مستقلة في النجف الأشرف ، وانتهت إليه المرجعية ، إذ كان يقلّده كثير من العرب وقليل من العجم . وكان مقدّماً على أترابه في الخطب من الدرجة الأولى والمجالس والمحافل الدورية للمسلمين ، التي كانت تعقد تحت عنوان «الملتقى» أو «الندوة» . وله مركز الصدارة فيها . وكان ذا كلام مؤثّر وخدمات جليلة يُحتفى بها .

وجملة القول ، عندما شارك في أحد المجالس المصرية لقبه المصريون بالإمام على علم وعمد منهم لكسر هيبة الإمام وعظمته وعصمته عند الإمامية . لقبوه بهذا اللقب إذ كان الشخص الأول والمرجع التام لجميع العرب ، ولغته الأم هي العربية . واحتفوا به أحسن حفاوةٍ وبدلوا قصارى جهدهم في وسائل الإعلام من أجل إسماع أهل مصر وسائر البلدان بخبر قدومه إلى مصر .

وقد انطلت عليه مكيدة علماء مصر إذ لم يقصدوا من تلقيبه بالإمام المعنى المطلق الذي يستعملونه في أكابرههم ، بل أرادوا الحطّ من شأن الإمامية والإمامة عبر تلقيبه بالإمام . وفي السنة التي تلتها - أو المرّة التي تلتها - إذ عُقد ذلك الملتقى بمصر ، دعا المصريون عالماً آخر مزيفاً من علماء النجف الأشرف وكان معروفاً بعمالته للنظام الحاكم يومئذٍ ، وكان من طلاب الدنيا ولم يتورّع عن الكذب ، لكن معلوماته جيّدة نوعاً ما ، ومن أهل الحوار ، وكان حسن اللسان ، وكان أعجمياً . دعوه بوصفه عالماً شيعياً . فلبى الدعوة وتوجّه تلقاء مصر ، فلقبوه بالإمام ككاشف الغطاء ، ولم يدخروا وسعاً في تكريمه بلفظ الإمام حتّى انتهت مجالسهم ومحافلهم . ودلّ الجميع على أنّ هذا الرجل الذي لا حظّ له من العلم والعمل

والتقوى هو إمام الشيعة . لذلك فإنّ أئمة الشيعة الوارد ذكرهم في التاريخ ، والذين يتبعهم جميع الشيعة بوصفهم المقتدين المعصومين ، من أين نعرف أنّهم ليسوا كهؤلاء الأئمة؟! كل ما في الأمر أنّهم اتخذوا طابع الطهارة والنزاهة والعصمة بسبب بُعد الفترة الزمنيّة . وعلى تعبير العامّة : لم يدخلوا الماء لكنّهم سباحون مؤهلون .

ونحن نلاحظ عين هذه التهم منسوبة إلى الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين في كلمات أحمد أمين المصريّ .

وعلم العارفون أنّ المرحوم كاشف الغطاء قد أخطأ في هذا الأمر وباع رسالته بقبوله لقب «الإمام» مع فهمه العميق وذكائه وبصيرته النافذة . وأنّ ما كان يدافع عنه في كتبه قد ذهب أدراج الرياح بقبوله الصاق هذا اللقب به . وجعل شخصيّته مضاهية لشخصيّة الإمام في خضمّ تيار الآراء والأهواء لشياطين مصر السنّة^١ .

١- نظم سيّد الفقهاء والمجتهدين ركن العرفاء والموحدّين آية الله المعظم الميرزا السيّد علي القاضي أعلى الله درجته السامية غديريّة عصماء سنة ١٣٥٦ هـ، ومطلعها:
خُذْ يَا وَلِيَّ غَدَاةِ الْعِيدِ وَالطَّرْبِ قَصِيْدَةً هِيَ لِأَعْدَاءِ كَالشُّهْبِ
 وشرحها نجله الأكبر سيّد الفضلاء العظام فخر السادات والعرفاء العظام السيّد محمّد حسن القاضي الطباطبائيّ . وها هي قيد الطبع في جزئين : أحدهما في ترجمة الفقيه، والآخر في ترجمة تلامذته ومعاصريه وأقاربه . وذكّرت هذه القصيدة في كتاب يدور حوله . ولمّا بلغ الشاعر هذين البيتين :

أَلَا إِنَّ مِنْ يَوْمِ السَّقِيْفَةِ عَمَّمُوا **إِمَامَ الْهُدَى سَيِّفًا مُقِيمَ الرِّوَابِ**
أَلَا إِنَّ مِنْ يَوْمِ السَّقِيْفَةِ سُمِّ بِالْ **نَقِيْعِ الْإِمَامِ الْمُجْتَبَى فِي الْمَشَارِبِ**
 فإنّ للشارح مطلباً في شرح لفظ الإمام . ولمّا كان شرحه متضمناً رحلة المرحوم آية الله آل كاشف الغطاء إلى مصر ، وتلقيه بلقب الإمام وكنا قد أوردنا ذلك لهذا نكتفي بلفظه العربيّ من غير ترجمة له : الإمام : كلّما جاء في كتب الشيعة لفظ الإمام فإنّهم يعنون به ⇨

ورأينا بعد كاشف الغطاء أيضاً أنّ بعض العلماء الذين تصدّوا للمرجعية ، وشيّدوا مدارس ، زيّنوا مدارسهم بلوحة كتب عليها «مدرسة الإمام» . وهنا يكون ميدان المسابقة والمغالبة طبعاً ، فإنّ بعضهم طبعوا

« الأئمة المعصومين الاثني عشر عليهم السلام . وخصّت الشيعة هذا اللقب بهم وسمحت للآخرين أن يلقّبوا علماءهم بكلّ ما يريدون... وما أكثر العلماء وأشدّ اختلاف الألقاب؟! حجة الإسلام والمسلمين ، وآية الله وآية الحقّ ، وثقة الأنام ، وصدر الدين ، ومروّج الدين ، وهكذا بلا حدود ولا نهاية ، وليست هناك ضوابط معيّنة لمنح هذه الألقاب لهذا العالم أو ذاك . وذلك بسبب عدم وجود جامعات مبرمجة للعلوم الإسلامية لتعيين الرتب والمراحل الدراسية والدرجة العلميّة لتقدّم هذا وتأخّر ذاك ، وقديماً منحوا الفارابيّ لقب «المعلّم الثاني» ولا نعرف بصورة دقيقة على أيّ أساس ، ومنحوا الشيخ الطوسيّ لقب «شيخ الطائفة» وآخر لقب «المحقّق» أو «العالم» ، وهكذا لم يذكر التأريخ لنا ضوابط صحيحة لأسباب وكيفية منح الألقاب والسمات العلميّة إلّا بعض النوادر والقصص التافهة غير المسندة .

والذي حدث في أيّامنا : أنّ سماحة الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء (العالم المتبحّر في العلوم العربيّة والمعارف الإسلامية) تهيّأت له سفرة إلى مصر عاصمة العالم الإسلاميّ - كما يعجبهم أن يسمّوها - واجتمع هناك بعلماء الأزهر الشريف . ولما كان عالماً قويّ المعارضة سريع البديهة خطيباً عملاقاً ومن عائلة علميّة وأُسرة نجفيّة عريقة مُنح لقب «الإمام» ، لقد صدرت الصحف المصريّة مع اختلاف اتّجاهاتها وكثرة عددها تحمل نبأ ورود الشيخ إلى القاهرة واحتفاء الأزهر الشريف به مع لقب «الإمام كاشف الغطاء» عاد الشيخ إلى النجف وكأنّه فرح بهذا اللقب ، ولم يمنع أحداً ، أو لم يتيسّر له أن يمنع الآخرين - على الأقلّ في النجف - من تلقيبه بهذا اللقب مع علمه الأكيد بمحتوى اتّفاق الشيعة على هذا اللقب ، غير أنّ أولئك الذين منحوه هذا اللقب أو خاطبوه هكذا في الصحف والمجلاّت يومذاك رأوه أكبر من اللقب الممنوح له ، أو على الأقلّ يوازيه في المرتبة والمكانة . وصادف أن سافر إليهم شيخ آخر لم يكن في منزلته العلميّة والأسرة والسوابق وكان دونه بمراحل ، منحوه أيضاً لقب «الإمام» وعند ذلك أدرك الشيخ غفر الله له وتغمّده برضوانه أنّ الغرض هو ضياع وإنزال لقب الإمام من المعنى والمرتبة الخاصّة به ، لا الحفاوة والاحترام والإكبار والإعظام للشيخ كاشف الغطاء .

رسائلهم باسم «الإمام الأكبر» .

والعجيب أنّ لقب «علم الهدى» الذي عُرف به الشريف المرتضى منحه إياه الإمام المهديّ في المنام ، ولقب «بحر العلوم» الذي اشتهر به السيّد مهدي الطباطبائيّ البروجرديّ منحه إياه أعظم زمانه . ومع هذا لم يُلقب أيّ منهما بالإمام ، مع أنّهما كانا بلا شك إمامين بالمعنى اللغويّ ولهما صدارة محافل العلم ومجالس التدريس .

إنّ إمامة الإمام حسب منطق الشيعة تثبت من آية أولي الأمر التي يستفاد منها العصمة حتماً ، بيد أنّ السنّة يسمّون كلّ من تقلّد زمام الأمور : وليّ الأمر ، سواء كان معاوية ، أم يزيد ، أم فهد ، أم صدّام ، أم الحسن الثاني ، أم حسين الأردنيّ ، ومهما كانت أفعالهم وانتهكاتهم ومظالمهم . ويروونه واجب الإطاعة وفقاً لمفاد آية أولي الأمر . ولذا نلاحظ ضروب الدمار التي حدثت وتحدث من هذا التفسير الخاطئ .

أمّا الشيعة فإنّهم يختصّون هذه الآية بأهل بيت العصمة باستدلال متين وبرهان رصين ويقولون : محال على الله أن يأمر بطاعة الوليّ الجائر والحاكم الظالم .

ويفرّق الشيعة بين ولاية النبيّ والأئمة الطاهرين عليهم السلام وبين ولاية الفقيه العادل الجامع للشرائط ، ويستهدون بالقرآن والسنّة في تحديد معيار كلّ منهما ونطاقه .

إنّ منطق الشيعة هو أنّ في الآية المباركة يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ^١ طاعة الله هي طاعة كتابه والأحكام العامّة التي أنزلها فيه كوجوب الصلاة . وطاعة الرسول هي أولاً :

١- الآية ٥٩ ، من السورة ٤ : النساء .

طاعته في الأحكام الجزئية التي يشرعها مثل كيفية الصلاة وعدد ركعاتها وشرايطها وموانعها . ثانياً : طاعته في أوامره الولائية المتعلقة بجماعة المسلمين وحكومتهم كالأمر بالجهاد .

ولهذا لما كان رسول الله لا يشرع الأحكام الكليّة ، وكان ذلك مختصّاً بالله وحده فإنّ طاعة الله وطاعة رسوله المشرّع للأحكام الجزئية قد وردت بتكرار لفظ الطاعة ، إذ جاء فيها : أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ! وأما طاعة أولي الأمر فتتمثّل في الشؤون الولائية والاجتماعية للمسلمين ، إذ ليس للأئمة عليهم السلام حق التشريع حتّى في الأمور الجزئية ، لكنهم لما كانوا يشتركون مع النبيّ صلى الله عليه وآله في وجوب إطاعة الأوامر الولائية ، فقد أوجب الله طاعتهم مع رسوله في سياق واحد بلا تكرار للفظ الإطاعة ، وقال : وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

هذا البحث يدور حول ولاية رسول الله والأئمة وحجمها .^١ أمّا بشأن ولاية الفقيه ، فلا دليل لنا من الآية القرآنية . وما ذكر حولها فهو مأخوذ من الروايات . وذلك كافٍ ووافٍ بحمد الله ومنه . وأهمّ هذه الروايات التي تعدّ أساساً ومحوراً لسائر الروايات هي مقبولة عمر بن حنظلة التي يمكن الاستهداء بها في فصل الخصومة ، بل في سائر الأمور الولائية التي تقع على عاتق الحاكم ، ويتسنى لنا أن نستنبط منها أيضاً حججاً أوامر الفقيه في باب القضاء والحكومة والجهاد .

بيد أنّنا ننبّه على نقطتين جديرتين بالذكر : الأولى : حكومة الوليّ الفقيه ليست في درجة حكومة الإمام وولايته ، إذ إنّ هذا النصب هو من

١- خلاصة لبحث أستاذنا الكبير العلامة الطباطبائيّ في تفسير «الميزان» ذيل تفسير هذه الآية الكريمة ، ج ٤ ، ص ٤١٢ ، طبعة الآخونديّ .

جانب الإمام ، والمنصوب يخضع لولاية الناصب حتماً .
قول الإمام الصادق عليه السلام في المقبولة المذكورة فَإِنِّي جَعَلْتُهُ
حَاكِمًا ، يدلّ على أنّ الوليّ الفقيه منصوب من قبل الإمام المعصوم ، وهو
تحت ولايته .

الثانية : سعة الأوامر الولايتية للولّي الفقيه وإن كانت في نطاق الأوامر
الولايتية للإمام المعصوم وبمستواها ، بيد أنّ الخطأ جائز في ولاية الوليّ
الفقيه ، إذ إنّ كغيره من عامّة الناس لا يتمتّع بملكة العصمة والحصانة من
الخطأ ، فيجوز عليه الخطأ . ويمكن أن يخطأ في الأمور الولايتية ، أو
القضائية ، أو الاستفتاءات . بيد أنّ هذا الخطأ معفو عنه إن لم ينطلق عن
عمدٍ أو تهاون . فلا هو يعذب بعذاب الله ، ولا الناس العاملون برأيه .
أما لو قصر وأخطأ في مقدمات استنتاج الفتوى فهو الذي يُعاقب ،
لا الناس .

يقول الشيعة : إنّ الإمامة في عصر غيبة الإمام تختصّ به ، والولّي
الفقيه تحت ولايته ، وليس له أن يقوم بعمل من عنده تشريعياً أو تكوينياً .
كما ليس له أن يسمّي نفسه إماماً . وإذا ثبتت نيابته الخاصّة فهو نائب
خاصّ ، وإلاّ فهو نائب عامّ .

إنّ جميع الفقهاء والمجتهدين العظام عند الشيعة يجوز عليهم الخطأ ،
أيّاً كان منهم : الشريف المرتضى والشيخ المفيد ، أو الشيخ الطوسي
والعلامة الحلّي ، أو السيّد ابن طاووس والسيّد بحر العلوم .

ولمّا كانوا يجوز عليهم الخطأ ، فحجّية كلامهم تنحصر في زمان
حياتهم . والمجتهد وإن كان في ذروة العلم والتحقيق والحكمة بإقرار جميع
الحاضرين والغائبين لكنّ كلامه يسقط من الحجّية بمجرد موته ، وبترك
الناس تقليده . لإتّنه يجوز عليه الخطأ . ولعلّ كلامه خاطئ ، بيد أنّ كلامه

الخاطئ هذا حجّة على الناس في حياته ، ذلك أنّ الإمام المعصوم جعله حجّة في حياته . لكن لا نيابة له من قبل الإمام بمجرد موته ، كما أنّ كلامه يزول بزوال حياته .

أمّا الإمام المعصوم فليس كذلك ، إذ إنّ كلامه هو عين الحقّ والواقع . لهذا يبقى حياً ذا حجّة بموته كالآيات القرآنية فإنّها حية دائماً وأبداً من حيث العصمة .

كلام النبيّ والإمام حيّ وحجّة سواء كانا حيّين أم ميّتين . وكلام إمام الزمان حيّ وحجّة سواء كان حاضراً أم غائباً .

أمّا كلام آية الله الخمينيّ قدس سرّه ورأيه وأمره وفتواه فليس كذلك ، إذ يفقد كلامه وفتاواه درجة الاعتبار بمجرد موته . ويجب على عامّة الناس الرجوع فوراً إلى المجتهد الحيّ الأعلم الجامع للشرائط وأخذ الأحكام والمسائل منه ، والخضوع لأوامره الولائيّة .

وكما كان أمره في حياته بشأن الحرب والسلام تابِعاً لذلك الزمان ، فكذلك فتاواه وآراؤه . فهل من المعقول أن يقول أحد : لمّا كان السيّد الخمينيّ شجاعاً بصيراً عارفاً بأُمور الناس والمسلمين ، وأمر بالحرب ، فعلى الناس أن يحاربوا بعد وفاته أيضاً؟!

أجل ، ذلك الرجل العظيم الشأن ليس معصوماً عند الشيعة ، ويجوز عليه الخطأ كغيره من المجتهدين . ولمّا كان مقرّراً ومعترفاً بإمام العصر والزمان عبّل الله تعالى فرجه الشريف فهو مقرّر ومعترف بوجود الإمام الذي هو حيّ وغائب الآن . وحينئذٍ كيف يرضى أن يتلقّب بلقب الإمام ، ويتلقّى ذلك بقبول حسن ، ويستسيغه منذ أوّل نشيد قُرئ عند استقباله في مطار مهرآباد بطهران (خميني أي إمام) (= الخميني ، أيها الإمام!) حتّى آخر لحظة من حياته؟!

هل كان ذلك بسبب تصديّه لحكومة المسلمين ، فهو إمام المسلمين ؟ وهذا لا ينسجم مع منطوق الشيعة وحياة إمام العصر والزمان الذي له سيطرة وولاية عليه وعلى الجميع .

هل كان ذلك لأنّ ولاية الفقيه عنده كولاية الإمام بعينها ؟ وعلى فرض قبول هذه النقطة ، فلا يتمّ رضاه بعنوان الإمام في مقابل إمام العصر والزمان ، ووجوده والاستمداد من فيوضاته الظاهرية والباطنية . وماذا يضّر لو كانت ولاية الولي الفقيه كولاية الإمام في حجمها وسعتها ونطاق حكومة الولي المذكور ، لكنّه مع ذلك يكون نائبه ، لا هو بذاته ؟! وهل من المحال أن تكون نيابة النائب بقدر سلطة المنوب عنه ؟!

هل كان ذلك لأنّ المقصود من الإمام هو المعنى اللغويّ ومطلق الزعيم ، لا الإمام الأصل ؟ وهذا يُستبعد من شخص خبير بصير فقيه حكيم متألّه مطلع على جميع الأمور والأحداث . وهل كانت الألقاب الأخرى الدالة على زعامته المطلقة كقائد الثورة الإسلاميّة الكبير ، ومؤسس الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران ، وأعلى مقام الاجتهاد والولاية ، وأمثال ذلك قليلة حتّى يُختار لقب الإمام من بين تلك الألقاب جميعها ؟! وصفوة القول أننا لم نقف لحدّ الآن على سرّ هذا الأمر وحقيقته . لكننا لما كنّا في صدد التعريف بالمدرسة الشيعيّة ، فلا يمكن أن نتجاوز هذا الموضوع ونهمله .

ولو تغاضينا عن إطلاق لفظ الإمام في حياة ذلك المرحوم ، لكننا كيف نتغاضى عمّن يريد أن يستغلّ هذا اللقب بعد مماته ، ويضفي على كلامه صبغة الأبدية ، ويخلّد فتاواه وآراءه .

هذا التوجّه خاطئ . أجل ، إذا أرادوا أن يكتبوا ويتحدّثوا عن جرّاته وشجاعته وعلوّ همّته واستقلاله الفكريّ وتفانيه ونكران ذاته وبُعد نظره

وأمثال ذلك فليكتبوا وليتحدّثوا ما شاءوا فهو قليل بحقه . فلقد كان رحمه الله قدوة وأسوة في هذه الأمور حقاً وحقيقة . أمّا لا يمكن إضفاء صبغة الأبدية على فتاواه كفتواه في حلّية الشطرنج ، وحرّية الموسيقى المبتذلة المسموعة من الإذاعة والإذاعة المرئية وغيرهما . فهذا سدُّ لباب الاجتهاد . ونكون كالسنّة حتّى يبلغ الأمر في آخر المطاف ما بلغ عند الوهاية . إنّ آية الله الخميني يجوز عليه الخطأ . وفي فتاواه الصحيح والسقيم . وهو مأجور في صحيحه ، وأمره إلى الله في سقيم . وليس لنا أن نضفي طابع الأبدية على فتواه ، فنستند إليها إلى يوم القيامة كاستنادنا إلى رأي الإمام الصادق عليه السلام الذي هو عدل الكتاب .

لقد كانت لي سوابق متألّقة مع ذلك المرحوم ، ولم آل جهداً في إراءة الطريق والنصيحة له في حياته ، كما أنّي أنظر إليه بنظرة الإعجاب في مماته ، وأدعو له بالعفو والغفران والخير ، وأقول في قنوتي :

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^١

أنا لحدّ الآن لم أطلق على سماحته لقب الإمام في المجالس والمحافل ، لا تكبراً على مقامه المنيع الرفيع ، بل مراعاةً لآداب المذهب . لكنني استعملتُ اللقب المذكور في ثلاث رسائل كتبتها إليه ، وكانت مليئة بالألقاب التي تليق به ، مع ذلك أُخبرت أنّ الرسائل لا تُقبل إلّا بذكر كلمة الإمام ، فألحقتها بها .^٢

١- الآية ١٠ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

٢- الأولى تدور حول مسودة دستور الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة . والثانية حول لزوم العمل بالتاريخ الهجريّ والشهور والسنين القمرية رسمياً . وقد أرسلتها إليه ملحقة ⇨

ومنذ الأيام الأولى للعزاء المعقود بعد وفاته تحدّث لطلاب العلوم الدينية الأعزّاء في مشهد عن روابط المهمة والحساسة به في تأسيس الحكومة الإسلاميّة وذلك على شكل دروس ألقيتها في ستّ جلسات . ثمّ صدرت هذه الدروس تحت عنوان «وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام» .

وقد أثّنت على مواقفه الحساسة في هذا الكتاب غاية الشناء ، ولم أذكر فيه لقب الإمام ، بل أشرتُ إلى بعض أخطائه في هذا الطريق الذي كتّاه معاً منذ قديم الأيام . علماً أنّي لم أقصد تبيان الخطأ ، بل تبيان التاريخ ، إذ إنّ هذه الدروس قد أُلقيت على شكل سردٍ تاريخيٍّ متسلسل . ومن الطبيعيّ أنّ تبيان بعض الألفاظ كان يستلزم هذا المعنى .

وأرسلتُ نسخة من الكتاب المذكور إلى سماحة آية الله الخامنئيّ ، لأنّي كنتُ قد سمعتُ أنّه ينتظر مطالعته ، وكذلك أرسلتُ نسخاً متعدّدة منه للأصدقاء التوّاقين إلى فهم الواجب بعد وفاة ذلك الرجل الكبير . علماً أنّهم كانوا من معارفي . كما أرسلتُ نسخة منه إلى أحد أرحامي القربيين الذي يتمتّع بمنزلة علميّة ، وكان يتفانى معنا بصدقٍ قبل الثورة من أجل تأسيس الحكومة الإسلاميّة . وبعد الثورة كان سباقاً في وضع الحجر الأساس لها

⇨ بـ«رساله نوين» (= الرسالة الجديدة) التي أُلقيتها في هذا الباب . والثالثة بعنوان «رسالة حول مسألة رؤية الهلال في لزوم اشتراك الآفاق في دخول الشهور القمرية» وهي ملحقة بكتاب «رؤيت هلال» . علماً أنّي أتفق معه في هذا الموضوع . ويمكن أن تكون هذه الرسالة مؤيدة لفتواه . وهي لزوم رؤية الهلال في كلّ مكان بالخصوص من أجل دخول الشهور القمرية ، وعدم كفاية الرؤية في الجملة في مكان من العالم ، على عكس رأي المرحوم آية الله السيّد أبو القاسم الخوئيّ رحمه الله الذي كان يرى أنّ الرؤية في الجملة كافية . وكتبت الرسالة المذكورة للحؤول دون تطبيق تلك الفتوى .

ورفع المحن عنها ، وتصدى لبعض المهام الرسمية ، وكان يدرّس أحياناً ، وهو الآن عضو في مجلس الشورى الإسلامي .

ولعلّ الكتاب المذكور غير صحيح عند البعض الذين ينظرون من زاوية واحدة وقد عاتبوني هاتفتياً ، بخاصّة اثنان من الأحبة من علماء شيراز . وكان مثيراً للسؤال عند البعض إجمالاً ، إذ ما هو الباعث على صدور الكتاب بعد وفاة ذلك القائد مباشرة ؟ بيد أنّ من يعرفني ويفهم منهجي يعلم أنّ ذلك الكتاب لم يكن إلا لتبيان التاريخ الصحيح ، وبيان المهمة الحالية التي تقع على عاتق عامة الناس بعد تلك الحادثة المؤلمة والكارثة المؤسفة .

وراسلني ذلك القريب المحترم سريعاً برسالة ذكر فيها ما وقف عليه من إشكالات ونقاط ضعف ، علماً أنّه أثنى على أصل الكتاب ، وأجبتة في حينها .

ولمّا كانت الرسالة وجوابها ليسا خاصين ، بل هما عبارة عن إشكال ورفع لذلك الإشكال ، لذا ينبغي الاطلاع عليهما ومطالعتهما كأصل كتاب «وظيفة الفرد المسلم...» ، وكنت قد اكتفيت برسالتي في جواب الهاتف الذي وافاني به ذاك العالمان الشيرازيّان ، لذلك من المناسب أن أنقل فيما يأتي نصّ الرسالة وجوابها بلا أدنى تغيير :

بسم الله الرحمن الرحيم

العلامة آية الله السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ دامت بركاته . السيّد الكريم المكرّم سلام عليكم ، سلام الله ورحمته وبركاته المتتابعة عليكم .

طالعتُ كتابكم الموسوم «وظيفة فرد مسلمان در احيای حكومت

إسلام» (= «وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام») بدقّة واستفدت منه . وَلَكُمْ السَّبْقُ وَلَكُمْ الشُّكْرُ وَالْأَجْرُ . وحقيق بهذا الكتاب أن يكون من أفضل وثائق الثورة ، فينوّر أفكار الجيل المعاصر والأجيال القادمة ويطلعها على المشاقّ والمحن التي مرّت على الثورة . يبيد أنّي لاحظتُ فيه نقاطاً قللت من قيمته ، وكان حريّاً بالمؤلف المحترم أن يتناولها بالحديث :

١ - أعتقد من وحي حبي وودّي القديم لكم أنّكم قد أصبتم في قولكم «يشهد الله أنّي ما كتبت شيئاً إلّا وهدفي المقدّس هو عظمة الإسلام وإحقاق الحقّ والدفاع عن حقوق المظلوم وإبراز الحقيقة» . (ص ١٥٥) .
وتعتقدون بحقّ «أنّ لحاكم المسلمين مزايا ومواصفات . وبمجرد وصف الشخص بأنّه حاكم إسلاميّ ، تتغيّر المهمّة الإلهيّة ، وتكون الدقّة في العمل ، وينبغي احترامه ، وتجب طاعته واتباع أمره» (ص ١٧٠) .
«أي : أمره أمر الله ، وأمر رسول الله ، واحترامه وإعزازه أيضاً احترام رسول الله وإعزازه ، ولا يجوز التخلف عن ذلك» .

٢ - من هنا كان حقيقاً بكم في كتاباتكم عند ذكر سماحة قائد الثورة الكبير أن تذكروه بتعظيم وتبجيل وافيين ، وتراعوا احترامه وإعزازه المفروض ، فلا يشعر القارئ غير المطلّع بوجود امتهانٍ له أو عدم اكتراث به .

بخاصّة في النصّ الوارد بشأن الشيخ حسن سعيد دامت معاليه والمذكور لأحد المراجع الماضين «سماحة آية الله البروجرديّ» ، وتقدير خدماته وتُشكّر بإضافة كلمة «سماحة» ، فمن اللائق أن تذكر كلمات التقدير والشكر أضعافاً مضاعفة لقائد الثورة الإسلاميّة الكبير والمرجع الشجاع العظيم . ويُلحظ هذا التقدير والخضوع والطاعة والاحترام عند ذكر اسمه المقدّس .

٣- اعترضتم على الشاه المقبور أنه : لم يطلق عبارة «آية الله» على العلماء ، بل أطلق عبارة «حجة الإسلام» ... وهذا الاعتراض شديد وممدوح . وعندما يرفض العرف استعمال مثل هذه الألقاب ويرى فيها ازدراءً وامتهاناً ، فهل يجدر بكم في هذا النص الثمين أن تذكروا اسم قائد الثورة الكبير في مصافّ أسماء تلامذته كآية الله الآذري وآية الله اليزدي بمستوى واحد؟!

٤- إن حذف الكلمات التشرifiّة نحو «الإمام» و«إمام الأمة» التي ألفها العرف وتداولتها الألسن يعتبر إهانة له في منظار محبيه ومواليه ، بخاصة أنتم ذكرتم «الإمامة والإمارة» مترادفتين في هذا الكتاب . (ص ١٦٩) . وعندما يُطلق على المتقدم الذي يؤمّ المصلّين إمام الجماعة ، فلم لا يمكننا أن نطلق على مثل هذا القائد الشجاع المقدم إمام الأمة؟!

٥- كنتم وما زلتم تعتقدون بحق «أنّ الإسلام قد تجسّد في شخصه» (ص ٩٣) ، وأنّ أيّ مسّ لهذا الوجه المتألق مسّ للإسلام والمسلمين . لكنكم عملتم خلاف عقيدتكم ورأيكم ، وخلاف حرصكم على الكتمان مراعاةً لحرمة بعض الأشخاص . ولم تصرّحوا باسمه وقلتم : «أحد علماء طهران المعروفين» و«بعد اللّيتيا والتي» (ص ٨٩) ... وسردتم مسائل يُشمّ منها هتك لحرمة القائد وولايته عمداً أو سهواً . (ص ٨٩) . مثلاً قلتم : إنّه قال : «لقد زلنا في هذا الطريق» . وقلتم في بياناته الأولى (ص ٩٣) : «لكن وردت فيها موضوعات لا تخلو من إشكال» ونقاط أخرى غيرها ... (ص ٥٥) . ومن الطبيعيّ أنّ تبيان هذه المسائل والتذكير والنصيحة أمور ضروريّة ، بيد أن نشرها في كتاب من قبل ثقة أمثالكم - بعد تسنّم القيادة - سيكون حربة بيد الأعداء ، وسيستفيد منه أعداء الدين قبل أوليائه ! أليست النصيحة أمام الملأ تقرّياً؟!

٦- بشأن «طَيِّب» [اسم شخص] الذي غسل عاره وطهر ماضيه بدم استشهاده وشهامته ، لا يبدو مستحسناً أن تفضحوه وتكشفوا سوابقه بألفاظٍ من قبيل قولكم : « كان طَيِّب شَرَّير طهران الشاذّ (ص ٨٣) ». و« كان طَيِّب الأوّل في كلّ سيّئة تتصوّرونها» ... (ص ٨٥) .

وأنا أتذكّر أنكم كنتم تقولون على المنبر : إنّ الله يكتّم سيّئة عبده حتّى على نبيّه فلا يعلم بها . ومضافاً إلى ذلك أنّي لنا أن نعلم بأنّ «طَيِّب» كان الأوّل في كلّ سيّئة !؟

٧- تحدّثتم جيّداً حول قيادة سماحة آية الله الخامنئي الذي شهد خبراء الأُمّة باجتهاده . وأديتم ما عليكم بضرورة أتباع الوليّ الفقيه من خلال تلك الإشارات الموجزة المعبّرة ، وأحسّتم وأجدتم في ذلك .

لكن لما كانت ولاية الفقيه والوليّ الفقيه ركن الحكومة الإسلاميّة ومحورها وكان إعزاز الوليّ الفقيه وإكرامه هو إعزاز لأمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وإكرام له ، فمن المناسب أن تذكروا اسمه - وهو المتولّي لشؤون القيادة - بتشريف وتفخيم أكثر ، وتستندوا إلى كلمات فقيدها الإمام الراحل بحقه .

٨- يتسنّى لنا أن نقول بكلّ ثقة واطمئنان : إنّ هذا الكتاب من أفضل وثائق الثورة الإسلاميّة بعد تدارك الملاحظات السابقة وأمثالها . وبعد هذا التلافي يمكن أن يكون مشعلاً وهاجاً ينير الطريق للمسلمين ليقيموا حكومة إسلاميّة من خلال جهودهم المتواصلة .

٩- لقد عرضتم هذه الأمور استنارةً بحديث شريف ذكرته في آخر الكتاب وهو يُلزم بالنصيحة لأئمّة المسلمين .

في الختام أدعو الله تعالى لكم بدوام التوفيق ومزيد العزّة والكرامة

في الدنيا والآخرة إِنَّهُ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ .^١

التوقيع بالاسم المعروف
التوقيع بالاسم الموجود في الجنسية
١٦ رمضان المبارك سنة ١٤١٠ هـ . ق .

وأما الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين ، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين .
جناب المكرّم المبجل سيّد الفضلاء العظام فخر العشيرة الفخام ...
دامت معاليه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أدام الله سبحانه توفيقكم وتسديدكم وأنعم عليكم بطيّ مراقبي العلم والعمل والارتواء من منهل العلم والعرفان كما ترومون . وافتني رسالتكم الكريمة واطّلعْتُ على ما فيها . وكانت نقداً وتحليلاً لكتاب «وظيفة فرد مسلمان در احيای حكومت اسلام» (= «وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام») . الذي أهديناكموه وطالعتموه .

ومجمل ما أقوله في دفع الشبهات :

لقد تضمّن كتابي المذكور تكريماً وافياً للفقيد سماحة آية الله الخميني قدّس سرّه . وعتابكم علّيّ أنّي لم أستعمل كلمة «الإمام» أو «إمام الأُمّة» وهي كلمة غير صحيحة .

١- في الآية ٦١ ، من السورة ١١ : هود : إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . (م)

إذا جاز استعمال كلمة «الإمام» لغويّاً ، فهي عند الشيعة منحصرة اصطلاحاً بالأئمة الاثني عشر أولي العصمة المنصوبين بالنصّ النبويّ .
 فلهذا تسمّى هذه الطائفة من الشيعة بالإماميّة ، وإلاّ فإنّ إطلاق الإماميّة عليهم كان لغواً . وينبغي أن يكون كلّ طائفة إماميّة لوجود الإمام فيها .

وقد اعترف بهذا مخالفونا كأحمد أمين المصريّ الذي ذكره في كتبه . وأُطلق لفظ «الإمام» في الروايات المأثورة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام على الأئمة الاثني عشر فحسب على عكس الإمام المضاف مثل إمام الجماعة ، وإمام الجيش ، وهو بمعناه اللغويّ لا الاصطلاحيّ .

ولدينا ألفاظ كثيرة عدلت في الاصطلاح عن معناها اللغويّ وحُرِّم استعمالها في غير معناها الاصطلاحيّ كلفظ «أمير المؤمنين» الذي يمكن إطلاقه لغة على كلّ من كانت له إمارة على المؤمنين ، أمّا اصطلاحاً (ووضعه رسول الله نفسه) فيحرم إطلاقه حتّى على الأئمة الطاهرين بما فيهم بقيّة الله في الأرضين (الإمام المهديّ عليه السلام) ، إذ هو من الألقاب الخاصّة بعليّ بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام . وكذلك لفظ «بقيّة الله» ، و«المهديّ» ، و«صاحب الزمان» فلا يحظر إطلاقها على المتّصف بها ، أمّا في اصطلاح الإماميّة والشيعة الذين أخذوا مذهبهم من الأئمة فلا يجوز إطلاقها إلاّ على الإمام المهديّ عليه السلام .

وتحدّثتُ عن هذا الموضوع في أجزاء من كتابي «معرفة الإمام» بخاصّة في الجزء الأوّل موجزاً ، وفي الجزء الرابع عشر مفصّلاً .

علينا لا سمح الله ألاّ نضحّي بالحقائق في سبيل أهوائنا ونزواتنا وإلاّ فقد خسرتنا بلا مبرّر ، وبعنا رسالتنا بلا عوض . كُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ عَنْ حَدِّهِ انْعَكَسَ إِلَى ضِدِّهِ .

ويرى المذهب الشيعيّ الإماميّ الاثني عشريّ أنّ إمام العصر والزمان

إمام وهو حيٌّ يُرزق . ولا يجتمع سيفان في غمدٍ واحدٍ . وسنخجلُ أمامَ الإمامِ الحيِّ الذي نراه إماماً منذ عصر النبيِّ إلى الآن لكننا نعرض عنه وندعه جانباً لا سمح الله في العمل ، ونلصق بأنفسنا عنوانه الخاصَّ به .

وجاء إتياع لفظ الإمامة للإمامة في كلامي الدائر حول لزوم البيعة ، في بحث إمامة الإمام المعصوم - والإمامة شرط للإمامة طبعاً - لا في بحث ولاية الوليِّ الفقيه وحكومته . وصدِّقُ عنوان الحكومة والإمامة هناك لا يستلزم صدق عنوان الإمامة . وإلا فلا معنى لفصل البحث تارةً بوصفه بيعة الإمام ، وأخرى بوصفه بيعة الوليِّ الفقيه ، ويُختم كلُّه في لزوم بيعة حاكم الشرع .

وتحدّث الدكتور حسن روحاني مرّةً في مجلس فاتحة أُقيم بمناسبة استشهاد المرحوم السيّد مصطفى الخمينيِّ زاده الله علواً ومرتبة فاستدلَّ بالآية الكريمة وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ،^١ التي تفيد أنّ الله أعطى إبراهيم عليه السلام منصب الإمامة بعد ابتلائه بذبح ولده إسماعيل ، فدعا إلى إطلاق كلمة «الإمام» على السيّد الخمينيِّ بسبب استشهاد نجله السيّد مصطفى .

ولا يتمّ هذا الاستدلال ، إذ إنّ الله تعالى هو الذي منح إبراهيم ذلك العنوان وأدّاه بقوله : إِنِّي جَاعِلُكَ . والله سبحانه الذي ترك الإمام المهديّ حيّاً وجعله ملجأً وملاذاً وموثلاً ومنجياً ، لا يجعل إماماً آخرّاً إلا على سبيل النيابة . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَّا تَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَعْلِينَ .^٢

١- الآية ١٢٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢- الآية ١٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

ونلاحظ في الكتب المدرسيّة اليوم أن الطلاب يكتبون - من جهةٍ - : الأئمّة اثنا عشر ، وثاني عشرهم حيّ غائب عن الأنظار ، ومن جهةٍ أخرى يكتبون عبارة «الإمام الخميني» كذا وكذا . وسألني هؤلاء الطلاب مراراً : أليس من الخطأ أن نقول : الأئمّة اثنا عشر ، وهم ثلاثة عشر . فلم أحرز جواباً عن سؤالهم حقّاً .

لقد شيّدوا قبر آية الله الخميني قدس سرّه بما نلاحظه من تنظيم وصحن ورواق ومسجد ومكتبة وغيرها . وهذا ليس مهمّاً مقلقاً . فالقلق إذا كتبوا له لا سمح الله زيارة مفصّلة ونصبوها على قبره كإمام أو كإمام الأُمّة ، فيكون في مصاف الإمام الرضا عليه السلام . وهذا ما يبذل تاريخ التشييع للجيل القادم .

كانت في شخصيّة الفقيه السعيد آية الله الخميني قدس سرّه ملامح متألّقة ساطعة إلى درجة أن الإنسان إذا أراد أن يقوم بدراستها دراسة وافية ، فإنّها ستكون كافية لهذا الجيل والأجيال القادمة ، وهي في غنى عن هذه الأمور الاعتباريّة الموضوعية غير الحقيقيّة .

أمّا «طيّب» فإنّي عندما ذكرته أردتُ أن أبيّن للمتقدّسين المزيّفين أنّ هذا الرجل الذي كان لا يرعوي عن كلّ إثم قال من وحي غيرته الفطريّة الوجدانية : «أنا لا أتهم السيّد» . ويتعدّر الكلام عنه إجمالاً بلا ذكر لسوابقه . فالتميح أو التصريح بآثامه التي كان يرتكبها علناً وتشهد بها المناطق التي كانت حمى له كالأحياء الشعبيّة ومخزن القمح وشارع خراسان ، إنّما يزيد شهامته وشجاعته ، إذ تنازل عن جميع المناصب ، ولم أقصد لا سمح الله بثّ الفحشاء وذكر الموتى بسوء .

نحن نتوقّع من الجمهوريّة الإسلاميّة أن تنوّه باسمه كما تنوّه باسم «تختي» . وكنّت أوّل من زار قبره بعد إعدامه رمياً بالرصاص ، إذ ذهبَتْ إليه

واستمددت من روحه الرفيعة واستقامته واستشفعته إلى الله كي يختم عاقبتنا بخير ويصوننا من الهواجس النفسانيّة والهزاهز الخادعة التي تغرّ المرء بنحو من الأنحاء ، ويؤتينا كتابنا بيميننا صحيحاً سالمًا . والآن كلّما أتشرف بزيارة السيّد عبد العظيم الحسيني عليه السلام أزور قبره أيضاً رحمة الله عليه رحمة واسعة .

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^١

نسأل الله تعالى أن يوقفنا وإياكم لما يُحِبُّ ويرضى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٧ شوال ١٤١٠

السيّد محمّد الحسين الطهراني .

أجل ، كيفما كان كتاب «وظيفة...» فهو هو . وقد تكفل بسرد سلسلة من الوقائع التاريخيّة بدون أدنى تزويق . ودلّ على هويّة الثورة ، واستبان واجب كلّ شخص كما هو حقّه . وإنّ أقلّ تغيير فيه يسقطه من بساطته وصفائه ونقائه ويجعل تاريخاً صحيحاً يفلت من يد مؤرّخ محاييد .

ألم نعلم أنّ الحكومة الإسلاميّة تُقام على أساس حكومة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام . وقواعدها الصدق والاستقامة أعينهما . ولو خرجت من هذا المحور فهي ليست حكومة عليّ . وينبغي أن نُعرّف داخلياً وخارجياً كما نحن عليه . والزيادة والنقصان يخزياننا ويشوهان سمعتنا . ناشدتكم الله هلمّوا لانتحمس على الإسلام والمسلمين

١- الآية ١٠ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

أكثر من الحدّ المطلوب ، ففتحّمس لصيانتته وحفظه من خلال إشاعات كاذبة . وإلاّ خسرنّا في هذه المعركة ، ذلك أنّ أعداءنا أشطن منّا وأمكر في الشيطنة . ولو أردنا إسقاطهم بالكذب والشيطنة لخاطرنّا بأنفسنا ، إذ على فرض تفوّق شيطنتهم فإنّهم سيوقعون بنا .

إنّ سبيل تصدير الثورة هو الصدق والصدق وحده بلا بثّ للدعايات ، وهو الذي يُخضع الأجنبي حتّى اليهود والنصارى وسائر الحكومات الكافرة ، ويستقطب الشعوب ، لأنّهم يلمسون حقانيّة الإسلام ونبية عملياً في وجودنا . بيد أنّنا إذا أردنا أن نخضعهم بغير الصدق فلن يتيسر ذلك أبداً ، لأنّهم يعرفون أسلوب الخداع وغير الصدق أفضل منّا ، بل يظفرون بمعلومات جديدة حول كذبنا .

جاء في التاريخ أنّ الإنجليز لما اقترحوا على أحمد شاه قاجار مدّ سكة الحديد من الجنوب حتّى ميناء گز (=جز) ، فإنّ السلطان أحمد شاه ذكر بمثالب هذا السكة ، وقال : إنّ مصلحة السكك الحديدية في إيران تستلزم مدّ السكة من الشرق إلى الغرب ، وإنّ تجارة الهند سوف تساعد إيران وصادراتها . بيد أنّ سكة الحديد التي تصل الجنوب بالشمال ذات بُعد عسكريّ استراتيجيّ وليست في مصلحة الشعب الإيراني . وأنا لا أستطيع أن آخذ مال الشعب أو استلف من الأجنبي فأنفق على سكة حديد يستفيد منها الإنجليز عسكرياً فحسب .

فقال الوزير الذي أتى بالرسالة إلى السلطان : لا يمكن أن نجيب الوزير المفوض للإنجليز بهذه الصراحة ونميت أمله ! فليكن جوابنا أكثر مرونة من هذا وألين منه .

تأمل السلطان قليلاً ، ثمّ قال : إنّ هؤلاء يعرفوننا أنا وإيّاك وغيرنا أفضل ممّا نعرف أنفسنا . ولو أجبنّاهم بغير هذا الجواب لعرفوا أنّنا

أجبناهم جواباً كاذباً. فالأفضل أن نجيبهم بهذه الصراحة وليعلموا أنني لا أوافق على خطّتهم أبداً.^١

أجل، دار الكلام حول تلقيب آية الله الخميني قدس سرّه بإمام الأُمّة، واتّضح أنّ هذا اللقب لم يستعمل بمعناه اللغوي، بل بمعناه الاصطلاحي «الإمام»، وإلا فلماذا لا يُلقّب قائد الثورة الحالي سماحة آية الله الخامنئي بالإمام؟ ألم يكن زعيماً وقائداً؟!

إنّ الذين لقّبوا آية الله الخميني بالإمام أرادوا أن يُضفوا عليه صبغة الإمامة، ويختاروا له لفظ «الإمام» أو «إمام الأُمّة». وهل هناك فرق بين لفظ «إمام الأُمّة» ولفظ «إمام الزمان»؟ لكن لما كان لفظ «إمام الزمان» ينقذ في الأذهان ويُراد منه إمام العصر والزمان، فقد استبدلوا به لفظ «إمام الأُمّة».^٢

١- «تاريخ سياسي سلطان أحمد شاه» (= التاريخ السياسي للسلطان أحمد شاه) تأليف حسين مكّي، ص ٢٨٤، الطبعة الثانية.

٢- قال آية الله المجتهد المجدّد الشيخ محمّد رضا المظفر رحمه الله في كتابه النفيس «عقائد الإمامية» ص ٣٧، طبعة النجف الأشرف، سنة ١٣٨٨: عقيدتنا في المجتهد: وعقيدتنا في المجتهد الجامع للشرائط أنّه نائب للإمام عليه السلام في حال غيبته، وهو الحاكم والرئيس المطلق، له ما للإمام في الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والرادّ عليه رادّ على الإمام والرادّ على الإمام رادّ على الله تعالى، وهو على حدّ الشرك بالله كما جاء في الحديث عن صادق آل البيت عليهم السلام. فليس المجتهد الجامع للشرائط مرجعاً في الفتيا فقط، بل له الولاية العامّة، فيرجع إليه في الحكم والفصل والقضاء، وذلك من مختصّاته لا يجوز لأحد أن يتولّاها دونه إلا بإذنه، كما لا تجوز إقامة الحدود والتعزيرات إلا بأمره وحكمه. ويُرَجَّع إليه أيضاً في الأموال التي هي من حقوق الإمام ومختصّاته. وهذه المنزلة أو الرئاسة العامّة أعطاهها الإمام عليه السلام للمجتهد الجامع للشرائط ليكون نائباً عنه في حال الغيبة، ولذلك يسمّى «نائب الإمام».

أليس عبارة «إمام الأُمّة» هي نفس عبارة «إمام الزمان» في المعنى والمفاد والمحتوى والتبلور؟ وهي الواردة في الحديث المتواتر المتّفق عليه بين الفريقين: مَنْ مَاتَ ⇨

ومن الأخطاء الأخرى لهذه الحكومة استعمال التأريخ المجوسيّ الشمسيّ والشهور الأوستائية كأزديبهشت ، وشهريور ، وأمرداد ، وإسفند . وقد ألفنا رسالة في هذا الموضوع بعنوان «رسالة جديدة في بناء الإسلام على الشهور القمرية» . وكانت رسالة مدعومة بالدليل والبرهان ولا تقبل الإنكار والتخطئة . وبعثنا نسخة مخطوطة منها إلى قائد الثورة الكبير (السيد الخميني) . وبعد طبعها أهديناها أوّل نسخة منها ، مع ذلك لم يُعبر اهتماماً لهذا الموضوع .

ومن أخطائها الأخرى رفع المنبر ، إذ رُفِع في خطب صلاة الجمعة وغيرها واستبدلوا به المنصة . ويقف الواعظ والخطيب خلف المنصة ويتكلّم .

لا منصّة في الإسلام ، بل فيه المنبر الذي صُنِع بأمر الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله من الأثل المأخوذ من غابات المدينة (القصب) وهو

﴿ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً . وَهَلْ يُعْقَلُ وَيُتَصَوَّرُ أَنَّ غَيْرَ الْمَعْصُومِ يَحُوزُ هَذَا الْمَقَامَ وَهَذَا اللَّقْبَ ؟ وَهَلْ لَنَا سَبِيلٌ مِنْ جِهَةِ الْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الرِّوَايَاتِ النُّقْلِيَّةِ لِتَلْقِيبِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ بِهَذَا اللَّقْبِ ؟ أَجَلٌ ، نَقْرَأُ فِي خُطْبَةِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ جَعَلَ مَعْرِفَةَ الْإِمَامِ عَيْنَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، وَحِينَئِذٍ كَيْفَ يَتَسَنَّى لَنَا تَوْجِيهِهُ إِطْلَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْمَعْصُومِ ؟ جَاءَ فِي كِتَابِ «لِمَعَاتِ الْحُسَيْنِ» ص ٢ : قَالَ الْإِمَامُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَخُطُبُ عَلَى أَصْحَابِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللَّهَ مَا خَلَقَ خَلْقَ اللَّهِ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ ! فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبْدُوهُ ، وَاسْتَعْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ ! مَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ! فَقَالَ : مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ . *

* - ورد كلام الإمام هذا في «ملحقات إحقاق الحق» ج ١١ ، ص ٥٩٤ ، عن العلامة الشهير ابن حُسَيْنِيَه في كتاب «در بحر المناقب» ص ١٢٨ ، نسخة خطيّة ، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، قال : خرج الحسين بن عليّ عليه السلام ليخطب أصحابه وقال :

قويّ وخفيف،^١ ليتسنى حمله للخطيب في صلاة الجمعة والعيد إذا أقيمت في الصحراء أحياناً. ولهذا جاء في السنّة أن يحمل المنبر من داخل مسجد المدينة في صلاة عيدي الفطر والأضحى التي يجب أن تقام خارج المدينة في القاع (أرض مكشوفة). ولا يقف الإمام أو نائبه على شيء آخر غير المنبر ليخطب في الناس. وعليه أن يقف على مرقاته الأولى ولا يجلس. أمّا في سائر الأوقات، فيجلس المدرّس والخطيب والحكيم والمفسّر في أعلى المنبر للتدريس. وينبغي أن تكون للمنبر ثلاث مراقي، لأنّ منبر النبي صلّى الله عليه وآله كان كذلك، وفي طرفيه من الأعلى رمّانان تعرفان برمّانتي المنبر. ومن آداب زيارة مسجد النبي في المدينة تقبيل رمّانتي منبره ومسح العين بهما للاستشفاء، لأنّهما الموضعان اللذان كان رسول الله يضع يديه الشريفتين عليهما.

وفي بعض المساجد المكتنّزة تصنع لمنابرها خمس أو سبع مراقي بسبب الازدحام على ما يرى أصحابها. وأوّل من قام بتكبير المنبر هو معاوية، إذ حرّب منبر النبي وخلط بعيدانه عيداناً جديدة وصنع له منبراً كبيراً.

ونقلنا في الجزءين ١٦ و ١٧ من كتابنا هذا «معرفة الإمام» عن ابن قتيبة الدينوري أنّ هارون الرشيد لمّا قدم المدينة قال لمالك بن أنس: ما تقول

١- قال الشيخ محمود أبو رية في هامش ص ٢٧٢ من كتابه «أضواء...» الطبعة الثالثة: أبو رافع مولى رسول الله واسمه أسلم، وكان للعبّاس بن عبد المطلب فوهبه رسول الله، وهو الذي عمل منبر رسول الله من أثل الغابة، وكانت سلمى مولاة رسول الله عند أبي رافع فولدت له عبيد الله بن أبي رافع كاتب عليّ عليه السلام. ونقل «دهخدا» في معجمه الفارسي عن «البرهان القاطع» أنّ الأثل ضرب من شجر الطرفا... ويقال لثمره بالعربية: حبّ الأثل، ويُشرب مطبوخه مع الزبيب لعلاج الجذام. وشرابه نافع للبواسير. وهذه الكلمة عربيّة.

في هذا المنبر؟ فإنّي أريدُ أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان، وأردّه إلى الثلاث درجات التي كانت بعهد رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم! فقال له مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين! فإنّما هو من عود ضعيف قد تخزّمته المسامير. فإن نقضته تفكّك وذهب أكثره... إلى آخر الحديث!^١

أجل، إنّ «المنبر» و«المحراب» من شعائر الإسلام ولهما أحكام خاصّة ولا ينبغي رفع اليد عنهما. ولا يرتقي المنبر إلا العالم بالشريعة والقرآن، المتولّي تربية الناس روحياً، المنزّه التقي العالم المعلم المرّبي للخاصّة والعامة، وبيده الخلافة المعنويّة عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله.

المنصّة موضع لخطاب اللورد غلادستون، ذلك السياسيّ الديمويّ السّفاح عدوّ الإسلام الذي قام بتنشيط الاستعمار الإنجليزيّ ضدّ القرآن والإسلام ونبوّيه. وخطبه ما زالت في متناول الأيدي.

والمنصّة موضع لخطاب اللورد كُرزن وزير خارجيّة المستعمرات الإنجليزيّة الذي انتهج سياسة مشؤومة في أواخر العصر القاجاريّ للإطاحة بالأسرة القاجاريّة وتسليط الأسرة البهلويّة من خلال مؤامرة السيّد ضياء الطباطبائيّ، وبذل الأموال، وتسليم المخطّط المرسوم لمرمان الوزير الإنجليزيّ المفوّض في طهران فوضع غبار الذلّ على ناصية الشعب الإيرانيّ المسلم الشيعيّ المشرّد.

١- «معرفة الإمام» ج ١٦ و١٧، الدرس ٢٤١ إلى ٢٥٥، عن كتاب «الإمامة والسياسة» ج ٢، ص ١٢٦ إلى ١٥٤، مطبعة الأُمّة، مصر، سنة ١٣٣٨. ويفضّل الكلام هنا عن جميع أعمال هارون في المدينة.

ماذا رأيتم من منبر النبيّ وأمير المؤمنين والإمام الصادق وعلماء الدين الأبرار حتى تستبدلوا المنصة به !؟

كان أوّل مَنْ وضع المنصة في المسجد هو المرحوم السيّد محمود الطالقانيّ . فقد وضعها في مسجد «هدايت» الواقع في شارع «اسلامبول» ولعلّه فعل ذلك بتشجيع من بعض الدكاترة والمهندسين الذين كانوا يريدون أن يتحدّثوا لمناسبة المبعث النبويّ الشريف . فلا معنى لارتقائهم المنبر ، لذلك تركوه ووضعوا المنصة مكانة . وبعد ذلك لم تُرَ منصة في مسجد من مساجد طهران حتى أُقيمت أوّل صلاة جمعة في جامعة طهران ، وهو الذي أقامها ، فخطب خلف المنصة وأهمّل المنبر .

إنّ الشخص الذي يريد أن يدرّس ساعات كثيرة ، أو يتحدّث ويحاور أشخاصاً معيّنين كقاضي المحكمة ، والمفتي ، والمتصدّي لشؤون الناس كالحاكم ، فعليه أن يجلس حتى يستقرّ جسمه ويفرغ باله . والوقوف المتّصل يضرّ الجسم ، ويسبّب أمراضاً في الأوعية الشعريّة للرجل ، ونزف الدم في العروق يؤدّي إلى تمزّقها ويفضي إلى توسّع الأوردة (Varicosity) وهو ما يتعدّر علاجه .

كما يضرّ الوقوف المتّصل الفكر ، إذ يُرهقه ويجعل قوّة التفكير عاجزة ، على عكس حركة الإنسان وتشغيله فلا يقف في سكون دائم . من هنا فإنّ تغيير الحالة يرفع مثل هذه الأضرار .

وكان النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله يجلس ويتحدّث إلى الناس . وفي الخطب القصيرة يقف ويتوكأ على عمود الحنّانة ويخطب . ولو قدّر الاكتفاء بالوقوف وحده فلا ضرورة لصنع المنبر حينئذٍ .

وعلينا أن نتبع ذلك النبيّ العظيم دائماً لنضمن سلامة روحنا وجسمنا وظاهرنا وباطننا . ولا ننسّ قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا^١، ولا نقايض أنفسنا ورسالتنا بالتنميقات الخادعة والعسل المُداف بالسّم .
 كم هو شاذّ في الأسماع عندما يعلن الموقّت أنّ أذان الظهر يوم الجمعة يُبثّ من خلف منصّة مسجد گوهرشاد !! لاحظوا فقد حلّت المنصّة محلّ المئذنة لالفظاً فحسب ، بل حقيقة وواقعاً .

يذكر الدكتور علي شريعتي في رسالة «حركت تاريخ» مطالب معيّنة على أساس الهجوم والدفاع إلى أن يقول : هذا هو الخطر . الخطر الذي نتحدّث عنه دائماً هو أنّنا عندما نضع حقيقة خالدة في وعاء متغيّر يبلى فإنّ ملازمتها للوعاء تجعلها تقليداً وسنّة موروثه على تواتر الأيام فلا تستطيع الأجيال القادمة أن تميّز بين المحتوى - العقيدة والرسالة والإيمان - وبين الوعاء - اللغة ، والبيان ، والمنطق ، والعلوم ، والسنّة ، والاستدلال - .
 ولا بدّ أن ترى الاثنين لازماً وملزوماً خطأً ، ولما كانت هذه الأوعية لا يمكن أن تبقى في جميع العصور ، وتبلى حتماً ، فإنّها تذهب وتتهقر . وهي غير قابلة للبقاء والاستعمال ذاتياً . وإذا قصر الجيل الواعي المعتقد العارف بهذا المحتوى - الإسلام والدين - في إحيائها واستخراجها ، ولم يجددها في أوعية بيانيّة وعلميّة مناسبة لعصرها فقد بلى الوعاء وما فيه .

على سبيل المثال لو اكتفينّا بمنبر النبيّ صلّى الله عليه وآله ذي المراقبي الثلاث . بعد بثّ الأصوات والألحان والأشعار والمحاضرات وضروب الموسيقى على الأمواج الطويلة والقصيرة في أرجاء العالم ، وانفعال منطقة واسعة من الكرة الأرضيّة بالبثّ الإذاعيّ والتلفزيونيّ ،

١- الآية ٢١ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

والصحف والمجالات ومكبرات الصوت والأفلام فكرياً، فإنّ أفضل وأعلى الكلام الذي نطرحه يظلّ في نطاق ضيق ولن يباشر أسماع الناس في العالم^١.

نلاحظ في هذا الاستدلال مغالطة واضحة . فشتان بين أن نقول : ليبق المنبر ، ولا تبق معه هذه الوسائل الإعلامية المكثفة ، وأن نقول : يلغى المنبر وتحلّ المنصة مكانه ، وتستتبعها جميع الوسائل المذكورة . ولم يقل أحد : ليبق المنبر ولا تبق معه الوسائل . وقال كبارنا : ليبق المنبر ويتحقّق كلّ ضرب من ضروب الإعلام من عليه . وهذا أمر في غاية البساطة . ولا ملازمة بين ذهاب المنبر وظهور الحضارة . ولا نقلق إلاّ على ذهاب المنبر واستعمال المنصة ، فتحلّ حضارتهم محلّ الحضارة الإسلامية .

حافظوا على المنبر ، وبتوا ثقافتكم على البسيطة ، بل إلى الأجرام السماوية من عليه . لا تفرّوا من حجر أمكم فتكونون بلا أم . حجر الأمّ دافئ وثير مأمون . وحجر الضّرة والمنصة ذعر وخشونة وخطر .

ومن الأخطاء الأخرى إسقاط لعن أعداء محمد وآل محمد الذي كان متداولاً ثابتاً ملازماً للصلوات على النبي وآله في الخطب والمحاضرات والكتب والمجلات . وها هم اليوم يكتفون بالصلوات في كلّ مكان بذريعة الوحدة بين الشيعة والسنة ، غافلين عن أنّ ما يخالف الوحدة هو لعن بعض الأشخاص المعيّنين . أمّا لعن أعداء آل محمد بنحو عام فقد اتّفق جميع العامة والخاصة على جوازه أو رجحانه . وإذا سألتهم أبا بكر ، وعمر ، وعثمان

١- ص ٢١ و ٢٢ من كتاب «حركة تاريخ» (= حركة التاريخ) المطبوع مع مجموعتين آخرين باسم «روحانيت يا علمای اسلام» (= علماء الدين أو علماء الإسلام) و«اجتهاد ونظريه انقلاب دائمی» (= الاجتهاد ونظريّة الثورة الدائمة) في مجلّد واحد.

عنه لأجابوا بأنه حسنٌ جداً، بيدَ أنّهم يرون أنّ أعداء آل محمّد هم غيرهم، زاعمين الولاء لهم. حتّى أنّ معاوية الذي كان يلعن عليّاً وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عبّاس وقيس بن سعد بن عبادة وأمثالهم من الصالحين بزعم أنّ هؤلاء ليسوا أهل بيت النبيّ، بل إنّ أهل بيته زوجته كعائشة وحفصة وأخته أمّ حبيبة، وحينئذٍ لا محذور في لعن أعداء آل محمّد.

ومن الأخطاء الأخرى حذف كلمة «السيد»، و«الشيخ»، و«الميرزا»، إذ لا تُستعمل هذه الكلمات في الصحف والمجالات والكتب ووسائل الإعلام وبثّ الأخبار أبداً.

ولعلّ الباعث على ذلك هو أنّ هذه الكلمات عربيّة، والعربيّة لغة أجنبيّة، ونحن فُرس علينا أن نعود إلى أصولنا ولا نستخدم هذه الألفاظ! وهذه ذريعة لا غير. فالحقّ أنّهم يتهرّبون من روح السيّد المرتضى، والسيّد الرضويّ، والسيّد ابن طاووس، والسيّد محمّد باقر الشفتي، وسائر السادات، ويتهرّبون أيضاً من روح الشيخ المفيد، والشيخ الصدوق، والشيخ الطوسيّ، والميرزا محمّد حسن الشيرازيّ، والميرزا محمّد تقي الشيرازيّ، والميرزا محمّد حسين النائينيّ، وأمثالهم؛ ويخشون ذكر أسمائهم وألقابهم كنماذج للعلم والألقاب البارزة للرئاسة في التشيع والإسلام.

وإلاّ فإنّ عنوان «الدكتور» و«البروفيسور» يكثر في كلماتهم وتواقيعهم. إنّهم يعادون اللغة العربيّة خاصّة، لأنّها لغة القرآن الكريم، ولغة «نهج البلاغة» والروايات والفقه والتفسير، ولا شغل لهم بمطلق اللغة الأجنبيّة، وإلاّ فلاحظوا هذه المفردات التي يستعملها العالم والعامّي في المحادثة اليوميّة نحو «پاركينگ» (= موقف السيّارات)، و«پلاک» (= رقم المبنى)، و«فاميل» (= اللقب)، و«ايد» (= الفكرة أو العقيدة) ونظائرهما

فإنها تفوق الإحصاء .

إنهم يقولون في الأخبار : آية الله عبد الكريم الحائري [إشارة إلى هذا العالم الذي أسس الحوزة العلميّة في قم المقدّسة] ويُسقطون لفظ (الشيخ) منه وهو وثيقة عظمته وعلمه وزعامته العلميّة . لكنهم من المستحيل أن يسقطوا لفظ «الدكتور» ويقولون : السيّد محمّد حسين البهشتي ، بل لابدّ أن يقولوا : الدكتور البهشتي ، والدكتور مفتّح . ولا نتحدّث في هذا المجال عن الأطباء الذين استأثر بلقب «الدكتور» منذ البداية واستعملوه بدل لقب «الحكيم» ، بل عن الأخصائيين في الآداب أو الفلسفة الإسلاميّة إذ استبدلوا لفظ «المجتهد» الذي كان يعدّ مفخرة لهم سابقاً بلفظ «الدكتور» ، حتّى نجدهم يوقعون بهذا اللفظ .

أجل ، يحوم كلامنا حول كلمة «السيّد» ، و«الشيخ» ، و«الميرزا» التي تعتبر من مزايا الإسلام والألقاب الخاصّة الدالة على الرسالة الإسلاميّة ، والتي لم تكن لتوجد لولا الجهود المضنية التي بذلها شهداء الإسلام والتشيع وعلمائها على امتداد أربعة عشر قرناً . ويا للخسارة أن نفقد سدى !

إنّ رسالة التشيع والإمام الثاني عشر الغائب من أسمى الرسائل وأرفعها وأبلغها واقعيّة وأكثرها رفداً بالحياة . وهي التي تعالج مشاكل البشريّة ليس في زمن الظهور فحسب ، بل في زمن الانتظار والفرج أيضاً ، وتنقذها من المآزق التي لا محيد عنها وتأخذ بأيديها إلى الصراط المستقيم بفكر هادئ وبالرخيّ وقلب مطمئن ، وترشدنا إلى الهدف الأعلى الذي تنشده الإنسانيّة .

لماذا ننسى إمام العصر والزمان ، ونكتفي بلفظ مجرّد له من خلال تبديلنا بعض الاصطلاحات؟! إنّ رسالتنا رافدة بالحياة ، وهي نعم الدواء المهدئ الناجع للبشريّة . هذا الدواء الذي يعدو المرء خلفه ويجدّ في

استقصائه من كلّ جانب .

البروفيسور هنري كوربان يكتب :

ما هي بشارة المذهب الشيعي للبشريّة؟!

كتب هذا الأستاذ الفرنسي المتخصّص بالشؤون الشيعيّة موضوعات رائعة تحت هذا العنوان ، وهي تدور حول موقف التشيع من العالم المعاصر . وأثبت فيها أنّ العقيدة المهدويّة التي يستند إليها الشيعة صحيحة كعقيدة النصارى بروح الله الضامن الحافظ للدين المسيحي . وهي حافظة لقوام الوجود البشري . ولا علاج لسنة العالم جميعهم ، بل للفرق بأسرها إلا بالاستناد إليها . وعلى الناس قاطبة أن يرحّبوا بدخول هذه العقيدة في دينهم من أجل خلاصهم ونجاتهم .

وكان هذا الرجل قد أجرى مقابلة مع أحد المسؤولين الكبار في الأردن قبل أربعين سنة تقريباً . وأعرب في حديث موجز له أن سبيل نجاته وهدوء باله يتحقّق بالرجوع إلى المذهب الشيعي وقبول فكرة «الإمام الحيّ الغائب» . وتحدّث له باستدلال في رسالة تدور حول هذا الموضوع .

ولمّا كانت هذه الرسالة الموجزة حاوية على ملاحظات دقيقة وعميقة ، فمن المناسب - وقد سبق حديثنا إلى أفضل هديّة شيعيّة للعالم برمته - أن ننقل ذات عباراته كي يظلّ طريق التأمل والإمعان في هذه المطالب المستدلّ عليها مفتوحاً لأولي البصائر والألباب ، يقول :

إنّ الموضوعات التي تحدّثنا عنها في الجلسة الماضية (٢٧ تشرين الأوّل ١٩٥٩م) قد ألهمتها في مقابلة كانت قد جرت مع أحد الشخصيات الأردنيّة البارزة .

وكانت هذه المقابلة ذات أبعاد سياسيّة أساساً ، لكن لا ضرورة

لانشغالنا بها . فالذي يهتمنا هو الوضع المعنويّ والدينيّ .
 إنّ ما ينبغي أن ينال اهتمامنا بعامّة ، حسب رأيي هو ما يأتي :
 لا يتمثل الموضوع في دراسة الإسلام مُقايساً بما يُسمّى اليوم
 «التقدّميّة» بنظرة متفائلة أو متشائمة . فالتقدّميّة لم تسلم من شك كثير من
 الغربيين منذ مدّة .

لا ضرورة أن نسأل أنفسنا : كيف يمكن الانسجام مع سبق التقدّميّة
 المفروضة ؟ بل نسأل أنفسنا : كيف يتسنى لنا أن نواجه الكارثة المعنويّة
 العظمى التي عمّت قسماً كبيراً من البشريّة كما يبدو ، وعرضت الباقيين
 للخطر ؟

إنّ ما يدعو إلى الحديث حول شخصيّة أردنيّة هو أنّه نموذج بارز
 لشخصيّة شرقيّة ظهرت فيها خلال بضع سنين كارثة قد ظهرت في الغرب
 تدريجيّاً خلال عدّة قرون .

هذه الأزمة العامّة في الجانب المعنويّ نتيجة لأسلوب جسّد فيه
 الغربيون الحقائق المعنويّة وعلاقتها بأنفسهم . فتسخير قوى الطبيعة
 يمكن أن يقترن بزيادة القوى المعنويّة جيّداً .

إنّ سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وإنجازاته المضادة لعالم الروح
 - حتّى أزالته مفهومه من الوجود - تثيران السؤال الآتي : هل نجد هذا الأمر
 حتمياً لا بدّ منه ، أو نواجهه مستعنيين بالقوى المعنويّة المتفوّقة ؟

وهذا سؤال أسأل الجانب المعنويّ في الإسلام وخاصّة في التشيع
 عنه . وإذا استطعنا أن نطرح هذا السؤال ونُحييه ، فإننا نتمكّن كثيراً من
 التفوّق على قوى الجمود التي يعتقد بها بعض المنتقدين للإسلام في مقابل
 «الرقّيّ» و«التطوّر» في الغرب .

١ - المفهومان النموذجيّان : «الحلول» و«الرقّيّ» . يذكر الأردنيّ

المشار إليه آنفاً قائلاً: بوصفي مسلماً تابعاً أو من إيماناً عميقاً بسنة تحلّ في «السلطان»، بيد أنني لمّا كنتُ أعيش في عصري، ونشأتُ على تعليم أوروبّي فإني أعتقد أنّ الرُّقيّ لا يتحقّق إلاّ خارج السنّة الدينيّة! نلاحظ هنا أنّ «التغرّب» ملحوظ تماماً في كلامه، إذ انبهر بأفكار الغربيّين إلى درجة أنّه أخذ منهم جميع اصطلاحاتهم.

أ- يثار هذا السؤال: ما معنى «الحلول» من منظاره؟ لا شكّ أنّ معناه هو ما نجده عند الغربيّين. ذلك أنّه أدرك نتيجة حيرته الإرادة التي تفصل التمثيلات المشهودة عن العلاقات التي تربطنا بالماضي.

إنّه يقياس التحمّس الذي كان عليه قتلة «الأُسرة الهاشميّة» بثمالة القتلة غير المتديّنين لـ «قساوسة» الذين كانوا من الجمهوريّين المتطرّفين، أي: الذين قتلوا لويس السادس عشر إمبراطور فرنسا.

لا شكّ أنّ معنى الإمبراطور في فرنسا قد وُضع منذ القديم على مفهوم «الحلول». أي: كان الإمبراطور مقدّساً، وفي شخصه يتحقّق حلول الألوهيّة في المجتمع الإنسانيّ.

حسبنا أن نقرأ رسائل «سنت جست Saint just» لنلاحظ كيف كان أعضاء المؤتمر الوطنيّ الفرنسيّ يعرفون هذا الأمر تماماً. وكان موت الإمبراطور يُعدّ انقطاعاً لحلول الألوهيّة في المجتمع. لكن لا يمكن التفكير بهذا الأسلوب ما لم نطبّق التعاريف الرسميّة للمجالس الدينيّة المسيحيّة بعد القرن الرابع، التي كانت ترى أنّ «اللاهوت» و«الناسوت» شيء واحد في شخص الإنسان الألوهيّ أو السيّد المسيح عليه السلام.

وهذا أسلوب قارعه الإسلام ويقارعه دائماً. وإذا تسنّى لنا أن نبين كيف تؤدّي دنيويّة المفهوم الدينيّ إلى كارثة عظيمة، أمكننا أن نسأل: هل كان هذا الخطر يخلو من مفهوم الوجود في نفسه منذ البداية؟ ثانياً: إنّ

الذين لم يعتقدوا بهذا المفهوم منذ البدء ، هل عليهم - على عكس ما يُتوقع - أن يخضعوا له أو يواجهوه ، ويناضلوا ضده ؟

نقول بإيجاز بعد سرد هذا الموضوع : إنّ معرفة الإمام عند الشيعة يمكن أن تنال نصيبها من التفكير والتعمق هنا ، إذ ألا يكون رأي الشيعة صراطاً مستقيماً بين «الوحدة الانتزاعية للإسلام السنّي» و«حلولية الكنائس المسيحية الرسمية» ؟

يمكن أن نقترح على علماء الشيعة الشباب في وقتنا هذا مجالاً مثمراً للبحث : مطالعة ما كتبه الغربيّون حول تأريخ العقائد الكنسية ، والذهاب إلى أن «معرفة الإمام» واجهت نفس المسائل التي وجدتها المسيحية أمامها . بيد أننا نعالج هذه المسائل بنحو يعارض الأسلوب الرسمي للكنيسة تماماً ، وعلى العكس ، يماثل الأسلوب العرفاني المرتبط بالمسيحية .

وخلاصة الموضوع : أنّ جميع أهل الغرب قد تلمّسوا الاتصال بالله في واقعة تاريخية يفهمونها بشكل الحلول ، في حين أنّ الإسلام الشيعي يتطلّب هذا الاتصال في «تجلّي الحق وظهوره ومظهره» المخالف لتصور الحلويين .

فإذا كان لهذه العقيدة - الحلول - دور في أزمة الضمير الحالية لسكان الغرب ، فهل يخلو التشيع من موضوعات جديدة يبيّنها في هذا المجال ؟ وهي موضوعات تغيّر أفكار الإسلام السنّي . والتشيع بلا «معرفة الإمام» لا يمكن تصوّره كالمسيحية بدون المسيح .

وإذا ترك الغربيّون المسيحية فالتقصير في منهج معرفتهم للمسيح (أو أنّهم لم يسلكوا سبيل الأشخاص الذين كانوا يعتقدون - على مرّ القرون - بحلول معنويّ شديد القرب للتجلّي) .

وإذا تأثر مسلم سنّي بأفكار الغربيين فلفقدانه معرفة الإمام ، إذ إنّ هذا

المنهج الصائب يعود إلى تصوّر العلاقة بين الله والإنسان ، وهو منهج صحيح لمواجهة اللا أدريين .

ب - يُعلن الأردنيّ المذكور أنّه «يعيش مع عصره» (أو أنّه متعصرن!) فيا أسفا أنّ هذه الاصطلاح من أكثر الاصطلاحات تداولاً وأشدّها حمقاً في الغرب . فالشخصيّة القويّة غير مجبورة أن تعيش مع عصرها ، بل يجب أن تكون هي العصر نفسه .

ومن البديهيّ أنّ هذا الموضوع يقدّم قضيّة الزمان ومعناه والتأريخ . وهذه موضوعات قد طُرحت في الغرب سابقاً . وأنّ أشدّ المنتقدين لـ «التطور» ، و«أصالة التأريخ» ، و«أصالة الاجتماعيات» قد انطلقوا من هذا المنطلق .

ونريد من مدرسة «أصالة التأريخ» تلك المدرسة التي تعتقد أنّ جميع فلسفة الإلهيات ينبغي أن تُبيّن بواسطة اللحظة التي ظهرت في تقويم التأريخ . وفي مثل هذا البيان لا يبقى شيء إلاّ الماضي . ونريد من مدرسة «أصالة الاجتماعيات» تلك المدرسة التي تتكفل بتبيان الفلسفة كلّها بواسطة الكيان الاجتماعيّ الذي ظهرت هذه الفلسفة في أحضانه .

إذا كانت الصور المعنويّة بُنية فوقيّة للحظة تأريخيّة أو مؤسّسة اجتماعية فحسب فلا قيمة معرفيّة عندنا ويصبح حالنا كحال اللا أدريين . أرغب أن أذكّر أنّي نشرتُ بحثاً بواسطة «علاء الدولة السمنانيّ» يتضمّن انتقاداً رائعاً لمفهوم الزمن . ويذهب السمنانيّ إلى التمييز بين الزمن الأنفسيّ والزمن الآفاقيّ في ضوء الآية الكريمة «سَنُرِيهِمْ عَآيَاتِنَا ...»^١ .

١- الآية ٥٣ ، من السورة ٤١ : فصلت .

إذا اتّبعتنا إشارات مشابهة لكلام هذا العارف الكبير واستفدنا منها ، استطعنا أن نواجه السفسطة التي تذهب إلى وجود التضادّ والتعارض بين «الرقّيّ» و«السنة الدينيّة» .

ذلك أنّ هذه السفسطة غيّرت هذين المفهومين وجعلتهما في مستوى واحد ، بينما هما مرتبطان بدرجات مختلفة . لكن لا شكّ في أنّ أحد مفاهيم «السنة الدينيّة» مسؤول عن جعلهما في مستوى واحد .

* * *

٢ - التراكيب الممتنعة . لا شكّ أنّ الأردنيّ المذكور وجد نفسه أمام تركيب متعذّر بسبب تلك الرؤية التي ارتضاها بلا انتقاد . يقول : «عندما أفكّر كغيري من إخوتي العرب والمسلمين جميعهم أرى أنّنا نعيش في أجواء قصّة ظالمة قاسية . وحينما نحاول فصل الدين عن نظم اجتماعيّ يسوده الرقيّ الفنيّ العلميّ الجديد ، ألا يمكن لنا أن ننكر وجود الله ؟ الدين والاجتماع في الإسلام متمازجان ، ووجود أحدهما يستلزم وجود الآخر . ولهما وجودهما بواسطة الاتّحاد الذي لا يقبل الفصل ، فهل يسعنا أن نحسبنا متجدّدين دون أن نلعن أنفسنا ؟» .

أقترح أن نفكّر بالموضوعات الآتية :

أ - العجيب أنّ الإنسان المسلم يشعر أنّه معرّض لخطر الأفكار التي تمثّل صيحة «نيتشة» في القرن الماضي . أي : «الله ميت» . ولعلّ هذه الصيحة قد انعكست بين سكّان الغرب بأسرهم ! وأنّ الحديث عن التمييز بين باطن هذا الموضوع وظاهره : أي «علم الظواهر» أطول من أن نستطيع طرحه في هذا الوقت ، بيد أنّ رأي «نيتشة» هو نتيجة للاعتقاد بالحلول كما تمّ الاعتراف به في الكنائس (أي : اتّحاد أقانيم الإنسان والألوهيّة) حيث

لا حلول ولا تجسّد ، بل هو التجسّد يسود كلّ مكان . كيف يمكن «إبادة الله» ؟

لا معنى لهذه الجملة عند العارف المسيحيّ ، بيد أنّ هذا الرجل الأردنيّ لم يدرك شيئاً من العرفان قطّ .

ب - الجانب الآخر . إنّ تجانس اللاهوت والناسوت في الكنيسة الكاثوليكيّة قد انتقل إلى التسلسل الهرميّ المؤسّس للكنيسة ، أي : البابا والأساقفة . وينبغي أن نطالع حادثة التحقيق الموسّع للمحكمة الروحانيّة في كتاب (Grand Inquisiteur) (= إخوان كارامازوف دستويفسكي) مرّتين لإدراك معنى هذا الموضوع .

وأصبحت للدين بوصفه الكنيسة سلطة معيّنة وأخذ رؤساء الكنيسة مقام الإلهام السماويّ ، وسجنوا روح الأشخاص في سلطتهم .

إذا لم يعرف الإنسان الظاهرة والكنيسة ، فلن يفهم ظاهرة «المجتمعات الدكتاتوريّة» المعاصرة . وهذه المجتمعات تمثّل الجانب الدنيويّ والعرفيّ للتنظيم الكنسيّ ، بيد أنّ لغتيهما تتشابهان تشابهاً عجيباً ، وهذا هو ما نقصده من كلامنا حين نقول : استبدل «الحلول الاجتماعيّ» بـ «الحلول الألوهيّ» .

ألا نجد تشابهاً بين هذه الظاهرة التي ترى أنّ الدين والكنيسة شيء واحد وبين الإسلام ؟ - كما تصوّره الأردنيّ المذكور أنّه يعني «تمازج الدين والمجتمع» .

هل يمكن أن نرى أنفسنا متجدّدين بدون أن نلعن أنفسنا ؟ وإذا نظرنا إلى هذا الموضوع في ضوء المسيحيّة المعنويّة للغرب المخالفة لمسيحيّة الكنائس ، المعتقدة باجتماعيّة الدين (كسّّة «يواخيم فلورا» و«بوهمّة» و«سويدنبورغ» و«ستانير») تسنّى لنا أن نقول : إنّ «خطر اللعنة»

و«موت الله» ناتجان من عدم التفريق بين الدين والمجتمع واعتبارهما شيئاً واحداً ، لا من التفريق بينهما .

ونشهد في الغرب اليوم إصراراً متزايداً على أهميّة «الشهادة الاجتماعية» ، ويتحدّث الكاثوليك قبل كلّ شيء عن الإيمان بالكنيسة ، ويحسبون الوعي الدينيّ هو السياسة الكنسيّة . وأرى أنّ هذا التمازج أكبر خيانة وغدر بالجانب المعنويّ . والكنيسة لا تهب الإيمان والحياة الأبديّة مهما كان نوعها وانتمائها .

وعندما يتحدّث هذا الرجل الأردنيّ عن التركيب الممتنع ، يمكن أن نقول له : نعم ، هذا التركيب متعذّر . لكن الأمر ليس هذا ، ولا ينبغي أن نحاول القيام به .

* * *

٣ - حول الرسالة الجديدة للجانب المعنويّ للتشيع . أرى أنّ هذا الفكر يستقى ممّا مضى . ويمكننا أن نحاول تلمّس مشاهدة واضحة ومنهج معنويّ في موضوعات الفكر الشيعيّ من أجل مواجهة المفاهيم التي تمّ تحليلها سابقاً ، واستطعنا أن نشهد ظهورها نوعاً ما . تلك المشاهدة التي تتفوق على اليأس المعاصر للبشريّة وتُزيله .

أ - معرفة النبيّ ومعرفة الإمام . إنّ ما بيّنه التشيع حول شخصيّة «الأئمة الاثني عشر» (الأئمة الأطهار) لا هو «حلول» يتضمّن «هبوط الله» في التاريخ التجريبيّ ، ولا عقائد لا أدريّة تجعل الإنسان يواجه عالماً تركه الله ، ولا «وحدة انتزاعيّة للإسلام السنّي» التي توجد بعد اللانهاية بين الله والإنسان . والوضع الحاليّ للعالم يدفعنا إلى التفكير مرّة أخرى في «الصراط المستقيم» بين «التشبيه» و«التعطيل» .

وهكذا نعرض مسائل الحقيقة والمفاهيم البسيطة المتعالية عرضاً
بِكرّاً قبل أن تقع في طرق وجهات ذكرناها سابقاً. ذلك أن تلك الحقائق
البسيطة المتعالية قد أدت بعد الانحرافات المذكورة إلى تدمير الجانب
الروحيّ في الناس المعاصرين ، وهم نحن .

أنت تعرف وتدرّك السنن الأوّليّة التي ارتسم فيها الوجه الحقيقيّ
والمعنويّ للرسول الأكرم والأئمة الأطهار أفضل منّي . إنّها تجربة روحية
جديدة عميقة لك الآن إذا كنت مستعدّاً أن تنظر في تلك الوجوه الأوّليّة
البكر من خلال إدراك الفكر الغربيّ والمسائل التي تُطرح له في هذا الباب .
بخاصّة أن هذا الفكر الغربيّ يصطحب تلك الصور المعنويّة في كلّ مكان
حتّى البلاد الشريّة والروح الشريّة التي تعتبر منبعه .

بيد أن المسؤولين عن «فلسفة الإسلام الإلهيّة» إذا حسبوا أنفسهم في
سجن الأفكار المتعصّبة المتحجّرة وأغلالها ، وأبوا طرح المسائل الجديدة ،
ولم يرغبوا في أن ينسجموا مع تلميذ الفلسفة الغربيّة الذي يتطلّع إليهم
بشوق بالغ ، ويأمل علاج تلك المشكلات ، فحينئذٍ ألا يستحقّون كلّ حكم
قاسٍ شاذٍّ يصدر بحقّهم ؟

ب - مفهوم الغيبة . لم تنل حقيقة «الغيبة» نصيبها من التفكير العميق
في إطار المتطلّبات التي يقتضيها عالم اليوم قطّ . ومن المناسب حقّاً أن
تنال اهتماماً خاصّاً بالنظر إلى نقطةٍ صرّح بها «المفضّل» قائلاً : «ظّل الباب
الثاني عشر مستوراً في حجاب الغيب والخفاء إثر غيبة الإمام الثاني عشر» .
ومعنى هذا باعتقادي مصدر أبديّ لا متناه من المعاني والحقائق ، وهو في
الحقيقة الترياق القاطع أمام كلّ نوع من أنواع السموم (سوسيليزاسيون)
(= الاشتراكيّة) و(ماترياليزاسيون) (= المادّيّة) ، وكلّ ما تستحسنه العامّة
من الأصل والحقيقة المعنويّة ، وكذلك هو الترياق ضدّ ما أبديناه في صدر

المقالة .

إن حقيقة الغيبة - في رأيي - أساس وبنية أصيلة لتنظيم المجتمع الإسلامي وينبغي أن يُنظر إليها كقاعدة معنوية غيبية ، وتظل مصونة من كل ضرب من ضروب التبديل والتحوّل والتجسّد بأشكال مادّية واجتماعية في منظومات اجتماعية .

وكما أنّ الحقيقة المذكورة تُعدّ تزيّناً للظاهرة الكنسية (الروحانية) في الغرب ، ويمكن تحقّق ميلها من حيث التظاهر والتجسّد الاجتماعي للحقيقة الإلهية في المجتمع وكافة النتائج التي يتضمّنهما هذا اللون من التفكير ، فإنّها يمكن أن ترفع التشويش والقلق اللذين يعاني منهما زميلنا وصديقنا الأردني ، وتعالج مشكلته ، ذلك أنّه حسب الإسلام خليطاً غامضاً من «الدين والمجتمع» .

وفي عقيدتي أنّ الغيبة تتضمّن حقيقة تبلغ من الوضوح درجة أنّها لا تقبل مثل هذا الغموض والتبليّب الفكريّ ، ويمكنها أن تعدّ العلاج الوحيد لمثل هذا التشويش والبلبلّة عند ظهورهما .

وفي رأيي أنّ الجانب المعنويّ للإسلام قابل للحياة والديمومة والنشاط بالتشيع فحسب ، ويصمد هذا المعنى أمام كلّ لون من ألوان التحوّل والتغيير اللذين تصاب بهما المجتمعات الإسلامية .

ج - «إمام الزمان» . مفهوم أعلى يكمل مفهوم الغيبة ، بيد أنّه يرتبط بشخصية الإمام الغائب ارتباطاً تاماً . وأنا أشعر وأدرك مفهوم «الإمام الغائب» بنحو جديد وبكر بما أحمله من روح غريبة . وألّقي في روعي أنّ علاقته الحقيقية ترتبط بالحياة المعنوية للبشر . وكأنّ هذه العلاقة أخذت مكانها الحقيقي في خاطري كمنهج عمل باطني معنويّ يرى كلّ مؤمن بنفسه قريناً ومرافقاً لشخصية الإمام ، ويستعيد سلسلة من فتیان المعنوية

وشعيرة الفتوة الضائعة ، على شرط أن نكتيف الحقيقة الأخيرة مع الظروف والإمكانات الروحية المعاصرة .

وبنظري أنّ هذه العلاقة الخاصة للأرواح بالإمام الغائب هي الترياق الوحيد ضدّ خلط حقيقة الدين . وأنّ كرامة الإمام وإقراره هما ذوا صبغة معنوية كأصالة حياته .

وهكذا التفاتنا واهتمامنا بتعاليم الأئمة الذين ظهرُوا ويعيشون الآن في عالم المعنى .

إنّ المستشرقين الذين اعتقدوا بأنّ المذهب الشيعيّ بمنزلة مذهب مستبدّ قد ضلّوا ووقعوا في خطأ فادح ، وقد تسرّبت هذه الفكرة إلى أذهانهم من المفهوم الكنسيّ بقريئة فكرية معيّنة .

إنّ ما يلفت الأنظار أكثر من كلّ شيء عند عرفاء الشيعة كحيدر الأمليّ هو التشبيه الذي أُقيم بين الإمام الغائب و«البارقليط» واستشهاده بإنجيل يوحنا (الإنجيل الرابع) ، ولا عهد للأذهان بهذا الالتقاء الفكريّ والمعنويّ بما عليه من وضوح .

١ - ينبغي أن أُصرّح بأنّ مفهوم البارقليط Paraclet بمعنى المنقذ خاصّ بالعقائد المسيحيّة التي نشطت على هامش الكنيسة والروحانيّة .

٢ - المفهوم المذكور يسود مشهداً من معرفة المعاد المشتركة بين المسيحيّين المعنويّين والمعتقدين المخلّصين بالمذهب الشيعيّ . ولا نقصد هنا الحوادث الواقعة على امتداد القرون والأعصار ، بل نقصد مرحلة من فراق دنيا عمياء البصيرة يملأها الرياء . ومفهوم معرفة المعاد عامل يقطع في كلّ لحظة الجهة التي يطلق عليها الجهة التّاريخيّة . وفي اعتقادي أنّ المعنى الحيّ لحضور الإمام الغائب هو الاتّجاه العموديّ والصعوديّ لنداء النفي المطلق المواجه لجميع مظاهر الرياء وعمى البصيرة ونسخ الحقيقة

المعنوية عند البشر .

٣- أرى من المناسب للمتعلّمين والطلّاب الشباب المنتمين إلى المذهب الشيعي أن يطالعوا الدراسات حول التيارات المعنوية للغرب منذ القرون الوسطى حتى الآن ، أي : الكتابات والحقائق التي عُرفت بعنوان عام هو المذهب الباطني Esoterisme .

وأعتقد أنّ من المناسب والمفيد أن نقوم في مناظراتنا القادمة بدراسة القصد من معرفة المعاد وننعم النظر فيه .

ولا مِرَاء في أنّ الرموز والكنيات والإشارات التي تستعمل في الأدب العرفاني لتبيان الحقائق المعنوية قد مُنيت بالبلبلى وسقوط قوّة التبيين . بيد أنّ مهمّة إحيائها المتواصل تقع على عاتق المؤمن والمسلم الحقيقيين .

والموضوع هو أنّ الذي يشيخ ويبلى هو أرواح الآدميين لا أصل الرموز والكنيات والإشارات التي تبين الحقيقة وتبشّر بها .

* * *

هذه الأفكار هي أفكار رجل غربيّ ، بيد أنّها لما أفرزها ذهنه بسبب تماسّه مع الحقائق الشيعية - بخاصّة أنّها صدرت عن شخص مشتاق وباحث غربيّ استهوته الحقائق المعنوية الشيعية وبشائر التشيع فأدخلها في بوتقة ذوقه وفلسفته - فإنّها يمكن أن تكون دليلاً آمناً مضموناً على الإمكانيات والمكونات الحيّة للمذهب الشيعي .

والآن أستأذنكم بطرح السؤال الآتي وأسترشدكم : في رأيكم ، أياضمّ مذهب الشيعة الإمامية بشارةً وحقيقةً لإنقاذ البشرية في عالم اليوم أم لا ؟
اسمحوا لي في هذا المجال أن أضيف متسائلاً : أياضمّ اجتهدنا

كباحثين في العلوم بتكليفنا المعنويّ كأُناسٍ مطلقين ، ولا يفترقان ؟

در عشق خانقاه و خرابات فرق نيست

هر جا كه هست پرتو روى «حبيب» هست

البروفيسور هنري كوربان

طهران ٨ تشرين الثاني ١٩٦٠ م^١

أجل ، لقد طال حديثنا حول علوم الشيعة ، وجهودهم في تأسيس المعارف المختلفة ، والعلوم الخاصّة للإمام السادس مظهر الحقائق ومُظهر العجائب ، وسبب تسمية المذهب الشيعيّ بالمذهب الجعفريّ ، وتسمية الشيعة بالإماميّة ، وحاجة الناس الماسّة في العالم إلى وجود الإمام الثاني عشر . ومن المناسب أن يكون مسك الختام إحدى وصايا الإمام الصادق لولده الإمام الكاظم عليهما السلام رغبة منّا في مضاعفة الخير والبركة لهذه المجموعة ولقرّائنا الكرام .

قال الحافظ أبو نعيم الإصفهانيّ : حدّثنا أحمد بن محمد بن محمد بن مقسم ، حدّثني أبو الحسن عليّ بن حسين الكاتب ، حدّثني أبي ، حدّثني الهيثم ، حدّثني بعض أصحاب جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، قال : دخلتُ على جعفر ، وموسى بين يديه وهو يوصيه بهذه الوصيّة . فكان ممّا حفظت منها أن قال : يَا بُنَيَّ ! أَقْبَلْ وَصِيَّتِي ، وَاحْفَظْ مَقَالَتِي ، فَإِنَّكَ إِنْ حَفِظْتَهَا

١- «رسالت تشيع در دنياى امروز» (= «رسالة التشيع في العالم المعاصر») للأستاذ العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائيّ ، مجموعة آثار ٢ ، دفتر نشر فرهنگ اسلامي ، ص ٢١ إلى ٣٥ ، الطبعة الأولى ١٣٧٠ هـ . ش .
ويقول في البيت الشعريّ : «لا فرق بين الخانقاه والخربة في العشق ، فحيثما كان فهو نور وجه الحبيب» .

تَعِيشُ سَعِيداً وَتَمُوتُ حَمِيداً !

يَا بُنَيَّ ! مَنْ رَضِيَ بِمَا قُسِمَ لَهُ اسْتَعْنَى ، وَمَنْ مَدَّ عَيْنَهُ إِلَى مَا فِي يَدِ
غَيْرِهِ مَاتَ فَقِيْرًا ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ اتَّهَمَ اللَّهَ فِي قَضَائِهِ ، وَمَنْ
اسْتَصْغَرَ زَلَّةَ نَفْسِهِ اسْتَعْظَمَ زَلَّةَ غَيْرِهِ ، وَمَنْ اسْتَصْغَرَ زَلَّةَ غَيْرِهِ اسْتَعْظَمَ زَلَّةَ
نَفْسِهِ !

يَا بُنَيَّ ! مَنْ كَشَفَ حِجَابَ غَيْرِهِ انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ ، وَمَنْ سَلَ
سَيْفَ الْبَغِيِّ قَتَلَ بِهِ ، وَمَنْ احْتَفَرَ لِأَخِيهِ بَرًّا سَقَطَ فِيهَا ، وَمَنْ دَاخَلَ السُّفْهَاءَ
حَقَّرَ ، وَمَنْ خَالَطَ الْعُلَمَاءَ وَقَّرَ ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتَّهَمَ !
يَا بُنَيَّ ! إِيَّاكَ أَنْ تَزْرِيَ بِالرِّجَالِ فَيُزْرَى بِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالذُّخُولَ فِيمَا
لَا يَعْنيكَ فَتَدَلَّ لِذَلِكَ !

يَا بُنَيَّ ! قُلِ الْحَقَّ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ تُسْتَشَانُ مِنْ بَيْنِ أَقْرَانِكَ !
يَا بُنَيَّ ! كُنْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَالِيًا ، وَلِلْإِسْلَامِ فَاشِيًا ، وَبِالْمَعْرُوفِ أَمْرًا ،
وَعَنِ الْمُنْكَرِ نَاهِيًا ، وَلِمَنْ قَطَعَكَ وَاصِلًا ، وَلِمَنْ سَكَتَ عَنْكَ مُبْتَدِيًا ،
وَلِمَنْ سَأَلَكَ مُعْطِيًا ، وَإِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ ، فَإِنَّهَا تَزْرِعُ الشَّخْنَاءَ فِي قُلُوبِ
الرِّجَالِ ، وَإِيَّاكَ وَالتَّعَرُّضَ لِعُيُوبِ النَّاسِ فَمَنْزِلَةُ التَّعَرُّضِ لِعُيُوبِ النَّاسِ
بِمَنْزِلَةِ الْهَدَفِ !

يَا بُنَيَّ ! إِذَا طَلَبْتَ الْجُودَ فَعَلَيْكَ بِمَعَادِنِهِ ، فَإِنَّ لِلْجُودِ مَعَادِنَ ،
وَلِلْمَعَادِنِ أَصُولًا ، وَلِلْأَصُولِ فُرُوعًا ، وَلِلْفُرُوعِ ثَمَرًا ، وَلَا يَطِيبُ الثَّمَرُ إِلَّا
بِأَصُولٍ ، وَلَا أَصْلٌ ثَابِتٌ إِلَّا بِمَعْدِنٍ طَيِّبٍ !
يَا بُنَيَّ ! إِنْ زُرْتَ فُزْرَ الْأَخْيَارِ ، وَلَا تَزُرِ الْفُجَّارَ ، فَإِنَّهُمْ صَخْرَةٌ
لَا يَتَفَجَّرُ مَآوِهَا ، وَشَجَرَةٌ لَا يَخْضِرُ وَرَقُهَا ، وَأَرْضٌ لَا يَطْهَرُ عُشْبُهَا !

١- قال في الهامش: كذا، ولعله: وللسلام فاشياً.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : فَمَا تَرَكَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ إِلَى أَنْ تُؤْفَى^١.

نوای بلبل ز عشوه گل	فغان قمری ز شور سنبل
گرفته از کف عنان طاقت	ربوده از دل مرا تحمّل
ز طوطی طبع با لطافت	خوش بودن زهی خرافت
بزن نوائی که بیم آفت	بود در این صبر این تأمل
بزن نوائی به یاد ساقی	گاهی حجازی گاهی عراقی
که وقت فرصت نمانده باقی	مکن توقّف مکن تعلّل
ز حُمّ وحدت بنوش جامی	ز جام عشرت بگیری کامی
مباش در فکر ننگ و نامی	که عین خامی است این تخیل
تَبَارَكَ اللهُ از آن مه نو	فکنده بر مهر و ماه پرتو ^٢

١- «حلیة الأولیاء وطبقات الأصفیاء» ج ٣، ص ١٩٥. و ذکرها الشیخ مؤمن الشبلنجی فی «نور الأبصار» ص ١٦٣. وكذلك أوردها الشیخ محمد حسین المظفر فی کتاب «الإمام الصادق» ج ٢، ص ٣٦ و ٣٧، وقال فی ذیلها: وقد جاء بعض هذه الفقرات فی «نهج البلاغة»، ولا بدع فإن علمهم بعضه من بعض. ولعلّ الصادق علیه السلام ذکرها استشهاداً أو اقتباساً. ورواها أيضاً محمد بن طلحة الشافعی فی «مطالب السؤل» ص ٨٢.

٢- یقول: «تغريد البلبل من غنج الورد، وأنین القُمریة من هیجان السنبل وهما سلبانی عنان الطاقه وخطفا التحمّل من قلبی. سکوت البغاء ذات الطبع اللطیف جهل وخرافة. اعزفی لنا لحناً فالآفة فی هذا الصبر وهذا التأمل.

اعزفی لحناً ذکرى للساقی، لحناً حجازياً تارةً وعراقياً تارةً أخرى، ولا وقت لنا فلا تتوقّفی ولا تتعلّلی.

اشرب كأساً من دُنّ الوحده وخذ رشفة من كأس العشرة ولا تفکرّ بالعار والسمعة، فهذا خیال ساذج.

تبارک الله لهذا البدر الذي شَعّ بأضواءه علی الفرقدین».

هزار شیرین هزار خسرو به حلقه بندگیش درغل
 به لب حدیثی ز سرّ مجمل به حسن مجموعه مفصل
 به چین آن گیسوی مسلسل فتاده هم دوروهم تسلسل
 به صورت آن گوهر مقدّس ظهور معنای ذات اقدس
 به قعر دریا نمی رسد خس به کنه او چون رسد تعقل
 به طلعت آئینه تجلی ز عکس او نور عقل کلی
 ز لیلی حسن اوست لیلی مثال ناقص گه تمثّل
 به روی و موی آن یگانه دلبر جمال غیب و حجاب اکبر
 به جلوه سر تا قدم پیمبر در او عیان سرّ کلّ فی الكل
 حقیقه الحقّ و الحقایق کلام ناطق إمام صادق
 علوم را کاشف الدقایق رسوم را حافظ از تبدل
 صحیفه حکمت الهی لطیفه معرفت کماهی^۱

۱- يقول: «فألف «شیرین» (زوجة المَلِك خسرو برویز) وألف خسرو مغلولون بغلّ عبوديته.

في الكلام حديث من السّرّ المجمل وفي الحُسن مجموعة مفصلة. وتلك الضفيرة المخصلة قد تدلّت فوق الدور والتسلسل.

بصورة تلك الجوهرة المقدّسة يتجلّى معنى الذات المقدّسة. والقشّة لا تصل إلى قعر البحر فكيف يبلغ العقل كنهه؟

بطلعة مرآة التجلّي من صورته نور العقل الكلّي. وحُسن ليلي من حُسنه. وقد يكون المثل الناقص للتمثّل أحياناً.

بمحيّا ذلك المعشوق الفريد وشعره جمال الغيب والحجاب الأكبر، هو مظهر للنبيّ من رأسه إلى قدمه وفيه عيان سرّ الكلّ في الكلّ.

حقيقة الحقّ والحقائق، الكلام الناطق لإمام الصادق، كاشف العلوم والدقائق حافظ الشعائر من التبدل.

صحيفة الحكمة الإلهية، لطف المعرفة كما هي.

كتاب هستی دهد گواهی که هستی از او کند تنزّل
 به خلوت قدس «لی مع الله» جمال او شاهدهی است دلخواه
 به شمع رویش خرد برد راه که اوست حقّ را ره توسّل
 صبا برو تا به قاب قوسین بگو به آن شهریار کونین
 کسی به غیر از تو نیست در بین که مفتقر را کند تکفّل
 چه کم شود از مقام شاهی اگر کنی سوی ما نگاهی
 که از نگاهی برد سیاهی برو سفیدی کند تحوّل
 مگر تو ای غایة الأمانی مرا به امید خود رسانی
 نمی سزد این قدر توانی مکن از این بیشتر تغافل^۱

قَوْمٌ سَمَاوُهُمُ السُّيُوفُ وَأَرْضُهُمْ
 أَعْدَاؤُهُمْ وَدَمُ السُّيُوفِ نُحُورُهَا
 يَسْتَمْطِرُونَ مِنَ الْعَجَاجِ سَحَابًا
 صَوَّبَ الْحُتُوفِ عَلَى الرَّجُوفِ^۲ مَطِيرُهَا

۱- يقول: ويشهد كتاب الوجود أنّ الوجود دونه درجة ومنزلة. جماله شاهد صدق على خلوته القدسيّة (لي مع الله)، ويدرك العقل من شمع محياه أنّه طريق التوسّل إلى الحقّ. اذهب أيها الصبا حتّى قاب قوسين وقل لسطان الكونين ليس غيرك في الوجود يكفل المفتقر.

ماذا ينقص من مقام المُلْك لو نظرت إلينا نظرة تذهب بسوادنا وتبيّض وجوهنا. أنت يا غاية الأمانى حقّق لي أمنيّتي فلا يليق هذا التوانى ولا تتغافل عني أكثر من هذا. وجاءت هذه المقاطع الرباعيّة في «ديوان غروي اصفهاني» المعروف بالكمبانيّ، منتخب من ص ١٦٨ إلى ١٧٠.

۲- في «الغدير» ج ٣، ص ٣٩٨: الزحوف. فالمطير إذن يعني ذو المطر.

وَحَادِسُ الْفِتَنِ الَّتِي إِنِ أَظْلَمَتْ
 فَشُمُوسُهَا آرَاؤُهُمْ وَيُدُورُهَا
 مَلَكُوا الْجِنَانَ بِفَضْلِهِمْ فَرِيَاضُهَا
 طُرّاً لَهُمْ وَخِيَامُهَا وَقُصُورُهَا
 وَإِذَا الذُّنُوبُ تَضَاعَفَتْ فَبِحُبِّهِمْ
 يُعْطِي الْأَمَانَ أَحَا الذُّنُوبِ غُفُورُهَا
 تِلْكَ النُّجُومُ الزُّهْرُ فِي أَبْرَاجِهَا
 وَمِنَ السِّنِينَ بِهِمْ تَتِمُّ شُهُورُهَا^١

وقال العوني في وفاة الإمام عليه السلام ودفنه في بقيع الغرقد مُهدياً إليه
التحية :

عَجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْبَقِيعِ الْغَرْقَدِ
 وَاقْرَأَ التَّحِيَّةَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ
 وَقَالَ ابْنُ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيَّهُ
 يَا نُورَ كُلِّ هِدَايَةٍ لَمْ تُجْحَدِ
 يَا صَادِقاً شَهِدَ الْإِلَهِ بِصِدْقِهِ
 فَكَفَى مَهَابَةً ذِي الْجَلَالِ الْأَمْجَدِ
 يَا بَنَ الْهُدَى وَأَبَا الْهُدَى أَنْتَ الْهُدَى
 يَا نُورَ حَاضِرِ سِرِّ كُلِّ مُوَحِّدِ
 يَا بَنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي
 أَوْضَحْتَ قَصْدَ وِلَايَةِ آلِ مُحَمَّدٍ

١- هذه الأبيات للزاهي، ذكرها ابن شهر آشوب في مناقبه، ج ٢، ص ٣٤٤، الطبعة

الحجرية، وفي الطبعة الحديثة: ج ٤، ص ٢٧٨.

يَا سَادِسَ الْأَنْوَارِ يَا عَلَّمَ الْهُدَى
ضَلَّ امْرُؤٌ بِوَلَائِكُمْ لَمْ يَهْتَدِ ١

١- «مناقب آل أبي طالب» لابن شهر آشوب، ج ٢، ص ٣٤٨، وفي الطبعة الحديثة:

ج ٤، ص ٢٧٨.

لَا تَزِدُ سِتْرًا سِتْرًا بَعْدَ الْكَاثِرِ إِلَى السَّبْعِينَ بِمِائَتَيْنِ

إِرْجَاعُ مُعَاوِيَةَ مَسَارَ النَّبُوَّةِ الْعَادِلَةِ إِلَى الطَّاعُوْتِيَّةِ الْمُتَجَبَّرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ
ولعنة الله على أعداءهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ
قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^١.

قال سماحة أستاذنا الأعظم آية الله العلامة السيّد محمد حسين
الطباطبائيّ تغمّده الله أعلى درجات جنانه في تفسيره المبارك ما نصّه :
الاجتثاث الاقتلاع ، يقال : جَثَّتهُ واجْتَثَّتهُ أي : قَلَعْتُهُ واقْتَلَعْتُهُ ،
وَالجُثُّ بالضمّ ما ارتفع من الأرض كالأكمة ، وَجُثَّةُ الشّيء شخصه الناتئ .
كذا في «المفردات» .

والكلمة الخبيثة ما يقابل الكلمة الطيبة ، ولذا اختلفوا فيها فقال كلّ
قوم فيها ما يقابل ما قاله في الكلمة الطيبة . وكذا اختلفوا في المراد بالشجرة
الخبيثة فقيل : هي الحنظلة ، وقيل : الكشوث ، وهو نبت يلتف على الشوك

١- الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

والشجر لا أصل له في الأرض ولا ورق عليه ، وقيل : شجرة الثوم ، وقيل : شجرة الشوك ، وقيل : الطحلب ، وقيل : الكمأة ، وقيل : كل شجرة لا تطيب لها ثمرة .

وقد عرفت حال هذه الاختلافات في الآية السابقة ، وعرفت أيضاً ما يعطيه التدبر في معنى الكلمة الطيبة وما مثلت به ويجري ما يقابله في الكلمة الخبيثة وما مثلت به حرفاً بحرف . فإنما هي كلمة الشرك مثلت بشجرة خبيثة مفروضة اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت وما لها من قرار ، وإذ كانت خبيثة فلا أثر لها إلا الضرر والشر .

قوله تعالى : **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** إلى آخر الآية . الظاهر أن «بالقول» متعلق بقوله **يُثَبِّتُ** لا بقوله : **ءَامَنُوا** والباء للآلة أو السببية لا للتعدية ، وأن قوله : **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** متعلق أيضاً بقوله : **يُثَبِّتُ** لا بقوله : **الثَّابِتِ** .

فيعود المعنى إلى أن الذين آمنوا إذا ثبتوا على إيمانهم واستقاموا ثبتهم الله عليه في الدنيا والآخرة . ولولا تثبيته تعالى لهم لم ينفعهم الثبات من أنفسهم شيئاً ولم يستفيدوا شيئاً من فوائده ، فإليه تعالى يرجع الأمر كله . فقوله تعالى : **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** في باب الهداية يوازن قوله : **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ،^١ في باب الإضلال .

غير أن بين البابين فرقاً وهو أن الهدى يبتدئ من الله سبحانه ويترتب عليه اهتداء العبد . والضلال يبتدئ من العبد بسوء اختياره فيجازه الله بالضلال على الضلال ، كما قال : **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ** .^٢ وقد

١- الآية ٥ ، من السورة ٦١ : الصف .

٢- الآية ٢٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

تكاثرت الآيات القرآنية أنّ الهداية من الله سبحانه ليس لغيره فيها صنع^١.
أجل ، إنّ أحد المصاديق الكبرى للشجرة الخبيثة هم بنو أمية الذين
عبّر عنهم القرآن الكريم أيضاً بالشجرة الملعونة . قال الشيخ محمود أبو
ريّة في هذا المجال :

أما ما كان بين بني أمية وبين بني هاشم في الجاهلية فإنّا ندع القول
فيه للمؤرّخ الكبير المقرّيزي فقد سجّله في كتابه «النزاع والتخاصم فيما بين
بني أمية وبني هاشم» . وإليك بعض ما قاله في ذلك :

إنّي كثيراً ما كنتُ أتعجب من تطاول بني أمية إلى الخلافة مع بعدهم
من جذم رسول الله ، وقرب بني هاشم ، وأقول : كيف حدّثتهم أنفسهم
بذلك ؟ وأين بنو أمية ، وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ولعيّنه من
هذا الحديث مع تحكّم العداوة بين بني أمية وبني هاشم في أيام جاهليّتها؟!
ثمّ شدة عداوة بني أمية لرسول الله ، ومبالغتهم في أذاه ، وتماديهم على
تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله عزّ وجلّ بالهدى ودين الحقّ ، إلى أن فتح
مكة شرفها الله تعالى فدخل من دخل منهم في الإسلام ! فلعمري لا بُدّ أبعد
مما كان بين بني أمية وبين هذا الأمر ، إذ ليس لبني أمية سبب إلى الخلافة ،
ولا بينهم وبينها نسب^٢.

وقد كانت المنافرة لا تزال بين بني هاشم ، وبين عبد شمس بحيث
إنّه يقال : إنّ هاشماً وعبد شمس ولدا توأمين ، فخرج عبد شمس في الولادة
قبل هاشم وقد لصقت إصبع أحدهما بجبهة الآخر . فلمّا نزعتمى المكان

١- «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٢ ، ص ٥١ و ٥٢ .

٢- وردت هذه الفقرة في الصفحة الأولى من كتاب «النزاع والتخاصم فيما بين بني

أمية وبني هاشم» طبعة النجف ، سنة ١٣٨٦ هـ .

فقيل : سيكون بينهما أو بين ولديهما دمٌ ، فكان كذلك .
ويقال : إن جباههما كانت ملتصقة بعضها ببعض ، فأخذ السيف
ففرّق بين جباههما^١ .
وكانت المنافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وبين ابن أخيه
أمية بن عبد شمس بن عبد مناف^٢ .

قال المقرئزي : ثم تبادت العداوة بين البيتين حتى قام سيد بني
هاشم أبو القاسم محمد بن عبد الله بمكة يدعو قريشاً إلى توحيد الله
تعالى ، وترك ما كانت تعبد من دون الله ، فانتدب لعداوته جماعة من بني
أمية منهم : أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية^٣ ، وعقبة بن أبي معيط ،
والحكّم بن أبي العاص بن أمية . وكان مؤذياً لرسول الله يطّلع عليه وهو
في حجرات نسائه . وقد قال فيه النبي : مَنْ عَدِيرِي مِنْ هَذَا الْوَزْغَةِ ! لَوْ
أَدْرَكْتُهُ لَفَقَّاتُ عَيْنَهُ .

ثم لعنه وما ولد ، وغرّبه عن المدينة . فلم يزل خارجاً عنها بقيّة حياة
رسول الله وخلافة أبي بكر وعمر . فلما استخلف عثمان رده إلى المدينة
وولده مروان ، ولما مات ضرب على قبره فسطاطاً .
ومنهم : عتبة بن أبي ربيعة بن عبد شمس ، وهو أبو هند^٤ التي لاكت
كبد حمزة بن عبد المطلب .

١- ذكر المقرئزي هذا الموضوع في ص ٢ من كتابه ، وقال في آخره : فقال بعض
العرب : ألا فرّق ذلك بالدرهم ! فإنه لا يزال السيف بينهم وفي أولادهم إلى الأبد .
٢- قال أبو ريّة : من أراد أن يتعرّف على هذه المنافرة فليتمسّسها في كتاب المقرئزي .
٣- قال المقرئزي في ص ١١ : حتى هلك على كفره بالله في أول سنة من الهجرة ، أو
في سنة اثنين وهو يحادّ الله ورسوله .
٤- هند هذه هي زوج أبي سفيان وأمّ معاوية .

ومنهم: الوليد بن عتبة بن أبي ربيعة. والوليد هذا هو خال معاوية.
 ومنهم: شيبه بن ربيعة بن عبد شمس عم هند.
 ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية^١ قائد الأحزاب، الذي
 قاتل رسول الله يوم أحد. وقُتل من خيار أصحابه سبعون ما بين مهاجري
 وأنصاري، بينهم أسد الله حمزة عم النبي، وقاتل رسول الله يوم الخندق.
 ولم يزل يحادّ الله ورسوله حتى سار رسول الله لفتح مكة، فأتى به العباس
 ابن عبد المطلب رسول الله، وقد أردفه - كان صديقه ونديمه في الجاهلية -
 فلمّا دخل به على رسول الله، سأله أن يؤمنه، فلمّا رآه رسول الله قال له:
 وَيْلَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ!؟

١- قال المقرئ في ص ٢: فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوته للنبي
 صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، وفي محاربتة وفي إجلايه عليه، وغزوه إياه. وعرفنا إسلامه
 كيف أسلم، وخلاصه كيف خلص. على أنه إنمّا أسلم على يد العباس. والعباس هو الذي
 منع الناس من قتله وجاء به رديفاً إلى النبي صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، وسأله أن يشرفه
 وأن يكرمه ويؤه به. وتلك يد بيضاء، ونعمة غراء، ومقام مشهور، وخبر غير منكور. فكان
 جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا علياً، وسمّوا الحسن، وقتلوا الحسين، وحملوا النساء على
 الأقتاب حواسر، وكشفوا عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يُصنع بذراري
 المشركين إذا دُخلت ديارهم عنوة. وقال في ص ٣ و٤: وأكلت هند كبد حمزة، فمنهم آكلة
 الأكباد، ومنهم كهف النفاق؛ ونقروا بالقضيب بين ثنيتي الحسين، ونبشوا زيدا وصلبوه،
 وألقوا رأسه في عرصة الدار تطؤه الأقدام، وتنقر دماغه الدجاج، حتى قال القرشي:

اطردوا الديك عن ذؤابة زيد
 وقال شاعر بني أمية:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة
 ولم تر مهدياً على الجذع يوصلب
 وقتلوا يحيى بن زيد وسمّوا قاتله «ثائر مروان» و«ناصر الدين»، وضربوا علي بن
 عبد الله بن عباس بالسياط مرتين على أن تزوج ابنة عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك
 ابن مروان.

فقال له : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَوْصَلَكَ وَأَجْمَلَكَ وَأَكْرَمَكَ ! وَاللَّهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئاً !

فقال : يَا أَبَا سُفْيَانَ ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ !؟

فقال : أَمَا هَذِهِ فِي النَّفْسِ مِنْهَا شَيْءٌ !

فقال له العباس : ويلك ! اشهد بشهادة الحق قبل أن تضرب عنقك !

فشهد وأسلم .

وقد اختلف في حسن إسلامه فقيل : إنه شهد حينئذ مع رسول الله

وكانت الأزلام معه يُستقسم بها ،^١ وكان كهفياً للمنافقين في الجاهلية .^٢

وفي خبر لعبد الله بن الزبير أنه رآه يوم اليرموك قال : فكانت الروم

إذا ظهرت قال أبو سفيان : إِيهِ بَنِي الْأَصْفَرِ ! فإذا كشفهم المسلمون قال :

١- الاستقسام بالأزلام نوع من القمار الذي كان يُتعاطى في العصر الجاهلي ، وحرّمه

الإسلام بالآية ٣ ، من السورة ٥ : المائدة : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيسَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا

أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُسْخِنَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا

ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَكُمْ فِسْقٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ... والمراد من الاستقسام

بالأزلام على ما جاء في تفسير البيضاوي المطبوع في دار الطباعة العامرة بجزئين ، ج ١ ،

ص ٣٢٣ هو قوله : وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ، أي : وحرّم عليكم الاستقسام بالأقداح . وذلك

أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها : أَمْرِي رَبِّي ، وعلى الآخر :

نَهْيِي رَبِّي ، وعلى الثالث : غَفْلٌ فَإِنْ خَرَجَ الْأَمْرُ مَضُوا عَلَى ذَلِكَ . وإن خرج النهي تجنّبوا عنه .

وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً . فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم

لهم بالأزلام . وقيل : هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصبة المعلومة . وواحد الأزلام زَلَمَ

كجَمَلٍ ، وَزَلَمَ كَصُرَدٍ .

٢- لما انهزم المسلمون يوم حنين قال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

وقال فيه حافظ الغرب ابن عبد البر في «الاستيعاب» ج ٢ ، ص ٧٠٩ و٧١٠ : إنه كان كهفياً

للمنافقين منذ أسلم ، وكان في الجاهلية يُنسب إلى الزندقة ، وإن له أخباراً رديئة ، وإن إسلامه

لم يكن سالماً .

وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْمُلُوكُ مَلُوكُ الرَّؤُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورٌ
 وممن حاربوا النبي معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية . وهو
 الذي جدد أنف حمزة ومثل به . ومعاوية هذا هو أبو عائشة أم عبد الملك
 ابن مروان . وعبد الملك هذا أعرق الناس في الكفر ، لأن أحد أبويه الحكم
 ابن أبي العاص لعين رسول الله وطريده ، والآخر معاوية بن المغيرة .^١
 ومنهم حَمَالَةُ الْحَطَبِ واسمها أم جميل ابنة حَرْبِ بن أمية ، وإيّاها
 عنى الله تعالى بقوله في سورة تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ... إلى آخر السورة .
 وقال المقرئزي : وما من أحد من هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم إلا وقد
 بذل جهده في عداوة رسول الله وبالغ في أذى من اتبعه وآمن به ، ونالوا
 منهم من الشتم وأنواع العذاب حتى فرّ منهم مهاجرون إلى بلاد الحبشة ، ثم
 إلى المدينة ، وأغلقت أبوابهم بمكة ، فباع أبو سفيان بعض دورهم وقضى
 من ثمنها ديناً عليه . وهمّوا بقتل رسول الله غير مرّة ، وتناظروا في أمره
 ليُخرجوه من مكة أو يقيّدوه ويحبسوه حتى يهلك . وبالغ كلُّ منهم في ذلك
 بنفسه وماله وأهله وعشيرته ، ونصب لرسول الله الجبال بكلّ طريق سراً
 وجهراً ليقتله .^٢

ما قاله الجاحظ في ذلك

قال الشيخ محمود أبو رية : ونردف ما قاله المقرئزي بصفتين من
 رسالة بليغة كتبها الجاحظ في معنى ما نحن بصدده ، لتكونا دليلاً آخر على
 تصوير موقف الأمويين من النبي ومن عليّ وبنيه .

١- قال المقرئزي في ص ٤ : قَتَلَهُ عَلِيٌّ وَعَمَّارٌ صَبْرًا .

٢- المطالب المذكورة ملخّصة من ص ١٠ إلى ٣٤ من كتاب «النزاع والتخاصم» .

قال الجاحظ وهو يتحدث عن أمر قتل عثمان وما جرى على المسلمين من بلايا ومحن : ثم ما زالت الفتن متصلة ، والحروب مترادفة ، كحرب الجمل وكوقائع صفين ، وكيوم النهروان ... إلى أن قتل أشقاها عليّ ابن أبي طالب رضوان الله عليه ... إلى أن كان اعتزال الحسن عليه السلام الحروب وتخليية الأمور ، عند انتشار أصحابه وما رأى من الخلل في عسكره ، وما عرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلونهم عليه .

فَعِنْدَهَا اسْتَوَى مُعَاوِيَةَ عَلَى الْمَلِكِ . وَاسْتَبَدَّ عَلَى بَقِيَّةِ الشُّورَى وَعَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي الْعَامِ الَّذِي سَمَّوْهُ عَامَ الْجَمَاعَةِ ! وَمَا كَانَ عَامَ جَمَاعَةٍ ! بَلْ كَانَ عَامَ فِرْقَةٍ وَقَهْرٍ وَجَبْرِيَّةٍ وَغَلْبَةٍ ! وَالْعَامِ الَّذِي تَحَوَّلَتْ فِيهِ الْإِمَامَةُ مَلَكًا كَسْرَوِيًّا ، وَالْخِلَافَةُ غَضَبًا قَيْصَرِيًّا
ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا ، وعلى منازل ما رتبنا ،^١ حتى ردّ قضية رسول الله ردّاً مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً ، في ولد الفراش وما يجب للعاهر ، مع اجتماع الأمة أنّ سمّية لم تكن لأبي سفيان فراشاً ، وأنّه إنّما كان بها عاهراً ، فخرج بذلك من الفجار إلى حكم الكفار .^٢

١- قال المقرئ في ص ٣ : وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى اليمن بسربين أرطاة ، فقتل ابني عبيد الله بن العباس وهما غلامان لم يبلغا الحلم . فقالت أمّها عائشة ابنة عبد الله ابن عبد المدان بن الديان ترثيهما :

يَا مَنْ أَحَسَّ بِابْنَيْ اللَّذَيْنِ هُمَا
أَنْحَى عَلَيَّ وَدَجِي طِفْلِي مُرْهَفَةً
كَالذَّرْتَيْنِ تَشَطَّى عَنْهُمَا الصَّدْفُ
مَطْرُودَةً وَعَظِيمِ الْإِثْمِ يُقْتَرَفُ
وقتلوا لصلب علي بن أبي طالب تسعة ، ولصلب عقيل بن أبي طالب تسعة ، لذلك قالت نائحتهم :

عَيْنُ جُودِي بِعَبْرَةٍ وَعَوِيلٍ
تَسْعَةٌ مِنْهُمْ لِصَلْبِ عَلِيٍّ
وَأَنْدُبِي إِنْ نَدَبَتْ آلَ الرَّسُولِ
قَدْ أَصِيبُوا وَتَسْعَةٌ لِعَقِيلِ
٢- يشير إلى استلحاق معاوية لزيد وجعله ابناً لأبي سفيان .

وليس قتل حجر بن عديّ ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعة يزيد الخليع ،^١ والاستئثار بالفيء ، واختيار الولاية على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسنن المنصوبة . وسواء في باب ما يستحق من الكفّار جحد الكتاب وردّ السنّة ، إذ كانت السنّة في شهرة الكتاب وظهوره ، إلّا أنّ أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشدّ .

فهذه أول كفره كانت من الأُمَّة ، ثمّ لم تكن إلّا فيمن يدّعي إمامتها والخلافة عليها ، على أنّ كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا ، فقالت لا تسبّوه فإنّ له صحبة ، وسبّ معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنّة ! فزعمت أنّ من السنّة ترك البراءة ممن جحد السنّة .

ما كان من يزيد

ثمّ الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثمّ غزو مكّة ورمي الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام في أكثر أهل بيته ، مصاييح الظلام ، وأوتاد السلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحرمه ، أو الذهاب في الأرض حتّى لا يحسّ به ، أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلّا قتله والنزول على حكمهم .

إلى أن قال الجاحظ : كَيْفَ نَصْنَعُ بِنَقْرِ الْقَضِيبِ بَيْنَ ثِنْتَيْهِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحَمَلِ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ حَوَاسِرَ عَلَى الْأَقْتَابِ الْعَارِيَةِ وَالْإِبْلِ الصَّعَابِ ، وَالْكَشْفِ عَنْ عَوْرَةِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عِنْدَ الشُّكِّ فِي بُلُوغِهِ عَلَى

١- وصفوا يزيد هذا بأوصاف كثيرة شنيعة أتينا على بعضها عند الكلام عنه.

أَنَّهُمْ إِنْ وَجَدُوهُ وَقَدْ أَنْبَتَ قَتْلُوهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَنْبَتَ حَمَلُوهُ ، كَمَا يَصْنَعُ
أَمِيرُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بِذَرَارِي الْمُشْرِكِينَ .^١

وكيف تقول في قول عبيدالله بن زياد لإخوته وخاصته : دَعُونِي
أَقْتُلُهُ فَإِنَّهُ بَقِيَّةُ هَذَا النَّسْلِ ، فَأَحْسِمُ بِهِ هَذَا الْقَرْنَ ، وَأُمِيتُ بِهِ هَذَا الدَّاءَ ،
وَأَقْطَعُ بِهِ هَذِهِ الْمَادَّةَ !

خَبَرْنَا عَلَى مَا تَدَلَّ هَذِهِ الْقِسْوَةُ وَهَذِهِ الْغُلْظَةُ بَعْدَ أَنْ شَفَوْا أَنْفُسَهُمْ
بِقَتْلِهِمْ ، وَنَالُوا مَا أَحْبَبُوا فِيهِمْ ؟! أَتَدَلَّ عَلَى نَصَبٍ وَسُوءِ رَأْيٍ وَحَقْدٍ وَبَغْضَاءٍ
وَنِفَاقٍ وَعَلَى يَقِينٍ دُخُولٍ وَإِيمَانٍ مَمْزُوجٍ أَمْ تَدَلَّ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَحُبِّ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْحِفْظِ لَهُ وَعَلَى بَرَاءَةِ السَّاحَةِ وَصِحَّةِ
السَّرِيرَةِ ؟!

فَإِنْ كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ لَا يَعْدُو الْفُسُقَ وَالضَّلَالَ ، وَذَلِكَ أَدْنَى
مَنَازِلِهِ . فَالْفَاسِقُ مَلْعُونٌ . وَمَنْ نَهَى عَنِ لَعْنِ الْمَلْعُونِ مَلْعُونٌ . وَزَعَمْتَ نَابِتَةَ
عَصْرْنَا وَمَبْتَدَعَةَ دَهْرْنَا أَنْ سَبَّ وَاوَلَاةَ السُّوءِ فَتَنَّتْ وَلَعْنِ الْجَوْرَةِ بَدْعَةٌ ...
وَالنَّابِتَةُ فِي هَذَا الْوَجْهِ أَكْفَرُ مِنْ يَزِيدٍ وَأَبِيهِ ، وَابْنُ زِيَادٍ وَأَبِيهِ .^٢

١- قال أبو ريّة في الهامش : سيأتيك شيء من تفصيل هذه الجريمة الكبرى التي
لم يقع مثلها في التاريخ الإسلامي على مدّ عصوره.

٢- في كلّ عصر نابتة سوء مبغضة عُرفت بالنصب ، وفي عصرنا هذا من هذه السلسلة
قوم فضحوا أنفسهم بنصبهم . (محمود أبو ريّة).

وأقول : ها هي خمس عشرة سنة تمرّ على انتصار الثورة الإسلامية في إيران وقد بذلت
الحكومة قصارى جهدها من أجل حفظ الوحدة الإسلامية ، مع ذلك لم يقتنع المناوئون
الذين في قلوبهم مرض فأصدروا الكتب والمجالات العديدة بلغات مختلفة ليبثوا بها
أباطيلهم وأراجيفهم من منطلق النعرة العربية القومية ، ولينشروا خرافاتهم القديمة البالية
كقضية عبدالله بن سبأ ، وانحدار الشيعة من القومية الفارسية المجوسية وأمثال هذه الترهات
التي أزكمت الأنوف . هؤلاء المساكين لا يعلمون أنّ أحداً لا يقيم لكلامهم وزناً الآن ،

على أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمناً متعمداً أو متأولاً .
 فإذا كان القاتل سلطاناً جائراً ، وأميراً عاصياً ، لم يستحلوا سبّه ، ولا خلعه
 ولا نفيه ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقير ،
 وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور .
 ثم ما زال الناس يتسكعون مرّةً ، ويدهنونهم مرّةً ، ويقاربونهم مرّةً ،
 ويشاركونهم مرّةً ، إلا بقيّة ممّن عصمه الله تعالى ذكره !
 ثم أخذ الجاحظ يبيّن ما وقع ممّن جاء بعد يزيد من الفظائع التي
 تقشعرّ منها الأبدان ، ولم يسمع بمثله في أيّ زمان .
 ولو أنّ المقام يحتمل ما في رسالة الجاحظ ممّا ارتكب بنو أميّة من
 الظلم والبغي والقهر لجئنا به كاملاً ، فليرجع إلى هذه الرسالة القيّمة - وهي
 مطبوعة - من يريد .

« وقد خزوا وافتضحوا بذكر المستشرقين في كتبهم . وبانت حقانيّة النبي ووصيّة
 أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وفشت فضيحة السلاطين الغاصبين من تيم وعديّ وبنو
 أميّة وبنو مروان . وهبّ رجال مألوسون من أمثال محمّد ثابت ، ومحّبّ الدين الخطيب ،
 وعبدالله بن باز ، وإبراهيم الجبهان ، وإبراهيم علي شعوط ، وإحسان ظهير الله ،
 وعبد المنعم نمر ، ومال الله موسى الإصفهانيّ احتذاءً بابن تيميّة ، وأحمد أمين المصريّ ،
 وموسى جار الله ونظائرهم ساعين إلى إسدال الستار على جرائم سلفهم ، وهم لا يدرون أنّهم
 يسعون باطلاً فمن رفع الغطاء عن جسد متعفنّ ازدادت عفونته .

إنّ هؤلاء الأعداء الألداء للإسلام لا يقتنعون بأيّ منطق ، ولا يفهمون الكلام الموزون
 المدروس ، ولا مفهوم للحقّ عندهم . إنهم أخلاف زياد ومعوية ويزيد ، وهم المثل الأعلى
 لأفكارهم وآرائهم في هذا العصر . فليتنظروا عقوبة الله سبحانه . وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ
 الْمِيعَادَ . (الآية ٣١ ، من السورة ١٣ : الرعد).

أبو سفيان بن حرب

قال الشاعر وصدق :

عَبْدُ شَمْسٍ قَدْ أَضْرَمَتْ لِنَبِيِّهَا شِمَّ نَاراً يَشِيبُ مِنْهَا الْوَلِيدُ
فَابْنُ حَرْبٍ لِلْمُصْطَفَى وَابْنُ هِنْدٍ لِعَلِيِّ وَلِلْحُسَيْنِ يَزِيدُ

وابن حرب هو أبو سفيان بن أمية بن عبد شمس . كان رأساً من رؤوس الأحزاب على رسول الله ، ومن الذين أجمعوا على منابذته ، وممن حضروا دار الندوة ليتشاوروا في قتله ، وتعاقدوا على القضاء عليه ، كما ذكر المقرئ من قبل . ثم كان على رأس المحرضين على محاربة النبي في موقعة بدر .^١ وفي هذه الغزوة قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ سادات قريش ومنهم : الوليد بن عقبة خال معاوية ووالد هند .

وبعد هذه الغزوة التي نجا منها أبو سفيان ، أصبح سيد مكة بلا منازع وزعيم قريش في حربها وسلمها . وهو الذي قاد قريشاً يوم أحد والخندق . وألب العرب على النبي وأصحابه ، وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبي وأصحابه . وهو الذي ظلّ يدبّر مقاومة قريش للنبي وكيدها له ، ومكرها به .^٢ واستمرّ على ذلك حوالي عشرين سنة من أول قيام الدعوة

١- قال الشيخ محمود أبو ريّة في الهامش : زعم الواقدي أن معاوية كان في عمرة القضاء مسلماً فردّ عليه ابن حجر العسقلاني في «الإصابة» بقوله : هذا يعارضه ما ثبت في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في العمرة في الحجّ : فعلناها وهذا يومئذ كافر ، يعني معاوية . وزعم الواقدي كذلك أنّ معاوية شهد حُنيناً فأعطاه النبي من الغنائم مائة من الإبل وأربعين أوقية . وردّ الذهب على ذلك فقال : الواقدي لا يعني ما يقول فإن كان معاوية قديماً في الإسلام فلماذا يتألفه النبي صلى الله عليه وآله ولو كان أعطاه لما قال عندما خطب فاطمة ابنة قيس : أمّا معاوية فصعلوك لا مال له .

٢- قال آية الله السيّد شرف الدين في رسالته «إلى المجمع العلمي العربي» ⇨

حتى كان يوم فتح مكة فأسلم مُرغماً .

وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماءً من جنابة حتى يغزو محمداً .
وقد بينا لك من قبل قصة إسلامه ، عندما أحيط به على ما رواه
المقريزي أنفاً وكان معه ابنه معاوية وسائر أولاده ومن أسلم من قومه ،
وقال لهم النبي يومئذٍ : **اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ** . وكان كذلك هو وأولاده من
المؤلفة قلوبهم ، وهم قوم من كبار العرب كانوا يُعطون من الصدقات مالاً ،
إما دفعاً لأذاهم ، وإما طمعاً في إسلامهم ، وإما تثبيتاً في الإسلام .^١
وكان أبو سفيان وأولاده من الذين كان يعطيهم النبي دفعاً لأذاهم ،
لأن إسلامهم كما بينا لم يكن صحيحاً ، فلما تولى عمر حرمهم ذلك ، وقال :
انْقَطَعَتِ الرَّشَا ، لأن المسلمين قد كثروا .

والمؤلفة قلوبهم ناسٌ من قريش أسلموا يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً .
والطلاق جمع طليق وهو من حصل المنّ عليه يوم فتح مكة من قريش ،
ومن هؤلاء : أبو سفيان ، وسهل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ،
ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان .

﴿ بدمشق » ص ١١٧ و ١١٨ : لكن بنته أم حبيبة واسمها رملة أسلمت وحسن إسلامها قبل
الهجرة ، وهاجرت مع المهاجرين إلى الحبشة هرباً من أبيها وقومها ، فبعث رسول الله
صلّى الله عليه وآله بعض أصحابه إلى النجاشي فخطب عليه أم حبيبة ، فزوجه إياها وأصدقها
النجاشي من ماله عن رسول الله صلّى الله عليه وآله اربعمائة دينار ، وأبوها إذ ذاك ممعن
في عداوة الله ورسوله . وقدم بعد ذلك على المدينة ليزيد في هدنة الحديبية ، فدخل على
بنته أم حبيبة ، وحين أراد أن يجلس طوت الفراش دونه . فقال : يا بنية ! أرغبت به عني ؟
فقال : هو فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله وأنت امرؤ نجس مشرك ! فقال : لقد أصابك
يابنية بعدي شرٌّ ! (نص على هذا كله أثبات الأمة من حفظة السنن والآثار) .

١- ظلّ المؤلفة قلوبهم يأخذون من مال الأمة حتى تولى عمر وقال : **لقد اعتزّ**
الإسلام ولم تعد حاجة لإعطائهم .

وكان الطلقاء يقولون في محمد صلى الله عليه وآله :
 دَعُوهُ وَقَوْمَهُ فَإِنْ غَلَبَهُمْ دَخَلْنَا فِي دِينِهِ ، وَإِنْ غَلَبُوهُ كَفَوْنَا أَمْرَهُ !
 وقال ابن عباس : إن قوماً كانوا يأتون النبيّ فإذا أعطاهم مدحوا
 الإسلام ، وإذا منعهم ذموا وعابوا ، وكان من هؤلاء أبو سفيان وعُيينة بن
 حصن ، وكانوا إذا ذكروا أبا سفيان ذكروا معه ابنه معاوية ^١ .
 وذكر أبو رية موضوعاً حول أبي هريرة قبل هذه الموضوعات قال
 فيه : ممّا لا ريب فيه أنّ أبا هريرة قد اتّصل بدولة بني أمية وبني أبي معيط
 اتّصلاً وثيقاً ، فتشيع لها ، وحطب في حبلها ، واستظلّ بظلّها ، وناصرها ما
 استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ومن أجل ذلك ظفر بمكانة عظيمة لديها فغمرته
 بأعطياتها ، وملاؤا يديه من نوالها . وجدير بنا قبل أن نعرض لهذا الاتّصال
 أن نوّطئ بصدرٍ من القول نبين فيه حقيقة هذه الدولة ، وكيف قامت ، وماذا
 كان من أمر زعمائها من النبيّ من أوّل يوم قام فيه بدعوته ، وعودهم له كلّ
 مرصد ، وإمعانهم في أذاه ! وشنّ الحروب عليه . إلى أن قال :

إنّ قيام الدولة الأموية له جذور عميقة تضرب في أحشاء الزمن
 البعيد في الجاهليّة ، يجب على كلّ من يتصدّى لتأريخ هذه الفترة من الزمن
 أن ينفذ إليها ويتعمّقها ، وأن يصوّرها تصويراً صادقاً ، ثمّ يعرض صورتها
 جليّةً على الناس . وهذه الجذور ترجع إلى ما كان من شأن متأصل في
 صدر بني أمية لبني هاشم قبل الإسلام . وظلّ هذا الشنآن يؤجّج بينهما على
 مدّ الزمن ناراً وسعيراً ، حتّى إذا ظهر النبيّ صلى الله عليه وآله بدعوته ،
 كان هؤلاء القوم أسرع الناس إلى معارضته ، والتصدّي لدعوته ، فعاجلوه
 بالمعارضة ، وتولّوه بالأذى حسداً من عند أنفسهم ، ولم يذروه ينشر

١- «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ١٤٢ إلى ١٤٩ ، الطبعة الثانية.

دعوته ، ويبلغ رسالته ، بل أضرّموا عليه حرباً ضروساً ، اتّصلت بينهم وبينه حوالي عشرين سنة إلى أن فتحت مكّة بنصر الله فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ^١.

ولم يجد أبو سفيان الذي كانت له الزعامة في قريش بعد أن قتل صناديدهم في وقعة بدر مناصباً من أن يستسلم وأن يسلم مرغماً هو وأولاده ، ومنهم معاوية .

ولمّا كان إسلامهم هذا ظاهراً لم يجاوز حناجرهم ، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم ، فقد ظلّوا على ما بأنفسهم ، مضمرين بغضهم القديم ، ومقتهم الموروث ، وما أربى عليه من حقد جديد يأكل صدورهم أن تظهر النبوة في بني هاشم أعدائهم وإن أيقنوا أنّ دعوة هذا النبيّ ستقضي إلى الأبد على نفوذهم بمكّة التي كانت يومئذٍ خالصة لهم ، وتمحو سيطرتهم على أهلها ، ولبثوا من أجل ذلك كلّه يترصّون بالنبيّ الدوائر ، ويرتقبون أن

١- الآية ١١٩ ، من السورة ٧: الأعراف .

قال السيّد محمّد باقر الخوانساريّ في «روضات الجنّات» ج ٧ ، ص ٢٥٦ ، طبعة إسماعيليان ، في ختام ترجمة محمّد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى بعد ذكر حكاية : هذا وقد مضى في ذيل ترجمة شريك المذكور ما هو أملح من هذه الحكاية وأدعى إلى سبيل ولاية أهل بيت الرسالة والدراية والحمد لله على نعمة الهداية . ومن جملة ما لم نروه هناك من أخبار الرجل وهو أيضاً من ملح الآثار ونوادر الأخبار ، أنّه سئل يوماً أن يذكر شيئاً من مناقب معاوية بن أبي سفيان ، فقال : نعم إنّ من مناقبه أنّ أباه قاتل النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وهو قاتل الوصي ، وأمه أكلت كبد عمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله حمزة رضى الله عنه وابنه حرّ رأس ابن النبيّ صلّى الله عليه وآله فأبّية منقبة تريد أعظم من هذا؟! ثمّ إنّ من جملة طرائف أخبار ابن أبي ليلى برواية شيخنا الصدوق في «الفقيه» أنّه سئل مولانا الصادق عليه السلام ، فقال : أي شيء أحلى ممّا خلق الله ؟ فقال : الولد الشابّ . فقال : أي شيء أمرّ ممّا خلق الله ؟ فقال : فقدّه . فقال ابن أبي ليلى : أشهد أنّكم حجج الله على خلقه .

تتاح لهم فرصة فيعيدوا الكرة لكي يستعيدوا مجدهم الذاهب ، ويستردّوا نفوذهم البائد .

وما إن لحق النبيّ بالرفيق الأعلى حتى أسرعوا إلى إشعال نار الفتنة ليعيدوها جذعة ، ولكنهم خابوا فيما كانوا يبتغون ، وحقّ بهم ما كانوا يمحرون ، إذ لم يدع لهم أبو بكر وعمر وعليّ أيّ منفذ إليه ينفذون ،^١ إلى أن قُتل عمر بمؤامرة أثيمة ،^٢ وهنالك أماطوا عن وجوههم أقنعة النفاق ، وأخذوا يسعون بكلّ ما استطاعوا في سبيل قيام دولة منهم بعد أن طال ارتقابهم ، وشدّ من عزمهم أن استُخْلِيفَ عثمانُ بعد عمر في ظروف لا تتوسّع بتفصيلها - وكان أمويّاً منهم - فما لبث أن وطأ لهم ولبني أبي معيط من رقاب المسلمين وخالف بذلك وصيّة عمر .^٣

وقال أبو ريّة في كتابه النفيس الآخر متحدثاً عن هذا الموضوع وذاكراً مطالب يدور حولها الحديث : إنّ الذي يريد أن يدرس تأريخ الإسلام على حقّه إنّما يجب عليه أن يحيط علماً بما كان عليه العرب قبل

١- كان عمر هو الذي مهّد الخلافة لبني أميّة ، ذلك أنّه وليّ معاوية الشام في أيّام خلافته . («تاريخ يعقوبي» ج ٢ ، ص ١٥٠) (النقل بالمضمون لا بالنص).

٢- قطع الشيخ محمود أبو ريّة بأنّ مقتل عمر كان بمؤامرة كعب الأبحار اليهودي . وله حديث وافٍ في كتاب «أضواء على السّنة المحمّديّة» ص ١٥٠ إلى ١٥٥ ، الطبعة الثالثة ، وفيه أنّ إسلام كعب كان إسلام خدعة . وبعد كلامه حول كيفية استحواذ بني إسرائيل وأبحار اليهود كعبدالله بن سلام ، ووهب بن منبّه الإسرائيليّ ، وكعب الأبحار ، وتردّد كعب على عمر ، أثبت بأدلة ذكرها دوره في قتل عمر بعد مشورته للهرمزان وأمره أبا لؤلؤة بذلك . وقال في ختام حديثه :... وممن اشترك فيها وكان له أثر كبير في تدبيرها كعب الأبحار . وهذا أمر لا يمتري فيه أحد إلاّ الجهلاء .

٣- «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ١٤٠ إلى ١٤٢ ، الطبعة الثانية .

الإسلام عامّة ، وبخاصّة بين بني هاشم وبين بني أمية في الجاهليّة ، ثمّ في الإسلام . وبما شجّر بين الصحابة منذ عهد عثمان والحروب التي وقعت بين عليّ رضي الله عنه وبين معاوية ، وجنودهما أكثرهما من الصحابة . وما كان بعد ذلك بين الأمويين والعبّاسيين ، وكذلك ما كان بين النبيّ صلّى الله عليه وآله وبين اليهود ، وما تكنّه قلوب أهل الأديان والأمم الأخرى للإسلام من بغض وشنآن .

حقّاً يجب على كلّ من يريد أن يقف على تأريخ الإسلام الصحيح أن يحيط بذلك كلّ علماً فتنكشف أمامه آفاق بعيدة ينبعث منها نور قويّ يهدي إلى تحليل الحوادث تحليلاً صحيحاً . فإنّ كلّ هذه الأمور كان لها ولا ريب أثر بعيد في تكوين التأريخ الإسلاميّ ، وفيما تدسّس إلى تفسير القرآن من أساطير ، وما نُسب إلى النبيّ - كذباً - من أحاديث .

وإنّ التأريخ يُثبتك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ما كاد ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتّى بدا ما كان يُكنّه بنو أمية من الموجدة لبني هاشم ممّا كان قد استتر بغطاء الإسلام حيناً ، فحاولوا إغراء بني هاشم بالمطالبة بالخلافة لكي تقع الفتنة ، ولكن يقظة عليّ أحبطت كيدهم فسكنوا وطوا على ما بين جوانحهم حتّى يهيئوا فرصةً تسنح لهم إلى أن تهيات في خلافة عثمان .

ذلك بأنّه ما كاد يتولّى الأمر حتّى كشف الأمويّون عمّا كانت تخفي صدورهم - وكان أمويّاً - وأخذوا ينقذون خطّهم بدقّة ومهارة حتّى أصبح الأمر كلّه في عهده لهم . وانقلب نظام الحكم كلّه في السنين الأخيرة من

١- ارجع إلى كتاب «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» للمقرزيّ ، وإلى كتابنا «شيخ المضيرة» لكي تعرف كيف قامت دولة بني أمية!

حكم عثمان من خلافةٍ عادلةٍ^١ إلى ملكٍ تتعاوره الأهواء ، وتداوله الأغراض .

ولما انشقت العصا بعد وفاة عثمان واستعرت نار الفتنة ، وانشعب الناس إلى شعب متعدّدة ، أخذ كل فريق يؤيّد حزبه بكل ما يستطيع من وسائل التأييد المادّيّة والمعنويّة والقوليّة ، فهذا يشايح الهاشميين ، وذلك يناصر الأمويين ، وهكذا . وقد رأوا أنّ أقوى أسلحة الغلب أن يستعين كل فريق بأدلةٍ مأثورة عن النبيّ تشدّد أزر فرقته وتقوي دعوتها ، من أجل ذلك أخذوا جميعاً يروون أحاديث ينسبونّها إلى الرسول صلّى الله عليه وآله ،

١- هذا هو لفظ أبو ريّة إذ يرى أنّ حكومة عثمان عادلة . وهذا رأيه كعالم سنّي ، بيد أنّ الشيعة تذهب إلى أنّ حكومته جائرة منذ البداية . فقد شهد التأريخ بأنّه كان رجلاً ظالماً . وقد أدرك الشيخ أبو ريّة السنّي - بما كان عليه من فكرٍ وقادٍ وتقويمٍ منصفٍ وما امتاز به من دراساتٍ عميقة - أنّ في فقه العامة خللاً وفي صحاحهم بخاصّة «صحيح البخاري» روايات باطلة كثيرة تخالف العقل والتأريخ . ولذا ألّف كتابيه الثمينين : «الأضواء...» ، و«شيخ المضيرة» للردّ على فقه العامة المتوكّي على أحاديث رواها رجال كذابون متهمون كأبي هريرة . وكان سماحة العلامة السيّد مرتضى العسكري أمّد الله في عمره الشريف وهو سبط خال والدي (المرحوم المحدّث العظيم آية الله الميرزا محمّد الطهرانيّ العسكريّ الذي كان يُقيم في مدينة سامراء) - يقول : أرسلت كتابين من كتبي وهما : «عبدالله بن سبأ» والجزء الأوّل من كتاب «أحاديث أمّ المؤمنين عائشة» إلى الشيخ أبو ريّة في مصر فاستحسنهما كثيراً . وعندما ذهب إلى مصر عدته في المستشفى إذ كان راقداً فيها لمرض ألمّ به وأدى إلى وفاته . وقد سررنا أنا وإياه باللقاء كثيراً وكان يرى أنّ عائشة امرأة فظة محرّفة للتأريخ وعدوّة لأُمير المؤمنين وفاطمة الزهراء عليهما السلام ، وكان يبغضها كثيراً ، ولعنها عدّة مرات وهو على سريره . كما كان يتبرأ من عثمان . وسألته عن رأيه بالشيخين ، فقال : إنّه توصّل إلى موضوعاتٍ كثيرة بشأنهما ، وكان يذمّهما لكنّه لم يبلغ مرحلة لعنهما والبراءة منهما حتّى وافاه الأجل . ومرّ على وفاته حتّى الآن قرابة ثلاثين سنة . اللهم احشُرهُ مع مَنْ يتولّاه ويحبّه وأبعده ممن يتبرأ منه ويبغضه !

وبخاصة في الفضائل ، كما رأيت ذلك في أسباب وضع الحديث من قبل !
 وإنهم لم يفعلوا ذلك إلا لأنهم وجدوا أنّ شخص الرسول صلى الله
 عليه وآله ممّا تعنوا له الهام وأنّ مقامه بينهم جميعاً فوق كلّ مقام ، ولكن
 الغلب كتب لبني أمية على بني هاشم بما كان لهم من قوّة ومكر ، وما كان
 في أيديهم من مالٍ وسلطانٍ وقهرٍ .

وثمّ ناحية أخرى كان لها حظّ كبير - في العبث بالرواية - وكان عمل
 أصحابها دينياً خفياً ، وغايتها التي تسعى إليها أن تفسد عقائد الدين النقية ،
 بأن تدخل فيها ما ليس منها وتدسّ إليها من التعاليم الزائفة ما يشوّه
 جمالها ، أولئك هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أظهروا الإسلام
 خدعة ، ثمّ ألقوا ما شاء لهم الكيد والهوى من الإسرائيليات والمسيحيات
 والأكاذيب في دين العرب الجديد - كما مرّ بك - ومن هذا ومن أسباب
 كثيرة بيّناها من قبل ، أخذ الوضع والكذب يفشوان بين الناس ، واستجرت
 الرواية عن رسول الله حتّى ركب الناس في ذلك - كما قال ابن عباس -
الصَّعْبَةَ وَالذَّلُولَ .^١

أي : التقوا بكلّ حديثٍ صحيحٍ وسقيم ، وسمعوا كلّ كلامٍ حقٍّ وباطلٍ
 منسوباً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله .

وكان الشيخ محمّد عبده يرى أنّ وضع الأحاديث بخاصة في زمن
 الأمويين من أعظم المصائب التي نزلت بالإسلام .

قال أبو رية تحت عنوان أعظم ما رزى به الإسلام : قال الأستاذ

الإمام محمّد عبده :

١- «أضواء على السنة المحمّديّة ، أو دفاع عن الحديث» ص ٢٦٩ إلى ٢٧١ ، الطبعة

الثالثة ، دار المعارف بمصر .

لم يُرزأ الإسلام بأعظم ممّا ابتدعه المنتسبون إليه ، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه ، فذلك ممّا جلب الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بُني عليه الدين . وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمّديّ في قرونه الأولى حتّى عرف ذلك في عهد الصحابة رضی الله عنهم ، بل عهد الكذب على النبيّ صلّى الله عليه وآله في حياته
 إلا أنّ عموم البلوى بالأكاذيب حقّ على الناس بلاؤه في دولة الأمويّين فكثرت الناقلون وقلّ الصادقون وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون بحفظه خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم... .
 وروى الإمام مسلم في مقدّمة صحيحه قال : مَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْخَيْرِ فِي شَيْءٍ أَكْذَبَ مِنْهُمْ فِي الْحَدِيثِ .^١

ثمّ اتسع شرّ الافتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق ، وامتدّ بامتدادات الزمان ، ومن راجع مقدّمة الإمام مسلم ، علم ما لحقه من التعب والعناء في تصنيف صحيحه ، واطّلع على ما أدخله الدخلاء في الدين وليس منه في شيء .

لم يخف على أهل النظر في التأريخ أنّ الدين الإسلاميّ غشي أبصار العالم بلامع القوّة ، وعلا رؤوس الأمم بسلطان السطوة ، وفاض في الناس فيضان السيول المنحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثّلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولي الألباب عليه آيات بيّنات ، فكان الداخلون في الدين على هذه الأقسام :

قوم اعتقدوا به إذعانا لحجّته واستضاءة بنوره وأولئك الصّادِقُونَ .

١- روى مسلم هذه العبارة في مقدّمة صحيحه عن يحيى بن سعيد القطان بهذا اللفظ ، وبلغظ «الصالحين» بدل «أهل الخير».

وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه واتسموا بسمته ، إمّا لرغبة في مغانمه أو لرهبة من سطوات أهله ، أو التعرّز بالانتساب إليه فتدثروا بدثاره ، لكنّهم لم يستشعروا بشعاره ، لبسوا الإسلام على ظواهر أحوالهم ، إلّا أنّه لم يمسّ أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على أديانهم في بواطنهم ، ويضارعون المسلمين في ظواهرهم .

وقد قال الله في قوم من أشباههم : **قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**^١ .

فمن هؤلاء من كان يبالي في الرياء حتّى يظنّ الناس أنّه من الأتقياء ، فإذا أحسّ من قوم ثقة بقوله أخذ يروي لهم أحاديث دينه القديم مسنداً لها إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله أو بعض أصحابه .

ولهذا ترى جميع الإسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل إلى الكتب الإسلاميّة على أنّه أحاديث نبويّة^٢ .

ومنهم من تعمّد وضع الأحاديث التي لو رسخت معانيها في العقول أفسدت الأخلاق وحملت على التهاون بالأعمال الشرعيّة وفترت الهمم عن الانتصار للحقّ ، كالأحاديث الدالّة على انقضاء عُمر الإسلام والعياذ بالله ، أو المُطمّعة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدّر بترك العقل فيما يُصلح الدين والدنيا .

كلّ ذلك يضعه الواضعون قصداً لإفساد المسلمين وتحويلهم عن أصول دينهم . ليختلّ نظامهم ويضعف حولهم .

ومن الكاذبين قوم ظنّوا أنّ التزيّد في الأخبار والإكثار من القول ،

١- الآية ١٤ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٢- راجع فصل الإسرائيليات من هذا الكتاب .

يرفع من شأن الدين ، فهذروا بما شاءوا ، يبتغون بذلك الأجر والثواب ، ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب ، وهم الذين قال فيهم مسلم في صحيحه : مَا رَأَيْتُ الصَّالِحِينَ فِي شَيْءٍ أَكْذَبَ مِنْهُمْ فِي الْحَدِيثِ ١ .
ويريد بـ «الصالحين» أولئك الذين يطيلون سباليهم ويوسعون سرباليهم ويطأطئون رؤوسهم ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم ، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحتركون بالذكر شفاههم ويلحقون بها في الحركة سُبُخهم ٢ . ولكنهم كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

جَعَلُوا الدِّينَ مِنْ أَفْئَالِ البصيرةِ وَمَغَالِقِ العِقلِ ، فَهَمُّ أَغْرَارٍ ٣
مَرْحُومُونَ ، يُسَيِّئُونَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهْمُ يُحْسِنُونَ ...
فَهُؤُلَاءِ قَدْ يُخَيَّلُ لَهُمُ الظُّلْمُ عَدْلًا ، وَالغَدْرُ فَضْلًا ، فَيَرَوْنَ أَنَّ نِسْبَةَ مَا يَظُنُّونَ إِلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ مِمَّا يَزِيدُ فِي فَضْلِهِمْ ، وَيَعْلِي فِي النُّفُوسِ مَنْزِلَتَهُمْ ، فَيَصِحُّ فِيهِمْ مَا قِيلَ : عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ مُحِبٍّ جَاهِلٍ ٤ . ببعض

١- راجع فصل (الوضاع الصالحون) من كتاب «الأضواء» ص ٣٨.

٢- ما أروع قول الشاعر فيهم:

زاهد چه بلائی تو که صد دانۀ تسبیح از دست تو سوراخ به سوراخ گریزد
خلق از بی تو زار دویدن عجبی نیست یک بره نندیدم که ز سلاخ گریزد
يقول : «أي بلاء أنت أيها الزاهد إذ تفرّ حَبَاتِ المسبحة المائة من يدك وتدخل في ثقب وتخرج من آخر.

لا غرو أن يفرّ الناس منك وهم يأتون ، لكنني لم أجد حَمَلًا يفرّ من يد الجزّار! .
٣- الغرّ: الشاب لا تجربة له ، والشابّة كذلك ، يقال : شابٌّ غرٌّ وشابّةٌ غرٌّ وغرّةٌ ، وجمعه: أغرّار .

٤- «أضواء على السّنة المحمّديّة» ص ٣٨٩ إلى ٣٩١ ، الطبعة الثالثة . ونقل هذه المطالب عن الشيخ محمّد عبده في كتابه «تاريخ الإسناد» ج ٢ ، ص ٣٤٧ إلى ٣٤٩ .

اختصار .

يوصل أبو رية كلامه في باب الرواية في الإسلام وكيفيةها في عصر الخلفاء إلى أن يقول : وكان أكثر الصحابة روايةً أبو هريرة ، وقد صحب ثلاث سنين ،^١ وعمر بعده صلى الله عليه [وآله] وسلم نحواً من خمسين سنةً ،^٢ ولهذا كان عمر وعثمان وعائشة ينكرون عليه ويتهمونه . وهو أول روايةٍ أُتهم في الإسلام . وكانت عائشة أشدهم إنكاراً عليه لتناول الأيام بها وبه ، إذ توفيت قبله بسنةٍ

ثم كانت الفتنة أيام عثمان واضطرب من بعدها حبل الكلام في الخلافة ، وخاض الناس في ضروب من الشك والحيرة والقلق فكان فيهم من لا يتوقى ولا يتثبت ، وألف كثيرٌ من الناس أمر هؤلاء فلم يبالوا أن يتبينوا فيرجعوا في الرواية إلى شهادةٍ قاطعةٍ أو دلالةٍ قائمةٍ
(إلى أن يقول :) غير أن الأعلام كانت يومئذٍ لا تزال قائمةً ، والفروع لا تزال باسقة ، فكان الخطب لم يستفحل حتى إذا خرجت الخوارج ، وتحزب الناس فرقاً ، وجعلوا أهلها شيعاً .

(من هنا فالطوائف التي وضعت الحديث ثلاث)

بدأوا يتخذون من الحديث صناعة فيضعون ويصنعون ويصفون الكذب . ثم ظهر القصاص والزنادقة ، وأهل الأخبار المتقدمة ،^٣ ممّا يشبه

١- الصحيح أنه صحب النبي عاماً وتسعة أشهر كما حَقَّقناه في كتابنا «شيخ المضيرة» فيرجع إليه . (الشيخ أبو رية).

٢- توفي أبو هريرة سنة ٥٩ هجرية .

٣- كأخبار اليهود ومن إليهم .

أحاديث خرافة . فوقع الشوب والفساد في الحديث من كل هذه الوجوه في عصور مختلفة .

أما القصص فإنهم كانوا يُميلون وجوه القوم إليهم ويستدرّون ما عندهم بالمناكير والغرائب والأكاذيب من الأحاديث . ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن قطر المعقول ، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستغزر العيون . وللقوم في هذه الفنون الأكاذيب العريضة والأخبار المستفيضة .

وأما الزنادقة فقد جعلوا يحتالون للإسلام ويهجنونه بدس الأحاديث المستشعة والمستحيلة ممّا يشبه خرافات اليونان والرومان وأساطير الهنود والفرس ليشعّوا بذلك على أهل السنة في روايتهم ما لا يصحّ في العقول ولا يستقيم على النظر .

وأما أهل الأخبار المتقدمة فقد قصدوا من ذلك إلى إثبات الخرافات الجاهلية وجعلها بسبيل من الصحة للاستعانة بها على التفسير وما إليه . وأمثلة ذلك كلّها فاشية ^١ .

ويعتقد العلامة الحلبي رحمه الله أنّ معاوية أسلم إسلاماً ظاهرياً قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله بستة أشهر . وقال راداً على عمل العامة وعقودهم الموضوعية :

وسمّوها (عائشة) أم المؤمنين ، ولم يسمّوا غيرها بذلك ، ولم يسمّوا أباها محمّد بن أبي بكر - مع عظم شأنه وقرب منزلته من أبيه وأخته عائشة أم المؤمنين - خال المؤمنين ، وسمّوا معاوية بن أبي سفيان خال المؤمنين ، لأنّ أخته أم حبيبة ابنة أبي سفيان بعض زوجات الرسول

١- «أضواء...» ص ١١٣ و ١١٤ ، الطبعة الثالثة .

صلى الله عليه وآله ، وأخت محمد بن أبي بكر وأبوه أعظم من أخت معاوية ومن أبيها .

مع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن معاوية الطليق ابن الطليق اللعين ابن اللعين . وقال : إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه ! وكان من المؤلّفة قلوبهم . وقاتل عليّاً عليه السلام وهو عندهم رابع الخلفاء إمام حقّ . وكلّ من حارب إمام حقّ فهو باغ ظالم . وسبب ذلك محبة محمد بن أبي بكر لعليّ عليه السلام ومفارقتة لأبيه وبغض معاوية لعليّ عليه السلام ومحاربتة له .

وسمّوه كاتب الوحي ولم يكتب كلمةً واحدةً من الوحي ، بل يكتب له صلى الله عليه وآله رسائل ، وقد كان بين يدي النبيّ صلى الله عليه وآله أربعة عشر نفساً يكتبون الوحي ، أولهم وأخصهم به وأقربهم إليه صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، مع أنّ معاوية لم يزل مشركاً في مدة كون النبيّ صلى الله عليه وآله مبعوثاً يكذب بالوحي ويهزأ بالشرع ، وكان باليمن يوم الفتح يطعن على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويكتب إلى أبيه صخر بن حرب يعيّره بإسلامه ، ويقول : أصبوت إلى دين محمد .

وكتب إليه :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ طَوْعاً فَتَفْضَحَنَا

بَعْدَ الَّذِينَ بَدَّرِ أَصْبَحُوا مَرْقَا

جَدِّي وَخَالِي وَعَمِّ الْأُمِّ يَا لَهُمْ

قَوْمًا وَحَنْظَلَةَ الْمُهْدِي لَنَا الْأَرْقَا

فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْوَشَاةِ لَنَا

خَلَّى ابْنَ هِنْدٍ عَنِ الْعُزَى إِذَا فُرِقَا

والفتح كان في شهر رمضان لثمان سنين من قدوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ المدينة ومعاوية حينئذٍ مقيمٌ على شركه ، هاربٌ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، لأنه كان قد أهدر دمه فهرب إلى مكة ، فلمّا لم يجد له مأوى صار إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مضطراً ، فأظهر الإسلام ، وكان إسلامه قبل موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بخمسة أشهر ، وطرح نفسه على العباس ، فسأل فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فعفا عنه ، ثم شفع إليه أن يشرفه ويضيفه إلى جملة الكتاب ، فأجابه وجعله واحداً من أربعة عشر ، فكم كان يخصه من الكتاب في هذه المدة لو سلّمنا أنه كان كاتب الوحي حتى استحق أن يوصف بذلك دون غيره ؟!

مع أنّ الزمخشري - من مشايخ الحنفية - ذكر في كتاب «ربيع الأبرار» أنه : ادعى بنوته أربعة نفر .

على أنّ من جملة كتبه الوحي ابن أبي سرح وارتدّ مشركاً ، وفيه نزل :
وَلَكِنْ مِّنْ شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^١.

وقد روى عبد الله بن عمر قال : أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فسمعتة يقول : يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ يَمُوتُ عَلَى غَيْرِ سُنَّتِي فَطَلَعَ مُعَاوِيَةَ^٢ .
لم يدخر معاوية وسعاً ولم يأل جهداً في الاستفادة من وُضَاع الحديث مثل كَعْبِ الْأَحْبَارِ ، وأبي هريرة ، وعبيد الله بن عمرو بن العاص ،

١- النصف الثاني من الآية ١٠٦ ، من السورة ١٦ : النحل ، ونصفها الأول : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ .

٢- «منهاج الكرامة في إثبات الإمامة» ص ٢٧ إلى ٢٩ ، الطبعة الحجرية ، بخط عبد الرحيم .

وسمرة بن جُنْدَب . أَوْلَاً : لَفَتَهُمْ إِلَى الشَّامِ ، وَأَبَانَ لِعَامَّةِ النَّاسِ أَنَّهَا مَقَرُّ النُّورِ وَالرَّحْمَةِ وَنَزُولِ الْبَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَذَلِكَ بِوِاسِطَةِ هُوَلَاءِ الْوَضَاعِ . ثَانِيًا : زَهَّدَهُمْ عَنِ الْعِرَاقِ وَعَلِيٍّ وَأَصْحَابِهِ بِزَعْمِهِ أَنَّ الْعِرَاقَ مَرْكَزُ الْفِظَازَةِ وَالْخَشُونَةِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَعْدَ عَنِ النُّورِ وَالرَّحْمَةِ .

وظهر أشخاص كانت لهم اليد الطولى في وضع الحديث ، وحافظهم على ذلك انحراف المذهب وتحريف عقائد المسلمين الثابتة ، واستعان معاوية بهم وبتلاميذهم من أجل إعلاء شأنه والخط من شأن أمير المؤمنين عليه السلام . وكان كعب الأخبار ، وعبد الله بن سلام ، ووهب بن منبّه - كما سنرى لاحقاً - ثلاثة من أعلام اليهود وأعيانهم وأخبارهم وعلماهم لم يُسَلِمُوا قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَبَعْدَهَا . وَحِينَ رَأَوْا الْغَلْبَةَ السِّيَاسِيَّةَ لِلنَّبِيِّ وَنَفُوزَ كَلِمَتِهِ ، وَرَأَوْا أَنْفُسَهُمْ مَتَخَلِّفِينَ عَنِ الرِّكْبِ أَسْلَمُوا إِسْلَامًا ظَاهِرِيًّا لِيُصِيبُوا حِطًّا مِنَ الْمَزَايَا الظَّاهِرِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ ، وَلِيَحْقُقُوا مَا رَبَّهُمُ الْخَبِيثَةُ وَيُوجِّهُوا ضَرْبَاتَهُمُ الْقَاصِمَةَ لِلْإِسْلَامِ الْأَصِيلِ بِوَضْعِ الْأَحَادِيثِ الْمَحْرَفَةِ ، عَنِ التَّوْرَةِ ، وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِطْلَاعٍ كَافٍ عَلَى التَّوْرَةِ وَكُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ .

لقد كانوا ممن تصرّم شطر من أعمارهم ، وكان لهم شأنهم ووجهتهم في المجتمع ، وكانوا ملتمّين باللغة العبرية (لغة التوراة) التي لم يعرف العرب عنها شيئاً ، لذا كان الطريق مفتوحاً أمامهم لوضع الأخبار وتزويرها أيّاً كانت .

كانوا يقرؤون على الناس أخباراً من التوراة في عظمة النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ إِرْضَاءً لِلْمُسْلِمِينَ السَّدَجِ الْبَسْطَاءِ ، وَلِفَتْماً لِأَنْظَارِ عَامَّةِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِهِمْ أَوْلِيَّ أَسْرَارِ الْهَيْتَةِ وَرُمُوزِ رَبَّانِيَّةِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ ، كَمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِيَسْمَعَهُمُ النَّاسُ وَيُنْصِتُوا إِلَيْهِمْ وَيَثْمَنُوا كَلَامَهُمْ .

ومن الطبيعي أنّ الناس الحديثي العهد بالإسلام كانوا يلتفون حولهم ، ويقبلون كلامهم تماماً مهما كان بوصفه يحمل أخباراً غيبية عن الأنبياء السابقين ، وذلك لتطيب قلوبهم بنبوة نبيهم صلى الله عليه وآله . فكانوا يضعون في تضاعيف تلك الأخبار أحاديث كاذبة مخالفة للعقل والوجدان والشرع وينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وآله ليظهروا الأحاديث النبوية للناس بمظهر السنن القبيحة والممارسات الشاذة . وبرؤية هذه الأحاديث لم يدخل في دين الله أحد من الناس ، وليس هذا فحسب ، بل إنّ عقيدة المسلمين السابقين قد ضعفت شيئاً فشيئاً حتى دخلت في قلوب أبنائهم مشوّهة مقدوحاً فيها ، ومن ثمّ لن يُكتب لها الثبات والاستمرار .

لاحظوا أنّ هذه الحالة تُشبه حالة الشيعة اليوم تماماً إذ بمجرد أن تطرأ واقعة جديدة ، يتساءلون : هل هذه من علامات الظهور في الأخبار والأحاديث؟! وحينئذٍ لو وُجد شخص غير صالح لا سمح الله فإنه يبدأ بطرح موضوعات لا سنداً شرعياً لها ولا دليلاً عقلياً عليها اجتذاباً لقلوب العامة من الناس وإشغالاً لهم . وعند ذلك يلحظ هبوط في درجة اعتقادهم عن المعرفة الحقيقية للإمام في حين لا يُنتظر من المذهب الشيعي الرصين المشفوع بكلامه بالدليل العقلي والبرهان أن تُحاك حوله الحكايات والقصص الخيالية والأساطير الشبيهة بمنسوجات الأحلام وأن تُختدَم فيه المطالب التي يابها العقل .

ومن الموضوعات الخيالية والأساطير المزيّفة حول وجود قائم آل محمد عجل الله تعالى فرجه الشريف قصّة البحر الأبيض ، والجزيرة الخضراء ، ومثلث برمودا ، التي تتداولها الألسن ، وتُطرح حولها مطالب على المنابر بلا سندٍ معتبر ، حتى ذكر بعض الكتب مسائل كلّها خالية من الحقيقة .

إنّ الجزيرة الخضراء كانت في غرب الأندلس مركزاً للمهديّ خليفة الفاطميين ، وهي الآن مغمورة بالماء .

كانت هذه الجزيرة مركزاً للمهديّ الذي أُضيفت إليه كلمة القائم فصارت مركزاً للمهديّ القائم ، ثم قالوا بعد ذلك : لا بدّ للمهديّ من زوجة إذ لا يمكن أن لا يعمل إمام الزمان بسُنّة النبيّ ، وله أولاد وأحفاد وَهَلُمَّ جَرّاً . كما أنّ مثلث برمودا خليجٌ تحته مغناطيس متحرّك يجذب كلّ باخرةٍ وأحياناً كلّ طائرةٍ تمرّ من هناك . من الذي قال : إنّ تلك الجزيرة هي محلّ إقامة الإمام عليه السلام ؟! واليوم يصوّرون كلّ نقطةٍ من الأرض بالأقمار الصناعيّة حتّى قالوا : إنّ في إيران عدداً من البحيرات غير موجودة على الخارطة ، وقال البعض : يمكن أن تكون سدوداً أُنشئت حديثاً ثمّ اتخذت شكل البحيرات .

لماذا تُسقط الجزيرة الخضراء في مثلث برمودا الطائرات وتُغرق البواخر حتّى لو كان جميع ركابها مشركين ؟! أليس إمام العصر والزمان مركزاً للعدل وموثلاً للرحمة ؟! إنّهُ لا يقتل أحداً حتّى الكفار الحربيّين فضلاً عن المستضعفين ما لم يُلقِ الحجّة ويقيم البرهان !

ألم يقرأ الإمام قوله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا .^١ يخاف الكثيرون هذا اليوم من ظهور الإمام . يقولون : إذا ظهر فإنّه يقتلنا . وهذه العقيدة الخرافيّة باطلة . فهو لا يقتل أحداً ما لم يلق عليه الحجّة . إنّهُ لا يقتل أهل الدين ، بل يقتل المنكرين والمعاندين والأعداء . فلماذا نفرّ من ظهوره ؟ ! نحن ننتظر الفَرَجَ لينظر إلينا بعين الرحمة ويحيي أرواحنا ونفوسنا ويملأها سروراً ونضارة وعشقا إلهياً !

١- الآية ١٥ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

ولم يذكر المجلسي في «بحار الأنوار» قصة الجزيرة الخضراء ضمن الأصول المعتمدة والروايات الواردة عنها، بل يصرح أنه لم يجد سنداً يدل على صحتها، لذا أفرد لها باباً مستقلاً تحت عنوان أشياء موجودة بلا سند. وأورد أنه وجد هذه الرسالة المشتهرة بقصة الجزيرة الخضراء في البحر الأبيض وأحب ذكرها. وبلغ كلام صاحب الرسالة (وهو مجهول) بقوله:

فقد وجدتُ في خزنة أمير المؤمنين عليه السلام وسيد الوصيين وحنة رب العالمين وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام بخط الشيخ الفاضل والعالم العامل الفضل بن يحيى بن علي الطيبي الكوفي قدس الله روحه ما هذا صورته

وذكر المحدث النوري رحمه الله هذه القصة في كتاب «النجم الثاقب» مفصلاً، وقال في آخرها: نقل العلامة المجلسي في «البحار» والفاضل الخبير الميرزا عبد الله الإصفهاني في «رياض العلماء» عن رسالة الجزيرة الخضراء أن صاحب الرسالة قال: فقد وجدت بخط الشيخ الفاضل - إلى آخر الموضوع، ولم يشيرا إلى اسم الواجد واكتفيا بهذا القدر في الاعتبار. ولكن الفاضل الصالح آغاخوند ملا كاظم هزار جريبي، تلميذ الأستاذ الأكبر العلامة البهبهاني، قال في مناقبه: إن هذه الحكاية منقولة عن خط الشيخ الأجل الأفاضل ... محمد بن مكّي المشهور بالشهيد كما نقل جمع من المؤمنين التقاة الثقات المعتمدين بلفظ عربي^١.

إلى أن قال: وأما الفضل بن يحيى راوي أصل الحكاية بعده فهو من العلماء المعروفين. قال الشيخ الحرّ: هو فاضل عالم جليل، روى «كشف الغمة» عن مؤلفه علي بن عيسى الإربلي وكتبه بخطه، وله إجازة منه. سنة

١- «النجم الثاقب» ص ٦٦، الطبعة الحجرية الرحلية.

ستمائة وإحدى وتسعين - إلى آخر الكلام^١.
وأنا أقول: أولاً: إن جلاله الفضل بن يحيى وعلمه وفضله كل ذلك لا يُضفي على الرسالة اعتباراً، لأن الرجل الراوي عنه مجهول لا هو نفسه مجهول. والوضاع يختلفون الحديث على لسان رجل مشهور ومعتمد، لا على لسان كل أحد.

ثانياً: لا جرم أن نقل آغاخوند ملاً كاظم هزار جريبي عن جمع من المؤمنين الثقة الثقات الذين رووا رسالة الشهيد غير صحيح، لأن الشهيد وُلد سنة ٧٣٤ واستشهد سنة ٧٨٦، وهو في الثانية والخمسين من عمره^٢، وذكر مُنشئ الرسالة أنه أنشأها سنة ٦٩٩. فالشاهد وُلد بعد حكاية الجزيرة الخضراء بخمس وثلاثين سنة، فكيف يمكن أن يكون راوياً للرسالة؟! يضاف إلى ذلك أننا نجد في نص الرسالة موضوعات تخالف الحقيقة^٣.

١- «النجم الثاقب» ص ٦٧.

٢- «هدية الأحاب» للمحدث القمي، ص ١٦٦ و ١٦٧.

٣- إذا دققنا في مضمون هذه الرسالة تبين لنا موارد تخالف الحقيقة والواقع لأمحالة، ونشير هنا إلى أربعة منها:

الأول: يسأل السائل رجلاً من داخل الجزيرة الخضراء فيقول: كيف دخل مذهب الشيعة إليكم؟! ويجب: دخل عن طريق أبي ذر الغفاري عندما نفاه عثمان إلى الشام ونفاه معاوية إلى منطقتنا. في حين نحن نعلم أن معاوية نفى أبا ذر إلى أطراف الشام وفلسطين، أي: إلى منطقة جبل عامل، لا إلى الأندلس. والأندلس لم تفتح في عهد معاوية بعد، وبينها وبين جبل عامل آلاف الكيلومترات («بحار الأنوار» ج ٥٢، ص ١٧٣).

الثاني: تُصرّح الرسالة بوضوح أن في القرآن الكريم تحريفاً لفظياً، وهذا خلاف الحقيقة. (= «بحار الأنوار» ج ٥٢، ص ١٧٠).

الثالث: يبدو من أول الرسالة ص ١٦٢ أن هذا الشخص المسافر إلى الجزيرة كان يدرس في دمشق وهو أعزب، لكن نجد العكس من هذا في ص ١٧٢. ففيها يقول ⇨

قال المرحوم المحدّث النوري رحمه الله: نقل في مجلّد السماء والعالم من «البحار» عن كتاب تقسيم أقاليم الأرض والبلدان لأحد علماء السنّة أنّه قال: «بلد المهديّ» حسنٌ ومحكم، بناه المهديّ الفاطميّ وجعل له قلعة، كما جعل له أبواباً من حديد يزيد حديد كلّ باب على مائة قنطار. ولما بناه وأحكمه قال: الآن اطمانتُ على الفاطميّين.^١

قال المعلق على هذا الجزء من كتاب «بحار الأنوار» للمجلسيّ: العالم المتضلعّ الخبير الشيخ محمّد باقر البهوديّ في تعليقه على هذا القسم من الكتاب:

هذه قصّة مصنوعة تخيليّة قد سردها كاتبها على رسم القصّاصيين. وهذا الرسم معهود في هذا الزمان أيضاً يسمّونه (رمانتيك) وله تأثير عظيم في نفوس القارئین لانجذاب النفوس إليه، فلا بأس به إذا عرف الناس أنّها قصّة تخيليّة!^٢

◀ صاحب الجزيرة له: إنك ذو عيالٍ وغبت عنهم مدّة مديدة ولا يجوز التخلف عنهم أكثر من هذا!

الرابع: أنّ عدد أمراء الجيش الذي كان يتحرّك وسط الشهر في يوم الجمعة ويثير الفوضى على ما قال صاحب الجزيرة ثلاثمائة شخص فيحتاج إلى ثلاثة عشر شخصاً حتّى يظهر الإمام. (ص ١٧١). ولما كانت هذه القضية وقعت سنة ٦٩٩ (ص ١٥٩) فالآن نحن في سنة ١٤١٤، وقد مرّ عليها ٧١٥ سنة، فكيف لم يكتمل العدد؟! إذا كان أولئك الثلاثمائة شخص كأمثلة لا كأشخاص بأعيانهم، فلماذا ظهر ثلاثمائة فقط خلال ٤٠٠ سنة مرّت على غيبة الإمام ولم يلتحق بهم ثلاثة عشر خلال ٧١٥ سنة؟! وإذا كانوا أشخاصاً بأعيانهم، فلا بدّ أن يضاف إليهم ثلاثة عشر في تلك السنوات بسرعةٍ ويظهر الإمام!

١- «النجم الثاقب» ص ٦٨.

٢- «بحار الأنوار» ج ١٣، ص ١٤٣ إلى ١٤٧، طبعة الكمبانيّ، وفي الطبعة الحديثة:

ج ٥٢، ص ١٥٩ إلى ١٧٤. وذكر الشيخ البهوديّ هذا الهامش في ص ١٥٩ من الطبعة

ومرّ آية الله المحقق الخبير الميرزا أبو الحسن الشعرانيّ على هذا الموضوع مشيراً إشارة عابرة إلى أنّه وهم ، وذكره آية الله الشيخ حسن حسن زاده الآمليّ^١.

أجل ، إنّ وجود الإمام المهديّ الحجّة بن الحسن العسكريّ عجل الله تعالى فرجه الشريف مطلب برهانيّ بدليل العقل من الأحاديث المتواترة المستفيضة الثابتة بإجماع الأمة . فما حاجة الشيعة إلى نقل أدلّة وموضوعات ضعيفة لا شأن لها في كتبهم !؟

وهل لهذا الضرب من الروايات ، التي تدور حول الجزيرة الخضراء وهي مخالفة للواقع والحقيقة ، إلاّ استهزاء المعاندين والأعداء وسخريتهم بنا !؟

وعندما يهتدي الأستاذ الفرنسيّ البروفيسور هنري كوربان المتخصّص في الشؤون الشيعيّة إلى المذهب الشيعيّ بسبب اعتقاده بوجود إمام العصر والزمان الحيّ فحسب ، ويعدّ المذهب المذكور من أكثر المذاهب أصالةً في العالم ، وقيم الدليل العقليّ على ذلك الأساس ، فليس لنا أن نتجاوز الأصول العقليّة الثابتة المعتمدة والنقلية الصحيحة ونُشغل أنفسنا بكلمات مُربّية وحكايات خياليّة .

كان سماحة العلامة أستاذنا الأكرم الطباطبائيّ رضوان الله عليه يقول: كان كوربان يعتقد أنّ المذهب الوحيد الذي ظلّ حيّاً أصيلاً لم يمت في العالم هو المذهب الشيعيّ لقوله بوجود الإمام الحيّ ، وجعله أساس

← الجديدة.

١- مجلة «نور علم» (= نور العلم) العددان ٥٠ و ٥١ ، الذكرى العشرون لوفاة العلامة الشعرانيّ ، ص ١٨ و ١٩ .

اعتقاده على هذه الدعامة . فهو حيّ دائماً وأبداً لا تكائه على المهديّ قائم آل محمّد : محمّد بن الحسن العسكريّ .

ذلك أنّ دين اليهود قد مات بموت موسى ودين النصارى قد مات بعروج عيسى . وسائر مذاهب المسلمين بوفاة النبيّ . يبيد أنّ الشيعة تذهب إلى أنّ إمامها وصاحب ولايتها المتّصل بعالم المعنى والإلهامات السماوية حيّ يُرزق . فما هو إلاّ مذهب الشيعة فقط حيّ خالد . كان كوربان قريباً جداً إلى التشيع . وغالباً ما كان يقرأ أدعية «الصحيفة المهدوية» ويكي .^١

أجل ، ذكرنا هذا الموضوع كدليل على ما نقول حتّى تستبين مسؤوليّة الأمة عامّة حيال وُضاع الحديث .

استفاد معاوية كثيراً من كعب الأحبار اليهوديّ المنافق المكار المحتال ، ومن تلميذه أبي هريرة - وقد اختلق هذان وأمثالهم مئات الأحاديث في إعلاء شأن معاوية ، والحطّ من منزلة أمير المؤمنين عليه السلام .

يقول أبو ريّة : لم يكن ما قدّم أبو هريرة إلى آل أبي العاص عامّة ، وسائر بني أميّة ومعاوية خاصّة ، جهاداً بسيفه أو بماله ، وإنّما كان كما قلنا أحاديث ينشرها بين الناس ، يطعن فيها على عليّ رضي الله عنه ويخدّل بها أنصاره ، ويجعل الناس يتبرّأون منه ، أو يُشيد بفضل عثمان ومعاوية !^٢

١- «مهر تابان» (= الشمس الساطعة). في ذكرى العلامة العالم الربّانيّ السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ التبريزيّ وحوار التلميذ معه ، ص ٤٦ و ٤٧ .
٢- «شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي» ص ٢٠٦ ، الطبعة الثانية ، عن كتاب «قبول الأخبار ومعرفة الرجال» لأبي القاسم البلخيّ ، ص ٥٩ .

وقد بلغ من شدّة إخلاص أبي هريرة لمعاوية أنّه كان يتمنّى لو يكون من أبطال الحروب فيغامر في مواقع صفّين ضدّ عليّ رضي الله عنه .
فقد روى العتكيّ قال : كان أبو هريرة مع معاوية في صفّين ، وكان يقول : لأنّ أرمي فيهم بسهم (يعني أهل العراق) أحبّ إليّ من حُمْرِ النَّعَمِ .^١
وفي كلام ابن الصلاح وغيره في باب «رواية الأكاابر عن الأصاغر» أنّ ابن عبّاس والعبادلة الثلاثة وأبا هريرة وغيرهم قد رووا عن كعب الأحبار اليهوديّ الذي أسلم خداعاً في عهد عمر وعدّوه من كبار التابعين ، ثمّ سوّده بعد ذلك على المسلمين .^٢

راجت سوق الوضّاعين في عهد معاوية كثيراً ، إذ كان فيها رضاه ودَعْتُهُ ، ومن الطبيعيّ أنّ في مثل هذه الأمور يشتدّ كلّ أمر وتترسخ التهم والافتراءات .

ذكر آية الله الشيخ حسين علي المنتظريّ أنّ المرحوم الميرزا علي آغائي الشيرازيّ رحمه الله أحد علماء إصفهان كان يقول : كان أحد العلماء جالساً في مجلس عزاء . وكان الخطيب يُطريه على المنبر ! فقال له : يا ولدي ! أنا أعلم أنّك تكذب وتتملّق ، لكن قل ما تشاء فإنّه يروقني !^٣
تدلّ هذه الحكاية على أنّ للإطراء تأثيراً في النفوس حتّى لو كان لعلماء الدين وكان كذباً ، لذا لا بدّ من الحؤول دونه وقطعه من دابره .
يذكر أبو رية قصّةً عجيبّةً ذات سماع في هذا الموضوع ، فيقول : وإليك مثلاً واحداً من أمثلة الوضع للتقرّب من الملوك والأمراء :

١- «شيخ المضيرة» ص ٢١٠ .

٢- «أضواء على السّنة المحمديّة» ص ٧٢ ، الطبعة الثالثة .

٣- «شرح عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر» ص ٣٠٢ .

كان الرشيد يُعجبه الحَمَامُ واللَّهُو به ، فأُهدِي إليه حمام وعنده أبو البخترى القاضي ،^١ فقال : روى أبو هريرة عن النبي أنه قال : لَا سَبَقَ ٢ إِلَّا فِي حُفٍّ أَوْ حَافِرٍ أَوْ جَنَاحٍ . فزاد جناح ، وهي لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنّية . ولَمَّا خرج قَالَ الرشيد : والله لقد علمتُ أَنَّهُ كَذَّابٌ . وأمر بالحمام أن يُذبح ، فقيل : وما ذنب الحمام ؟! قال : من أجله كُذِبَ على رسول الله !^٣

نلاحظ هنا أن هارون أهدى أبا البخترى جائزة سنّية لوضعه هذا الحديث الذي يدعم لهوه بالحمام مع عمله بأنه كذب بإضافة كلمة جناح . كان معاوية هو الذي هدم مبدأ الخلافة في الإسلام فلم تقم لها من بعده إلى اليوم قائمة ، وقد اتخذ دمشق حاضرةً لملكه . وإليك بعض ما وضعوه من الأحاديث في فضله :

أخرج الترمذي أن النبي قال لمعاوية : اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا .^٤ وفي حديث آخر أن النبي قال : اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ، وَقِهِ الْعَذَابَ ! وهناك زيادة في هذا الحديث تقول ه وَادْخِلْهُ الْجَنَّةَ .^٥ وروى البيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة مرفوعاً : الْخِلَافَةُ

١- كان أبو البخترى قاضي مدينة النبي بعد بكّار بن عبد الله ، ثم ولي قضاء بغداد بعد أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، توفي سنة ٢٠٠ هـ في خلافة المأمون . («تفسير القرطبي» ج ١ ، ص ٦٩).

٢- يمكن أن تكون سَبَقَ بسكون الباء بمعنى المسابقة ، ويمكن أن تكون سَبَقَ بفتحها بمعنى ما يتراهن عليه المتسابقون .

٣- «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ١٢٦ .

٤- «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ١٢٨ .

٥- «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ١٢٩ .

بِالْمَدِينَةِ وَالْمَلِكِ بِالشَّامِ . وَعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ : أَهْلُ الشَّامِ سَيْفٌ مِنْ سَيْوْفِ اللَّهِ يَنْتَقِمُ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ عَصَاهُ .

ومن حديثٍ : سَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الشَّامُ . فَإِذَا خَيْرْتُمْ الْمَنَازِلَ فِيهَا فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا : «دِمَشْقُ» - وَهِيَ حَاضِرَةُ الْأُمَوِيِّينَ - فَإِنَّهَا مَعْقَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَلَا حِمِ ، وَفُسْطَاطُهَا مِنْهَا بِأَرْضِ يُقَالُ لَهَا : الْغُوطَةُ .^١

وقد صنّف طائفة من الناس مصنّفات في فضائل بيت المقدس وغيره من البقاع التي بالشام ، وذكروا فيها من الآثار المنقولة عن أهل الكتاب وعمّن أخذ عنهم ما لا يحلّ للمسلمين أن يبنوا عليه دينهم ، وأمثلة من نقل عنه تلك الإسرائيليات كعب الأحبار ، وكان الشاميون قد أخذوا عنه كثيراً من الإسرائيليات .

أصل قرية الأبدال

كان ممّا خصّوا به بلاد الشام من الفضل - بعد أن وصفوها وأهلها بما وصفوا - أن جعلوا منها «الأبدال» . وقد كانت هذه العقيدة من عوامل هدم الإسلام إذ اتخذها الصوفيّة أصلاً لطريقتهم ، وبنوا عليها ما بنوا من أوهامهم وخرافاتهم .

روى الواقدي^٢ أنّ معاوية لمّا عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة

الحسن (سنة ٤١هـ) خطب فقال :

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : إِنَّكَ سَتَلِي الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ! فَاخْتَرِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَإِنَّ فِيهَا الْأَبْدَالَ ؛ وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ فَالْعُنُوا أَبَا تَرَابٍ !

١- «أضواء على السّنة المحمّديّة» ص ١٢٩ .

٢- «شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ٣٦١ ، الطبعة القديمة .

- أَي عَلِيٍّ بَنِ أَبِي طَالِبٍ - .

فلما كان من الغد كتب كتاباً ثم جمعهم فقرأه عليهم وفيه :
هَذَا كِتَابُ كِتْبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ صَاحِبِ وَحْيِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ
مُحَمَّدًا نَبِيًّا وَكَانَ أُمِّيًّا لَا يَفْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، فَاصْطَفَى لَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَزَيْرًا كَاتِبًا
أَمِينًا . فَكَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَنَا أَكْتُبُهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا أَكْتُبُ !
فَلَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ .^١ فَقَالَ الْحَاضِرُونَ : صَدَقْتَ !^٢
قال ابن خلدون في وضع الإسرائيليات المدسوسة في تفسير القرآن

١- هذه المصائب التي حلت كلها بالإسلام تقوم على أساس عدالة جميع الصحابة .
وهي النظرية التي تجعل معاوية وأضرابه عدولاً غير مذنبين وإن بلغ مَبْلَغُ جُنَايَاتِهِمْ مَا بَلَغَ .
«وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» (الآية ١٠١ ، من السورة ٩ :
التوبة).

فكيف يكون جميع الصحابة الذين كانوا بالمدينة عدولاً معصومين مع صراحة هذه
الآية الكريمة؟! قال المرحوم السيد شرف الدين العاملي في رسالته «إلى المجمع العلمي
العربي بدمشق» ص ٨٨ : والقرآن الكريم يُثبت كثرة المنافقين على عهد النبي ، وإخواننا
يوافقوننا على ذلك ، لكنهم يقولون : إن الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وآله بأجمعهم
عدول ، حتى كأن وجود النبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم كان موجباً لنفاق المنافقين
منهم . فلما لحق بالرفيق الأعلى ، وانقطع الوحي ، حسن إسلام المنافقين ، وتم إيمانهم ، فإذا
هم أجمعون أكتعون أبصعون ثقات عدول مجتهدون لا يُسألون عما يفعلون ، وإن خالفوا
النصوص ، ونقضوا محكماتها - انتهى .

وأنا أقول : في ضوء هذا المنطق السقيم يكون النبي عياداً بالله خَسْرَةً للعالمين
لا رَحْمَةً للعالمين ، لأن وجوده كان سبباً للنفاق ، وبموته نزلت الرحمة وأصبح المنافقون
برمتهم مسلمين معصومين عدولاً موثقين مجتهدين في أمور الدين تلقائياً بلا توبة منهم
ولا تغيير في أنفسهم .

٢- «أضواء على السنة المحمدية» ص ١٣٠ . وقال أبو ريثة في الهامش : لم يكن
معاوية من كتاب الوحي ولا خط بقلمه لفظاً واحدة من القرآن .

الكريم : ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتنوسي ذلك وصارت تُتلقَى من كتب أهل اللسان فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين : تفسير نقلي مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يُعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين ، وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود ، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم^١ وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذٍ باديةٌ مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الأخبار ووهب بن منبّه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخبارٌ موقوفةٌ عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام فتُحَرَّى في الصحة

١- وكان (ابن إسحاق) يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسمّيهم في كتبه : أهل العلم الأول . («معجم الأدباء» ج ١٨ ، ص ٨).

التي يجب بها العمل وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات.^١

وقال ابن خلدون أيضاً في بداية مقدمته حول فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه: ... وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط.^٢

إن ابن خلدون مع غزارة معلوماته وسعة دراساته وتدقيقاته، رجل مترف لا يروقه أسلوب أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وينحاز إلى معاوية عليه اللعن والهاوية ويخفي جرائمه ويؤولها ويوجهها، ويراه مجتهداً يخطأ في اجتهاده أحياناً.

يواصل المؤرخ المذكور كلامه فيتحدث بدهاء وبراعة عن تبدل الخلافة إلى ملك وسلطنة على يد معاوية وذلك في مقدمات مفصلة حتى يظن الإنسان غير المطلع على حقائق التاريخ أن هذا التبدل كان أمراً بسيطاً ضرورياً حتمياً قد حدث. فهو يقول بعد مقدمة وتفصيل في هذا المجال: ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ألبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال: أكسروية يا معاوية؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنا في نغر تجاه العدو وبنا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد

١- «مقدمة ابن خلدون» ص ٤٣٩.

٢- «مقدمة ابن خلدون» ص ٩ و ١٠.

الحق والدين . فلو كان القصد رفض المُلْك من أصله ، لم يُقنعه الجواب في تلك الكسروية وانتحالها بل كان يُحرّض على خروجه عنها بالجملة . وإنّما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله وأجابه معاوية بأنّ القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وإنّما قصده بها وجه الله ، فسكت .

ويواصل ابن خلدون كلامه إلى أن يقول : فلما تدرّجت البداوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك المُلْك عندهم حكم ذلك الرّفَقِ والاستكثار من الأموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق .

ولما وقعت الفتنة بين عليّ ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد . ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيويّ أو لإيثار باطل أو لاستشعار عقد كما قد يتوهّمه متوهّم وينزع إليه ملحد^١ .

١- نقل الشيخ محمّد جواد مغنّية في كتاب «الشيعة في الميزان» ص ٢٨٥ و ٢٨٦ ، موضوعاً عن الدكتور طه حسين يدلّ على إنصاف الدكتور واستقصائه في البحث عقلاً . ولما كان يقف من حيث الفكر والرأي في النقطة المقابلة لفكر ابن خلدون ورأيه ، لذا من المناسب أن نقله هنا أيضاً . يقول الشيخ مغنّية : أخرج الدكتور المجلّد الثاني من كتابه الكبير «الفتنة الكبرى» ، وموضوع هذا المجلّد «عليّ وبنوه» ابتداءً بخلافة الإمام عليّ ، وختمه بمقتل ولده الحسين ، ذكر ما قاله الرسول وأصحاب الرسول في مدح عليّ ، وأنّه كان أهلاً لتلك الفضائل ، ولأكثر منها ، وأنّه على الرغم من الخطوب والمحن التي توالى عليه من كلّ جانب كان يمضي على الحقّ لا يلوي على شيء مهما تكن العاقبة . أمّا أخصام الإمام كعائشة ، ومعاوية ، وابن العاص ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم فقد عارضوه وخاصموه ليصرفوا الأمر عنه إلى أهوائهم وأغراضهم . - وهذه الحقيقة أثبتّها الدكتور بالوقائع والأرقام - وإليك هذا المثال على أسلوبه في إثبات الحقائق ، قال : «من الممكن أن يقال : إنّ معاوية اجتهد»

وإنما اختلف اجتهادهم (عليّ ومعاوية) في الحقّ وسفّه كلّ واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحقّ فاقتتلوا عليه ، وإن كان المصيّب عليّاً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل ، إنّما قصد الحقّ وأخطأ ، والكلّ كانوا في مقاصدهم على حقّ . ثمّ اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به . ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه ، فهو أمر طبيعيّ ساقته العصبية بطبيعتها ، واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة

⇨ للناس فأخطأ أو أصاب ، لكنّه قاتل عليّاً على دم عثمان من جهة ، وعلى أن يردّ الخلافة شورى بين المسلمين من جهة أخرى . فلما استقام له السلطان نسي ما قاتل عليه ، أو أعرض عمّا قاتل عليه» أي: بعد أن أصبح معاوية دكتاتوراً لم يتتبع قتلة عثمان ، وجعل الخلافة كسروية وقيصرية ، فنقلها إلى ولده الطاغية يزيد بالقهر عن المسلمين . بهذا المنطق السليم حاكم الدكتور جميع القضايا التي تعرّض لها في كتابه . أمّا النتيجة التي انتهى إليها فهي أنّ الذين حاربوا عليّاً ، وكادوا له ، وعارضوه فيما كان يراه من حقّ ، هم وحدهم السبب في محنة الإسلام من ذلك العهد حتّى آخر يوم ، وهم وحدهم الذين أورثوا المسلمين عناءً وخلافاً لم ينقضيا ، ولن ينقضيا إلى أن يشاء الله .

١- تُرجمت «مقدّمة ابن خلدون» إلى الفارسيّة ، وقال مترجمها السيّد محمّد بروين الكناباديّ في الجزء الأوّل ، ص ٤٠٥ معترضاً على ابن خلدون وراداً عليه في هامش له بما نصّه: إنّ الشعوب الكثيرة التي آمنت بالإسلام إيماناً تاماً ، ولا يمكن اعتبار عقيدتها توهماً أو الذهاب إلى أنّها تنزع إلى الإلحاد ، أدركت هذه الحقيقة ، وهي أنّ عداء معاوية لآل عليّ عليه السلام ينطلق من حبّ الرئاسة والجاه والعلوّ في الأرض فحسب . وهذه حقيقة استوعبها حتّى المحايدون والأوروبيّون . وهو ما نلاحظه عند دسلان مترجم «المقدّمة» إلى الفرنسيّة ، فإنّه لم يسكت عنها ، فنسب في هامش ص ٤١٨ ، من الجزء الأوّل رأي ابن خلدون هذا إلى عقائد السنّة وقال: ألا نجد في كلام ابن خلدون اعترافاً ضمناً بأنّ معاوية كان في عدائه لعليّ رجلاً محبباً للشهرة والجاه ، وأنّه كان يسوق الإسلام نحو حكومة ارستقراطية (حكومة إترافية)؟! لكن لما كانت عصبية ابن خلدون متوكّنة على حكومة الارستقراطيين والنبلاء فإنّه استساغ منهمج معاوية ، وآثر رأيه على حساب الحقّ مضحياً بالحقّ فداءً لرأيه المتعصّب .

معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصو صبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقعوا في افتراق الكلمة التي كان جمعها ، وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة .

إلى أن يقول : وهذا كله إنما حمل عليه منازع المُلْك التي هي مقتضى العصبيّة . فالمُلْك إذا حصل ، وفرضنا أنّ الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكيرٌ عليه ...^١

١- يرفض الدكتور أحمد أمين المصري في كتاب «يوم الإسلام» ص ٦٥ إلى ٦٧ بشدّة الاستبداد بالخلافة وجعلها مُلكاً وتبديلها إلى إمارة وراثيّة مستبدّة على هوى معاوية . وله حديث طويل حول كيفيّة افتراق الحكومة الإسلاميّة بلغ به إلى قوله : ... لا سيّما بعد أن قالوا بحرمة الاجتهاد ووقفوا عند حدّ محدود من الفروع . وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نموّاً جعلها تنس بحياة السكون والاستسلام ، وتعطي أزمّتها إلى الأمراء والحكّام حتّى في عصر زال فيه الاعتقاد بوجود الطاعة العمياء للأمراء وجوباً دينيّاً . ومع هذا الخلاف الشديد بين المسلمين فقد استطاع معاوية وأهل بيته من الأمويين أن يقضوا مآذن المساجد في الهواء ، ويؤدّن المؤدّنون فيملاؤن الجوّ بأذانهم وبذلك اتّسعت رقعة العالم الإسلاميّ فاستولوا على أكثر الأندلس وفتحوا عدداً من المدن في جنوبي فرنسا . وفي تمام المائة سنة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله كان العرب يحكمون مملكةً واسعة أكبر من المملكة الرومانيّة تمتدّ من حدود الصين إلى شلالات النيل السفلى ، ومن الجنوب الغربيّ في أوروبا حتّى غربي آسيا وأواسطها . وعاصمة هذه المملكة دمشق كما استطاعوا أن يغيّروا أكبر مظهرين من مظاهر المملكة وهما : تحويل الدواوين إلى عربيّة وتخلّصهم من الدخلاء الذين كانوا يضطّرون إليهم في تدوين الدواوين . والثاني : صكّ النقود . وقد ظلّوا طوال هذه العهود يتعاملون بالنقود الرومانيّة والفارسيّة . فلمّا اطمأنّوا واتّسع ملكهم بدأوا يصكّون نقودهم بأنفسهم . وبذلك أصبحت هذه المملكة الواسعة مملكة بمعنى الكلمة . وقد بلغت هذه المملكة أقصى سعتها في هذا العصر الأمويّ ثم أخذت تنشقّ قليلاً قليلاً في

وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى ما سواهم . فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه ، مع أن ظنهم كان به صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يُظنّ بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق . حاشا لله لمعاوية من ذلك !^١

لقد دار ابن خلدون هنا مائة وثمانين درجة تماماً ، وقلب الحقائق وجعل مدار الحقيقة والحقّ العصبيّة التي تقتضيها طبيعة البشر . ومفاد استدلاله البقاء على الهمجيّة والبربريّة والحيوانيّة لأنها من لوازم الغرائز البشريّة . وكأنّه لا يدري أنّ الدين والنبيّ والقرآن جاؤوا ليديروا الحكومة من مدار العصبيّة ويجعلوها على محور الحقّ والواقعيّة ويستبدلوا المدينة الإنسانيّة بالمدينة الحيوانيّة .

إنّ كلمات ابن خلدون وأدلته في هذا المقام تتعارض مع موضوعات الأجزاء الثمانية عشر من كتابنا هذا «معرفة الإمام» كما يتستى لنا أن نعدّ الأجزاء المذكورة ردّاً على كلامه بإيجاز .

«العصر العبّاسيّ وفيما بعد ذلك من عصور . وبمعاوية انتقل الأمر من خلافة إلى ملك عضوض . والفرق بينهما أنّ الخلافة أساسها اقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وآله والاعتماد في حلّ المشاكل على شورى أهل الحلّ والعقد واختيار الخليفة منهم حسب ما يرون أنّه الأصلح . أمّا الملك فيشبه الملوك الأقدمين من فرس وروم ، واستبداد بالرأي وقصر الخلافة على الأبناء أو الأقرباء ولو لم يكونوا صالحين لذلك . وهذا كلّ ما فعله معاوية . ونموذج الخلافة ما قاله الأعرابي لعمر : لَوْ رَأَيْنَا فِيكَ اعْوَجَاجًا لَقَوْمْنَا بِسُيُوفِنَا . ونموذج الملك ما قاله عبد الملك بن مروان : مَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ هَكَذَا قُلْنَا بِسُيُوفِنَا هَكَذَا ! والحقّ أنّ معاوية ساد الناس بالغلبة لا بالاختيار ، ثمّ استبدّ بتسيير الأمور .

١- «مقدّمة ابن خلدون» الفصل ٢٨ ، ص ٢٠٢ إلى ٢٠٦ .

لقد جاء الإسلام وجميع الأديان والأنبياء من أجل تربية الناس ، وجعل المحور الأصليّ على مركز الحقّ والصدق ، والبعد عن العصبيّة وحميّة الجاهليّة . وقالت كلمتها وبلّغت وحاربت لإعلاء الحقّ . ونلاحظ أنّ ابن خلدون باستدلاله الماكر قد غير مسار دعوة الأنبياء . وغطّى على أعمال الجبابرة الطواغيت من أمثال فرعون ، والنمرود ، وأبي سفيان ، ومعاوية ، ويزيد ، وأولها تأويلاً متعسفاً ما أنزل الله به من سلطان .

الكلام كثير هنا ، ولنا أن نُدرِك عن طريق هذا الاستدلال لبّ الأدلّة التي يعرضها السّنة وأسلوبهم في التغطية على حكوماتهم الجائرة . وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^١ وهنا ينبغي الخضوع والتسليم أمام عظمة الله والتجليات الجلالية والقهرية والغضبية التي صاغت أمثال هؤلاء الأشخاص ، والنظر إلى هذه الحجب العميقة - مع سعة العلم والفهم عند ابن خلدون وأضرابه - على أنّها ناتجة من عظمة جلاله ، في مقابل عظمة الجمال المتجلّي عند المؤمنين والصادقين .

أنوار جمال توست در ديدۀ هر مؤمن

آثار جلال توست در سينۀ هر كافر^٢

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرِبْهَا

١- الآية ٤٠ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢- للمغربي . يقول : «أنوار جمالك تتجلّى في عين كل مؤمن . وآثار جلالك تنعكس

في صدر كل كافر» .

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^١.

قال أبو رية: وقال الدكتور أحمد أمين:

«اتصل بعض الصحابة بوهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، واتصل التابعون بابن جريح، وهؤلاء كانت لهم معلومات يروونها عن التوراة والإنجيل وشروحيهما وحواشيهما، فلم ير المسلمون بأساً من أن يقصوها بجانب آيات القرآن. فكانت منبعاً من منابع التضخم» انتهى^٢. من أجل ذلك كله أخذ أولئك الأحبار يبتون في الدين الإسلامي أكاذيب وترهات. يزعمون مرةً أنها في كتابهم أو من مكنون علمهم، ويدعون أخرى أنها مما سمعوه من النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، وهي في الحقيقة من مفترياتهم.

وأني للصحابة أن يفتنوا لتمييز الصدق من الكذب من أقوالهم وهم من ناحية لا يعرفون العبرانية^٣ التي هي لغة كتبهم، ومن ناحية أخرى كانوا أقل منهم دهاءً وأضعف مكرًا، وبذلك راجت بينهم سوق هذه الأكاذيب، وتلقى الصحابة ومن تبعهم كل ما يلقيه هؤلاء الدهاة بغير نقد أو تمحيص، معتبرين أنه صحيح لا ريب فيه.

وقبل أن نعرض لبيان بعض الإسرائيليات التي امتلأت بها كتب التفسير والحديث والتأريخ، نؤرخ هنا بإيجاز لزعماء هؤلاء الأحبار: كعب، ووهب، وعبد الله بن سلام.

١- الأيتان ٣٩ و ٤٠، من السورة ٢٤: النور.

٢- «ضحى الإسلام» ج ٢، ص ١٣٩. وكنا قد ذكرنا هذا الكلام في الجزء الرابع عشر من كتابنا هذا «معرفة الإمام» الدرس ٢٠١ إلى ٢١٠.

٣- روى البخاري عن أبي هريرة: أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام (ج ٢، ص ٢٨٥).

كعب الأحبار^١

هو كعب بن ماتع الجَمَيْرِيّ من آل ذي رعين، وقيل من ذي الكلاع، ويكنى أبا إسحاق من كبار أحبار اليهود، وعُرف بكعب الأحبار وأسلم في عهد عمر على التحقيق وسكن المدينة في خلافته، وكان معه في فتح القدس، ثم تحوّل إلى الشام في زمن عثمان فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه.^٢

كما كانوا يفهمون، وهو الذي أمره أن يقصّ في بلاد الشام^٣ وبذلك «أصبح أقدم الأخباريين في موضوع الأحاديث اليهودية والإسلامية»، وبواسطة كعب وابن منبه وسواهما من اليهود الذين أسلموا تسرّبت إلى الحديث طائفةٌ من أقاصيص التلمود - الإسرائيلية - وما لبثت هذه الروايات أن أصبحت جزءاً من الأخبار الدينية والتاريخية. وقال عنه الذهبي في «تذكرة الحفاظ» إنه قدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلًا. مات بِحَمَص^٤ في سنة ٣٢ أو ٣٣ أو ٣٨ بعدما ملأ الشام وغيرها من البلاد

١- كان الأستاذ سعيد الأفغاني قد نشر بمجلة «الرسالة» مقالة ذكر فيها أنّ الصهيونيّ الأوّل هو عبد الله بن سبأ، فرددنا عليه بمقالٍ مفصّل أثبتنا فيه أنّ الصهيونيّ الأوّل هو كعب الأحبار، ونشر هذا الردّ بالعدد ٦٥٦ من «الرسالة».

٢- «الإسلام والحضارة العربية» ص ١٦٤. وكيف لا يوصف كعب بكثرة العلم وقد قال لقيس بن خرخشة القيسيّ: ما من شبر في الأرض إلّا وهو مكتوب في التوراة التي أنزل على نبيه موسى عليه السلام - ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة؟ رواه الطبري، والبيهقيّ في «دلائل النبوة» و«الاستيعاب» لابن عبد البر، ج ٢، ص ٥٣٣.

٣- «الإصابة» ج ٥، ص ٣٢٣.

٤- على أنّ كعباً قد مات بحمص ودُفن بها فأثّهم في مصر قد جعلوا له قبراً أقاموا عليه قبة عالية يزورها الناس ويتبرّكون بها، وهذه القبة قائمة بمسجدٍ كبير في شارع الناصرية ⇨

الإسلامية برواياته اليهودية وقصصه المستمدة من الأخبار، كما فعل تميم الداري في الأخبار النصرانية.^١

سبب إسلامه

ذكر هذا الكاهن لإسلامه سبباً عجيباً ليتسلل به إلى عقول المسلمين وقلوبهم . فقد أخرج ابن سعد بسندٍ صحيح عن سعيد بن المسيب قال : قال العباس لكعب : ما منعك أن تسلم في عهد النبي وأبي بكر ؟! فقال : إنَّ أبي كتب لي كتاباً من التوراة ، فقال أعجل به ! وختم على سائر كتبه ، وأخذ عليّ بحقِّ الوالد على الولد - ألا أفضَّ الختم عنها . فلمَّا رأيت ظهور الإسلام ، قلت لعلَّ أبي غيب عني علماً ! ففتحتها فإذا صفة محمد وأُمَّته ! فجنثت الآن مسلماً !

وهب بن منبه

ذكر المؤرخون أنه فارسي الأصل جاء جدّه إلى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة ، فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالأبناء أي أبناء الفرس ، ومنهم طاووس بن كيسان

⇨ في القاهرة تنفق عليه وزارة الأوقاف من أموالها . وحمص التي دفن فيها كعب ليست كغيرها من بلدان المسلمين فقد روي فيها حديثاً رفعوه إلى النبي صلى الله عليه وآله هذا لفظه: «ليبعثنَّ الله تعالى من مدينة بالشام يقال لها «حِمْص» سبعين ألفاً يوم القيامة، لا حساب عليهم ولا عذاب» ولا ريب أنَّ هذا كلّه من بركات جثمان سيّدنا كعب... ومن حقّه على الله ! ومن العجيب أنهم أسندوا هذا الحديث إلى عمر !! (راجع الجزء الثاني من «الجامع الصغير» للسيوطي)، وذكر ابن جبير في رحلته أنَّ بالجيزة قبراً لكعب الأخبار ، ص ٢٥ .

١- «ضحى الإسلام» ج ٢ ، ص ٩٧ .

التابعي المشهور .

وكان آباء وهب على دين الفرس - المجوسية أو الزردشتية - فلما أقاموا بين اليهود باليمن ، أخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم فتعلموا شيئاً من النصرانية .

وكان يعرف اليونانية وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير ، ولكن ضعفه الفلاس .^١

أدرك عدّة من الصحابة وروى عنهم ، وكذلك روى عنه كثير من الصحابة منهم أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهم وكان للعرب ثقة به .

وذكر الإمام أحمد أنّ والده منبهاً فارسيّ أخرجته كسرى إلى اليمن فأسلم ، وأنّ ابنه وهباً كان يختلف من بعده إلى بلاده بعد فتحها . ومن أقواله :

إنّي قرأت من كتب الله ٧٢ كتاباً .

وقال الذهبيّ في «تذكرة الحفاظ» إنّه عالم أهل اليمن ولد سنة ٣٤ هـ ، وتُوفّي بصنعاء سنة ١١٠ هـ . أو بعد ذلك بسنة أو أكثر ، وقيل : إنّهُ تُوّفّي سنة ١١٦ هـ .^٢

عبد الله بن سلام

هو أبو الحارث الإسرائيليّ ، أسلم بعد أن قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله المدينة ، وهو من أحبار اليهود ، حدّث عنه أبو هريرة وأنس بن مالك ، وجماعة ، وقال فيه وهب بن منبه الإسرائيليّ : كان أعلم أهل زمانه ،

١ و ٢- مقدّمة «فتح الباري في شرح صحيح البخاريّ» ج ٢ ، ص ١٧١ .

وكعب أعلم أهل زمانه ، وقد مات سنة ٤٠ هـ^١ .
 في حين أننا نجد أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله منع أمته منعاً
 شديداً من مراجعة علماء اليهود وأخذ أخبارهم وآثارهم .

قصة صخرة بيت المقدس بين عمر وكعب الأخبار

لَمَّا افْتُتِحَتْ إِيْلِيَا وَأَرْضُهَا عَلَى يَدِي عَمْرٍ فِي ربيع الآخر سنة ١٦ هـ
 ودخل عمر بيت المقدس ، دعا كعب الأخبار وقال له : أين ترى أن نجعل
 المُصَلَّى ؟! فقال كعب الأخبار : إلى الصخرة !^٢ فقال له عمر : ضاهيت والله
 اليهودية !^٣ يا كعب . وفي رواية : يا بن اليهودية ! خالطتك يهودية ، أبنيه
 في صدر المسجد ؟! فإنّ لنا صدر المساجد . وقد رأيتك وخلعتك نعليك !
 فقال : أحببتُ أن أباشره بقدمي !

ولمّا أخذ في تنظيف بيت المقدس من الكناسة التي كانت الروم قد
 دفنتها به^٤ - سمع التكبير من خلفه - وكان يكره سوء الرعة في كل شيء .
 فقال : ما هذا ؟! فقالوا : كبر كعب وكبر الناس بتكبيره . فقال : عَلَيَّ بِهِ !
 فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبيّ منذ خمسمائة
 سنة !! قال : وكيف ؟! قال : إنّ الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا
 عليهم فدفنوه . إلى أن وليت فبعث الله نبيّاً على الكناسة . فقال : أبشري

١- «أضواء على السنة المحمدية» ص ١٤٦ إلى ١٥٠ ، الطبعة الثالثة .

٢- وفي رواية : إن أخذت عني صليت خلف الصخرة ، أي : أن تكون الصخرة قبلة .

٣- مضاهاة اليهودية مشابهتها في استقبال الصخرة لما فيه من مشابهة من يعتقدها

قبلة باقية .

٤- كان نصارى الروم قد ألقوا هذه الكناسة معاندة لليهود الذين يعظمون الصخرة ،

ويصلون إليها .

أوري شلم! عَلَيْكَ الْفَارُوقُ يُنْقِيكَ مِمَّا فِيكَ! ^١ وفي رواية: أَتَاكَ الْفَارُوقُ فِي جُنْدِي الْمُطِيعِ وَيُذَرِّكُونَ لِأَهْلِكَ بِثَارِكَ مِنَ الرُّومِ. إلى آخر هذه الخرافات التي افتجرها هذا الدجال الأفاك .

وقد ظلت الصخرة مكشوفة في خلافة عمر وعثمان مع حكمهما على الشام ، وكذلك في خلافة علي رضي الله عنه وإن كان لم يحكم عليها . ثم كذلك في إمارة معاوية وابنه وابن ابنه . فلما كان في زمن عبد الملك وجري بينه وبين ابن الزبير من الفتنة ما جرى كان هو الذي بنى القبة على الصخرة . ^٢ وعظم عبد الملك شأن الصخرة بما بناه عليها وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف ، ليكثر قصد الناس للبيت المقدس فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير - وَالنَّاسُ عَلَى دِينِ الْمُؤَلَّكِ .

وظهر من ذلك الوقت من تعظيم الصخرة ما لم يكن المسلمون يعرفونه ، وصار بعض الناس ينقل الإسرائيليات في تعظيمها ، حتى روى بعضهم عن كعب الأحبار عند عبد الملك بن مروان - وعروة بن الزبير حاضر - أن الله قال للصخرة: أَنْتِ عَرْشِي الْأَدْنَى!

وقد صنّف طائفة من الناس مصنّفات في فضائل بيت المقدس وغيره

١- لخصنا هذه الكلام من «تاريخ الطبري» ج ٤ ، ص ١٦٠ .

٢- على ذكر عبد الملك بن مروان الذي بنى الصخرة نورد ما رواه عنه ابن الأثير في الصفحة ١٩٠ من الجزء الرابع ، قال : حجّ عبد الملك بن مروان بالناس سنة ٧٥ فخطب الناس بالمدينة فقال : أما بعد ، فإنّي لسئ الخليفة المستضعف يعني عثمان ، ولا الخليفة المدهن يعني معاوية ، ولا الخليفة المأفون يعني يزيد . ألا وإنّي لأدأوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم . وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون أنفسكم . والله لا يأمرن أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه .

من البقاع التي بالشام ، وذكروا من الآثار المنقولة عن أهل الكتاب وعمّن أخذ عنهم ما لا يحلّ للمسلمين أن يبنوا عليه دينهم . وأمثلة من ينقل عنه تلك الإسرائيليات كعب الأحبار . وكان الشاميون قد أخذوا عنه كثيراً من الإسرائيليات .

وفي «مرآة الزمان» لسبط بن الجوزي : توقّفهم فيما رواه كعب الأحبار عن الرسول صلّى الله عليه وآله ، لأنّه أسلم على يد الفاروق ، وكان يضربه بالدرّة ويقول له : دَعْنَا مِنْ يَهُودِيَّتِكَ !^١

وقال اليعقوبيّ في تاريخه : ومنع عبد الملك أهل الشام من الحجّ ، وذلك أنّ ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة . فلمّا رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكّة فضجّ الناس وقالوا : تمنعنا من حجّ بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ! فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهريّ يحدثكم أنّ رسول الله قال : لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِي ، وَمَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ . وَهُوَ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَهَذِهِ الصَّخْرَةُ الَّتِي يُرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَيْهَا لَمَّا صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ ، تُقُومُ لَكُمْ مَقَامَ الْكَعْبَةِ !

فبنى (عبد الملك) على الصخرة قبة ، علّق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنةً وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة . وأقام بذلك أيام بني أمية .^٢

١- «مرآة الزمان» ج ١ ، ص ٣٥ ، ومصدر تمام الكلام هو : «أضواء على السنة

المحمدية» مختارات من ص ١٤٦ إلى ١٦٧ ، الطبعة الثالثة .

٢- «تاريخ اليعقوبيّ» لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب

العباسيّ ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٧٩ هـ .

وتبني هذا الرأي جولدتسيهر . وقد نقله الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي في كتابه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» عن مسودة للأستاذ الدكتور علي حسن عبد القادر كما ألقاها على طلابه في الدرس ، ولا تزال المسودة بخط الدكتور عبد القادر محفوظةً عند الأستاذ الدكتور السباعي . وفيما يأتي بعض ما جاء في مسودة الدكتور عبد القادر من رأي جولدتسيهر ، قال :

إنَّ عبد الملك بن مروان منع الناس من الحجِّ أيام فتنة ابن الزبير ، وبنى قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحجَّ الناس إليها ويطوفون حولها بدلاً من الكعبة . ثمَّ أراد أن يحمل الناس على الحجِّ إليها بعقيدة دينية ، فوجد الزهريّ - وهو ذائع الصيت في الأمة الإسلامية - مستعداً لأن يضع له أحاديث في ذلك ، فوضع أحاديث ، منها حديث : لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، ومنها حديث : الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى تَعْدِلُ أَلْفَ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ . وأمثال هذين الحديثين . والدليل على أنَّ الزهريّ هو واضع هذه الأحاديث أنَّه كان صديقاً لعبد الملك ، وكان يتردّد عليه ، وأنَّ الأحاديث التي وردت في فضائل بيت المقدس مرويةً من طريق الزهريّ فقط ...^١ .

نعم ، جاء في كتاب «الحيوان» للدميريّ نقلاً عن ابن خلكان أنَّ عبد الملك هو الذي بنى القبة وعبارته هكذا : بَنَاهَا عَبْدُ الْمَلِكِ وَكَانَ النَّاسُ يَقْفُونَ عِنْدَهَا يَوْمَ عَرَفَةَ .

ورجح سائر المستشرقين ، ما عدا جولدتسيهر ، الرأي القائل بأنَّ عبد الملك هو الذي بنى القبة ، لكنهم لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه

١- «السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي» ص ٣٦٩ .

(جولدتسيهر) من أمره الناس الطواف حولها ، وإن كان أكثرهم يعتقد سوءاً في بني أمية .

يقول المستشرق يوليوس فلهوزن : ولكي يزيد خلفاء بني أمية في رجحان كفة الشام من الناحية السياسية حاولوا فيما حاولوا نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام . وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظل يحتل البيت الحرام في مكة قرابة من عشر سنين ، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج ماداموا على ولائهم للأسرة الأموية إلا بمشقة .

وقد استغل عبد الملك ذلك لمنع رعاياه من الحج إلى مكة ، وحضهم على أن يحجوا إلى بيت المقدس بدلاً من أن يحجوا إلى مكة . وهذا ما يحكيه (أوتينخيوس) على الأقل في كتابه «التاريخ» . أما الذي لا شك فيه فهو أن عبد الملك جهد في أن يجعل لبيت المقدس - باعتباره مكاناً مقدساً في نظر الإسلام - مظهراً أروع مما كان له . وذلك أن الدليل على صدق الرواية القائلة بأنه هو الذي بنى قبة الصخرة موجود في النقش الذي لا يزال باقياً في الجزء القديم من هذا البناء .

أما النقش الحالي فيذكر فيه اسم المأمون الخليفة العباسي ، على أنه هو الباني ، ولكن (دي فوجي) اكتشف أن اسم المأمون إنما أدخل في النقش الأصلي من طريق تصحيح لكتابة سابقة . وقد فات على المصححين أن يصححوا التاريخ القديم الذي يبين السنة التي كان فيه البناء . ويمكن على هذا أن يكون النص الأصلي على القطع هكذا : «بنى هذا القبة في سنة ٧٢هـ عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين» .^١

١- «تاريخ الدول العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية» ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .
والمعلومات التي نقلناها هنا عن جولدتسيهر مقتطفت من ص ٥٠٣ إلى ٥٠٧ من

الروايات في فضل الشام كلها مدسوسة بوجود الأمويين الذين كانوا قد اتخذوها عاصمةً لملكهم

قال أبو رية: قال كعب: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ: إِنِّي وَاطِئٌ عَلَى بَعْضِكِ فَاسْتَبَقْتُ لَهُ الْجِبَالَ، وَتَضَعُصَتِ الصَّخْرَةُ، فَشَكَرَ لَهَا ذَلِكَ فَوَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ.

وقال: إِنَّ الْعَرْضَ وَالْحِسَابَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، مَقْبُورَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَا يُعَذَّبُ.

وقال: هِيَ أَقْرَبُ إِلَى السَّمَاءِ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيلاً، وَهِيَ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ.

وقال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَزُورَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَيَنْقَادَانِ جَمِيعاً إِلَى الْجَنَّةِ وَفِيهِمَا أَهْلُهُمَا.

وقال: إِنَّ فِي التَّوْرَةِ إِنَّهُ يَقُولُ لِصَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ: أَنْتِ عَرْشِي الْأَدْنَى وَمِنْكَ ارْتَفَعْتُ إِلَى السَّمَاءِ، وَمِنْ تَحْتِكَ بَسَطْتُ الْأَرْضَ وَكُلَّ مَا يَسِيلُ مِنْ ذُرْوَةِ الْجِبَالِ، مَنْ مَاتَ فِيكَ فَكَأَنَّما مَاتَ فِي السَّمَاءِ... إلى آخره.

وعن أبي هريرة - تلميذ كعب الأخبار - أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: الْأَنْهَارُ كُلُّهَا وَالسَّحَابُ وَالْبِحَارُ وَالرِّيَّاحُ تَحْتَ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وقال كعب: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ: أَنْتِ جَنَّتِي وَقُدْسِي

⇨ الطبعة الخامسة لكتاب «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج الخطيب. لقد حاول هذا الكاتب بتفصيل ذكره تبرئة ساحة الأمويين وعبد الملك، وتعريف الزهري كعالم صادق يخاف الله. ولكن أنى له وقد خاض المستشرقون في الموضوع، وها هم منهمكون في إمطة اللثام عن جرائم الأمويين!؟

وَصَفْوَتِي مِنْ بِلَادِي ! مَنْ سَكَنَكَ فَبِرْحَمَةٍ مِنِّي ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْكَ فَبِسَخَطٍ مِنِّي عَلَيْهِ !

وعن كعب : اليوم في بيت المقدس كآلف يوم ، والشهر كآلف شهر ، والسنة فيه كآلف سنة ، ومن مات فيه فكأنما مات في السماء ، ومن مات حوله فكأنما مات فيه .^١

وعن وهب بن منبه قال : أهل بيت المقدس جيران الله وحقّ الله عزّ وجلّ ألاّ يعدّب جيرانه ، ومن دُفن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقة .

وفي حديث : إِنَّ الطَّائِفَةَ مِنْ أُمَّتِهِ الظَّاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ وَالَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِهِ .

وقال العلامة الأستاذ نعمة الله السلجوقيّ رئيس فخر المدارس بهرات من بلاد أفغانستان وهو يقرظ كتابنا «أضواء على السنة المحمدية» في كتاب قيم بعث به إلينا :

أما الأحاديث المروية في فضل الشام فنحن نعترف بأنّ أكثرها دسائس إسرائيلية . وفي ذلك ما روي في بعض الكتب :
 إِنَّ مَنْ أَهَلَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى لِلْحَجِّ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ .

فهذه الرواية مع ما تدلّ على أفضلية المسجد الأقصى تؤدّي إلى الإلحاد وعدم المبالاة بإرتكاب المعاصي وفتح أبواب الفسوق .

١- انظر «نهاية الإرب» للنويري ، ج ١ ، ص ٣٣٢ وما بعدها لترى هذه الأخبار وأعجب

ومن الخرافات التي دسّها اليهود وأدرجت في كتب السير وبعض التفاسير: أنّ السماوات بعضها من الفضة وبعضها من الزبرجد، وأنّ السيّارات مركوزة في السماوات على الترتيب المذكور في كتب اليونان، مثل أنّ القمر مركوز بسماء الدنيا، والعُطاردُ بالثانية، وهكذا إلى السابعة . وهكذا أنّ السماوات موضوعة على رأس جبل محيط بالأرض يقال له: قاف . وأنّ الأرض موضوعة على قرن ثور قائم فوق ظهر حوت يسبح في الماء .

كلّ ذلك من غفلة العلماء، وعدم مبالاتهم بوخامة عاقبة ما دسّ أعداء الدين بين المسلمين^١.

اليد اليهوديّة في تفضيل الشام

وقال أبو ريّة أيضاً: إنّ إشادة كهّان اليهود إلى أنّ مُلك النبيّ سيكون بالشام إنّما هو لأمرٍ خُبّيّ في أنفسهم . ونبين هنا أنّ الشام ما كان ليُنال من الإشادة بذكره، والثناء عليه، إلّا لقيام دولة بني أميّة فيه، تلك الدولة التي

١- «أضواء على السنّة المحمديّة» ص ١٦٧ إلى ١٦٩، الطبعة الثالثة . وقال أبو ريّة في هذه الصفحة أيضاً: كانت الأحاديث الصحيحة أوّل الأمر في فضل المسجد الحرام ومسجد رسول الله ولكن بعد بناء قبّة الصخرة ظهرت أحاديث في فضلها... إلى أن قال:

وعن ابن عباس: إنّ امرأة اشتكت شكوى، فقالت: إن شفاني الله لأخرجنّ فلأصليّن في بيت المقدس، فبرئت ثمّ تجهّزت تريد الخروج، فجاءت ميمونة زوج النبيّ تسلّم عليها فأخبرتها بذلك، فقالت: اجلسي، فكلّي ما صنعت وصلّي في مسجد رسول الله، فإبني سمعت رسول الله يقول: صَلَاةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيْمَا سِوَاهُ إِلَّا مَسْجِدَ الْكَعْبَةِ . ولو أنّ المسجد الأقصى كان قد ورد فيه تلك الأحاديث، لما منعت ميمونة هذه المرأة من أن توفي بنذرهما.

قلبت الحكم من خلافة عادلة إلى ملك عضوض ، والتي تحت كنفها وفي أيامها نشأت الفرق الإسلامية التي فتت في عضد الدولة الإسلامية ومزقتها تمزيقاً واستفاض فيها وضع الحديث . فكان جديراً بكهنة اليهود أن ينتهزوا هذه الفرصة وينفخوا في نار الفتنة ، ويمدوها بجيوش الأكاذيب والكيد . وكان من هذه الأكاذيب أن بالغوا في مدح الشام وأهله ، وأن الخير كل الخير فيه ، والشرك كل الشرك في غيره .

وعلى أنه قد مرّ بك ذرو ممّا قاله هؤلاء الكهنة في أنّ ملك النبي سيكون بالشام ، وأنّ معاوية قد زعم أنّ الرسول قد قال له : إنّ سيلي الخلافة من بعده . وطلب منه أن يختار الأرض المقدّسة التي فيها الأبدال ، فإنّا نكشف هنا عن جانب آخر من كيد الدهاء اليهودي للمسلمين ودينهم وملكهم ، ذلك أنّهم لم يكتفوا بما قالوه في الشام ممّا أتينا على بعضه من قبل ، بل زادوا على ذلك بأن جعلوا الطائفة الظاهرة على الحقّ تكون في الشام كذلك ، وحتىّ نزول عيسى الذي قالوا عنه سيكون بأرضه

وفي «كشف الخفاء» أنّ كعب الأخبار قال : أهل الشام سيف من سيوف الله ينتقم الله بهم من العصاة.^١
ولعلّ العصاة هنا هم الذين لا ينضون تحت لواء معاوية ويتبعون غيره ، وغيره هو عليّ رضي الله عنه

١- راجعنا «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» للعجلونيّ ، ص ٢٦١ ، الطبعة الثالثة ، سنة

١٣٥١ هـ ، ولفظه:

الحديث ٨٠٧- أهل الشام سوط الله تعالى في الأرض ، ينتقم بهم ممّن يشاء من عباده ، وحرامّ على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنهم ، وأن يموتوا إلّا همّاً وغمّاً وغيظاً وحزناً . لعلّ المراد من المنافقين هنا هم عليّ عليه السلام وأصحابه ، والمراد من المؤمنين هم معاوية وشركته!

وعن نافع ، عن ابن عمر ، عن كعب قال : تَخْرُجُ نَارٌ تَحْشِدُ النَّاسَ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهَا فَاخْرُجُوا إِلَى الشَّامِ .^١ وابن عمر هو أحد تلاميذ كعب .
ومن أحاديث «الجامع الصغير» للسيوطي التي أشرّ عليها بالصحة :
الشَّامُ صَفْوَةٌ لِلَّهِ مِنْ بِلَادِهِ ، إِلَيْهَا يَجْتَبِي صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَمَنْ خَرَجَ مِنَ الشَّامِ إِلَى غَيْرِهَا فَبَسَّخَطَهُ ، وَمَنْ دَخَلَهَا فَبَرَحَمْتَهُ . طُوبَى لِلشَّامِ ، إِنَّ الرَّحْمَنَ لَبَاسِطٌ رَحْمَتَهُ عَلَيْهِ .
لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ مِنْ مَدِينَةِ الشَّامِ يُقَالُ لَهَا «حِمَصُ» سَبْعِينَ أَلْفًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ . يَبْعَثُهُمْ فِيمَا بَيْنَ الزَّيْتُونِ وَالْحَائِطِ ... إلى آخره .

ومدينة حِمَصُ هذه يجب أن يكون لها هذا الشأن العظيم حتى في الآخرة بحيث لا يُدانيها في ذلك مدينة أخرى حتى مدينة النبي ! ... وذلك لأنّ الكاهن اليهودي - الذي يعدّه كثير من شيوخ المسلمين أنّه من كبار التابعين - قد اتخذها مقاماً له ، ثمّ ضمّت رُفاته بعد موته . ولا نُطيل بإيراد كلّ ما لدينا من هذه الأخبار لأنّ ما جئنا به فيه الكفاية .
ثمّ ذكر أبو ريّة مفصلاً انتقادات ابن تيميّة ، وابن كثير ، وابن خلدون لكعب وإسرائيلياته ، وقال بعد ذلك :

ولم نجد في هذا العصر ، بل في العصور الأخيرة من فطن لدهاء كعب ووهب وكيدهما ، مثل الفقيه المحدث السيّد محمّد رشيد رضا رحمه الله .
وإنّي انقل هنا بعض ما قاله في كعب خاصّة . وفيه وفي زميله وهب عامّة .
قال في كعب ردّاً على من وصفوه بأنّه كان من أوعية العلم ما يلي :^٢

١- «فتح الباري» ج ١٣ ، ص ٦٩ .

٢- مجلّة «المنار» ص ٥٤١ وما بعدها ، العدد ٢٧ .

إنَّ ثبوت العلم الكثير لا يقتضي نفي الكذب . وكان جُلُّ علمه عندهم ما يرويه عن التوراة لِيُقْبَلَ ، وغيرها من كتب قومه وينسبه إليها لِيُقْبَلَ . ولا شكَّ أنَّه كان من أذكى علماء اليهود قبل إسلامه وأقدرهم على غش المسلمين بروايته بعده .

وقال عنه : إنَّه كان من زنادقة اليهود الذين أظهروا الإسلام والعبادة لِيُقْبَلَ أقوالهم في الدين . وقد راجت دسيسته حتى انخدع به بعض الصحابة ورووا عنه ، وصاروا يتناقلون قوله بدون إسناد إليه ، حتى ظنَّ بعض التابعين ومن بعدهم أنَّها ممَّا سمعوه عن النبيِّ .

وأدخلها بعض المؤلِّفين في الموقوفات التي لها حكم المرفوع كما قال الحافظ ابن كثير في مواضع من تفسيره ^١ .

وقال عنه : إنَّه كان بُركان الخرافات وأجزم بكذبه ، بل لا أثق بإيمانه ^٢ .

وقال فيهما معاً - أيَّ كعب ووهب : ^٣

«إنَّ شرَّ رواة هذه الإسرائيليات ، أو أشدَّهم تلييساً وخداعاً للمسلمين هذان الرجلان . فلا تجدُ خرافة دخلت في كتب التفسير والتأريخ الإسلاميِّ في أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوامهم ، والفتن والساعة والآخرة ، إلَّا وهي منهما مضرب المثل في كلِّ وادٍ أثرٌ من ثعلبة ، ولا يهولنَّ أحداً انخداعُ بعض الصحابة والتابعين بما بثَّاه وغيرهما من هذه الأخبار ، فإنَّ تصديق الكاذب لا يسلم منه أحد البشر ولا المعصومين من الرُّسل .

١- مجلَّة «المنار» ج ٢٧ ، ص ٧٥٢ .

٢- مجلَّة «المنار» ج ٢٧ ، ص ٦٩٧ .

٣- مجلَّة «المنار» ج ٢٧ ، ص ٧٨٣ .

فإن العصمة إنما تتعلق بتبليغ الرسالة والعمل بها ، فالرسل معصومون من الكذب ومن الخطأ في التبليغ ومن العمل بما ينافي ما جاؤوا به من التشريع ، لأن هذا ينافي القدوة ويخل بإقامة الحجّة . ولكن الرسول إذا صدّق الكاذب في أمر يتعلق به وبعمله ، أو بمصلحة الأمة ، فإنّ الله تعالى يبيّن له ذلك ومنه ما كان ، من بعض أزواجه ، الذي نزل فيه أول سورة التحريم ، وعلم من قوله تعالى فيها : **قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**^١.

أي : أنّه لم يعلم المكيدة بملكة العصمة ، بل بوحى الله تعالى بعد وقوعها . ومنه قوله تعالى فيما كان كذب عليه بعض المنافقين الذين اعتذروا عن الخروج معه صلّى الله عليه وآله إلى تبوك : **عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ...**^٢.

وقال رحمه الله :^٣ وإنا بعد اختبارنا ثلث قرن قضيناه في معالجة الشبهات ومناظرة الملاحدة وأمثالهم من خصوم الإسلام والردّ عليهم قولاً وكتابةً ، قد ثبت عندنا أنّ روايات كعب ، ووهب في كتب التفسير والقصص والتأريخ ، كانت شبهات كثيرة للمؤمنين ، لا للملاحدة والمارقين وحدهم . وأنّ المستقلّين في الرأي لا يقبلون ما قالوه : إنّ كلّ من قال جمهور رجال الجرح والتعديل بعدالته فهو عدل ، وإنّ ظهر لمن بعدهم فيه من أسباب الجرح ما لم يظهر لهم .

وقال رحمه الله : رأينا الشيء الكثير في رواياتهما ممّا نقطع بكذبه ،

١- الآية ٣ ، من السورة ٦٦ : التحريم .

٢- الآية ٤٣ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣- مجلّة «المنار» ج ٢٧ ، ص ٥٣٩ .

لمخالفة ما رويها ممّا كانا يعزوانه للتوراة وغيرها من كتب الأنبياء ، فجزمنا بكذبهما وهو ممّا لم يكن يعلمه المتقدّمون ، لأنّهم لم يطلّعوا على كتب أهل الكتاب .

والطعن في روايتهما يدفع شبهات كثيرة عن كتب الإسلام ولا سيّما تفسير كتاب الله المحشوّ بالخرافات .

وقال كذلك عن روايتهما: إنّ أكثرها خرافات إسرائيلية شوّهت كتب التفسير وغيرها من الكتب ، وكانت شبهاً على الإسلام يحتجّ بها أعداؤه الملاحدة أنّه كغيره دين خرافات وأوهام ، وما كان فيها غير خرافة فقد تكون الشبهة فيه أكبر كالذي ذكره كعب من صفة النبيّ في التوراة .^١ وعلى أنّ الأئمّة المحقّقين قد طعنوا في رواية هذين الكاهنّين ، ولا يزال يوجد بيننا - وآسفاه - من يثق بهما ، ويصدّق ما يرويانه ، ولا يقبل أيّ كلام فيهما .^٢ وقال أبو ريّة أيضاً: وإليك مثلاً من هذا الكيد في أمر خطير تحوّل به التّاريخ الإسلاميّ عن مجراه :

كعب الأحبار ومعاوية

وذكر أبو ريّة هنا قتل عمر الذي كان لكعب دور فيه بعد أن فصّل الكلام في نهى عمر كعب الأحبار عن الحديث سواء كان عن التوراة أم عن رسول الله ، وقال : ولمّا خلا له الجوّ بقتله ، وأمّن من خوفه ، أطلق العنان لنفسه لكي يبثّ ما شاء الكيد اليهوديّ أن يبثّ من الخرافات

١- مجلّة «المنار» ج ٢٧ ، ص ٦١٨ .

٢- «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ١٧٠ إلى ١٧٦ ، الطبعة الثالثة .

والإسرائيليات التي تشوّه بهاء الدين ، يعاونه في ذلك تلاميذه الكبار أمثال عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمّار ، وأبو هريرة ... ولنضرب لذلك هنا مثلاً واحداً نجتزئ به ، ذلك أنّه لما اشتعلت نيران الفتنة في زمان عثمان واشتدّ زفيرها ، حتّى التهمت عثمان فقتلته وهو في بيته ، لم يدع هذا الكاهن الماكر هذه الفرصة تمرّ دون أن يهتبلها ، بل أسرع ينفخ في نارها ويسهم بكيده اليهوديّ فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وقد كان من كيده في هذه الفتنة أن أرهص بيهوديّته بأنّ الخلافة بعد عثمان ستكون لمعاوية .

فقد روى وكيع عن الأعمش ، عن أبي صالح^١ أنّ الحادي كان يحدو بعثمان يقول :

إِنَّ الْأَمِيرَ بَعْدَهُ عَلِيٌّ وَفِي الزُّبَيْرِ خُلُقٌ رَضِيٌّ
فقال كعب الأحبار : بل هو صاحب البغلة الشهباء ! (يعني معاوية) ، وكان يراه يركب بغلة . فبلغ ذلك معاوية فأتاه فقال : يا أبا إسحاق ما تقول هذا !! وها هنا عليّ والزبير وأصحاب محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ! قال : أنت صاحبها . ولعلّه أردف ذلك بقوله : إنّي وجدت ذلك في الكتاب الأوّل !!

وقدّر معاوية هذه اليد الجليلة لكعب ، وأخذ يغمره بأفضاله . وقد عرف من تأريخ هذا الكاهن أنّه تحوّل إلى الشام في عهد عثمان وعاش تحت كنف معاوية فاستصفاه لنفسه وجعله من خالصائه لكي يروي من أكاذيبه وإسرائيلياته ما شاء أن يروي في قصصه لتأييده ، وتثبيت قوائم دولته . وقد ذكر ابن حجر العسقلانيّ في «الإصابة» بأنّ معاوية هو الذي أمر

١- «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» للمقرزيّ ، ص ٥١ .

كعباً بأن يقصّ في الشام ...^١

ومن العجيب أنّ هذه الإسرائيليّات لا تزال تجد إلى اليوم من يصدّقها ، بل يقدّسها . وإذا بصّرناهم بتخفيفها هبّ في وجهنا أدعياء العلم في عصرنا وبخاصّة من كانوا من حفدة الأمويين ، ورمونا بالسبّ والشتّم تعصباً لهم وحماقة .

هذا مثل واحد نسوقه هنا في مواقف كعب مع معاوية خاصّة ، وما أصاب الإسلام من كيده ومكره عامّة ، ولأنّ عليّاً هو ابن عمّ النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلّم الذي أرصد له هؤلاء الكهّان كلّ قواهم لمحاربة شريعته . ولو شئنا أن نستوفي كلّ ما أتاه هذا الكاهن من كيدٍ للإسلام وأهله لاقتضى منّا ذلك أن نعقد مؤلّفاً خاصّاً كما فعلنا لتلميذه الأكبر أبي هريرة .^٢

ولا ننسى أنّ عليّاً رضي الله عنه كان يقول عن كعب : إنّّه لكذّاب .

ومما يلفت النظر ويسترعي الفكر أنّنا نجد هؤلاء الكهّان جميعاً من اليهود والنصارى وذوي الهوى من المسلمين يتحوّلون كلّهم إلى الشام بعد مقتل عثمان . ويبدو أنّ هذا التحوّل لم يكن لله ، وإنّما كان ذلك ليتعاونوا على نشر الفتنة وليشعلوا نار البغضاء بين المسلمين لكي تنضج دولة الأمويين ، ويتمزّق شمل المسلمين . ويملأوا أيديهم بعد ذلك من غنائم الأمويين .^٣

يواصل أبو رية كلامه على هذا المنوال فيتحدّث عن طعام أبي هريرة عند معاوية ، ويقول : كان أبو هريرة يُلقّب بـ : شَيْخُ الْمَضِيرَةِ . وقد نالت

١- «الإصابة» ج ٥ ، ص ٣٢٣ .

٢- راجع كتاب «شيخ المضيرة» .

٣- «أضواء على السنّة المحمّديّة» هامش ص ١٨٢ ، الطبعة الثالثة .

هذه المضيرة من عناية العلماء والكتّاب والشعراء ما لم ينله مثلها من أصناف الحلوى ، وظلّوا يتندّرون بها ، ويغمزون بأهريرة قروناً طويلة من أجلها . وإليك بعض ما أرسلوه فيها .

قال الثعالبيّ في كتابه «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» ما يلي :
 شيخ المضيرة : كان أبو هريرة رضي الله عنه على فضله واختصاصه بالنبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلّم مزاحاً أكولاً . وكان مروان بن الحكم يستخلفه على المدينة ، فيركب حماراً قد شدّ عليه برذعة ، فيلقى الرجل فيقول : الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ ! قَدْ جَاءَ الْأَمِيرُ ... وكان يدعى الطّبّ ... وبعد أن ذكر الثعالبيّ شيئاً من طبّه وكلّه طعام يشفي داء الأمعاء ، ويداوي نهم البطن ، قال : وكان يُعجبه المضيرة جدّاً فيأكل مع معاوية . فإذا حضرت الصلاة صلى خلف عليّ رضي الله عنه ، فإذا قيل له في ذلك ، قال : مَضِيرَةٌ مُعَاوِيَةَ أَدْسَمُ وَأَطْيَبُ ، وَالصَّلَاةُ خَلْفَ عَلِيٍّ أَفْضَلُ .

وكان يقال له : شيخ المضيرة . وختم الثعالبيّ قوله بيتين لشاعر هجا فيهما أبا هريرة أعرضنا عنهما .

وعقد بديع الزمان الهمدانيّ مقامه خاصّة - من مقاماته - لهذه المضيرة ، غمز فيها أبا هريرة غمزة أليمة ، فقال :

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ : كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ وَمَعِيَ أَبُو الْفَتْحِ
 الْإِسْكَندَرِيُّ : رَجُلٌ الْفَصَاحَةِ يَدْعُوهَا فَتَجِيْبُهُ ، وَالْبَلَاغَةَ يَأْمُرُهَا فَتَطِيْعُهُ .
 وَحَضَرْنَا مَعَهُ دَعْوَةَ بَعْضِ التُّجَّارِ ، فَقَدِّمْتَ إِلَيْنَا مَضِيرَةً تُشْنِي عَلَيَّ
 الْحَضَارَةَ ، وَتَرَجَّرُ فِي الْغَضَارَةِ ، وَتُوذِنُ بِالسَّلَامَةِ ، وَتَشْهَدُ لِمُعَاوِيَةَ
 رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِمَامَةِ ...

قال أبو رية : وقال أستاذنا الإمام محمّد عبده في شرح ذلك : ومعاوية ادّعى الخلافة بعد بيعة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلم يكن من

يشهد له بها في حياة عليّ إلا طلاب اللذائذ ، وبُغاة الشهوات . فلو كانت هذه المضيرة من طعام معاوية لحملت آكلها على الشهادة له بالخلافة ، وإن كان صاحب البيعة الشرعية حياً . وإسناد الشهادة إليها ، لأنها سببها الحامل عليها . والإمامة والخلافة في معنى واحد .

وفي كتاب «أساس البلاغة» لجار الله الزمخشريّ : عَلِيٌّ مَعَ الْحَالِ الْمُضِيرَةِ^١ خَيْرٌ مِنْ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْمُضِيرَةِ^٢.

وقال أبو ريّة في كتاب الآخر : روى ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقيّ في كتابه «الفخريّ» ص ٧٩ : أن معاوية كان يأكل كلّ يوم خمس أكلات وآخرهنّ أغظهنّ ثمّ يقول : يَا غُلَامُ ! ارْزَعْ فَوَ اللَّهُ مَا شَبَعْتُ وَلَكِنِّي مَلَلْتُ ! وَإِنَّهُ أَكَلَ عَجْلاً مَشْوِيّاً مَعَ دَشْتٍ مِنَ الْخُبْزِ السَّمِيدِ وَأَرْبَعَ فَرَانِيٍّ ، وَجَدِيّاً حَارّاً وَآخَرَ بَارِداً سَوَى الْأَلْوَانِ^٣.

أما رواية ابن كثير في «البداية والنهاية» ج ٨ ، ص ١١٩ فهي : أن معاوية كان يأكل في اليوم سبع أكلات بلحم ، ومن الحلوى والفاكهة كثيراً ويقول : ما أشبع وإنما أعيأ

وإليك وصفاً لبعض طعام معاوية يرويه لك الأحنف بن قيس :

قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَدَّمْ لِي مِنَ الْحَارِّ وَالْبَارِدِ ، وَالْحُلُوِّ وَالْحَامِضِ مَا كَثُرَ تَعْجُجِي مِنْهُ . ثُمَّ قَدَّمْ لِي لَوْنًا لَمْ أَعْرِفْ مَا هُوَ ، فَقُلْتُ : مَا

١- جاء في «أقرب الموارد» مادة صَوَّرَ : صَارَ الرَّجُلُ يَصُورُ صَوْرًا : جَاعَ شَدِيدًا . تَصَوَّرَ الرَّجُلُ : تَأَوَّى مِنْ وَجَعِ الضَّرْبِ . الصُّورُ : مَصْدَرٌ وَ- الْجُوعُ الشَّدِيدُ .

٢- «أضواء على السنة المحمدية» منتخب من ص ١٧٩ إلى ١٩٨ ، الطبعة الثالثة .

٣- في «لسان العرب» : دشت الصحراء ... إلى أن قال : الدشت : الصحراء ... إلى أن قال : وهو فارسيّ ، أو اتفاق وقع بين اللغتين . والسَّمِيدُ بالذال المعجمة والسَّمِيدُ بالذال المهملة هو الدقيق الأبيض . والفَرْنِيّ خبزة غليظة مستديرة ، وجمعها فَرَانِيّ .

هَذَا!؟

فَقَالَ : مَصَارِينُ ١ الْبَطِّ مَحْشُوَّةٌ بِالْمَخِّ قَدْ قُلِي بِدُهْنِ الْفُسْتَقِ ، وَذُرَّ عَلَيْهِ بِالطَّبْرَزِدِ .

فَبَكَيْتُ . فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ !؟

قُلْتُ : ذَكَرْتُ عَلِيًّا ، بَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ ، وَحَضَرَ وَقْتُ الطَّعَامِ وَإِفْطَارِهِ ، وَسَأَلَنِي الْمَقَامَ فَجِئْتُ لَهُ بِجِرَابٍ مَخْتُومٍ . فَقُلْتُ : مَا فِي هَذَا الْجِرَابِ !؟
قَالَ : سَوِيْقٌ شَعِيرٍ ! قُلْتُ : خِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْخَذَ !؟ أَوْ بَخَلْتُ بِهِ !؟
فَقَالَ : لَا ، وَلَا أَحَدُهُمَا . وَلَكِنِّي خِفْتُ أَنْ يَلْتَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ بِسَمْنٍ أَوْ زَيْتٍ .

فَقُلْتُ : مُحَرَّمٌ هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !؟

فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَى أَيْمَةِ الْحَقِّ أَنْ يَعُدُّوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ضَعْفَةِ النَّاسِ لئَلَّا يُطْنِيَ الْفَقِيرَ فَقْرُهُ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : ذَكَرْتَ مَا لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُ ! ٢

استبان مما ذكرناه أن معاوية كان السبّاق بلا منافس في النفاق

١- مفردھا مَصِيرٍ وجمع مصير أمصرة ومُضْرَان ، وجمع الجمع مصارين . والمصير هو ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة . البطّ ، الواحدة : البطة للمذكّر والمؤنث ، وهو طير مائيّ قصير العنق والرّجلين ، وهو غير الأوزّ وجمعه بطوط وبطاط . والمخّ بتشديد الخاء نقي العظم ، وربما سمّوا الدماغ مخاً . والفستق شجر مثمر وحرّجيّ وثماره لذیذة ، والبندق شجر من فصيلة البلوطيات ثماره لوزيّة لذیذة الطعم . الجراب جلد الحيوان يُستعمل وعاءً ويُشدّ رأسه بخيط من جلد . السويق : الناعم من دقيق الحنطة والشعير . لَتَّ يَلْتُ لَتًّا بَلَّ الدقيق بالماء أو خلطه بالسمن .

٢- «شيخ المضيرة» ص ١٨٠ و ١٨١ في الهامش ، نقلاً عن ص ٤٢٢ من كتاب «نثر الدر» للوزير أبي سعيد منصور بن الحسين الأبّي المتوفى سنة ٤٢٢ هـ .

والمكر والخديعة والعمل ضدّ الإسلام وهدم القرآن والقضاء على نبوة محمد واجتثاث ولاية عليّ من جذورها وذلك في جبهتين : خارجية وتمثّل في تعبئة الجيوش وصرف الأموال من بيت المال لأجل ذلك ، وداخلية وتتجسّد في وضع الأخبار واختلاق الأحاديث وتزويرها منسوبة إلى رسول الله . وقد خرج ظافراً في الجبهتين معاً . واستحوذ على قوى الإسلام جميعها ونقل العاصمة المعنوية الروحانية الملكوتية للرسول الأكرم من المدينة المنورة إلى شام الطغيان والاستبداد والكذب والدَّغْل ، ووجه ضربة عنيفة إلى دين النبي لا تقوم لها قائمة ولا ينفعها علاج ، واستولى على العالم كلّ من الصين إلى الأندلس ، ولم تُلحَظ نافذة أملٍ حتّى قيام قائم آل محمد مع القدرة والشوكة النكراء والنفاق والحيلة والسياسة المزدوجة التي عمّت وشملت كلّ مكان ، وضرب رأس عليّ فدُفنت تلك الدعوة وذلك النهج والمنهاج بين الحكومات والمجتمعات في قبر الاضمحلال فيتقوّض جذره وأساسه في داخل الأرض .

لقد صار معاوية رئيساً في الشام من حيث الشوكة والأُبْهة ، ومن حيث التزوير والخداع ، ومن حيث تبديل روح الولاية والنبوة إلى طاغوتية وجبارية جاهلية ، ورفع اسم محمد من الألسن ، وسخر بالله والنبيّ وعليّ وأهل البيت والوحي والمعاد والبعث والعدل والحساب والكتاب والقرآن والسنة . وهذا هو مراده وقصده .

لم يَزَعِ معاوية عن أفعاله القبيحة طوال أربعين سنة من حكومته في الشام ، ولم يسترح لحظة واحدة من أجل هذا الهدف . ولم يخجل ولم ير نفسه مجرماً مذنباً أمام تلك الجرائم الظاهرة والباطنة التي ارتكبتها ، بل كان ينظر إلى النبيّ وأمير المؤمنين والقرآن على أنّهم خونة مجرمون ناهضوا فرعونيته وممارساته الدنيئة ، وأطاحوا برئاستهم في مكة والجزيرة .

وهنا يعلو صوت العالم الواعي المطلع الشيخ محمود أبو ريّة بعد حديثه المفصل عن الجمل وصفين وإثارة جميع القوى والإمكانات ضدّ عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام بلا اختيار: لَكَ اللَّهُ يَا عَلِيُّ! تَأَلَّبَتْ كُلُّ الْقُوَى عَلَيْكَ! وَكَمْ نَلَتْ مِنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ! وَكَمْ حَمَلَتْ مِمَّا تَأْبَى الْجِبَالُ أَنْ تَحْمِلَهُ! ^١

ومن هنا نفهم كلام أحد كبار علماء الألمان في الأستانة لبعض المسلمين - وفيهم أحد أشراف مكّة: إِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُقِيمَ تِمَثَالاً مِنَ الذَّهَبِ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فِي مَيْدَانِ كَذَا مِنْ عَاصِمَتِنَا «بِرْلين». فقيل له: لماذا!؟

قال: لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَوَّلَ نِظَامَ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ عَنْ قَاعِدَتِهِ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ إِلَى عَصَبِيَّةٍ. وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَعَمَّ الْإِسْلَامُ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَإِذْنًا لَكُنَّا نَحْنُ الْأَلْمَانُ وَسَائِرُ شُعُوبِ أَوْرُوبًا عُرْبًا ^٢ مُسْلِمِينَ ^٣.

نقل المحدث القمّي رحمه الله عن صاحب «كامل بهائي»، عن البيهقيّ في جواب من سأله: إِنَّ مُعَاوِيَةَ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَارَبَةِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ!؟

فقال: إِنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَدْخُلِ فِي الْإِيمَانِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهُ بَلْ خَرَجَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى النِّفَاقِ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ

١- «شيخ المضيرة»، هامش ص ١٥٥، الطبعة الثانية.

٢- في «أقرب الموارد»: العُرب والعَرَب جيل من الناس خلاف العجم. والمراد بالعجم كلّ من ليس من العرب من الفُرس، والتُّرك، والإفرنج، وغيرهم. ولفظ العرب مؤنث على تأويل الطائفة. يقال: العَرَبُ العَارِبَةُ، والعَرَبُ العَرَبَاءُ ج أَعْرَبُ وَعُرُوبٌ. قيل: العرب سكّان الأمصار، وقيل: عامّ في سكّان الأمصار وسكّان البادية.

٣- «شيخ المضيرة»، هامش ص ١٦٨، الطبعة الثانية.

الأصليُّ بَعْدَهُ ١.

لقد قلب معاوية الإسلام بتغييره سنة رسول الله . وخرّب المعارف الإسلامية وشوّه صورة الإسلام النقيّة الصافية بوضعه الأحاديث التي لا تُحصى وبثّها في التاريخ والسنة الإسلامية بواسطة رموزه الأصليين مثل كعب الأخبار ، ووهب بن منبّه ، وتلاميذهما نحو عبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، وعروة بن الزبير ، وسُمرة بن جندب ، وأبي هريرة .

وها هي كتب السنة جميعها مشحونة بالأحاديث المشؤومة لهؤلاء الأصاغر وعليها يقوم منهج التعليم والتعلم . فانظروا من أين يبدأ الأعوجاج والانحراف والنقصان والدمار وأين تنتهي !؟

إنّ السنة يصحّحون أحاديث سُمرة بن جندب لأنّه من الصحابة - وكلّ صحابي عادل - ولأنّه كان والياً بأمر معاوية - ومعاوية عادل أيضاً - مع أنّه كان فاسقاً فاجراً سفاكاً للدماء قاتلاً للأبرياء وقد أراق أنهاراً من دمائهم ، وكان يبيع الخمر جهرةً .

قال العالم الجليل السيّد عبد الحسين شرف الدين العامليّ :

١- «هدية الأحاب» ص ١١١ . قال في ترجمة البيهقيّ: هو أبو بكر أحمد بن الحسين ابن عليّ الشافعيّ النخسروجرديّ الحافظ والفقيه المشهور صاحب «السنن الكبرى» ، و«السنن الصغرى» ، و«دلائل النبوة» ، وغيرها ... إلى أن قال : ومن كلماته على ما نقل صاحب «كامل بهائي» ... إلى آخره .

وعبر قيس بن سعد بن عبادة عن هذه الحقيقة بتعبير آخر . قال الشيخ محمود أبو ريّة في كتاب «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ١٧٢ : وأرسل قيس بن سعد بن عبادة إلى معاوية كتاباً قال فيه : أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ وَتَنُ ابْنُ وَتَن ! دَخَلْتَ الْإِسْلَامَ كُرْهًا وَخَرَجْتَ مِنْهُ طَوْعًا ! وَلَمْ يَقْدَمْ إِيْمَانُكَ ، وَلَمْ يَحْدُثْ نِفَاقُكَ !

أخرج الطبري في أحداث سنة خمسين من تاريخه بالإسناد إلى محمد بن سليم، قال: سألت أنس بن شيرين، هل كان سمرة قتل أحداً؟ قال: وهل يُحصى من قتلهم سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة ستة أشهر حين كان والياً عليها وعلى الكوفة من قبل معاوية وأتى الكوفة فجاء، وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له زياد: هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟! قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت! وأخرج (الطبري) هناك أيضاً بالإسناد إلى أبي سوار العدوي، قال: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن. وأخرج هناك أيضاً بإسناده عن عوف. قال: أقبل سمرة من المدينة فلما كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففاجأ أول الخيل فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة (عبثاً وعتوّاً)، قال: ثم مضت الخيل فأتى عليه سمرة بن جندب وهو متشخط بدمه، فقال: ما هذا؟ قيل: أصابته أوائل خيل الأمير. قال (عتوّاً واستكباراً): إِذَا سَمِعْتُمْ بِنَا قَدْ رَكِبْنَا فَاتَّقُوا اسْتِنَّا - انتهى.

وهذه القضايا من المتفق على صدورها من سمرة، نقلها كل من أرخ حوادث سنة الخمسين، كابن جرير وابن الأثير وأمثالهما. وإذا كانت هذه أعمال سمرة في ستة أشهر وهو ثقة البخاري، ودليله على دين الباري، وقد احتج به في الورقة الثالثة في كتاب «بدء الخلق» من صحيحه^١ وجزم

١- في آخر ص ١٣٨ من جزئه الثاني قبل باب ما جاء في صفة الجنة بأربعة أحاديث، واحتج به في موارد كثيرة، يعرفها المتتبع، ونص الإمام محمد بن القيسراني في كتابه «الجمع بين كتابي أبي نصر الكلاباذي وأبي بكر الإصهاني» على احتجاج البخاري ومسلم كليهما في سمرة بن جندب مع ما له من الأعمال فراجع أحواله في الجزء الرابع من «شرح النهج» للعلامة ابن أبي الحديد في السطر الأول من صفحة ٣٦٣ من المجلد الأول من

بعدالته^١ في ظاهر القول وصرِيحه ، فما ظنك بأعمال زياد ابن سمِيّة الخبيث الفاسق بإجماع البريّة ، وقد ولّاه معاوية (كما نصّ عليه الطبريّ في أحداث سنة خمسين من تاريخه) أعمال الكوفة والبصرة والمشرق كلّه ، وسجستان وفارس والسند والهند : فَكَمْ حُرَّةٍ فِي تِلْكَ الْوَلَايَةِ هُتِكَتْ ، وَكَمْ حُرْمَةٌ لِلَّهِ انْتَهِكَتْ ، وَكَمْ دِمَاءٍ زَكِيَّةٍ سُفِكَتْ ، وَكَمْ لَشْرَعَةٍ أَنْدَرَسَتْ ، وَكَمْ بَدْعَةٍ أُسِّسَتْ ، وَكَمْ أَعْيُنٍ سُمِلَتْ ، وَأَيْدٍ وَأَرْجُلٍ قُطِعَتْ . و . و . إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَرِّبَرِيَّةِ وَالْفُظَّائِعِ الْأَمْوِيَّةِ الَّتِي تَقْشَعِرُّ لَهَا جُلُودُ الْبَرِّيَّةِ ، وَيَتَّصَدَعُ بِهَا قَلْبُ الْإِنْسَانِيَّةِ .

لكن الجمهور لمّا بنوا على اجتهاد معاوية عذروه في أعمال عمّاله ، ولم يחדش في عدالته عندهم بوائقه ولا بوائق رجاله^٢ .

ذكر شيخ المعتزلة الإمام أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى فيما نقله عنه ابن أبي الحديد^٣ : أنّ معاوية حمل قوماً من الصحابة ، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه

⇐ طبعة مصر، لتعلم الحقيقة ، ولو سبرت من قبل تلك الصفحة إلى ما بعد هابوريات لعلمت أحوال جملة من رجال البخاريّ ، كابن العاص والمغيرة ومروان ، وأبي هريرة وغيرهم من عمّال معاوية وأوليائه .

١- مع ما ثبت عنه من المساوئ التي من جملتها بيع الخمر على عهد عمر فيما رواه المحمّدثون وأخرجه أحمد بن حنبل من حديث عمر بن الخطّاب في صفحة ٢٥ من الجزء الأوّل من مسنده ، قال : ذكر لعمر أن سمرة باع خمرأ ، فقال : قاتل الله سمرة . إنّ رسول الله قال لعن الله اليهود حُرِّمَتْ عليهم الشحوم فباعوها .

٢- «الفصول المهمّة في تأليف الأُمَّة» ص ١٢٣ إلى ١٢٥ ، الطبعة الخامسة .

٣- في شرح قول أمير المؤمنين عليه السلام : أما إنّهُ سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم يدعوكم إلى مَسَبِّي والبراءة مِنِّي ، «شرح النهج» ج ١ ، ص ٣٥٨ وما بعدها ، طبعة مصر .

والبراءة منه ، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله ، فاختلفوا له ما أَرْضَاهُ . قال : منهم أبو هريرة ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير ، قال : وروى الزهريّ : أنّ عروة بن الزبير حدّثه فقال : حدّثني عائشة قالت : كنت عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال لي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :

يَا عَائِشَةُ ! إِنَّ هَذَيْنِ يَمُوتَانِ عَلَيَّ غَيْرِ مِلَّتِي - أَوْ قَالَ : عَلَيَّ غَيْرِ

دِينِي .

قال : وروى عبد الرزاق عن معمر قال : كان عند الزهريّ حديثان عن عروة ، عن عائشة في عليّ عليه السلام فسألته عنهما يوماً فقال : ما تصنع بهما وبحدِيثهما ؟ اللهُ أَعْلَمُ بِهِمَا وَبِحَدِيثِهِمَا . إِنِّي لَأَتَّبِعُهُمَا فِي بَنِي هَاشِمٍ . قال : فأما الحديث الأول فقد ذكرناه ، وأما الحديث الثاني فهو أنّ عروة زعم أنّ عائشة حدّثته قالت :

كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَقْبَلَ الْعَبَّاسَ وَعَلِيَّ ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ! إِنَّ سَرَّكَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَى رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَاَنْظُرِي إِلَيَّ هَذَيْنِ قَدْ طَلَعَا !

فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا الْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ .

قال : وأما عمرو بن العاص فروى فيه الحديث الذي أخرجه البخاريّ ومسلم في صحيحيهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص . قال : سمعتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول :

إِنَّ آلَ أَبِي طَالِبٍ لَيَسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ

الْمُؤْمِنِينَ .^١

١- روى أبو رية في كتابه «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ١٧٦ و ١٧٧ ، الطبعة ٥

قال : وأما أبو هريرة فروى عنه الحديث الذي معناه أن علياً عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله فأسخطه ، فخطب صلى الله عليه وآله على المنبر ، وقال :

لَا هَا لِلَّهِ لَا تَجْتَمِعُ ابْنَةٌ وَلِيِّ اللَّهِ وَابْنَةٌ عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ . إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِنِي مَا يُؤْذِيهَا ! فَإِنْ كَانَ عَلِيٌّ يُرِيدُ ابْنَةَ أَبِي جَهْلٍ فَلْيَفَارِقْ ابْنَتِي وَلْيَفْعَلْ مَا يُرِيدُ .

قال : والحديث مشهور في رواية الكرابيسي . قال : قلت : وهذا الحديث مخرج أيضاً في «صحيح مسلم» و«البخاري» عن المسور بن مخرمة الزهري . فقد ذكره المرتضى في كتابه المسمى «تنزيه الأنبياء والأئمة» وذكر أنه من رواية حسين الكرابيسي ، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام وعداوتهم والمناصبه لهم فلا تقبل روايته .^١

قال أبو رية : لكي يدروا التهم عن بعض الصحابة الذين فتنتهم الدنيا أوردوا حديثاً يقول : **أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بَأْيِهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ** . وهذا الحديث لا أصل له . ولهذا الحديث قصة جرت بيني وبين الناصبي محب الدين الخطيب . فإنه عندما ظهر كتابي «الأضواء» واطلع فيه على فصل «عدالة الصحابة» قابلني غاضباً ، وقال : كيف تذكر ذلك بعد أن قال فيهم النبي صلى الله عليه وآله : **أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ** - الحديث .

⇨ الثانية، هذه الرواية عن أبي جعفر الإسكافي وأضاف في ذيلها : أما أبو هريرة ، فلم يقف عند وضع الأحاديث في الطعن في عليٍّ وإنما زاد من وضع أحاديث ترفع من شأن آل أبي العاص عامة ومعاوية خاصة ، وسترى ذلك قريباً . هؤلاء بعض من ظاهروا معاوية بألسنتهم ورواياتهم التي نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وآله . أما الذين ناصرُوا معاوية بسيوفهم أُلوف عديدة . ومنهم وأسفاً من الصحابة كثيرون .

١- «النص والاجتهاد» ص ٣٥٤ ، الطبعة الثانية ، صور ، لبنان ، سنة ١٣٨٠ هـ .

فقلت له : إنك قد أوردت هذا الحديث في تعليقاتك على كتاب «المنتقى» للذهبي ص ٧١ على أنه صحيح وقد طعنوا فيه ، ومن كبار الطاعنين ابن تيمية فاشتد غضبه ، وقال : في أي موضع هذا الطعن ؟! فقلت له : في نفس كتابك «المنتقى» ! فكاد يتمييز من الغيظ ، وقال : في أي صفحة ؟ قلت له : في صفحة (٥٥١) وفيها يقول ابن تيمية : وَحَدِيثُ أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ ، ضَعَفَهُ أئِمَّةُ الْحَدِيثِ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ . وما كاد يقرأ هذا الكلام الذي أثبتته هو بنفسه في كتاب حقه ونشره بين الناس حتى بُهت واصفرّ وجهه . وقد قلت له قبل أن أغادر مجلسه : إن كتاب «المنتقى» هذا سيسجل عليك هذا الجهل وهذه الوصمة إلى يوم القيامة !^١

وبمناسبة التشيع لمعاوية والتقرّب إليه برواية أحاديث مكذوبة على النبي صلى الله عليه وآله ترفع من شأنه نسوق إليك حديثاً رواه مسلم في صحيحه !! معناه :

أنّ أبا سفيان بن حرب طلب من النبي صلى الله عليه وآله أن يزوجه ابنته أمّ حبيبة وأن يجعل معاوية كاتباً بين يديه ... إلى آخر الحديث . وقد ذكر أئمة الحديث أنّ هذا الحديث باطل بالإجماع لأنّ أبا سفيان قد دخل في الإسلام يوم فتح مكة بالإجماع ، أمّا ابنته أمّ حبيبة - واسمها رملة - فقد أسلمت قبل الهجرة وحسّن إسلامها ، وكانت ممّن هاجر إلى الحبشة هرباً

١- قال أبو رية في كتاب «أضواء على السنة المحمّدية» ص ٣٤٤ ، الطبعة الثالثة: وقال الغزالي في «المستصفى» : وزعم قوم أنّ حالهم كحال غيرهم في لزوم البحث ... وقال قوم: حالهم العدالة في بداية الأمر إلى ظهور الحرب والخصومات ، ثمّ تغيّرت الحال وسفكت الدماء ، فلا بدّ من البحث . وممّا يتكئ عليه من يعتقدون عدالة جميع الصحابة قولهم: إنّ رسول الله قال : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وفي رواية: فأَيُّهم أخذتم بقوله ... ولكن هذا الحديث باطل لا أصل له .

من أيها ، وقد تزوجها رسول الله وأبوها كافر . ولما بلغه هذا الزواج ، قال كلمته المشهورة : **ذَلِكَ الْفَحْلُ لَا يُجَدَعُ أَنْفُهُ** (ص ١٦ من «تفسير سورة الإخلاص» لشيخ الحنابلة ابن تيمية والذي يلقب عند الجمهور بشيخ الإسلام) .^١

ولم يكن ما قدم أبو هريرة لمعاوية جهاداً بسيفه أو بماله ، وإنما كان جهاده أحاديث ينشرها بين المسلمين يخدل بها أنصار عليّ ويظعن فيها عليه ، ويجعل الناس يبرؤون منه ، ويشيد بفضل معاوية ودولته . وقد كان ممّا رواه أحاديث في فضل عثمان ومعاوية وغيرهما ممن يمتّ بأواصر القُربى إلى آل أبي العاص وسائر بني أمية .

روى البيهقي عنه أنه لما دخل دار عثمان وهو محصور ، استأذن في الكلام . ولما أذن له قال : **إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي فِتْنَةً وَاخْتِلَافًا . فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ : فَمَنْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! أَوْ مَا تَأْمُرُنَا ؟! فَقَالَ : عَلَيْكُمْ بِالْأَمِينِ وَأَصْحَابِهِ ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عِثْمَانَ .**^٢ وقد أورده أحمد بسند جيّد .

ولما نسخ عثمان المصاحف دخل عليه أبو هريرة ، فقال :
أَصَبْتَ وَوَفَّقْتَ ! أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : إِنَّ أَشَدَّ أُمَّتِي حُبًّا لِي قَوْمٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي ، يَعْمَلُونَ^٣ بِمَا جَاءَ فِي

١- «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ١٧٧ و ١٧٨ ، الطبعة الثانية . **قَدَعَ الْفَحْلَ أَنْفَهُ بِالرُّمْحِ ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ غَيْرَ كَرِيمٍ .** فتفيد كلمة أبي سفيان إذن أنّ محمداً شجاع لا يجدع أنفه بالرّمح ، أي : هو رجل كريم ذو فتوة وكرامة .

٢- وذكر أبو رية هذا الحديث أيضاً عن البيهقي ، عن أحمد بسند جيّد في كتاب «شيخ المضيرة» ص ٢٠٦ ، الطبعة الثانية .

٣- **يُصَدِّقُونَ** (في الطبعة الثالثة ص ٢٢٩) .

الْوَرَقِ الْمُعَلَّقِ . فَقُلْتُ : أَيُّ وَرَقٍ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَصَاحِفَ .^١

قال : فأعجب ذلك عثمان ، وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف .

وهذا الحديث من غرائبه ، وهو ينطق ولا يريب بأنه ابن ساعته .

ومما وضعه في معاوية ما أخرجه الخطيب عنه : ناول النبي صلى الله

عليه وآله معاوية سهماً ، فقال :

حُذِّ هَذَا السَّهْمَ حَتَّى تَلْقَانِي بِهِ فِي الْجَنَّةِ .

وأخرج ابن عساكر ، وابن عدي ، والخطيب البغدادي عنه : سمعت

رسول الله يقول : إِنَّ اللَّهَ أَتَمَّنَ عَلَيَّ وَحِيهِ ثَلَاثَةٌ : أَنَا وَجَبْرِيلُ وَمُعَاوِيَةُ .

في رواية أخرى عن أبي هريرة مرفوعاً : الْأَمْنَاءُ ثَلَاثَةٌ : جِبْرِيلُ وَأَنَا

وَمُعَاوِيَةُ .^٢

ونظر أبو هريرة إلى عائشة ابنة طلحة وكانت مشهورةً بالجمال الفائق

فقال :

سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا أَحْسَنَ مَا عَدَاكَ أَهْلُكَ ! وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ وَجْهًا أَحْسَنَ

مِنْكَ إِلَّا وَجْهَ مُعَاوِيَةَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ .^٣

والأخبار في ذلك كثيرة . ولقد بلغ من مناصرته لبني أمية أنه

كان يحث الناس على ما يطالب به عمالهم من صدقات ، ويحذرهم أن

يسبّوهم .^٤

ومع أننا نلاحظ آلاف الأحاديث الموضوعة في كتب العامة عن أبي

١- «البداية والنهاية» لابن كثير ، ج ٧ ، ص ٢١٦ .

٢- «البداية والنهاية» لابن كثير ، ج ٨ ، ص ١٢٠ .

٣- «العقد الفريد» ج ٦ ، ص ١٠٩ .

٤- «أضواء على السنة المحمدية» ص ٢١٤ و٢١٥ ، الطبعة الثالثة .

هريرة ، وذهب البعض إلى أنها بلغت (٥٣٧٤) ، هلموا لننظر كم عدد الأحاديث المأثورة عن أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين ويعسوب المسلمين؟!

قال أبو رية : أوّل من أسلم وترى في حجر النبي وعاش تحت كنفه من قبل البعثة وظلّ معه إلى أن انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى لم يفارقه لا في سفر ولا في حضر وهو ابن عمّه وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، شهد المشاهد كلّها سوى تبوك فقد استخلفه النبي فيها على المدينة . فقال : يا رسول الله ! أتخلفني في النساء والصبيان ؟ فقال رسول الله : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبيّ بعدي ؟

هذا الإمام الذي لا يكاد يضارعه أحد من الصحابة جميعاً في العلم قد أسندوا له كما روى السيوطي (٥٨) حديثاً . وقال ابن حزم : لم يصحّ منها إلا خمسون حديثاً لم يرو البخاريّ ومسلم منها إلا نحواً من عشرين حديثاً^١ . قال المحقق الخبير والعالم البصير السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي :

افتري أبو هريرة افتراءات قبيحة على النبيّ ونسب إليه كلمات غير صحيحة من خلال التغطية على جرائم مروان ومعاوية وأوليائهما كي يجعلهم مثل النبيّ في الخطأ ويجعل معاصيهم وجرائمهم قابلةً للعفو والتغاضي . وبعبارةٍ أخرى : أتّهم النبيّ حفظاً لكرامة معاوية ومروان . نقل آية الله العامليّ عن أبي هريرة أنّه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول :

اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ . فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتَهُ

١- «الأضواء» ص ٢٢٤ و ٢٢٥ ، الطبعة الثالثة .

أَوْ سَبَبْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَّهُ وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
وقد عمل مروان وبنوه في تعداد أسانيد أبي هريرة وتكثير طرقه
أعمالاً جبّارة لم يألوا فيها جهداً ، ولم يدّخروا وسعاً ؛ حتى أخرج أصحاب
الصحاح والسنن والمسانيد .^١

أجمع أهل الحديث - كما في ترجمته من «الإصابة» وغيرها على أنه
أكثر الصحابة حديثاً ، وقد ضبطت الجهابذة من الحفظلة الأثبات حديثه ، فكان
خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين مسنداً . وله في البخاريّ فقط
أربعمائة وستة وأربعون حديثاً .

وقد نظرنا في مجموع ما روى من الحديث عن الخلفاء الأربعة
فوجدناه بالنسبة إلى حديث أبي هريرة وحده أقلّ من السبعة والعشرين
في المائة ، لأنّ جميع ما روى عن أبي بكر إنّما هو مائة واثنان وأربعون
حديثاً ، وكلّ ما أسند إلى عمر إنّما هو خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً ،
وكلّ ما لعثمان مائة وستة وأربعون حديثاً ، وكلّ ما روه عن عليّ خمسمائة
وستة وثمانون مسنداً فهذه ألف وأربعمائة وأحد عشر حديثاً ، فإذا نسبتها
إلى حديث أبي هريرة وحده (وقد عرفت أنه ٥٣٧٤) تجد الأمر كما قلناه !^٢
وقال السيّد شرف الدين أيضاً : لو صحّ ما زعمه أبو هريرة من دعاء
النبيّ له ولأمّته بأن يحبّهما إلى المؤمنين ويحبّب المؤمنين إليهما لأحبّه
أهل بيت النبوة وموضع الرسالة فإنّهم سادة المؤمنين وقادة أهل الملة

١- «أبو هريرة» للسيّد شرف الدين ، ص ٤٣ إلى ٤٥ ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٤ هـ -
النجف الأشرف .

٢- «أبو هريرة» للسيّد شرف الدين ، ص ٤٦ ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٤ هـ -النجف
الأشرف .

والدين . فما بال أئمتهم الاثني عشر وسائر علمائهم يردلونهُ ويُسقطون حديثه ولا يابهون بشيء مما انفرد به ؟ حتى قال أمير المؤمنين ^١ عليه السلام : **أَلَا إِنَّ أَكْذَبَ النَّاسِ - أَوْ قَالَ : أَكْذَبُ الْأَحْيَاءِ - عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَبُو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ !** ^٢

على هذا الأساس ينقل العامة أحاديث أبي هريرة وأمثاله في كتبهم ويعدونها من الأحاديث الصحيحة ، ويرون أنّ صحاحهم - كـ «صحيح البخاري» و«مسلم» - مشحونة بها وباعتبارها .

ولمّا ثبت بطلان وكذب ودغل أبي هريرة ، وعكرمة ، والمغيرة ، وعروة بن الزبير ، وكعب ، وأمثالهم . ووجدنا أنّ هؤلاء يشكّلون معظم المصادر الأصلية لأحاديث العامة ، فلا شأن ولا وزن لكتبهم ، ودُمّر صرح وهمهم وخيالهم .

وهذه حقيقة اعترف بها كثير من الناقدين والباحثين في مغزى الأحاديث ومتونها كالدكتور أحمد أمين ، والسيد محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد عبده ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد توفيق صدقي ، والشيخ محمود أبو ريّة وتحدّثوا بالتفصيل عن سقم أخبار الصحيحين ونظائرهما إجمالاً .

قال أبو ريّة : ومن الذين انتقدوا أحاديث أبي هريرة في هذا العصر

١- في هذا المعنى أخبار متواترة عن أئمة العترة الطاهرة . وقد أرسل هذه الكلمة عن أمير المؤمنين عليه السلام بالخصوص إمام المعتزلة أبو جعفر الإسكافي كما في ص ٣٦٠ من المجلد الأول من «شرح النهج» الحميدي .

٢- «أبو هريرة» للسيد شرف الدين ص ١٥٩ و ١٦٠ . ونقله أبو ريّة أيضاً في «شيخ المضيرة» ص ١١٩ .

هم (هؤلاء) .^١

قال السيّد محمّد رشيد رضا : ... وممّا لا شكّ فيه أيضاً أنّه يوجد في غيرهما («صحيح البخاريّ» و«مسلم») من دواوين السنّة أحاديث أصحّ من بعض ما فيهما

ولكنّه («صحيح البخاريّ») لا يخلو من أحاديث قليلة في متونها نظر قد يصدق عليه بعض ما عدّوه من علامة الوضع ، كحديث سحر بعضهم للنبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم الذي أنكره بعض العلماء كالإمام الجصاص من المفسّرين المتقدّمين ، والأسّاذ الإمام محمّد عبده من المتأخّرين لأنّه معارض بقوله تعالى :

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .^٢

هذا وإنّ في البخاريّ أحاديث في أمور العادات والغرائز ليست من أصول الدين ولا فروعه .

فإذا تأملتم هذا وذاك علمتم أنّه ليس من أصول الإيمان ولا من أركان الإسلام أن يؤمن المسلم بكلّ حديث رواه البخاريّ مهما يكن موضوعه ، بل لم يشترط أحد في صحّة الإسلام ولا في معرفته التفصيليّة الاطلاع على «صحيح البخاريّ» والإقرار بكلّ ما فيه .

وعلمتم أيضاً أنّ المسلم لا يمكن أن ينكر حديثاً من هذه الأحاديث بعد العلم به إلاّ بدليل يقوم عنده على عدم صحّته متناً أو سنداً . فالعلماء الذين أنكروا صحّة بعض هذه الأحاديث لم ينكروها إلاّ بأدلة قامت عندهم

١- «شيخ المضيرة» ص ١٣٢ .

٢- الآيتان ٤٧ و ٤٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

قد يكون بعضها صواباً وبعضها خطأً . ولا يُعدّ أحدهم طاعناً في دين الإسلام .^١

وَمَا كَلَّفَ اللَّهُ مُسْلِمًا أَنْ يَقْرَأَ «صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» وَيُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَهُ ، أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يُنَافِي أُصُولَ الْإِسْلَامِ .

سبحان الله ! يقول ملايين المسلمين من الحنفية : إن رفع اليدين عند الركوع والقيام منه مكروه شرعاً . وقد رواه البخاري في صحيحه وغير صحيحه عن عشرات من الصحابة بأسانيد كثيرة جداً ، ولا إثم عليهم ولا حرج ، لأن إمامهم لم يصحّ عنده لأنه لم يطلع على أسانيد البخاري فيه . وكلّ من اطّلع من علماء مذهبه عليها يوقن بصحتها . ثم يكفّر مسلم من خيار المسلمين علماً وعملاً ودفاعاً عن الإسلام والدعوة إليه ،^٢ بدليل أو شبهة على صحة حديث رواه البخاري عن رجل يكاد يكون مجهولاً واسمه يدلّ على أنه لم يكن أصيلاً في الإسلام وهو عبد بن حنين . وموضوع متنه ليس من عقائد الإسلام ولا من عباداته ولا من شرائعه ، ولا التزم المسلمون العمل به .

بل ما من مذهب من مذاهب المقلدة إلا وأهله يتركون العمل ببعض ما صحّ عند البخاري وعند مسلم أيضاً من أحاديث التشريع المروية عن كبار أئمة الرواة لعلل اجتهادية أو لمحض التقليد .

وقد أورد المحقق ابن القيم أكثر من مائة شاهد على ذلك في كتابه «أعلام الموقعين» ، وهذا المكفّر للدكتور منهم^٣ (ولا يعمل بكثير من أخبار

١- «المنار» ج ٢٩ ، ص ١٠٤ و ١٠٥ .

٢- هذا المسلم هو الدكتور محمد توفيق صدقي ، وكان قد طعن في حديث الذباب فكفّره شيوخ الأزهر بذلك كما هي عادتهم .

٣- «الأضواء» ص ٣٠٤ إلى ٣٠٦ .

البخاريّ ومسلم) .

وهاك كلمةً للمسيو أميل درمنغهم ، قالها في كتاب «حياة محمّد» :
 إنّ من المنابع الأولى لسيرة محمّد القرآن والسنة . فالقرآن هو
 أوثقها سنداً ولكنّه غير شامل الشمول الكافي في هذا الموضوع ، وأمّا
 الحديث فبرغم جميع ما تحرّاه المحدثون لا سيّما البخاريّ في جمع أقوال
 الرسول والإحاطة بأقلّ إشارة من إشاراتهِ وترجمة الرجال الذين روي عنهم
 الحديث مسلسلًا ومعنعنًا لا يزال فيه كثير ممّا هو محلّ للتهمة وممّا هو
 موضوع ... إلى آخره .

وعلق الأمير شكيب أرسلان على كلام درمنغهم بقوله :

... هو غير معتقد بصحّة كثير من الأحاديث حتّى الوارد منها في
 الصحيحين . وهذا مشرب من المشارب الفكرية لا نقدر أن نؤاخذه عليه
 لا سيّما أنّ كثيرين من المسلمين ، ومن ذوي الحميّة الإسلاميّة وممّن
 لا ينقصهم شيء من الإيمان والإيقان يشاركون المسيو درمنغهم في هذا
 الرأي ... ولا يرون من الواجب الدينيّ الإيمان بكلّ ما جاء في الصحيحين
 وغيرهما من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرّق إليها التبديل والتغيير ، أو
 دخلها الزيادة والنقصان ، إذ من المعلوم أنّهم كانوا يروون الأحاديث
 بالمعنى . وإذا روي الحديث بالمعنى لم يخل الأمر من أن تتطرّق إليه
 زيادات كثيرة قد يتغيّر بها المعنى أو يبعد عن أهله ، إلى أن قال :

والأدلة التي تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر
 الأحاديث ولزوم التوقّف في كثير ممّا يسارع الناس فيه هي ما يلي :
 أولاً : عدم إمكان رواية الأحاديث إلاّ النادر الأندر بدون زيادة أو
 نقصان ممّا يعرفه كلّ إنسان من نفسه ، وذلك أنّه إذا أراد أن يُعيد كلاماً
 سمعه ولو بعد سماعه إيّاه بساعةٍ من الزمن تعذّر عليه سرده بحرفه .

ثانياً : كونهم يقولون : إنّ ما لا يكاد يُحصى من الأحاديث مروى بالمعنى ، فيتغيّر فيه كثير من اللفظ .
ثالثاً : جواز السهو والنسيان ممّا لا يخلو منه إنسان ولا يمكن الجدل فيه أصلاً .

رابعاً : كون النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه أشار إلى وضع الأحاديث عليه في أيامه وأنّه من أوثق الأحاديث قوله :
لَقَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذَابَةُ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَبْتَوُا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ .^١
ثمّ قال : ولا يزال الشكّ يحوم حول أحاديث كثيرة واردة في الصحاح ، وهذا الشكّ ليس من جهة عدم الأمانة في النقل ولكن من جهة عدم استطاعة البشر إلّا ما ندر من رواية كلّ ما يسمعون به بحرفه ، أو من وصف كلّ حادثة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان ، وقد يكون اثنان في حادثة من الحوادث ويرويها كلّ واحد منهما بشكل يختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .^٢

هذا المورد الرابع في غاية الأهميّة أي : الكذب على النبيّ . لهذا ينبغي ألاّ نكتفي بالنظر في سند الحديث للوقوف على صوابه وسقمه ، بل لابدّ من النظر أيضاً في متنه ومضمونه . ومن المؤسف أنّ صحاح العامة لا تنظر إلى عدالة الرواة (لأنّهم جميعاً عدول عندهم) بل لا تنظر أيضاً إلى متن الحديث ومضمونه ، ولهذا تُلاحظ فيها كثيراً أخبار يخالف محتواها

١- يثبت الشيخ محمود أبو رية بقاطعة أنّ هذا الحديث هو بلفظه المذكور فحسب ، وليس فيه كلمة (متعمداً) . وهذه الكلمة من إضافات الرواة ليجعلوا كذبهم على النبيّ سهوياً لاعمدياً .

٢- انظر : «حاضر العالم الإسلامي» ج ١ ، ص ٤٤ إلى ٥١ ؛ و«أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ٣٢٠ و ٣٢١ ، الطبعة الثالثة .

العقل والعلم والشهود والوجدان . منها الأحاديث التي اختلقها أبو هريرة .
وننقل فيما يأتي عدداً منها :

الأوّل : طواف سليمان بمائة امرأة في ليلة !

أخرج الشيخان بالإسناد إلى أبي هريرة مرفوعاً قال : قال سليمان بن داود : لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة ! تكلّ امرأةً غلاماً يقاتل في سبيل الله ! فقال له المَلَكُ : قل : إن شاء الله ، فلم يقل !! فأطاف بهنّ ، فلم تلد منهنّ إلّا امرأة نصف إنسان !

قال أبو هريرة : قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : لو قال : إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته .

قال السيّد عبد الحسين شرف الدين بعد نقل هذا الحديث : وفي هذا أيضاً نظر من وجوه :

أحدها : أنّ القوّة البشريّة لتضعف عن الطواف بهنّ في ليلة واحدةٍ مهما كان الإنسان قوياً . فما ذكره أبو هريرة من طواف سليمان عليه السلام بهنّ مخالف لنواميس الطبيعة لا يمكن عادةً وقوعه أبداً .

ثانيها : أنّه لا يجوز على نبيّ الله تعالى سليمان عليه السلام أن يترك التعليق على المشيئة ، ولا سيّما بعد تنبيه المَلَكِ إياه إلى ذلك . وما يمنعه من قول : إن شاء الله ، وهو من الدعاة إلى الله والأدلاء عليه ؟ وإنّما يتركها الغافلون عن الله عزّ وجلّ ، الجاهلون بأنّ الأمور كلّها بيده . فما شاء منها كان وما لم يشأ لم يكن .

وحاشا أنبياء الله عن غفلة الجاهلين . إنهم عليهم السلام لفوق ما يظنّ المخرّفون .

ثالثها : أنّ أبا هريرة قد اضطرب في عدّة نساء سليمان ، فتارة روى

أنهنّ مائة امرأة،^١ وتارة روى أنهنّ تسعون،^٢ وتارة روى أنهنّ سبعون،^٣ وتارة روى أنهنّ ستون.^٤ وهذه الروايات كلّها في صحيحَي البخاريّ ومسلم و«مسند أحمد». فما أدري ما يقوله فيها المعتذرون عن هذا الرجل (أبي هريرة)؟! أيقولون: إنّ هذه الحادثة تكرّرت من سليمان مع زوجاته؟ وكنّ مرّة مائة، ومرّة كنّ تسعين، ومرّة سبعين، وأخرى ستين! وفي كلّ مرّة يئبّه المَلِكُ فلا يقول، ما أظنهم يقولون بهذا. ولو قالوا: قَدْ اتَّسَعَ الحَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ، لكان أولى بهم. وفي المثل السائر: لَيْسَ لِكُذُوبٍ حَافِظَةٌ.^٥

الثاني: لطم موسى عينَ ملك الموت.

أخرج الشيخان في صحيحيهما بالإسناد إلى أبي هريرة قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليهما السلام فقال له: أَجِبْ رَبَّكَ! قال: فاطم

١- وقد أخرجه البخاريّ في باب قول الرجل: لأطوفنّ الليلة على نسائي في آخر ص ١٧٦ من الجزء الثالث من صحيحه، في الورقة الأخيرة من كتاب النكاح. وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة ص ٢٢٩ و ٢٧٠ من الجزء الثاني من مسنده.

٢- كما أخرجه البخاريّ عنه في ص ١٠٧ من الجزء الرابع من صحيحه، في باب الاستثناء في الإيمان، من كتاب الإيمان والنذور.

٣- كما أخرجه البخاريّ بالإسناد إليه في ص ١٦٥ من الجزء الثاني من صحيحه في باب قوله تعالى: وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. (الآية ٣٠، من السورة ٣٨:ص).

٤- كما أخرجه مسلم بالإسناد إليه في باب الاستثناء من كتاب الإيمان، ص ٢٣ من الجزء الثاني من صحيحه، وأخرج مسلم أيضاً في ذلك الباب نفسه حديثاً من طريق آخر عن أبي هريرة أنهنّ سبعون، وأخرج فيه من طريق ثالث أنهنّ تسعون فراجع.

٥- «أبو هريرة» للسيد شرف الدين، ص ٦٩ و ٧٠، الطبعة الثالثة.

موسى عين ملك الموت ففقأها . قال : فرجع المَلَك إلى الله تعالى ، فقال : إنَّك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت ففقأ عيني . قال : فردَّ الله إليه عينه وقال : ارجع إلى عبدي فقل : الحياة تريد ، فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت بيدك من شعرة فإنَّك تعيش بها سنة - الحديث ^١ . وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة في مسنده ^٢ وفيه : إنَّ ملك الموت كان يأتي الناس عياناً : قال : فأتى موسى فلطمه ففقأ عينه - الحديث .

وأخرجه ابن جرير الطبري في الجزء الأوَّل من تاريخه ^٣ عن أبي هريرة ولفظه عنده : أنَّ ملك الموت كان يأتي الناس عياناً حتَّى أتى موسى فلطمه ففقأ عينه وفي آخره : أنَّ ملك الموت جاء إلى الناس خفياً بعد موت موسى ^٤ .

وأنت ترى ما فيه ممَّا لا يجوز على الله تعالى ، ولا على أنبيائه . ولا على ملائكته ، أيليق بالحقِّ تبارك وتعالى أن يصطفي من عباده من

١- أوردناه بلفظ مسلم وقد أخرجه عن أبي هريرة بطرق كثيرة في باب فضائل موسى من كتاب الفضائل من صحيحه ص ٣٠٩ ، من الجزء الثاني ، وأخرجه البخاري في باب وفاة موسى من كتاب بدء الخلق بعد حديث الخضر بأقل من صفحتين من صحيحه ، فراجع ص ١٦٣ من الجزء الثاني ، وأخرجه أيضاً في باب من أحبَّ الدفن في الأرض المقدَّسة من أبواب الجنائز من صحيحه ، فراجع ص ١٥٨ من الجزء الأوَّل .

٢- «مسند أحمد» ج ٢ ، ص ٣١٥ .

٣- وذلك حيث ذكر وفاة موسى في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» .

٤- لو أنَّ ملك الموت كان يأتي عياناً قبل وفاة موسى لطفحت به الأخبار واشتهر اشتهاً الشمس في رابعة النهار فما بال المحدثين والمؤرِّخين وأهل الأخبار من جميع الأمم أغفلوا هذا الخبر لو كان له أثر ؟ وما بال القصاصين والمخرِّفين ما حام خيالهم حوله ، فهل تركوا الامتياز به لأبي هريرة؟!

يبطش على الغضب بطش الجبارين؟ ويوقع بأسه حتى في ملائكة الله المقربين؟ ويعمل عمل المتمردين؟ ويكره الموت كراهة الجاهلين؟ وكيف يجوز ذلك على موسى، وقد اختاره الله لرسالته واثمنه على وحيه، وآثره بمناجاته، وجعله من سادة رُسُلِهِ؟! وكيف يكره الموت هذا الكُره مع شرف مقامه، ورغبته في القرب من الله تعالى والفوز بلقائه؟ وما ذنب ملك الموت عليه السلام؟ وإِنَّمَا هو رسول الله إليه وبما استحقَّ الضرب والمثلة فيه بقلع عينه؟ وما جاء إلا عن الله وما قال له سوى: أجب ربك؟ أيجوز على أولي العزم من الرسل إهانة الكروبيين من الملائكة وضربهم حين يبلغونهم رسالات الله وأوامره عزَّ وجلَّ؟ تَعَالَى اللَّهُ وَتَعَالَتْ أَنْبِيَؤُهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

ونحن لِمَ برئنا من أصحاب الرس، وفرعون موسى، وأبي جهل، وأمثالهم ولعناهم بكره وأصيلاً؟ أليس ذلك لأنهم آذوا رسل الله حين جاؤوهم بأوامره فكيف نجوز مثل فعلهم على أنبياء الله وصفوته من عباده؟

حَاشَا لِلَّهِ إِنَّ هَذَا لَبُهْتَانٌ عَظِيمٌ!

ثم إنَّ من المعلوم أنَّ قوَّة البشر بأسرهم، بل قوَّة جميع الحيوانات منذ خلقها الله تعالى إلى يوم القيامة لا تثبت أمام قوَّة ملك الموت فكيف - والحال هذه - تمكَّن موسى عليه السلام من الوقعة فيه؟ وهلَّا دفعه الملك عن نفسه؟ مع قدرته على إزهاق روحه، وكونه مأموراً عن الله تعالى بذلك. ومتى كان للملك عين يجوز أن تُفَقَّ؟!!

ولا تنسَ تضييع حقِّ المَلَكِ وذهاب عينه! ولطمته هدرًا؟ إذ لم يؤمر الملك من الله بأن يقتصَّ من موسى صاحب التوراة التي كتب الله فيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ

وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ^١.

ولم يعاتب الله موسى على فعله هذا بل أكرمه إذ خيَّره بسببه بين الموت والحياة سنين كثيرة بقدر ما تواريه يده من شعر الثور . وما أدري والله ما الحكمة في ذكره شعر الثور بالخصوص ؟! أما وعزة الحق ، وشرف الصدق ، وعلوهما على الباطل والإفك لقد حمّل هذا الرجل أولياءه ما لا طاقة لهم به ، وكلفهم بأحاديثه هذه بما لا تحتمله عقولهم أبداً ولا سيّما قوله في هذا الحديث : إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ قَبْلَ وَاةِ مُوسَى كَانَ يَأْتِي النَّاسَ عِيَانًا ، وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ خَفِيًّا بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى . نعوذ بالله من سبات العقل وخطل القول والفعل . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ^٢.

الثالث : فرار الحجر بثياب موسى وعدوّ موسى خلفه ونظر بني إسرائيل إليه مكشوفاً .

أخرج الشيخان في صحيحيهما بالإسناد إلى أبي هريرة قال : كان بنو إسرائيل يغتسلون عراءً ينظر بعضهم إلى سواة بعض . وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر (أي : ذو فتق) قال : فذهب مرّة يغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه . فجمع موسى بأثره يقول : **تَوْبِي حَجْرٌ ! تَوْبِي حَجْرٌ !** حتى نظر بنو إسرائيل إلى سواة موسى فقالوا : والله ما بموسى من

١- إشارة إلى الآية ٤٥ ، من السورة ٥ : المائدة . وقد وجدنا في الفقرة (٢٣) من الإصحاح (٢١) من إصحاحات الخروج من التوراة الموجودة في أيدي اليهود والنصارى في هذه الأيام ما هذا لفظه : **إِنْ حَصَلَتْ أذِيَّةٌ تُعْطِي نَفْسًا بِنَفْسٍ وَعَيْنًا بِعَيْنٍ وَسِنًّا بِسِنٍّ وَيَدًا بِيَدٍ وَرِجْلًا بِرِجْلٍ وَكَيْبًا بِكَيٍّْ وَجَرْحًا بِجَرْحٍ وَرَضًّا بِرَضٍّ .**

٢- «أبو هريرة» للسيّد شرف الدين ، ص ٧٠ إلى ٧٢ .

بأس . فقام الحجر بعد حتى نظر إليه فأخذ موسى ثوبه فطفق بالحجر ضرباً .
فوالله إنَّ بالحجر ندباً ستّة أو سبعة - الحديث .^١
وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنّ هذه الواقعة هي التي أشار الله
إليها بقوله عزّ من قائل :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا
قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا .^٢

وأنت ترى ما في هذا الحديث من المحال الممتنع عقلاً فإنّه لا يجوز
تشهير كليم الله عليه السلام بإبداء سواته على رؤوس الأشهاد من قومه ،
لأنّ ذلك ينقصه ويسقط من مقامه ، ولا سيّما إذا رآوه يشتدّ عارياً ينادي
الحجر ، وهو لا يسمع ولا يبصر : تَوْبِي حَجْرٌ ! تَوْبِي حَجْرٌ !

ثمّ يقف عليه وهو عاري أمام الناس فيضربه والناس تنظر إليه
مكشوف العورة كالمجنون ! وهذه الحركة لو صحّت فإنّما هي من فعل الله
تعالى فكيف يغضب منها كليم الله فيعاقب الحجر عليها ؟! وما هو إلّا
مقسور على الحركة ، وأيّ أثر لعقوبة الحجر ؟

ثمّ إنّ هربه بثياب موسى عليه السلام لا يبيح له إبداء عورته ، وهتك
نفسه ذلك وقد كان في إمكانه أن يبقى في مكانه حتى يؤتى بثيابه أو بساتر
غيرها كما يفعله كلّ ذي لُبِّ إذا ابتلى بمثل هذه القصة .

١- أوردناه بلفظ مسلم ، إذ أخرجه عن أبي هريرة بطرق كثيرة فراجع باب فضائل
موسى ، ص ٣٠٨ من الجزء الثاني من صحيحه . وأخرجه البخاري في الباب الذي هو بعد
حديث الخضر من صحيحه ، ص ١٦٢ من الجزء الثاني ، وفي ص ٤٢ من الجزء الأوّل في
باب من اغتسل عرياناً من كتاب الغسل ، وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة من طرق
كثيرة فراجع ص ٣١٥ من الجزء الثاني من مسنده .

٢- الآية ٦٩ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

على أنّ هرب الحجر من المعجزات وخوارق العادات التي لا تكون إلا في مقام التحدي كمقام انتقال الشجرة في مكة المعظمة لرسول الله صلى الله عليه وآله حين اقترح عليه المشركون ذلك فنقلها الله عز وجل من مكانها تصديقاً لدعوته وتثبيتاً لنبوته صلى الله عليه وآله ، ومن المعلوم أنّ مقام موسى عليه السلام وهو يغسل لم يكن مقام تحدّ وتعجيز فلا تقع فيه المعجزات وخوارق العادات ولا سيما إذا ترتب عليهما فضيحة نبي الله بإبداء سوأته للملأ من قومه على وجه يستخفّ به كلّ من رآه وكلّ من سمع بخبره هذا . وأمّا براءته من الأذرة فليست من الأمور التي يباح في سبيلها هتكه وتشهيره ولا هي من المهمّات التي تصدر بسببها الآيات ، إذ يمكن العلم ببراءته منها بسبب اطلاع نسائه عليه ؛ وإخبارهن بحقيقة حاله .

ولو فرض ابتلاؤه بالأذرة فأبى بأس عليه بذلك ؟ وقد أصيب شعيب عليه السلام ببصره وأيوب عليه السلام بجسمه ، وأنبياء الله كافة تمرّضوا وماتوا ، ولا يجب انتفاء مثل هذه العوارض عن أنبياء الله ورسله ، ولا سيما إذا كانت مستورة عن الناس كالأذرة ، نعم لا يجوز عليهم ما يوجب نقصاً في مداركهم أو في مروءتهم أو يوجب نفرة الناس عنهم واستخفافهم بهم . والأذرة ليست في شيء من ذلك . على أنّ القول بأنّ بني إسرائيل كانوا يظنون أنّ في موسى أذرة لم يُنقل إلا عن أبي هريرة .

أمّا الواقعة التي أشار الله إليها بقوله عزّ من قائل :

يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا . فالمرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وابن عباس أنّها قضية اتّهامهم إياه بقتل هارون ، وهو الذي اختاره الجبائيّ . وقيل : هي قضية المومسة التي أغراها قارون بقذف موسى عليه السلام بنفسها فبرّأه الله تعالى إذ أنطقها بالحقّ . وقيل : آذوه من حيث نسبوه إلى السّحر والكذب

والجنون بعدما رأوا الآيات .

وإني لأعجب من الشيخين يُخرجان هذا الحديث والذي قبله في فضائل موسى . وما أدري أيّ فضيلة بضرب ملائكة الله المقربين وفقء عيونهم عند إرادتهم تنفيذ أوامر الله عزّ وجلّ؟ وأيّ منقبة بإبداء العورة للناظرين؟ وأيّ وزن لهذه السخافات؟

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ وَنَجِيَّةً وَنَبِيَّةً لَأَكْبَرُ مِنْ هَذَا . وحسبه ما صدع به الذكر الحكيم والفرقان العظيم من خصائصه الحسنی عليه السلام .^١

الرابع : حديث لا عدوى ولا طيرة ولا هامة .

روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم

قال :

لا عدوى ولا طيرة ولا هامة .^٢

١- «أبو هريرة» للسيد شرف الدين ص ٧٣ إلى ٧٥ ، الطبعة الثالثة . وأجاب هذا السيد العظيم فقيد العلم نفس الجواب في رسالته «إلى المجمع العلمي بدمشق» ص ٧٢ .
٢- جاء في «أقرب الموارد» : العَدْوَى : الفساد ، وما يُعدي من جَرَبٍ وغيره ، أي : يسري من واحدٍ إلى آخر . والطَّيْرَةُ : ما يتشاءم به من الفال الرديء . والهَامَةُ : طائر صغير من طير الليل يألف المقابر . وقيل : هو الصدى للطائر الذي يخرج من رأس الميت في زعمهم .
ج هامٌ وهامات .

أجل ، الجهلاء يتطيرون ويرون ذلك مؤثراً في أمورهم ، ويتطيرون بالصدى والهامة ، وهو ما لا أصل له وقد قطع النبي دابر ذلك وطلب منّا ألا نهتمّ بكلّ ما يُفْضِي إلى التطيّر ، وأن نمضي في أعمالنا ! ولا حقيقة للتطيّر غير أنّه يمثل النيّة السيئة للنفوس ، وعلى المسلم أن لا يرتب أثراً عليه . إِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ .

وأما العَدْوَى فهي صحيحة ولها حقيقتها ، وتعني انتقال الداء من مريض ملوث بالجراثيم إلى إنسان سالم كالجدري ، والهيضة ، والطاعون ، والجرب ، والتدرن الرئوي ،

وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة، ولكن الصحابة عملوا بما يخالفه. فقد روى البخاري عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم قال:

إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا .

وقد جاء هذا الحديث كذلك عن عبد الرحمن بن عوف . ورواه أيضاً في مرض الوباء . وروى الغزالي في «إحياء العلوم» ج ٤ ، ص ٢٥٠ ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم يقول : إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ .

ولما سمع عمر هذين الحديثين ، وحديث لا يُوردن ممرض على مصحح . وهو مما رواه أبو هريرة كذلك ،^١ وكان قد خرج إلى الشام ، ووجد الوباء ، عاد بمن معه .^٢

وقد اضطرَّ أبو هريرة أمام هذه الأخبار القويّة إلى أن يرجع عمّا

⊞ والتراخوما ، وغيرها من الأمراض المعدية . ويُلزم الإسلام باجتنابها . وكلمة النبي صلى الله عليه وآله لا يُوردن ممرض على مصحح معجزة واضحة توصل إليها العلم الحديث باكتشاف الجراثيم وطريق عدوها من المريض إلى السليم سواء عن طريق الطعام والشراب أم عن طريق الهواء والتنفس أم عن طريق الأشعة فوق البنفسجية . وبلغت هذه الأمور مستوى البدهة . ومن هنا نفهم كم ضرت الإسلام والمسلمين موضوعات أبي هريرة وأمثالها المنسوبة إلى النبي والمختلقة على لسانه ! وكم ضرت العلم والثقافة بأضرارها البالغة !

- ١- رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، ورواية مسلم : لا يورد .
- ٢- في ذهابه إلى الشام سنة ٨ هـ . ولما وصل إلى سرع أخبر بأن الوباء قد وقع بالشام فرجع بالناس .

حدّث ، وأنكر روايته الأولى لآ عَدَوَى .

ولمّا أنكر عليه الحارث بن أبي ذباب (ابن عمّ أبي هريرة) وقال له :
كنتُ أسمعك يا أبا هريرة تحدّثنا مع حديث (لا يورد...) حديث (لا عدوى)
فأنكر معرفته لذلك ! ووقع عند الإسماعيليّ من رواية شعيب . فقال الحارث
(ابن عمّ أبي هريرة) : إنك حدّثتنا !

فأنكر أبو هريرة وقال : لم أُحدّثك ما تقول . ورواية مسلم : ألم
تُحدّث أنّهُ لآ عَدَوَى ؟ صَمَتَ وَرَطَنَ بِالْحَبَشِيَّةِ .^١
أي : إنّه غالط وضيع الموضوع .

الخامس : حديث الذُّباب .

قال أبو رية : روى البخاريّ ، وابن ماجه عن أبي هريرة أنّ النبيّ
صلّى الله عليه وآله قال : إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ فَإِنَّ
فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءٌ وَالْآخِرِ شِفَاءٌ .

ولهذا الحديث ألفاظ مختلفة منها :

فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ سَمٌّ وَفِي الْآخِرِ شِفَاءٌ وَإِنَّهُ يُقَدِّمُ السَّمَّ وَيُؤَخِّرُ
الشِّفَاءَ .

ومنها : إِنَّ تَحْتَ جَنَاحِ الذُّبَابِ الْأَيْمَنِ شِفَاءٌ وَتَحْتَ جَنَاحِ الْأَيْسَرِ
سَمًّا . فَإِذَا سَقَطَ فِي إِنَاءٍ أَوْ فِي شَرَابٍ أَوْ فِي مَرَقٍ فَاغْمِسْهُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَرْفَعُ

١- «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ١٢٥ و ١٢٦ .

وانظر : «فتح الباري» ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ و ١٩٩ ، «جامع ابن وهب» ص ١٠٤ ، الذي نشره
المعهد العلميّ الفرنسيّ بالقاهرة سنة ١٩١٩ م . وفي «أقرب الموارد» : رَطَنَ لَهُ يَرَطُنُ رَطَانَةً
بالفتح ويكسر : كلّمه بالأعجميّة .

عَنْهُ ذَلِكَ الْجَنَاحَ الَّذِي تَحْتَهُ الشِّفَاءُ ، وَيَحْفَظُ الَّذِي تَحْتَهُ السَّمُّ .^١

هذا الحديث قد وجد من نقد الباحثين ما لم يجده حديث آخر ؛ ذلك بأنّ الذباب في نفسه قدر تنفر النفوس من رؤيته . فكيف يأمر النبيّ بغمسه إذا سقط في الإناء الذي فيه طعام أو شراب ثمّ يتعاطون بعد ذلك ما في الإناء !؟

ومنذ سبع عشرة سنة هبّ النطاسيّ البارع الدكتور سالم محمّد يشكّ في هذا الحديث مرتكناً على ما أثبتته الحسّ والعلم ، وأجمع عليه الأطباء قاطبة من ضرر الذباب ، وأنّه أكبر أعداء الإنسان ، لأنّه يسبّب أمراضاً كثيرة فتتك بالملايين من البشر كلّ عام ، فوقف في وجهه شيخ جامد يدرّس - للأسف - الشريعة الإسلاميّة بإحدى الجامعات المصريّة ، فرمى هذا الطبيب الفاضل بالجهل ، وأنّه لم يحترم (البخاريّ المقدّس) .

وقد رأيتُ حينئذٍ إنصافاً للعلم ، وتنزيهاً لمقام النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، وتأييداً لهذا الدكتور الباحث أن أنشر في العدد ٩٦٤ - ٢٤ كانون الأوّل سنة ١٩٥١م من مجلّة «الرسالة» - كلمةً هذا نصّها :

معركة الذباب

قامت في الشهور الأخيرة معركة حامية بين مجلّتي «لواء الإسلام» ، والدكتور حول حديث الذباب . فالأولى تتمسك بهذا الحديث ، وتصرّ على إثباته ، ليأخذ الناس به ، ويصدّقوا بمدلوله ، مرتكنة على أنّ كتب الحديث

١- قال في الهامش : يبدو أنّ أبا هريرة قد ذكر هذا الحديث وهو على إحدى الموائد الفاخرة - إذ كانت الأحاديث تُروى في المناسبات - ورأى ذبابةً وقعت في أحد الأواني وخشي أن يستقذر الآكلون ما فيها فيفوته شهية طعامها ، فقال هذا الحديث .

قد أوردته - ومنها البخاريّ . وأما الثانية فتدفع هذا الحديث وتستبعد صدوره عن النبيّ الذي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ،^١ وحيثها ما أثبتته العلم وحققته التجربة من ضرر الذباب ، وأنه ناقل للعدوى في أمراض كثيرة . وإنّ المرء ليأسى أن يقوم إنسان في هذا العصر الذي زخرت فيه بحار العلم وأخرجت من عجائب المخترعات والمستكشفات ما يُدهش العقول ، وتسبق أهلوها في مضمار ما استطاعوا للانتفاع بما خلق الله لهم وسخره لعلومهم في السماوات والأرض ، متّخذين في ذلك كلّ سبب من أسباب العرفان والتجربة ، فيشغل الناس بهذه الأبحاث العقيمة التي لا تنفع ولا تفيد ، بل هي إلى إساءة الدين أدنى ، وإلى ضرر الناس أقرب ! ولقد كان جديراً بمجلة «لواء الإسلام» ألاّ تسوّد صفحاتها بمثل هذا البحث العقيم الذي يفتح ولا ريب على الدين شبهة يستغلها أعداؤه ، ويتوارى منها أولياؤه ، وأن تدع الأمر في مثل هذا الحديث إلى العلم وتجاربه ، وما وصلت إليه أبحاثه الدقيقة التي لا يمكن نقضها ، ولا يردّ حكمها !

وماذا يضرّ الدين إذا أثبت العلم ما يخالف حديثاً من الأحاديث التي جاءت من طريق الآحاد ؟!

أما الأخبار التي جاءت من طريق الآحاد فإنّها لا تعطي اليقين ، وإنّما تعطي الظنّ الذي لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً .^٢ فللمسلم أن يأخذ بها ويصدّقها إذا اطمأنّ قلبه بها ، وله أن يدعها إذا حاك في صدره شيء منها . وهذا أمر معروف عند النظار ، ولا يعارض فيه إلاّ زوامل الأسفار من الحشوية

١- اقتباس من الآية ٣ ، من السورة ٥٣ : النجم : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ .

٢- الآية ٢٨ ، من السورة ٥٣ : النجم .

الجامدين الذين لا يُقام لهم وزن .

وإذا نحن أخذنا حديث الذباب على إطلاقه ولم نسأط عليه أشعة النقد فإننا نجد من أحاديث الآحاد وهي التي تفيد الظن . فإذا لم يسعنا ذلك في رده بعد أن أثبت العلم بطلانه ، فليسعنا ما وصفه العلماء من قواعد عامة في ذلك ، مثل :

لَيْسَ كُلُّ مَا صَحَّ سَنَدُهُ يَكُونُ مَتْنُهُ صَحِيحًا ، وَلَا كُلُّ مَا لَمْ يَصِحَّ سَنَدُهُ يَكُونُ مَتْنُهُ غَيْرَ صَحِيحٍ .^١

وإذا قيل : إن هذا الحديث قد رواه البخاري ، وهو لا يروي إلا ما كان صحيحاً ، فإننا نردّ على ذلك بأنه قد روى في كتابه ما عدّه هو صحيحاً عملاً بظاهر الإسناد ، لا ما ثبت أنه صحيح في الواقع . ولذلك لا يلزم غيره ما اعتبره هو لنفسه .

قال الزين العراقي في شرح ألفيته : وحيث قال أهل الحديث : هذا حديث صحيح ، فمرادهم فيما ظهر لنا عملاً بظاهر الإسناد ، لا أنه مقطوع بصحته في نفس الأمر لجواز الخطأ والنسيان على الثقة . هذا هو الصحيح عند أهل العلم المحققين ، ولهذه القاعدة قال ابن أبي ليلى : لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ فِي الْحَدِيثِ حَتَّى يَأْخُذَ مِنْهُ وَيَدَعَهُ ! ... أمّا راوي هذا الحديث وهو أبو هريرة ، فقد ردّوا له أحاديث كثيرة في حياته وبعد مماته ، حتّى من التي صرح بأنّه سمعها من النبيّ مثل حديث : خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ .^٢ وإنا نكتفي اليوم بهذه الكلمة القصيرة ونشكر لحضرة النطاسيّ البارِع

١- ارجع إلى كتابنا «أضواء على السنّة المحمديّة» في طبعته الثالثة تجد هذه القواعد مبسوطه هناك .

٢- ممّن اعترضوا على حديث الذباب في عصرنا الدكتور محمّد توفيق صدقي .

الدكتور سالم محمّد الذي أثار هذا البحث النافع . وندعوه وسائر زملائه الأطباء ، ثم رجال العلم جميعاً من مهندسين ، وفلكيين ، وجغرافيين ، وغيرهم أن يستمروا في أبحاثهم العلميّة النافعة بوسائلهم الصحيحة التي دعا إليها الإسلام ، ولا تخشوا أحداً في ذلك

المنصورة - محمود أبو ريّة

وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه مجلّة «الرسالة» هذه الكلمة ، وهو يوم ١٩٥١/١٢/٢٤م تلقّيت من سيادة الدكتور سالم محمّد ، وكان حينئذٍ مديراً لمستشفى كفر الشيخ ، هذه البرقية ننشرها بنصّها لتسجّل على وجه التاريخ .

الأستاذ محمود أبو ريّة بك - المنصورة - بمقالِكَ مُغْتَبُونَ ، وَلَكَ

شَاكِرُونَ!

دكتور سالم محمّد

ثم تحدّث الشيخ محمود أبو ريّة مفصّلاً عن هذا الحديث والردّ المفصّل الذي كتبه السيّد محمّد رشيد رضا ودحض فيه هذا الحديث بالدليل المتقن . وختم كلامه ببيان ضرر الذباب وقذارته عند العرب .^١ ومثل هذه الأحاديث المخالفة للواقع كثير عند العامة . ولمّا كان

١- «شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي» ص ٢٢١ إلى ٢٢٨ ، الطبعة الثانية . ونقل أبو ريّة في كتاب «أضواء على السّنة المحمّديّة» ص ٢٢٣ ، الطبعة الثالثة ، حديث الذباب أيضاً عن أبي هريرة وردّ عليه .

سندھا صحيحاً بزعمهم - كأحاديث عكرمة ، ومقاتل بن سليمان ، وابن عمر ، وعائشة ، وابن الزبير ، وكعب ، وأمثالهم - فإنهم يتمسكون بها ولا يتركونها ويصرون على صحة متونها ومضامينها بألف دليل سقيم غير وجيه . ومن هذه الأحاديث : الأحاديث المتعلقة بالصلاة والصوم والنكاح والحج عندهم ، كغسل الرجلين في الوضوء على خلاف النص القرآني ، وغسل اليدين من أطراف الأصابع إلى المرافق على عكس ما هو معتاد ، فإنهم يبدأون من الأصابع ويختمون بالمرافق ، من الأسفل إلى الأعلى . وما زالوا يصرون على هذا الأمر ، لأن الاجتهاد محظور في مذاهبهم . وكلهم مضطرون مقسورون على أن يضعوا عقولهم تحت أقدامهم ، ويقلدوا أحد العلماء الأربعة الذين ربّما سبقهم أو جاء بعدهم من هو أعلم منهم . والسبب الآخر هو أنهم يعتقدون بعدالة الصحابة أيّاً كانوا حتى معاوية بن أبي سفيان ، وأبي هريرة الكذاب . فلهذا يذهبون إلى صحة كل حديث ينقلونه ويعملون بمفاده حتى لو كان فيه مائة إشكال على صعيد الرجال والدراية .

إن موضوع حديث الذباب لأبي هريرة ، وإصرار ذلك السنّي الحشوي على صحته خلافاً للعقل والعلم ذكراني بحكاية جميلة رائعة ذات سماع نقلها لي أحد أصدقائي الأعزاء ، وهو : الحاج أبو علي موسى محيي نجل الحاج أبي موسى جعفر محيي ، الذي وُلد في النجف الأشرف ، وكان ساكناً في الكاظميّة .

ونوردها فيما يأتي كما نقلها باللهجة العربية البغدادية الدارجة غير الفصيحة لمزيد اللطف ولفت الأنظار كي لا يخلو كتابنا من ذكر مثل هذه اللهجة ، ونكون قد استفدنا من أصل الموضوع .

چَانْ شَابْ سَاكِنْ بَعْدَادْ بَسْ بِالْأَصْلِ نَجْفِيْ أَسْمَهْ حَمُوْدِيْ إِبْنِ عَبْدِ الزَّهْرَهْ الْكُرْكُجِيْ ، نَقَلِّيْ فَدْ يَوْمْ كَالْ طَبَّيْتِ الْجَامِعْ مَرْجَانْ إِبْرَاسِ

الشَّورَجَهَ أَصَلِّي فَرِحْتَ إِلمَحَلِّ الوُضُو ، وَأَبَدَيْتِ بِالوُضُو ، إِجَانِي
الإمامي فُوَادِ آلِ الوُصِي نَزَلَ عَلَيَّ عِبَالِكَ دَيْرِيدِ يَتَعَارِكُ وَيَأْيَه . گلي : وُلَكَ
هَذَا أَشْلُونُ وَضُو؟

إلى متى تَبْقُونَ مَتَفْتَهُمُونَ؟!

فَحَمُودِي أَيَكُولُ : إِتْرِيدِ الصُّدُكُ ، أَنِي أَوْلَا شَخْصِ عَامِلِ مَا أَكْدَرُ
أَجَادَلَه ، أَوْ ثَانِيًا أَنِي عَصَبِي نَارُ كَبْرَه ، وَلَكِنْ اللَّهُ سُبْحَانَه أَوْ تَعَالَى أَلْهَمْنِي
أشْلُونُ أَحَاجِيَه وَأَبْكُلُ بُرُودَه!

فَحَمُودِي گَلَه : شَيْخَنَه ، مُمَكِنِ أَنْعَلَمْنِي أَشْلُونِ الوُضُو
الصَّحِيحِ؟! الإِجَاهِلِ غَيْرِ أَيْعَلْمُو لَوْ يَتَعَارَكُونَ وَيَا .

الإمامي گَالُ : إِبْنِي ، حَفَّ إِيدِكَ إِتْصَعْدَه لِيْفُوگُ وَإِدِيرِ أَلْمَائِي عَلَه
حَفَّ إِيدِكَ لِيَجُوَهَ إِلْحَدِّ أَلْعِكْسِ .

حَمُودِي گَلَه : أَنِي أَهْوَايَه أَشْكُرُكَ ! بَسْ أَرِيدُ أَسْأَلُ مِنْكَ : لُوَيْشُ ،
يَعْنِي سِنُو أَلْسَبَبِ؟!

الإمامي گَلَه : إِبْنِي الأَطْبَاءِ إِيَعْرِفُوَهَ أَلْهَائِي أَلشَّغَلَه . بِلِجِسْمِ أَكُو
أَثْقُوبِ يَسْمُوَهَ أَلْمَسَامَاتِ ، فَأَلْمَائِي لَمَنْ يَنْزِلُ مِنْ فَوْگُ لِيَجُوَهَ يَدْخُلُ
أَبْهَائِي أَلْمَسَامَاتِ فَلُوَضُو أَيْصِيرُ صَحِيحُ!

حَمُودِي گَلَه : أَنِي أَهْوَايَه أَشْكُرُكَ وَأَنْتَه نَبَهْتِنِي عَلَه شَيْ ثَانِي أَنِي
هَمَّيْنَه چِنْتَ مَدَه أَمِنْ أَلزَمَنِ مِشْتَبَه بِي!

الإمامي گَلَه : سِنُو هُوَه؟!

حَمُودِي جَاوَبَه ، گَلَه : أَنِي مِنْ چِنْتَ أَعْتَسِلُ غُسْلِ أَلجَنَابَه ، كُلُّ
غُسْلِي بَاطِلُ!

الإمامي گَلَه : لُوَيْشُ؟!

حَمُودِي جَاوَبَه ، گَلَه : لِأَنَّهُ مِنْ چِنْتَ أَعْتَسِلُ أَوْگَفُ أَوْ أَعْتَسِلُ فَهَسَه

بَعْدَ مَا نَبَّهْتَنِي عَنْ هَاي لِرُزُوفٍ إِلَيَّ بِلِحْسِمٍ ، جَوَّهَ الدُّوْشَ لَازِمٌ وَكَتِ
 الَّغُسْلُ أَضْرَبُ جُفْلُنْبَهُ ، يَعْني أَصْعَدُ رِجْلِي لِيْفُوْكَ ، أَوْ رَاسِي لِيَجْوَهُ !
 الإِمَامِي كَلَّهَ : إِي هَاي لِيَشْ ؟!
 حَمُودِي جَاوَبَهُ ، كَلَّهَ : مُوْإِنَّتَهَ آلِّي كَلَّتِ الإِمَامِي لَازِمٌ أَيَطَّبُ بِرُزُوفِ
 الِّجَلْدِ !

الإِمَامِي كَلَّهَ الَّحَمُودِي : وُلْكَ إِنْتَوْ أَشْلَوْنُ مِلَّهُ مَحَدَّ يَكْدَرُ عَلَيكُمْ !
 علماً أنَّ فؤاد الألوسي هو من أحفاد السيّد محمود بن السيّد عبد الله
 الألوسي صاحب تفسير «روح المعاني» ، وكان يسكن في بغداد ، وله مقام
 الإفتاء فيها على المذهب الحنفي أيام السلطان محمود وابنه السلطان
 عبد المجيد العثمانيين ، مع أنه كان سلفي الاعتقاد في الأصول شافعي
 المذهب في الفروع . وشهد هذا الرجل غارة محمد نجيب باشا على كربلاء
 والمذبحة التي ارتكبها بحق أهلها بأمر من الحكومة العثمانية ، وهاجم
 دورها ما عدا دار السيّد كاظم الرشتي . فنظم الألوسي - بوصفه قاضي
 العسكر - بيتين من الشعر يفتخر بهما بقتل شيعة كربلاء ، الذين قتل منهم
 تسعة آلاف خلال ثلاثة أيام . ونوردهما هنا نقلاً عن كتاب «زنبييل»
 للمرحوم الحاج فرهاد ميرزا رضوان الله عليه .^١ علماً أنَّ من استطاع الفرار

١- قال الحاج فرهاد ميرزا في كتابه «زنبييل» ص ٣٥٠ و ٣٥١ : تخلخل النظم في كربلاء
 بسبب كثرة الطغام والأوغاد . فقد تقاطر عليها كل من كان مُلاحقاً من الفجّار من أي بلد كان
 خوفاً من بطش السياسة الحاكمة ، ولجأوا إليها اهتداءً بقوله تعالى : وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا
 حتّى بلغ الأمر بحاكم كربلاء الذي نصبه النظام الملكي ببغداد أن يفقد السيطرة عليها لتراكم
 الأوغاد الذين يسميهم أهالي كربلاء الأشقياء المتهورين . ومن الهين على كل أحد ألا يطيع
 حكومة بغداد ولا يدفع إليها الخراج ، بل لم يبق للزوّار والأهالي مجال للسكن والعيش .
 فلكل جماعة كان يرأسهم شخص يرفع راية العصيان . ولم يستطع علي رضا باشا الذي ⇨

كان يحكم هناك اثنتي عشرة سنة أن يقوم بالأمر كما ينبغي إلى أن كلفت الحكومة العثمانية محمد نجيب باشا الذي كان قد عُزل من حكومة الشام أن يتولّى حكومة بغداد وتوابعها - وكان حاكم بغداد في العهد العثماني بمنزلة الوزير الثاني - وكان أثيراً سفاكاً متهوراً غداراً مكاراً . ولم يستقرّ بعد في منصبه حتى سير الجيش نحو كربلاء وضرب قلعتها بالطوربيدات . ومن الواضح أن إجماع العوام لا يتحقّق أمام جيش النظام ، لهذا شهر سيف القسوة والبطش وقتل وأسر من الأهالي ما شاء . حاصر المدينة ثلاثة أيام ثم دّسها في الحادي عشر من شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٥٨هـ وجرح قلوب الموالين لأهل البيت وأصدر حكمه بارتكاب مذبحه جماعية خلال ثلاث ساعات . والثابت هو أن تسعة آلاف نسمة فارقوا الحياة يومئذٍ ، ونُهب من الأموال والمجوهرات والأثاث والكتب والذهب والفضة ما لا يُحصيه أحد . ورُبّطت الخيل والبغال في صحن العباس ، وقُتل كلٌّ من وُجد في الرواق الواقع بين حرم العباس وحرم الحسين خامس أصحاب الكساء عليهما السلام . ولم يسلم إلا بيت السيد كاظم الرشتي إذ كانوا قد آمنوه - إلى آخر ما نقلناه عنه في متن الكتاب .

من الجدير ذكره أن ابن الألويسي هذا الذي عدّه الحاجّ فرهاد ميرزا في زبيله من فضلاء أهل السنة وقاضي عسكر محمد نجيب باشا هو نفسه صاحب تفسير «روح المعاني» وهو الذي نظم البيتين تشفيًا بقتل تسعة آلاف من أهالي كربلاء خلال ثلاث ساعات وإباحة المدينة ثلاثة أيام . وورد في كتاب «أريج الندّ والعود في ترجمة شيخنا أبي عبدالله شهاب الدين محمود» المؤلّف في ترجمته ، والمطبوع في الصفحات الواقعة قبل تفسير «روح المعاني» ، طبعة بولاق ، سنة ١٣٠١هـ: أنه حسني من جهة الأمّ حسيني من جهة الأب ، ويتهيئ نسبه إلى موسى المبرقع ، وأنه ولد سنة ١٢١٧هـ وتوفي سنة ١٢٧٠هـ عن ثلاث وخمسين سنة . عيّنه علي رضا باشا رئيساً للمفتين الحنفيين في بغداد سنة ١٢٤٨هـ . وذهب إلى القسطنطينية سنة ١٢٦٣هـ لحضور الوليمة التي أقيمت بمناسبة ختان ابن السلطان محمود العثماني . وفي السنة نفسها بدأ بتأليف تفسيره وأتمّه سنة ١٢٦٧هـ وأخذه إلى القسطنطينية ، وأقام فيها سنتين ، وبعد عرض التفسير المذكور واستلام الوسام الملكي رجع منها سنة ١٢٦٩هـ . ومرض في الطريق بسبب المطر والبرد ، ثم توفي بعدها بقليل .

ومن الضروري أن نذكر هنا عدداً من النقاط:

من الناس فقد فرّ، ومن لم يستطع فقد قُتل . وكُسرت الألواح في الروضة المنوّرة ، وجُرحت قلوب الأحبّة ، وَكَانَ مَا كَانَ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ .

وبعد المذبحة الجماعيّة صدر قرار بأمر الولاية ، ورجع في الرابع عشر من الشهر المذكور . ونظم ابن الألوسيّ ، الذي كان من فضلاء أهل السنّة وكان قاضياً لعسكر محمّد نجيب باشا ، البيتين الآتيتين آنذاك :

⇨ الأولى : أنّه هو الذي كان قاضياً للعسكر في كربلاء عند هجوم محمّد نجيب باشا عليها إذ كان له من العمر إحدى وأربعون سنة آنذاك . وكان فقيهاً وله عدد من المناصب الرسميّة التي تقلّدها بأمر الحكومة العثمانيّة ، فلا يمكن أن يكون أحد أبنائه صاحب الأمر ، لأنّ أكبرهم وهو السيّد عبد الله أفندي وُلد سنة ١٢٤٨ هـ فكان عمره وقتذاك عشر سنين . ومن البيّن أنّ أولاده الأربعة الآخرين ولد بعضهم بعد إباحة كربلاء لا يمكن أن يكونوا أصحاب الأمر أيضاً . كما لا يمكن أن يكون أبوه السيّد عبد الله أفندي ، إذ لم تُذكر له المناصب المشار إليها ، بل كان يشغل منصب رئيس المدرّسين فحسب ، يضاف إلى ذلك أنّه لمّا كان مشهوراً بالألوسيّ ، فقد ذكر الحاجّ فرهاد ميرزا ابنه السيّد محمود عليّ أنّه ابن الألوسيّ . ولا نستبعد أن يكون متوفّى يومذاك ، إذ لا اسم ولا ذكر له في تلك الفترة من الزمان .

الثانية : كانت بين السيّد كاظم الرشتيّ والسيّد محمود الألوسيّ علاقات وديّة ، ولهذا كتب السيّد كاظم تقرّيباً عاليّاً على تفسيره أيام علي رضا باشا ، وقد جاء في ص ٦ إلى ٨ قبل مقدّمة التفسير المطبوع بطبعة بولاق . وبسبب هذه العلاقات الوديّة لم تُنهب دار الرشتيّ في الغارة على كربلاء ولم يُقتل أحد من أفراد أسرته .

الثالثة : لا نستبعد أن يكون الألوسيّ سيّداً لأنّ كثيراً من السادة كانوا أتباعاً لحكّام الجور . ومع وجود الإمام بالحقّ لم يستسلموا لولايته . ويدلّ التأريخ على أحوالهم وأوضاعهم جيّداً . وموسى المبرقع المذكور هو ابن الإمام الجواد عليه السلام ويعدّ الجدّ الأعلى للألوسيّ . تأريخه مجهول ، وكان يختلف إلى بلاط المتوكّل العبّاسيّ . وكان أخوه الإمام الهاديّ عليه السلام ساخطاً عليه .

أَحْسَيْنُ دَنْسَ طِيبَ مَرْقَدِكَ الْأُولَى
رَفَضُوا الْهُدَى وَعَلَى الضَّلَالِ تَرَدَّدُوا
حَتَّى جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِطَهْرِهَا
يَوْمًا فَطَهَّرَهَا النَّجِيبُ مُحَمَّدًا^١

السادس : حديث : خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ .

قال أبو رية : روى مسلم في كتابه عن أبي هريرة :

أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِي ! فَقَالَ : خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ الثُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ^٢ .

١- «زنبيل» ص ٣٥١ . وقال الشيخ عزيز بن الشيخ شريف النجفي في جوابه :

إِحْسَاءُ عَدُوِّ اللَّهِ إِنَّ نَجِييَكُمْ
وَلَكِنَّ بِهِ وَبِكَ الْبَسِيطَةُ دُنَسَتْ
رَفَضَ الْهُدَى وَعَلَى الْعَمَى يَتَرَدَّدُ
فَأَبْشَرُ بِطَهْرِهَا الْمَلِيكَ مُحَمَّدًا

وقال الملا محمود التبريزي في جوابه أيضاً :

إِحْسَاءُ عَدُوِّ اللَّهِ كُلُّ نَجِييَكُمْ
هَذَا ابْنُ هِنْدٍ وَالْمَدِينَةُ
كَيْزِيدُكُمْ شُرْبَ الدَّمَاءِ تَعَوَّدُوا
وَالدَّمُ الْمَهْرَاقُ فِيهَا وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدًا

وقال كذلك :

تَبًّا لِأَشْقَى الْأَشْقِيَاءِ نَجِييَكُمْ
لَا تَعْجَبُوا مِمَّا أَتَى إِذْ قَدْ أَتَى
نَصَبَ الْحَسَنِ وَفِي لَظَى يَتَخَلَّدُ
بِصَحِيفَةٍ مَلْعُونَةٍ يَتَقَلَّدُ

٢- قال في الهامش : هل كانت هذه الأيام مع أسمائها وساعاتها هذه يوم خَلَقَ اللهُ

السموات والأرض؟! وهل يكون اليوم عند الله مثل يومنا؟! أو هو كما قال الله سبحانه في

كتابه: «إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (الآية ٤٧ ، من السورة ٢٢: الحج).

وقد روى هذا الحديث كذلك الإمام أحمد، والنسائي عن أبي هريرة، ورواية النسائي: **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ.**

وقد ذكر الأئمة ومنهم البخاري في «التاريخ الكبير» وابن كثير أن أبا هريرة قد تلقى هذا الحديث عن كعب الأحبار، لأنه يخالف نص القرآن في أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام !!

ومما يدل على أن أبا هريرة قد استقى هذا الحديث من كعب الأحبار كما نص الأئمة على ذلك، وأنه من نبع إسرائيلي، أن هناك خبراً آخر يشابهه مروياً عن عبد الله بن سلام - الذي كان من أحبار اليهود وأسلم - رواه الطبراني،^١ وهذا نصه:

إِنَّ اللَّهَ بَدَأَ الْخَلْقَ يَوْمَ الْأَحَدِ فَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي الْأَحَدِ وَالْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْأَقْوَاتَ وَالرَّوَاسِيَ فِي الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ، وَفَرَّغَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَخَلَقَ فِيهَا آدَمَ عَلَى عَجَلٍ. فَتِلْكَ السَّاعَةُ الَّتِي تَقُومُ فِيهَا السَّاعَةُ.

وعبد الله بن سلام هذا قد حدث عنه أبو هريرة كما حدث عن كعب الأحبار.^٢

ومن العجيب أن أبا هريرة قد صرح في هذا الحديث بسماعه من النبي وأنه صلى الله عليه وآله قد أخذ بيده حين حدثه به.

١- الطبراني، ج ١، ص ٢٤.

٢- «سير أعلام النبلاء» للذهبي، ج ٢، ص ٢٩٦. وعبد الله بن سلام هو أبو الحارث الإسرائيلي. أسلم بعد أن قدم النبي المدينة وهو من أحبار اليهود. وحدث عنه أبو هريرة، وأنس بن مالك، وجماعة. اتفقوا على أنه توفي سنة ٤٣ هـ.

وإني لأتحدى الذين يزعمون أنهم على شيء من علم الحديث ، أن يحلّوا هذا المشكل وأن يخرجوا شيخهم من هذه الورطة التي ارتطم فيها ! إن الحديث صحيح السند على قواعدهم ، لا خلاف في ذلك بينهم ، وقد رواه مسلم في صحيحه . ولم يصرح بسماعه من النبي فحسب ، بل زعم أن رسول الله قد أخذ بيده وهو يحدثه به . وقد قضى أئمة الحديث بأن أبا هريرة قد أخذه من كعب الأخبار وأنه مخالف للكتاب العزيز . ولو رواه عنعنّة لقلنا عسى ، ولا لتمسنا له مخرجاً يخرج منه ، ولكنه صرح بسماعه ووضع يده في يد النبي عندما تلقاه منه . فمثل هذه الرواية تعدّ ولا ريب كذباً صراحاً وافتراءً على رسول الله ، فما حكم من يقترفها؟! وهل تدخل تحت طائلة حكم حديث الرسول : مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَسَّبْهُ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ؟ أم هناك مخرج لراوي هذا الحديث بذاته ، لأنّه صاحب الثوب ، والوعاءين ، والمزود ؟^١

١- المِزْوَد (بكسر الميم) : وعاء التمر يُعمل من آدم (جلد مدبوغ) . وذكر العلامة السيّد شرف الدين في كتاب «أبو هريرة» حديث الثوب ، والوعاءين ، والمزود مفصلاً ، وانتقده بشدة . واقتدى به أبو ريّة في كتاب «شيخ المضيرة» وذكر ذلك أيضاً ، وردّ عليه بإيجاز من ص ١٨٤ إلى ٢٠٢ . وهذه الأشياء الثلاثة من اختلاق أبي هريرة . وضعها لإعلاء شأنه ورفع التهمة عن نفسه .

يدلّ حديث الثوب على أن أبا هريرة يقول : قال النبي يوماً : ابسط رداءك ، فبسطته على الأرض ، وكان النبي مشغولاً بالكلام حتّى إذا قضى مقالته ضمّمته إلى صدري فما نسيّت من مقالته تلك شيئاً إلى يومي هذا . وأمّا حديث الوعاءين فيعني أن العلوم التي أبينها هي من أحدهما ، أمّا العلوم السريّة الخفيّة التي لم أبينها ولا أستطيع أن أبينها فهي من الآخر ، وعلوم هذين الوعاءين هي من مواهب رسول الله لي ، ومع أنّي لا أعرف القراءة والكتابة لكنّي مليءٌ بهذه العلوم . وأمّا حديث المزود فملخصه أنّي كنت مع النبي في أحد أسفاره فقال لي : جئ بالمزود الذي عندك ! فجئتُ به . فأعطى الجيش كلّه تمرّاً منه ⇨

إنّي والله لفي حاجة إلى الانتفاع بالجواب المقنع عن ذلك! لأنّ هذا الحديث وحده لو حقّق لإنسان نظره فيه وأمّعن في ظاهره ومطأويه، لكشف ولا ريب عن حقيقة روايات أبي هريرة كلّها. لأنّه إذا كان هذا شأنه في رواية ما يصرح بسماعه بأذنه من النبيّ صلّى الله عليه وآله، فكيف يكون الأمر فيما يرويّه عن عننّه عن غيره؟!

ولقد أحسن علماؤنا في تكذيب هذا الحديث، وأنّ يقطعوا بأنّ أبا هريرة قد كذب في أنّه رواه عن النبيّ. وأنّه قد تلقّاه عن كعب الأحبار اليهوديّ الذي لم يكن له من عمل إلاّ أن يدسّ في الإسلام ما يشوّه بهاءه، وأنّ يفتح باب الطعن في علم من جاء به

روى أحمد عن أبي هريرة أنّه قال: **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: يَخْرُجُ مِنْ خُرَّاسَانَ رَايَاتٌ سَوْدٌ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ حَتَّى تُنْصَبَ بِإِيلِيَا!** (إيليا في الشام). رواه البيهقيّ، وقد قال الحافظ ابن كثير: **إنّه من كعب الأحبار،** وليس كلام رسول الله.

قال أبو رية في الصفحات الأخيرة من الكتاب: وقد طعن في هذا الحديث الأئمة، وقالوا: **إنّه ليس من قول النبيّ صلّى الله عليه وآله،** وجزموا بأنّه من قول كعب الأحبار، وإليك ما قاله ابن تيميّة الذي يلقبه أهل السنّة بشيخ الإسلام. قال:

«وأشبعه ولم يفرغ المزود من التمر. وكنت أكل منه حياة النبيّ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان. فلمّا قُتل عثمان، انْتَهَب ما في يدي وانتهب المزود. ألا أخبركم كم أكلت منه؟! أكلت منه أكثر من مائتي وَسَق. والوسق حمل بعير.

١- «البداية والنهاية» ج ٢، ص ٢٧٥؛ «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ٧٩ إلى ٨٢، الطبعة الثانية. ونقل أبو رية أيضاً في كتاب «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ٢٠٩، الطبعة الثالثة، حديث خلق العالم في سبعة أيام عن أبي هريرة، وردّ عليه.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله : خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ فهو حديث معلول ، قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره . قال البخاري : الصحيح أنه موقوف على كعب الأخبار ، وقد ذكر تعليقه البيهقي أيضاً وبينوا أنه غلط ، ليس ممّا رواه أبو هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم . وهو ما أنكر الحدّاق على مسلم إخراج إياه .

وقال : وقد نوزع مسلم بن الحجاج في عدّة أحاديث ممّا خرّجها ، وكان الصواب مع من نازعه . كما روى في حديث الكسوف أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم صلى بثلاث ركوعات ، والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين .

وكذلك روى مسلم : خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ . ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى بن معين ، والبخاري فبينوا أنه غلط وليس من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم ، والحجّة مع هؤلاء . فإنّه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنّ الله خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .

وكذلك روى أنّ أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم أن يتزوج بأُمّ حبيبة ، وأن يتخذ معاوية كاتباً له . وغلظه في ذلك طائفة من الحفاظ . وذلك بأنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم قد تزوج بأُمّ حبيبة وأبو سفيان كافر !^١

أجل ، لقد بذل معاوية قصارى جهده على جبهتين : جبهة الدعايات والأحاديث الموضوعية ؛ وجبهة الحرب والمذابح المتكررة التي ارتكبتها بحق الشيعة فتمكّن من الإطاحة بالنبوة واستبدال الملكيّة بها . كما تمكّن من اجتثاث الحياة المعنويّة من جذورها ، وإحلال شجرة الاستبداد

١- «شيخ المضيرة أبو هريرة» ص ٢٤٢ ، الطبعة الثانية .

والطاغوتية الحنظلية محلها على امتداد أربعين سنة من حكمته بالشام يوم كان أميراً عليها في العشرين سنة الأولى ، ويوم تقمص خلافة المسلمين في العشرين الثانية . ومع أن للحكام الغاصبين الذين سبقوه قسطاً كبيراً في هذا الأمر - إذ انطلق السهم من سقيفتهم حقاً واستقرّ في حلقوم عليّ الأصغر - لكن هذا الطاغية المكار الغدار الأثيم قد بزّهم في تنفيذ خطته وبلوغ هدفه المنشود .

لقد كان وضع الأحاديث وقتل الشيعة المظلومين وأسرهم أشياء مألوفة منذ البداية ، بيد أنها نضجت وتطوّرت أكثر فأكثر في عهد معاوية . قال المحدث القمّي رحمه الله في بعض الأحاديث الموضوعية : ذكر بعض الأحاديث الموضوعية عن الصنعانيّ من علماء العامة أنه قال في كتاب «الذّرر الملتقطة» : ومن الموضوعات ما زعموا أنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال : إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَامَةً ، وَيَتَجَلَّى لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ خَاصَةً !

وأنّه قال : حَدَّثَنِي جَبْرِئِيلُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الْأَرْوَاحَ اخْتَارَ رُوحَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْأَرْوَاحِ .

ثم قال الصنعانيّ : وأنا أنتسب إلى عمر ، وأقول فيه الحقّ لقول النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : قُولُوا الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ !

فمن الموضوعات ما روي : إِنَّ أَوَّلَ مَا يُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَلَهُ شِعَاعٌ كَشِعَاعِ الشَّمْسِ . قِيلَ : فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ ؟ قَالَ : سَرَقْتُهُ الْمَلَائِكَةُ !

وقال الصنعانيّ : ومنها : مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ قُتِلَ ، وَمَنْ سَبَّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا جُلِدَ الْحَدَّ . إلى غير ذلك من الأحاديث المختلفة .

ومن الموضوعات : زُرْ غِبًّا تَزِدُّ حُبًّا !
النَّظْرُ إِلَى الْخُضْرَةِ تَزِيدُ فِي الْبَصْرِ .
مَنْ قَادَ أَعْمَى أَرْبَعِينَ خُطْوَةً غَفَرَ اللَّهُ لَهُ .
الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمُ الْأَبْدَانِ وَعِلْمُ الْأَدْيَانِ .
الْجَنَّةُ دَارُ الْأَسْخِيَاءِ .
طَاعَةُ النِّسَاءِ نَدَامَةٌ .
دَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ .
اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ !
لَا هَمَّ إِلَّا هَمُّ الدِّينِ .
لَا وَجَعَ إِلَّا وَجَعُ الْعَيْنِ .
الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ .
إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ . إِلَى غير ذلك .^١

هل كان نهج معاوية في حكمه القائم على القتل والدعايات بُغية بقاء
ملكه واستمراره من بنات أفكاره أو كان متأسيًا بمن سبقه من الحكام
الذين انتهجوا هذا الأسلوب من أجل المحافظة على سياستهم وإمارتهم ؟
لقد هدّد عمر بحرق بيت فاطمة توطيداً للبيعة ، وصرف الآية
الكريمة : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا -^٢ التي نزلت في عيد الغدير يوم الثامن عشر من ذي الحجة ،
والأدلة التاريخية القطعية على ذلك كثيرة لا يأتي عليها الإحصاء عن
موضوعها الحقيقي ، وذكر أنها نزلت يوم عرفة .

١- «سفينه البحار» ج ١ ، ص ٢٣١ ، مادة (حَدَّثَ) .

٢- قسم من الآية ٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

أليس هذا التحريف وضعاً ودساً وتزويراً في التأريخ والتفسير والحديث؟!

تحدث الدكتور السيد محمد التيجاني التونسي عن هذه الآية وذكر أنّ اليهود والنصارى قالوا: لو نزلت هذه الآية فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. وأورد أحاديثاً عن «صحيح البخاري»^١، و«الدر المنثور»^٢ للسيوطي، يقول فيها عمر: إنني لأعلم أي مكان أنزلت، أنزلت ورسول الله واقف على جبل الرحمة يوم عرفة. ثم قال التيجاني:

ولا يستبعد أن يكون عمر بن الخطاب نفسه هو الذي صرف نزولها إلى يوم عرفة، لأنه كان بطل المعارضة لخلافة علي، كما كان هو مؤسس ومشيد البيعة لأبي بكر يوم السقيفة حتى وصل به الأمر إلى تهديد المتخلفين عنها في بيت فاطمة الزهراء بحرق البيت بمن فيه إن لم يخرجوا لبيعة أبي بكر.^٣

فمن كانت همته بهذه القوة وعزيمته بهذه الشدة لا يصعب عليه إقناع الناس بأن الآية إنما نزلت يوم عرفة. وإذا كان النص بالخلافة على علي بن أبي طالب قد حرفوه عن حقيقته وباغتوا الناس (بما فيهم علياً نفسه والذين كانوا منشغلين معه بتجهيز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودفنه) بالبيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة على حين غفلة، وضربوا بنصوص الغدير عرض الجدار، وجعلوه نسبياً منسياً، فهل يمكن لأي أحد بعد الذي وقع أن يحتج بنزول الآية يوم الغدير؟! وتلك السلسلة هي التي أسست الوهابية

١- «صحيح البخاري» ج ٥، ص ١٢٧.

٢- «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» لجلال الدين السيوطي، ج ٣، ص ١٨.

٣- «تاريخ الخلفاء» لابن قتيبة الدينوري: كيف كانت بيعة أبي بكر، ج ١، ص ٦.

وروجتها^١.

١- قال الحاجّ فرهاد ميرزا في كتاب «زنبيل» ص ٣٤٨ إلى ٣٥٠: كان شخص يعرف بعبد الوهّاب من عرب البادية في البصرة تلمذ مدّةً لشخص اسمه محمّد، وهو أبو جهل في تصرّفه. وبعد برهة أعرض عن أستاذه البصريّ ونزل إصفهان. ودرس علوم العربيّة والعلوم الغربية وأجرى بعض التغييرات على أحكام الشرع بزعمه. وأرسى دعائم مذهب جديد خليط من عقائد الشيعة والسنة، ومن عقائده: أنّ تزيين مراقد الأنمة بدعة، وأنّ السجود على التربة في الصلاة كالسجود على الأوثان، وأنّ زيارة الأضرحة الشريفة المقدّسة إلّا بيت الله الحرام حرام. وسمع به عبد العزيز أحد مشايخ نجد فاستحسن عقائده كثيراً. ولمّا كانت فكرة الرئاسة تراود نفس عبدالعزيز، ورأى أنّ أفضل طريق للارتقاء إلى مناصب مهمّة هو اختراع مذهب جديد، لهذا روج لكتبه في بلاد نجد، وسمّى أتباعه الضالّين: الوهّابيين. وبعد مدّة قصيرة جمع عدداً وافراً من الناس وتوجّه بهم لاحتلال الحرمين الشريفين. وجّه جيشه بذخائر المدينة المنورة وكنوزها، وانطلق في عمله من وحي حقه وضغنه، وبنى قلعة الدرعية. وتحرك لمهاجمة النجف الأشرف وأغار عليه مرّة أو مرّتين لكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً أمام قلاع الحصينة وتعبئة العرب الخزاعيين الذين كانوا شيعة صحيحي الاعتقاد لصدّ هجومه. ثمّ أرسل ولده الأكبر سعود غير السعيد في اثني عشر ألف فارس غدار إلى كربلاء المقدّسة، فدخلها يوم عيد الغدير سنة ١٢١٦ هـ على حين غفلة. ولم يروع عن الفتك والنهب والقتل والأسر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. واستشهد معظم علماء الدين المبين ومنهم الملاّ عبد الصمد الهمدانيّ. وصنع سعود اللاسعيد قهوةً على نار موقدة من خشب الصندوق المطهر لخامس أصحاب الكساء سلام الله عليه، وجلس في رواق الطاق وشرها هو وزبانيّته. واستشهد خلال ستّ أو سبع ساعات قرابة سنّة آلاف من الناس متباهين أنّهم في غرفات الجنان. ولمّا كان معظم أهالي كربلاء والزوّار قد يَمَمُوا مهبط الملائكة مرقد الأمير مولى الصغير والكبير سلام الله عليه في النجف الأشرف لزيارته يوم الغدير لهذا سلموا من خطر هذا السيل الجارف ولهب نار العناء الحارق. وعاد ذلك الأثيم المشؤوم إلى دياره عصر ذلك اليوم. وبعد مدّة قُتل عبد العزيز فاستقلّ سعود. ولم يبق للوهّابية ولسعود أثر في ذلك البلد باهتمام محمّد علي باشا والي مصر وإيفاد نجله إبراهيم باشا إليه.

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (الآية ٢٢٧، من السورة ٢٦: الشعراء) - انتهى

كلام الحاجّ فرهاد ميرزا.

⇨

فليست الآية أوضح في مفهومها من حديث الولاية ، وإنما تحمل معناها إكمال الدين وإتمام النعمة ورضاء الرب فليكن ذلك اليوم (عند عمر) عيداً بالمعنى ، لا بالفعل !^١

وذكر السيد هاشم البحراني رواية مفصلة عن كتاب سليم بن قيس في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أبي بكر بعد غضب الخلافة ، والزامه بحقائنته وحقه ، إلى أن بلغ كلام أبي بكر إذ قال : كلما قلت حقاً قد سمعناه بأذنانا وعرفناه ووعته قلوبنا ولكن سمعتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم يقول :

إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اصْطَفَانَا اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَارَ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْمَعْ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ الثُّبُوءَ وَالْخِلَافَةَ !

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : هل أحد من أصحاب رسول الله شهد هذا معك ؟ فقال عمر : صدق خليفة رسول الله قد سمعته منه كما قال . وقال أبو عبيدة ، وسالم مولى حذيفة ، ومعاذ بن جبل : قد سمعنا ذلك من رسول الله ! فقال لهم عليّ عليه السلام : لقد وفيتم بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها في الكعبة إن قتل الله محمداً ومات لنذودنَّ هذا الأمر عنا

﴿ وأقول أنا : وبعد مدة دفعت السياسة الإنجليزية سعوداً إلى أن يتماشى معها ويؤسس حكومةً ويطيح بأشراف مكة . وما زالت حكومتهم قائمة حتى يومنا هذا السادس والعشرين من شهر شوال المعظم سنة ١٤١٤ هـ ، وملكها فهد . ولم يألوا جهداً في الجناية والخيانة وقتل الشيعة وأسرههم خلال هذه المدة الطويلة . وستنتهي حكومتهم ويزول استكبارهم واستبدادهم في القريب العاجل إن شاء الله تعالى .

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (الآية ٣١ ، من السورة ١٣ : الرعد).

١- «لأكون مع الصادقين» ص ٥٣ إلى ٥٦ ، الطبعة الثانية.

أهل البيت !^١

نلاحظ هنا بوضوح أن أبا بكر نفسه قد وضع حديثاً ، وصدّقه عليه أقطاب بيعة السقيفة : عمر ، وسالم ، وأبو عُبَيْدة ، ومعاذ . ولكن أيّ حديث هذا وهو مخالف للقرآن والأصول الإسلامية الثابتة ؟! ومخالف أيضاً للأحاديث القطعية والأدلة العقلية والنقلية ؟! وأيّ حديث هذا الذي لم يسمعه أهل البيت ، والمهاجرون والأنصار إلاّ أفراداً قلائل منهم ؟! الله وحده أعلم !

لقد تحدّثنا سابقاً عن سقم هذا المنطق القائل بتعدّد الجمع بين النبوة والخلافة ، وبعده عن العقل في هذه الدورة من المعارف والعلوم ، فيُرجع إليه للاطلاع على أساس هذا الموضوع وأصله .^٢

ألم يكن أبو بكر نفسه فارس الحلبة في وضع هذا الحديث : نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ؟^٣

هذا الحديث يعارض منطوق عموم آية الإرث في القرآن الكريم ، ولم يسمعه أحد المسلمين من النبيّ لا في مكّة ولا في المدينة ، ولا في سفر ولا في حضر ، ولا في الغزوات ولا في أيام السلم ، ولا ولا ولا ... فكيف يظهر أعرابيّ بغتةً بعد وفاة النبيّ فيصير هو وأبو بكر شاهديّ صدقٍ ، ويسلبا فاطمة الزهراء سلام الله عليها حقّها عناداً واستكباراً وتوحّشاً؟! ألم

١- «غاية المرام» القسم الثاني ، ص ٥٥٢ ، الحديث الأول من الباب الرابع والخمسين .

٢- تحدّثنا عنه مفصّلاً في الجزء الثامن من كتابنا هذا «معرفة الإمام» الدرس ١١٠

إلى ١١٥ .

٣- «الغدِير» للعلامة الأميني ، ج ٦ ، ص ١٩٠ : «نوادير الأثر في علم عمر» . وتحدّثنا عن

هذا الحديث في ج ٨ من كتابنا هذا . وناقشه السيّد شرف الدين مناقشة وافية رائعة في كتاب «أبوهريرة» ص ١٣٧ إلى ١٤٥ ، الفصل ٢٠ ، الطبعة الثالثة .

يكن هذا الأمر قد جرى بإشراف مباشر من لدن أبي بكر وعمر !؟

قتل صلاح الدين الأيوبي الشيعة في حلب

وسجن العلويين في مصر

وفصل الرجال عن النساء قطعاً لنسل الشيعة

وهو أول من اتخذ يوم عاشورا عيداً في مصر

كان قتل الشيعة ونهبهم وأسرههم من جهة ، ووضع الأحاديث ضدّهم وخلع أمرائهم وقضاتهم وحكامهم ومفتيهم من جهة أخرى ، منذ غضب الخلافة حتّى اليوم أموراً مألوفةً وشائعة في العالم .

ويعود هذا إلى استقلالهم الفكريّ ومنهاجهم الأصيل . وكلّ شخص كان يتقلّد الأمر ويقبض على السلطة يمارس ضروب الضغط والتنكيل ضدّهم خوفاً من نهضتهم ضدّ الظلم والجور ، وخشيةً من تأسيسهم حكومة مستقلة . وأفضل دليل نذكره كنموذج على ذلك هو أنّ صلاح الدين الأيوبي عندما استولى على الحكم عزل الخليفة الفاطمي العاضد ، وألوى بالحكومة الفاطمية التي امتدّت في مصر وأفريقية مائتين واثنين وسبعين سنة .

قال آية الله المحقّق الخبير السيّد محسن الأمين العاملي رحمه الله :
فولّى العاضد صلاح الدين الوزارة ، ولقّبهُ بالملك الناصر . ويقول أبو الفداء في تاريخه : إنّه تاب عن شرب الخمر ، وضعف أمر العاضد ، وعزل صلاح الدين قضاة المصريين ، وكانوا شيعة إسماعيلية ، ورتّب قضاة شافعية . وفي سنة ٥٦٧ قطع خطبة العاضد وخطب للعبّاسيين . وكان العاضد مريضاً ، فتوفّي ولم يعلم بقطع خطبته .

واستولى على قصر الخلافة وجميع ما فيه ، وكان يخرج عن

الإحصاء . وكانت مدّة ملكهم ٢٧٢ سنة . وحبس صلاح الدين العلويين ، ومنع الرجال من النساء حتّى لا يتناسلوا . وهو أوّل من جعل يوم عاشوراء عيداً بمصر .^١

قال آية الله الشيخ محمّد حسين المظفر في هذا المجال : كان التشيع مخيّماً على القاهرة ، وضارباً أطنابه في القرى والبلدان ، إلى أن قوي صلاح الدين يوسف الأيوبي ، وبلغ من الشأن أن استوزره العاضد لدين الله الفاطمي . فكان جزاؤه منه حينما عرف من نفسه القوة والغلبة أن حَجَرَ على العاضد ومنعه من الخروج واستلب جميع ما لديه من الصفايا والأموال حتّى لم يبق عنده إلا فرس واحد . وبعد ذلك استلبه منه .

ثمّ شرع في قلب الدولة والدعوة للمستنصر بأمر الله العباسي ببغداد ، فساعده الطالع على ما أراد . فدعا للعباسي ، والفاطمي مسجّي على فراش المرض . فلم يعلم بالحال حتّى جاءه الموت .^٢

ولمّا تمهدت للأيوبي قواعد الدولة أوقع بالأمرء والجند ، وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعيّة ، وأخرى للمالكيّة . وصرف قضاة الشيعة كلّهم . وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارتي الشافعي ، فلم يستتب عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب .^٣ فتظاهر الناس من ذلك اليوم بما كان عليه هوى الملك .

١- «معادن الجواهر ونزهة الخواطر» ج ٢ ، ص ٣٧٨ ، طبعة دار الزهراء ، بيروت .

٢- وذلك عام ٥٦٧ . انظر : «خطط المقرئزي» ج ٣ ، ص ٣٧٩ ؛ و«تاريخ ابن الأثير»

وغيرهما .

٣- قال ابن الأثير في حوادث عام ٥٦٦ (ج ١١ ، ص ١٣٧) : وعزل قضاة المصريين

وكانوا شيعة . وأقام قاضياً شافعيّاً في مصر . فاستتاب الشافعيّة في جميع مصر في العشرين من جمادى الآخرة .

وكيف لا يختفي مذهب أهل البيت والأيوبي يستقدم العلماء الذين على رأيه ، ويبني المدارس ويخصّص لها الرواتب ، ويحمل الناس على عقيدة الأشعري . ومن خالف ضربت عنقه . وساعد على ذلك أنّ السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي تعصّب فنشر مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام . فما زال من ذلك الوقت تنتشر مذاهبهم وتقوى ، وتزداد فقهاؤهم ، وتكثر بمصر والشام . وجروا على ذلك في جميع البلاد التي لهم عليها سلطان ، وعُودِيّ من تمذهب بغيرها ، وأنكر عليه . ولم يُؤلّ قاضٍ ولا قُبِلت شهادة أحد . ولا قُدّم للخطابة والإمامة والتدريس إنسان ما لم يكن مقلداً لأحد المذاهب الأربعة . وافتى فقهاؤهم في طول مدّة الأيوبيين وبعدهم بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها .^١

وما قنع الأيوبي بما ارتكبه من الفاطميين ومذهب أهل البيت حتّى ناصب العداء للبيت الطاهر نفسه . فقابل الشيعة والفاطميين بالعكس ممّا كانوا يعملونه يوم عاشوراء .

قال المقرئ في ج ٢ ، ص ٣٨٥ : كان الفاطميون يتخذون يوم عاشوراء يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ويعمل فيه السماط العظيم المسمّى سماط الحزن وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير .

فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيّوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسّطون في المطاعم ، ويصنعون الحلوات ، ويتخذون الأواني الجديدة ، ويدخلون الحنّام جرياً على عادة أهل الشام التي سنّها لهم الحجّاج أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة

١- انظر : «الخطط» ج ٤ ، ص ١٦١ .

عليّ بن أبي طالب ، الذين يتّخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن عليّ ، لأنه قُتل فيه . وقد أدركنا بقايا ممّا عمله بنو أيّوب من اتّخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسّط .

لا أدري إذا كان الأيوبيّون أعداء بني فاطمة فهل ساغ لهم أن يعادوا الرسول وأهل بيته ؟ ولماذا صنعوا يوم مقتل الحسين عيداً ، وقد بكاه الرسول وحزن عليه قبل ذلك اليوم بعشرات السنين والحسين في الأحياء ؟ وإنّ الأغرّب أن يُطرى الأيوبيّ ويكال له المدح جزافاً وهو صاحب يوم عاشوراء ! ف: **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** !^١

١- «تاريخ الشيعة» للمظفر ، ص ١٩٢ إلى ١٩٤ . والآية المذكورة هي الآية ١٥٦ ، من السورة ٢: البقرة .

وممّا ذكره المظفر أيضاً في «تاريخ الشيعة» ص ١٤٥ إلى ١٤٨ حول مدينة حلب ما يأتي : وما زال التشيع في حلب راسي البناء ، حتّى أنّ السلجوقيين الأتراك حاولوا مرّات عديدة القضاء عليه فيها فما استطاعوا ، إلّا أنّه تمكّن من ضربه صلاح الدين الأيوبيّ وسلالته ، وكان المؤدّن يؤدّن في جوامعها ب: **حَيَّ عَلَيَّ خَيْرِ الْعَمَلِ** ^١ (انظر : مجلة «المقتبس» ج ٦ ، ع ١٠) .

وأما ابن كثير الشاميّ فقد ذكر أنّ صلاح الدين لمّا جاء إلى حلب ونزل بظاهره اضطرب واليه .^٢ ورغب أهل حلب في حرب صلاح الدين . فعاهده جميعهم في ذلك ، ولكن شرطوا عليه أموراً ، ومنها : أن يفوض أمور عقودهم وأنكحتهم إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسينيّ الذي كان مقتدى شيعة حلب ، فقبل منهم الوالي جميع تلك الشروط ، إلّا أنّه لم يدخل صلاح الدين إلى حلب بحرب ، بل دخلها سلباً .^٣ ولم يثنه ذلك عن الفتك بالشيعة الفتك الذريع . ولمّا تصرّمت حبال الدولة الأيوبيّة لم يقض التشيع في حلب كما قضى في مصر ، بل بقي رصين الأسّ ، كما يُخبرنا بذلك ياقوت الحمويّ في «معجم البلدان» قال في «حلب» : والفقهاء يفتون على مذهب الإماميّة ، وقال : وعند باب الجنان مشهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رُوي فيه في النوم ، وداخل باب العراق مسجد غوث فيه حجر عليه كتابة زعموا أنّه خطّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وفي

⇒ غربي البلد في سفح بلد الجوشن قبر المحسن بن الحسين يزعمون أنه سقط لما جيء بالسبي من العراق ليحمل إلى دمشق، أو طفل كان معهم فدفن هناك.^٤ وبالقرب منه مشهد مليح العمارة، تعصّب الحلبيون وبنوه أحكم بناء، وأنفقوا عليه أموالاً يزعمون أنهم رأوا علياً رضي الله عنه في المنام في ذلك المكان. وهذه الآثار التي يذكرها ياقوت هي من دلائل تشييع الحلبيين، فهي على التشييع إلى عهده. وكتب ذلك عن حلب عام ٦٣٦، فيكون ذلك بعد دخول الأيوبي لها سلماً بسبع وخمسين سنة. وإلى ذلك اليوم كان فيها أعلام من بني زهرة. وهكذا استمرّ التشييع في حلب رفيع البناء لم تقلعه تلك الهزّات العنيفة، ولم تردمه تلك العواصف الشديدة، إلى أن أفتى الشيخ نوح الحنفي في كفر الشيعة واستباحة دماهم وأموالهم تابوا أو لم يتوبوا.^٥ فزحفوا على شيعة حلب وأبادوا منهم أربعين ألفاً أو يزيدون، وانتهبت أموالهم، وأخرج الباقون منهم من ديارهم إلى نبل، والنغالة، وأمّ العمدة، والدلبوز، والفوعة، وغيرها من القرى. واختبأ التشييع في أطراف حلب في هذه القرى والبلدان، ولم يبق في حلب شيعي أبداً. ويقال: إنّ لبني زهرة اليوم ذرية في الفوعة ولكن لا يعرفون ببني زهرة. ويوجد اليوم في حلب قليل من الشيعة سكنوها بعد تلك الحادثة المؤلمة. وهذه إحدى الوقائع الممضّة التي شاهدها الشيعة من أجل ولائهم لأهل البيت وتمسّكهم بعري مذهبهم. وهاجم الأمير ملحم بن الأمير حيدر بسبب هذه الفتوى جبال عاملة عام ١٠٤٨. فانتهك الحرمات واستباح المحرّمات يوم وقعة قرية أنصار. فلا تسأل عمّا أراق من دماء، واستلب من أموال، وانتهك من حريم. فقد قتل ألفاً وخمسمائة، وأسر ألفاً وأربعمائة، فلم يرجعوا حتّى هلك في الكنيف ببيروت.^٦ فيا لله من هذه الجرأة الكبرى.

(١) كان ولا يزال الهتاف في الأذان بحَيِّ على خير العمل من شعار الشيعة. وقد قامت الأدلّة الصريحة الواردة من طرقهم بأنّه من فصول الأذان. ويدلّ عليه أيضاً ما في «كنز العمال» ج ٤، ص ٢٦٦، عن الطبراني قال: كان بلال يؤذّن بالصبح فيقول: حَيِّ على خير العمل؛ وما في «السيرة الحلبية» في باب بدء الأذان ومشروعته ج ٢، ص ١٠٥، الطبعة الثانية قال: إنّ ابن عمر، والإمام زين العابدين كانا يقولان في الأذان: حَيِّ على خير العمل. نعم، إنّ عمر بن الخطاب نهى عنه كما ذكره القوشجيّ - وهو من متكلمي الأشاعرة - في أواخر مبحث الإمامة من «شرح التجريد»، قال: صعد عمر المنبر وقال: ثلاثٌ كنَّ على عهد رسول الله ⇒

تحدث آية الله المتضلّع الخبير والعالم الواعي البصير في عصرنا المرحوم السيّد عبد الحسين شرف الدين العامليّ عن سرّ كتمان فضائل أهل البيت ، والأحاديث المدسوسة الموضوعية ، والظلامات التي عانوا منها بسردٍ رائع وتفصيلٍ مُطعَمٍ بالدليل . ولَمَّا كان حديثه غنيّاً بالموضوعات الواعية الواقعيّة ، فمن الخليل بنا أن نورده هنا . قال السيّد المذكور في جواب الشيخ سليم البشريّ المصريّ زعيم السنّة في العالم والعميد العلميّ للأزهر حين سأله عن سبب خلوّ صحاح السنّة ومسايندهم من تلك النصوص الجليّة :

« صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَا أَنْهَى عَنْهُمْ وَأُحْرَمَهُمْ وَأُعَاقِبُ عَلَيْهِمْ ، وَهِيَ مَتْعَةُ النِّسَاءِ ، وَمَتْعَةُ الْحَجِّ ، وَحَيِّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ . وَلَعَلَّ أَهْلَ السَّنَةِ تَرَكَوهُ كَذَلِكَ كَمَا تَرَكَوْا الْمُتَعَتِّينَ . »
 (٢) كان صاحب حلب يومئذٍ عماد الدين زنكي بن مورود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر كما ذكر أبو الفداء .

(٣) كان دخول الأيوبيّ إلى حلب عام ٥٧٩ .

(٤) وعن «نسمة السّحر» أنّ الذي بناه سيف الدولة ، وذلك لأنّه رأى نوراً على مكانه وهو بأحد مناظره في حلب . فلمّا أصبح ركب إلى هناك وأمر بالحفر فوجدوا حجراً مكتوباً عليه: هذا المحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، فجمع العلويّين وسألهم ، فقال بعضهم: إنهم لمّا مروا بالسبي في حلب طرحت إحدى نساء الحسين عليه السلام بهذا الولد ، فعمره سيف الدولة .

(٥) كتب ردّاً على هذه الفتوى العلامية الحجّة السيّد عبدالحسين شرف الدين ، وهو كتابه «الفصول المهمّة» . وقد طُبِعَ مرّتين . ولو قرأته لَدَلَّكَ على علم غمر ، وتبحّر واطّلاع واسعين ، ولأوضح لك ظلم ذلك الرجل في فتواه ، وقتل أولئك المساكين ظلماً وعدواناً .
 (٦) انظر «الفصول المهمّة» ص ١٤٠ ، الطبعة الثانية ؛ ومجلّة «العرفان» ج ٢ ، ع ٦ ، ص ٢٨٦ ، من مقال للعلامة البحّاث الشيخ أحمد رضا ، عنوانه «المتأولة أو الشيعة في جبل عامل» . على النفوس والأعراض ؛ ومن تلك الفتيا التي غرّرت بأولئك على تلك الفظائع والجرائم ، فالله الخضم والحكم .

أما عدم إخراج تلك النصوص فإنما هو لشنشنة نعرفها لكل من أضمر لآل محمّد حسيكّةً ، وأبطن لهم الغلّ من حزب الفراعنة في الصدر الأوّل ، وعبّدة أولي السلطة والتغلّب الذين بذلوا في إخفاء فضل أهل البيت وإطفاء نورهم كلّ حول وكلّ طول ، وكلّ ما لديهم من قوّة وجبروت ، وحملوا الناس كافةً على مصادررة مناقبهم وخصائصهم بكلّ ترغيب وترهيب ، وأجلبوا على ذلك تارة بدراهمهم ودنانيرهم ، وأخرى بوظائفهم ومناصبهم ، ومرةً بسياطهم وسيوفهم ، يُدنونَ من كذب بها ، ويُقصونَ من صدق بها ، أو ينفونه أو يقتلونه ، وأنت تعلم أنّ نصوص الإمامة وعهود الخلافة لمّا يخشى الظالمون منها أن تدمر عروشهم وتنقض أساس ملكهم ، فسلامتها منهم ومن أوليائهم المتزلفين إليهم ، ووصولها إلينا بالأسانيد المتعدّدة ، والطرق المختلفة ، آية من آيات الصدق ، ومعجزة من معجزات الحقّ ، إذ كان المستبدّون بحقّ أهل البيت والمستأثرون بمراتبهم التي ربّهم الله فيها ، يسومون من يتهمونه بحبّهم سوء العذاب ، يخلقون لحيته ، ويطوفون به في الأسواق ، ثمّ يُرذّلونه ويُسقطونه ويحرمونه من كلّ حقّ ، حتّى ييأس من عدل الولاية ،^١ ويقنط من معاشره الرعيّة ، فإذا ذكر عليّاً ذاكراً بخير برئت منه الذمّة وحلّت بساحته النعمة ، فُتستصفى أمواله ، وتضرب عنقه ، وكم استلّوا السنّة نطقاً بفضله ، وسمّلوا أعيناً رمقته باحترام ، وقطعوا أيدياً أشارت إليه بمنقبة ، ونشروا أرجلاً سعت نحوه بعاطفة ، وكم حرقوا على أوليائه بيوتهم ، واجتثوا نخيلهم ، ثمّ صلبوهم على جذوعها ، أو

١- راجع «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ٣ ، ص ١٥ ، تجد بعض ما وقع من المحن لأهل البيت وشيعتهم في تلك الأيام ، ولإمام الباقر ثمة كلام في هذا الموضوع ، ألفت إليه الباحثين .

شردوهم عن عقر ديارهم . فكانوا طرائق قدداً .
 وكان في حَمَلَة الحديد وحفظه الآثار ، قوم يعبدون أولئك الملوك
 الجبابرة وولاتهم من دون الله عزّ وجلّ ، ويتزلفون إليهم بكلّ ما لديهم من
 تصحيف ، وتحريف ، وتصحيح ، وتضعيف ، كالذين نراهم في زماننا هذا
 من شيوخ التزلف وعلماء الوظائف وقضاة السوء ، يتسابقون إلى مرضاة
 الحكّام بتأييد سياستهم عادلة كانت أو جائرة ، وتصحيح أحكامهم ،
 صحيحة كانت أو فاسدة ، فلا يسألهم الحاكم فتوى تؤيد حكمه ، أو تقمع
 خصمه إلاّ بادروا إليها على ما تقتضيه رغبته ، وتستوجه سياسته ، وإن
 خالفوا نصوص الكتاب والسنة ، وخرقوا إجماع الأمة ، حرصاً على منصب
 يخافون العزل عنه ، أو يطمعون في الوصول إليه ، وشتان بين هؤلاء
 وأولئك ، فإنّه لا قيمة لهؤلاء عند حكوماتهم ، أمّا أولئك فقد كانت حاجة
 الملوك إليهم عظيمة ، إذ كانوا يحاربون الله ورسوله بهم ، ولذا كانوا عند
 الملوك والولاة أولي منزلة سامية ، وشفاعة مقبولة فكانت لهم بسبب ذلك
 صولة ودولة وكانوا يتعصبون على الأحاديث الصحيحة إذا تضمّنت فضيلة
 لعليّ أو لغيره من أهل بيت النبوة ، فيردّونها بكلّ شدّة ، ويسقطونها بكلّ
 عنف ، وينسبون رواتها إلى الرفض - والرفض أحبّ شيء عندهم - هذه
 سيرتهم في السنن الواردة في عليّ ، ولا سيّما إذا تشبّث الشيعة بها ، وكان
 لأولئك المتزلفين من يرفع ذكركم من الخاصّة في كلّ قطر ، ولهم من يروج
 رأيهم من طلبه العلم الدنيويين ، ومن المرّائين بالزهد والعبادة ومن الزعماء
 وشيوخ العشائر ، فإذا سمع هؤلاء ما يقولون في ردّ تلك الأحاديث الصحيحة
 اتّخذوا قولهم حجّة ، وروّجوه عند العامّة والهمج ، وأشاعوه وأذاعوه في كلّ
 مصر ، وجعلوه أصلاً من الأصول المتّبعة في كلّ عصر . وهناك قوم آخرون
 من حَمَلَة الحديث في تلك الأيام ، اضطّرهم الخوف إلى ترك التحديث

بالمأثور من فضل عليّ وأهل البيت وكان هؤلاء المساكين إذا سئلوا عمّا يقوله أولئك المتزلفون في ردّ السنن الصحيحة المشتملة على فضل عليّ وأهل البيت يخافون - من مبادهة العامة بغير ما عندهم - أن تقع فتنة عمياء بكماء صمّاء فكانوا يضطّرون في الجواب إلى اللواذ بالمعاريض من القول ، خوفاً من تألب أولئك المتزلفين ، ومروّجيههم من الخاصّة ، وتألب من ينق معهم من العامة ورعاع الناس .

وكان الملوك والولاة أمروا الناس بلعن أمير المؤمنين ، وضيقوا عليهم في ذلك ، وحملوهم بالنقود وبالجنود ، وبالوعيد والوعود ، على تنقيصه وذمه وصوّروه للناشئة في كتابيها بصورة تشمئز منها النفوس وحدثوها عنه بما تستكّ منها المسامع وجعلوا لعنه على منابر المسلمين من سنن العيدين والجمعة ، فلولا أنّ نور الله لا يُطفأ وفضل أوليائه لا يخفى ، ما وصلت إلينا السنن من طريق الفريقين صحيحة صريحة بخلافته ولا تواترت النصوص بفضله !

وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَعْجَبُ مِنَ الْفَضْلِ الْبَاهِرِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ عَبْدُهُ وَأَخَا رَسُولِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، كَيْفَ خَرَقَ نُورُهُ الْحُجُبَ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ الْمُتْرَاكِمَةِ وَالْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاطِمَةِ ، فَأَشْرَقَ عَلَى الْعَالَمِ كَالشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ .^١

أجل ، يستبين ممّا ذكرناه منهج الشيعة ومنهاجهم وسنتهم في جميع مراحل الاعتقاد والفكر والعمل في مقابل غيرهم من جميع المذاهب الأربعة والظاهرية والخوارج وسواهم . وقد جعل الشيعة أساس عملهم

١- «المراجعات» ص ١٩٤ إلى ١٩٦ ، المراجعة ٦٤ ، الطبعة الأولى ، مطبعة العرفان ،

صيدا، سنة ١٣٥٥ هـ.

دعامة الحق ، واستهدوا بالكتاب والسنة فأروا أنّ موالاة أولياء الله والبراءة من أعدائهم جزءاً لا يتجزأ من أصولهم وعقائدهم ، وعرفوا التشيع على أنّه التعبد بولاية الأئمة الاثني عشر في كافة الأمور وفي مراحل الأخذ والبطش والفكر والفعل في الحياة والممات ، بيد أنّ العامة بجميع أقسامهم وأصنافهم يرون أنّ كلام الخلفاء حجة في مقابل الكتاب والسنة ، وجعلوه من شؤونهم العملية اليومية ، وقدموا الاعتباريات على الحقائق .

إنّ الأشاعرة أغلظ من المعتزلة في الفكر والعقيدة والعمل ، والمعتزلة قرييون من الشيعة في عقائد كثيرة ، إلاّ أنّهم لا يبرأون من الشيخين ، بل يرونهما ، وعثمان ، وأمير المؤمنين عليه السلام خلفاء حقيقيين . ويذهب المعتزلة إلى أنّ معاوية رجل خبيث فاسد على عكس الأشاعرة الذين كانوا يقدّسونه ، وجميع بني أمية وبني مروان . والمعتزلة ملمون بالحكمة والمطالب العقلية والبرهان ، في حين أنّ الأشاعرة لم يقطعوا شوطاً على هذا الطريق مبدئياً ، وهم خصوم العقل والعقليّات .

يتحدّث ابن أبي الحديد المعتزليّ في شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام : **يَهْلِكُ فِي رَجْلَانٍ : مُحِبُّ مُفْرِطٌ ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ** ، فيقول : ولهذا كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز في هذه المسألة ، لأنّهم سلكوا طريقة مقتصدة : قالوا إنّ عليّاً أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلاهم منزلةً في الجنّة ، وأفضل الخلق في الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب . وكلّ من عاداه أو حاربه أو بغضه فإنّه عدوّ الله سبحانه ، وخالد في النار مع الكفار والمنافقين ، إلاّ أن يكون ممّن قد ثبت توبته ، ومات على تولىته وحبّه .

فأمّا الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله ، فلو أنّه أنكر إمامتهم ، وغضب عليهم وسخط فعلهم ، فضلاً أن يشهر عليهم

السيف ، أو يدعو إلى نفسه لقلنا : إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، لأنه قد ثبت أن رسول الله قال له : **حَرْبُكَ حَرْبِي ، وَسَلْمُكَ سَلْمِي ، وَأَنَّهُ قَالَ : اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . وَقَالَ لَهُ : لَا يُحِبُّكَ إِلَّا الْمُؤْمِنُ ، وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ !**

ولكننا رأينا رضي إمامتهم وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وأنكحهم ، وأكل من فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه .

ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه ، ولما لعنه لعناه ، ولما حكم بضلال أهل الشام ، ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابنه وغيرهما حكمننا أيضاً بضلالهم ؟!

والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك - أي : ما عدا النبوة - من الفضل المشترك بينه وبينه . ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم هو عليه السلام به .

فصل : فيما قيل في التفضيل بين الصحابة

والقول بالتفضيل - أي : تفضيل عليّ على جميع الصحابة - قول قديم قال به كثير من أصحاب رسول الله والتابعين . فمن الصحابة عمار ، والمقداد ، وأبو ذرّ ، وسلمان ، وجابر بن عبد الله ، وأبي بن كعب ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبو أيوب ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم ابن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطفيل عامر بن وائلة ، والعباس بن عبد المطلب ، وبنوه ، وبنو هاشم كافة ، وبنو عبد المطلب كافة .

وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر ، ثم رجع .

وكان قوم من بني أمية يقولون بذلك ، منهم خالد بن سعيد بن

العاص ، ومنهم عمر بن عبد العزيز . ونذكر هنا الخبر المروي المشهور عن عمر ، وهو من رواية ابن الكلبي . قال : بينا عمر بن عبد العزيز جالساً في مجلسه إذ دخل حاجبه ومعه امرأة أدماء (سمراء) طويلة حسنة الجسم والقامة ، ورجلان متعلقان بها ، ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر ، فدفعوا إليه الكتاب ، ففضّه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ميمون بن مهران ، سَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ؛ أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ وَرَدَ عَلَيْنَا أَمْرٌ ضَاقَتْ بِهِ الصُّدُورُ ، وَعَجَزَتْ عَنْهُ الْأَوْسَاعُ ، وَهَرَبْنَا بِأَنْفُسِنَا عَنْهُ ، وَوَكَلْنَا إِلَى عَالِمِهِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ^١ .

وهذه المرأة والرجلان ، أحدهما زوجها ، والآخر أبوها . وإنّ أباهما يا أمير المؤمنين زعم أنّ زوجها حلف بطلاقها أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام خَيْرٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَوْلَاهَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وأنه يزعم أنّ ابنته قد طلقت منه ، ولا يجوز له في دينه أن يتخذ صهرراً ، وهو يعلم أنّه حرام عليه كأمّه . وأنّ الزوج يقول له : كذبت ! وأثمت ! لقد برّ قسمي ، وصدقت مقالتي ، وأنّها امرأتني على رغم أنفك ، وغيظ قلبك . فاجتمعوا إليّ يختصمون في ذلك ، فسألتُ الرجل عن يمينه ، فقال : نعم ، قد كان ذلك ! وقد حلفتُ بطلاقها إنّ عَلِيّاً خَيْرٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَوْلَاهَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ ، وَأُنْكِرَهُ مَنْ أَنْكِرَهُ ، فليغضب من غضب ، وليرضى من رضي . وتسامع الناس بذلك ،

١- الآية ٨٣ ، من السورة ٤ : النساء .

فاجتمعوا له ، وكانت الألسنة مجتمعة والقلوب شتى .

وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس في أهوائهم ، وتسرعهم إلى ما فيه الفتنة . فأحجمنا عن الحكم لتحكم بما أراك الله . وإنهما تعلقا بها ، وأقسم أبوها ألا يدعها معه ، وأقسم زوجها ألا يفارقها ولو ضربت عنقه إلا أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته والامتناع منه ، فرفعناهم إليك يا أمير المؤمنين ، أحسن الله توفيقك وأرشدك !

فجمع عمر بن عبد العزيز بني هاشم وبني أمية وأفخاذ قريش ، ثم قال لأبي المرأة : ما تقول أيها الشيخ ؟! قال : يا أمير المؤمنين ، هذا الرجل زوجته ابنتي ، وجهزتها إليه بأحسن ما يجهز به مثلها ، حتى إذا أملت خيره ، ورجوت صلاحه ، حلف بطلاقها كاذباً ، ثم أراد الإقامة معها ! فقال له عمر : يا شيخ ! لعله لم يطلق امرأته ! فكيف حلف ؟!

قال الشيخ : سبحان الله ! الذي حلف عليه لأبين حنثاً وأوضح كذباً من أن يختلج في صدري منه شك ، مع سني وعلمي ، لأنه زعم أن علياً خير هذه الأمة وإلا امرأته طالق ثلاثاً . فقال للزوج : ما تقول ؟ أهكذا حلفت ؟ قال : نعم ، فقبل إنه لما قال ، كاد المجلس يرتج بأهله ، وبنو أمية ينظرون إليه شزراً ، إلا أنهم لم ينطقوا بشيء ، كل ينظر إلى وجه عمر .

فأكبَّ عمر ملياً ينكت الأرض بيده والقوم صامتون ينظرون ما يقوله ، ثم رفع رأسه وقال :

إِذَا وَلِيَّ الْحُكُومَةَ بَيْنَ قَوْمٍ أَصَابَ الْحَقُّ وَالْتَمَسَ السَّدَادَا
وَمَا خَيْرُ الْإِمَامِ إِذَا تَعَدَّى خِلَافَ الْحَقِّ وَاجْتَنَبَ الرَّشَادَا

ثم قال للقوم : ما تقولون في يمين هذا الرجل ؟ فسكتوا . فقال :

١- في «شرح الشامل» أربعة أجزاء : (الأنام).

سبحان الله! قولوا. فقال رجلٌ من بني أمية: هذا حكم في فرج، ولسنا نجترئ على القول فيه، وأنت عالم بالقول، مؤتمن لهم وعليهم، قل ما عندك، فإن القول ما لم يكن بحق باطلاً ويبطل حقاً جائزاً عليّ في مجلسي. قال: لا أقول شيئاً؛ فالتفت إلى رجلٍ من بني هاشمٍ من ولد عقيل بن أبي طالب.

فقال له: ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيليّ؟ فأغتنمها، فقال يا أمير المؤمنين! إن جعلت قولي حكماً، أو حكمي جائزاً قلت، وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لي، وأبقى للمودة. قال: قل وقولك حكم، وحكمك ماضٍ.

فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا: ما أنصغتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا، ونحن من لحمتك وأولى رحمك! فقال عمر: اسكتوا أعجزاً ولوماً! عرضت ذلك عليكم آنفاً فما انتدبتم له. قالوا: لأنك لم تعطنا ما أعطيت العقيليّ، ولا حكمتنا كما حكّمته. فقال عمر: إن كان أصاب وأخطأتم، وحزم وعجزتم، وأبصر وعميتم فما ذنب عمر، لا أبا لكم! أتدرون ما مثلكم؟ قالوا: لا ندري، قال لكنّ العقيليّ يدري، ثم قال: ما تقول يا رجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، كما قال الأوّل:

دُعَيْتُمْ إِلَى أَمْرٍ فَلَمَّا عَجَزْتُمْ

تَنَاوَلَهُ مَنْ لَا يُدَاخِلُهُ عَجْزُ

فَلَمَّا رَأَيْتُمْ ذَاكَ أَبَدْتُمْ نَفُوسَكُمْ

نَدَاماً وَهَلْ يُعْنِي مِنَ الْحَذَرِ الْحَرُزُ

قال عمر: أحسنت وأصبت! فقل ما سألتك عنه! قال: إن الزوج برّ قسمه، ولم تطلق امرأته! قال عمر: كيف عرفت هذا؟ قال العقيليّ: نشدتك الله يا أمير المؤمنين! إن رسول الله صلى الله

عليه [وآله] وسلّم قال لفاطمة وهو عائد لها : يا بُنَيَّة ! ما عليك ؟! قالت :
الوعك يا أبتاه . وكان عليّ غائباً في بعض حوائج النبيّ صلّى الله عليه [وآله]
وسلّم . فقال لها : أتشتهين شيئاً ؟! قالت : أشتهي عنباً ، وأنا أعلم أنّه عزيز ،
وليس الوقت وقت عنب .

قال النبيّ صلّى الله عليه [وآله] : إنّ الله قادر على أن يجيئنا به . ثمّ
قال : اللَّهُمَّ ائْتِنَا بِهِ مَعَ أَفْضَلِ أُمَّتِي عِنْدَكَ مَنزِلَةً . فطرق عليّ الباب ، ومعه
مكتل قد ألقى عليه طرف رداءه .

فقال النبيّ : ما هذا يا عليّ ؟! قال : عنب التمسسته لفاطمة ! فقال
النبيّ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُمَّ كَمَا سَرَرْتَنِي بِأَنْ خَصَصْتَ عَلِيّاً بِدَعْوَتِي
فَجَعَلْ فِيهِ شِفَاءَ بُنَيَّتِي ! ثمّ قال : كُلِّي على اسم الله ! وما خرج النبيّ حتّى
برأت .

فقال عمر : صدقتَ وبررتَ ! أشهد لقد سمعته ووعيته . يا رجل خذ
بيد امرأتك ، فإن عرض لك أبوها ، فاهشم أنفه . ثمّ قال : يا بني عبد مناف !
والله ما نجعل ما يعلم غيرنا ، ولا بنا عمى في ديننا ، ولكننا كما قال الأوّل :

تَصَيَّدَتِ الدُّنْيَا رِجَالًا بِفَخِّهَا

فَلَمْ يُدْرِكُوا خَيْرًا بَلِ اسْتَقْبَحُوا الشَّرَّ

وَأَعْمَاهُمْ حُبُّ الْغِنَى وَأَصَمَّهُمْ

فَلَمْ يُدْرِكُوا إِلَّا الْخَسَارَةَ وَالْوِزْرَا

وكأنّما ألقم بني أميّة حجراً ، ومضى الرجل بامرأته .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ميمون بن مهران :

عَلَيْكَ سَلَامٌ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . أمّا بعد ؛ فإني

قد فهمتُ كتابك ، وورد الرجلان والمرأة ، وقد صدّق الله يمين الزوج ،
وأبرّ قسمه ، وأثبتته على نكاحه ، فاستيقن ذلك ، واعمل عليه ، والسلام

عليك ورحمة الله وبركاته .

فأما من قال بتفضيله على الناس كافة من التابعين فخلق كثير كأويس القرنيّ ، وزيد بن صوحان ، وصعصعة أخيه ، وجندب الخير ،^١ وعبيدة السلمانيّ ، وغيرهم ممن لا يُحصى كثرةً ، ولم تكن لفظة الشيعة تُعرف في ذلك العصر إلا لمن قال بتفضيله . ولم تكن مقالة الإمامية ومن نحا نحوها من الطاعنين في إمامة السلف مشهورة حينئذٍ على هذا النحو من الاشتهار ، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمّون الشيعة . وجميع ما ورد من الآثار والأخبار في فضل الشيعة ، وأنهم موعودون بالجنة ، فهؤلاء هم المعنيّون به دون غيرهم ، ولذلك قال أصحابنا المعتزلة في كتبهم وتصانيفهم : نحن الشيعة حقاً . فهذا القول هو أقرب إلى السلامة وأشبه بالحق من القولين المقتسمين طرفي الإفراط والتفريط إن شاء الله .^٢

١- في نسخة: «حبيب الخير» .

٢- «شرح نهج البلاغة» ج ٢٠ ، ص ٢٢٠ إلى ٢٢٦ ، شرح الحكمة ٤٧٦ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وفي طبعة دار الكتب العربيّة الكبرى ، مصطفى الباي الحلبيّ : ج ٤ ، ص ٥٢٠ إلى ٥٢٢ .

وقد أشرنا إلى أنّ ابن أبي الحديد المعتزليّ كان يعدّ نفسه شيعياً على أساس الأحاديث النبويّة الثابتة المأثورة في فوز الشيعة ونجاتهم . بيد أنّ أعظم الشيعة لا يرونه شيعياً ويذهبون -بعامة- إلى أنّ المعتزلة هم شركاء الأشاعرة وهم قسم من أهل السنّة . وشرط التشيّع الإقرار بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام ووصايته وولايته بلا فصل . فكلّ من قال بخلافة الشيعيين وعثمان فهو ليس شيعياً . وكذلك كلّ من لا يبرأ منهم ومن نهجهم . وما قاله ابن أبي الحديد إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يخالفهم كذب محض . فالتأريخ كلّهُ والأخبار والآثار والسير والخطب ، بل شرحه على «النهج» ، كلّ ذلك مشحون باعتراضات الإمام على الحكومة الجائرة لأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وبيعة الإمام لهم بعد سنّة أشهر لا تدلّ على الرضا والقبول ، إذ كانت على أساس المصلحة الخارجيّة كما صرّح نفسه عليه السلام .

وقال العالم البصير والمحقق الخبير المعاصر الشيخ محمد جواد مغنّية بعد أن ذكر الكلام المتقدم عن «شرح نهج البلاغة» مفصلاً: وكان من نتيجة هذه الحادثة وغيرها أن دس الأمويون السمّ لعمر بن عبد العزيز، كما فعلوا من قبل بمعاوية الثاني، لأنهم لا يطيقون أن يكون بينهم من يناصر الحقّ وأهله. لقد تعجّلوا عليه خشية أن يعرف الناس من فضل عليّ ما يعرف الأمويون، فيتفرّقوا عنهم إلى أولاد أمير المؤمنين عليه السلام. كما قال عبد العزيز الأمويّ الذي كان يتلعثم عند ذكر سيّد الكونين، وهو الخطيب البليغ. خاف الأمويّون من الحقّ، لأنّه يسلبهم الملك والسلطان، وهابوا العدل، لأنّه يقضي عليهم بالموت، لذا حاولوا إخفاء الحقّ قبل أن يقضي عليهم، ولكن مهما حاول المشعوذون والمنحرفون إخفاءه فلا بدّ أن يظهر وينتصر، ويكشف أمر المبطلين.

وقال قائل: إنّ عمر بن عبد العزيز رجل عادي، وإنّما عظم أمره لأنّه أعور بين عميان كما قال المنصور، قام عمر بعد قوم بدّلوا شريعة الدين وسنن النبيّ، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالإسلام ما لم يسبق بمثيل، أو يجرّ بحُسابان، وحسبك من ذلك أنّهم كانوا يعلنون سبّ عليّ على المنابر، فلمّا نهى عنه عمر عدّ محسناً، بل جعل في عداد الأئمّة الراشدين، ويشهد لذلك قولٌ كثير.

وَلَيْتَ وَلَمْ تَشْتَمْ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ بَرِيًّا وَلَمْ تُتْبِعْ مَقَالََةَ مُجْرِمٍ

وبكلمة: إنّ عمر استمدّ حسناته من سيئات غيره.

والجواب: إنّ هذا القائل أراد أن يحطّ من مكانة عمر فدلّ كلامه على عكس ما أراد، لقد عرفنا وعرف التاريخ كثيرين نشأوا في بيت صلاح وتقى وأفنوا حياتهم في دراسة علوم الإسلام والقرآن، ومع ذلك رأيناهم ينحرفون عن طريق الدين، ولا يصمدون أمام المغريات الشيطانية

والشهوات الدنيوية ، أما عمر فقد تمرّد على بيئته وقومه ، وتعالّت نفسه عن عاداتهم وتقاليدهم ولم تغترب بشهوة الحكم وفتنة السلطان ، وهنا مكان عظّمته وسرّ عبقريته ، نقم عمر على آبائه وأجداده ، وشهد عليهم بالفعل قبل القول بأنهم ضالّون مضلّون ، ولم يكثر بما تجرّه هذه الشهادة عليه من المتاعب والمصاعب .

لذلك نحن نُكبره ونعظّم فيه يقظة الضمير . وقوة الإيمان والجهاد في سبيل الحقّ ، والتمرّد على الباطل ، باطل أهله وبيته . والسلام على روحه الطيّب ، وبدنه الطاهر ، لقد كانت سيرة ابن عبد العزيز انقلاباً في السياسة الأموية ، وإصلاحاً جذرياً لما أفسد الأمويّون ، وهذه فضيلة لا يُدانيتها شيء ، ومكرمة لا يعادلها إلاّ الجهاد بين يديّ الرسول الكريم .

وتحدّث مغنيّة أيضاً تحت عنوان «أدب الشيعة في الشعر وخدمته للأدب العربيّ» عن الأحاسيس والعواطف وتصاعد الغضب والمحن التي حلّت بالشيعة وقد جسّدها شعراؤهم في قالب النثر والنظم أمثال : دعبل ، وابن الروميّ ، وأبي فراس الحمدانيّ . وقد أضفوا على العربيّة وأدبها حُلّة جميلة وخلعة رائعة حقّاً ، وواصل كلامه ، إلى أن قال :

ونختم هذا الفصل بكلمتين : احدهما لمحمّد سيّد كيلاني قالها في كتابه «أثر التشيع في الأدب العربيّ» ص ٢٢ ، طبعة القاهرة ، لجنة النشر للجامعيّين :

جاء الأدب الشيعيّ صورة صادقة لما وقع على العلويّين من اضطهاد . فقد قُتل عليّ وأصبح آله يُستذلّون ، ويضامون ، ويُقصون ويمتهنون ، ويُحرّمون ويُقتلون ، ويخافون ولا يأمنون على دمائهم ودماء أوليائهم ، فقتل أنصار عليّ في كلّ قطر وكلّ مصر وعُدّبوا تعذيباً مرّاً ، قطعت منهم الأيدي والأرجل .

ومن ذكر علياً سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره ، وكان البلاء يشتدّ على العلويين يوماً بعد يوم . فمن دفن الناس أحياء إلى الصلب إلى الحرق إلى الحبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس ، حتى يقضي نحيبه جوعاً وعطشاً . وكانوا يصلّبونهم ويتركونهم حتى تنبعث منهم الروائح الكريهة ، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء وحرّموا على الناس أن يسمّوا أبناءهم علياً أو حسناً أو حسيناً .

وكان العباسيون أشدّ كرهاً للعلويين من الأمويين وأعظم بغضاً ، فأمنعوا فيهم قتلاً وحرقاً ، واضطهاداً وتعذيباً ، فأمر المنصور ، فحُمِل إليه من المدينة كلّ من كان فيها من العلويين مقيدين بالسلاسل والأغلال ، ولما وصلوا إليه حبسهم في سجن مظلم لا يُعرف فيه ليل من نهار ، وكان إذا مات أحدهم ترك معهم ، وأخيراً أمر بهدم السجن عليهم ، وفي ذلك يقول أحد شعراء الشيعة :

وَاللّهِ مَا فَعَلْتَ أُمِّيَّةً فِيهِمْ مَعْشَرَ مَا فَعَلْتَ بَنُو الْعَبَّاسِ

وقال أبو فراس :

مَا نَالَ مِنْهُمْ بَنُو حَرْبٍ وَإِنْ عَظُمَتْ

تِلْكَ الْجَرَائِمُ إِلَّا دُونَ نَيْلِكُمْ

وقال الشريف الرضي :

أَلَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ عَلَا عَلَى قُبْحِ فِعْلِ الْأَخْرِينِ بَزَائِدِ

وقد بالغ الرشيد في التنكيل بالعلويين ، ولم يخفّ الضغط عليهم إلا حين ضعفت الخلافة العباسية ، وأصبح السلطان الفعلي في الممالك الإسلامية للترك والديلم وبني حمدان . كلّ هذه النكبات قد أثرت تأثيراً كبيراً في الأدب الشيعي نثره وشعره .

والثانية لعبد الحسين طه حميدة قالها في كتاب «أدب الشيعة»

ص ٣٢٨ ، طبعة ١٩٥٦م : في الحق أنّ حركة التشيع أغنت الأدب العربيّ إلى حدّ كبير ، وساهم أدباؤه في بناء النهضة الأدبية مساهمةً مشكورةً بما انتحوا من أدب و آثاروا من خصومة .

وقد رأينا كيف كان الأدب الشيعيّ جزل اللفظ ، محكم النسج ، رصين العبارة ، صادق الأداء ... صورة ناطقة لنفسيات قومه وعواطفهم وسجلاً خالداً لحياتهم وعقائدهم ، وتصويراً رائعاً لما أصابهم من محن وحلّ بساحتهم من نكبات .

وعلمنا مصادر الإلهام لهذا الأدب الكريم ، فهو نتاج عاطفتين : عاطفة الحزن ، وعاطفة الغضب ، وخلاصة ثقافات مختلفة ، عربية وأعجمية ، مزجها الإسلام روحاً ومعنى ، ونقل أصحابها ذاتاً ووطناً ، وأخضعهم لسلطانه إخضاعاً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد .

... ثمّ كان الأدب الشيعيّ أصدق ما تمثّلت فيه هذه الثقافات ، إذ كان الحزب الشيعيّ لأسباب سياسية ودينية أكبر حزب جمع هذه العناصر ، فأغنى بذلك النتاج الشيعيّ ، وكان الأدب الناتج عنهم أدباً غزيراً قوياً تصدره عاطفة وقلب وعقل ، وتتضح عليه ثقافات العراق المعرّقة في الرقيّ المتعدّدة المشارب ، فاستفاد الأدب العربيّ من هذه الناحية ، وعزّزت مادّته ، واتّسعت معانيه وأغراضه .

ترى ذلك واضحاً في هذه العقائد الشيعية التي شرحناها قبلاً ، ورأينا أثرها في الأدب ، وأدركنا إلى أيّ حدّ كان التشيع مجازاً لنقل هذه العقائد المختلفة إلى الحياة العربية ، والعقلية العربية ، والأدب العربيّ ، وتلك ولا شكّ مساهمة في المجهود الأدبيّ لم تكن لولا التشيع .

وأخرى من ناحية التأثير أنّ الموقف الذي وقفته الدولة من الشيعة من شأنه أن يلهب العاطفة ، ويثير الوجدان ، ويخلق فناً جديداً من القول ،

ومسرحاً جديداً للخيال ، وقد تمثل ذلك في الأدب السياسي والعاطفي .
 وظهر أوّل ما ظهر ، وأقوى ما ظهر في الأدب الشيعي ، أدب النفس الثائرة
 والعاطفة الصادقة والحب المتأجج ، أدب العقيدة ، كما قلنا ، فبنى الشيعة
 بذلك ركناً من الحضارة الأدبية باذخاً وشديداً ، وكان لهم أكبر الفضل في
 النهوض بهذه الناحية العاطفية والسياسية^١ .

في وقت كان الأدب الرسمي فيه تطغى عليه الرغبات المادية
 والمعنوية وتصرفه عوامل الرجاء والخوف ، وتلهب نفوس أصحابه سيئات
 العطايا . وإنك لتلمس ذلك فيما صوّره الشيعة من آلام ، وشرحوا من حُجَج ،
 وكشفوا من مظالم ، وأثاروا من أحقاد ، دفاعاً عن عقيدتهم وجهاداً في

١- من الأدب الشيعي البراءة من أعداء الله والرسول وأهل البيت ، إذ يُلعن هؤلاء بعد
 الصلاة على محمد وآله . وتُذكر أنّ البراءة من أعداء آل محمد واللعنة عليهم من الموضوعات
 التي يدعمها الدليل والبرهان ، وترتوي من الأدلة العقلية والنقلية البرهانية والشواهد
 الوجدانية ، ولا براء ولا ريب في رسوخها . فالتشيع مع الموالاتة بلا معادة ليس تشيعاً
 حقيقياً . والاستنفاع بلا دفع للضرر عبث وهراء . والاختلاط بالصديق والعدو في بيت واحد
 والمساواة بينهما في النظرة يعنيان دمار البيت . وكثير من العامة -كابن أبي الحديد
 والمسعودي ، وغيرهما- الذين استجابوا للولاء تماماً لكنهم قصّروا في البراءة من المخالفين
 والغاصبين ليسوا شيعة . وكثير من الأشخاص الذين ألفوا كتباً في مناقب الأئمة عليهم السلام
 كالحموي ، والزرندي ، وابن الصباغ ، والحاكم الحسكاني ، وغيرهم ليسوا شيعة لأنهم
 لا يخضعون لولاية أئمة الشيعة ، ولا يتبعون منهاجهم ، ولا يبرؤون من أعدائهم . قال
 المرحوم آية الله السيد شرف الدين العاملي في رسالته «إلى المجمع العلمي بدمشق» ص ٣٥
 و٣٦: ... فإنّ التشيع من أول أيامه إلى يوم القيامة ليس إلا التمسك بالثقلين : كتاب الله عزّ
 وجلّ ، وأئمة العترة الطاهرة ؛ والانقطاع إليهما في أصول الدين وفروعه ، وفي كلّ ما يتصل
 به ، أو يكون حوله مع موالاتة وليّهم في الله ، ومعادة عدوهم في الله عزّ وجلّ . هذا هو
 التشيع الذي كان عليه السلف الصالح منّا ، والخلف البارّ من عهد عليّ وفاطمة بعد رسول الله
 حتّى يقوم الناس لرّب العالمين .

سبيل قضيتهم^١.

وتحدّث مغنيّة عن الوليد وسليمان نجلي عبد الملك بإيجاز ، وذكر استبانة نتائج الانحراف عن الولاية والثمرة الخبيثة للشجرة الملعونة ، وللبنة المعوجة لأوّل نقطة لانتهاك القرآن الكريم والنبّي العظيم والأولياء الأبرار من ذرّيته . وهذه سلسلة متّصلة .

الوليد بن عبد الملك

مات عبد الملك سنة ست وثمانين هجرية . وكانت ولايته إحدى وعشرين سنةً ، وشهراً ونصفاً وتولّى بعده ابنه الوليد . قال المسعودي : كان الوليد جبّاراً عنيداً ، ظلوماً غشوماً .

وكان قد أوصاه أبوه أن يكرم الحجّاج ويلبس جلد نمر ، ويضع سيفه على عاتقه ، فمن أبدى ذات نفسه ضربت عنقه . ونفّذ الوليد وصيّة الوالد ، فأطلق يد الحجّاج بالتقتيل والتنكيل ، تماماً كما فعل أبوه ، وفي أيّام الوليد قتل الحجّاج سعيد بن جبير .

وروى ابن الأثير حكاية تدلّ على مكانة الحجّاج عند الوليد ، وقرب منزله منه ، قال : مرض الوليد مرضةً أُغمي عليه يوماً ، وظنّوا أنّه قد مات ، ولمّا بلغ الخبر إلى الحجّاج شدّ في يده حبلاً إلى إسطوانة ، وقال : اللهم طالما سألتك أن تجعل منيّي قبل الوليد . وحين أفاق الوليد قال : ما أجد أشدّ سروراً بعافيتي من الحجّاج !

وكان عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة من قبل الوليد ، وكان ملجأً لكلّ مظلوم يأوي إليه الهاربون من ظلم الحجّاج في العراق ، فكتب

١- «الشيعة والحاكمون» ص ١٧٩ إلى ١٨٢ .

كتاباً إلى الوليد يشكو عسف الحجاج وإعتدائه على أهل العراق ، فعزله الوليد إرضاءً للحجاج ولم يكتف بذلك بل طلب من الحجاج أن يسمي من يشاء لتولية الحجاج فأشار عليه بالجلاد خالد بن عبد الله القسري ، فولاه على مكّة المكرّمة .

قال ابن الأثير في حوادث سنة تسع وثمانين : في هذه السنة ولي خالد بن عبد الله القسري مكّة ، فخطب أهلها ، وقال : أيّها الناس أيّهما أعظم خليفة الرجل على أهله - أي الوليد - أو رسوله إليهم - أي إبراهيم - ؟! والله لم تعلموا فضل الخليفة ... إنّ إبراهيم خليل الرحمن استسقاها ، فسقاها ملحاً أجاجاً واستقى الخليفة فسقاها عذّباً فراتاً - يعني بالملح زمزم ، وبالفرات بئر حفرها الوليد - وكان خالد ينقل ماء البئر التي حفرها الوليد ، ويضعها في حوض إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم ، فغارت البئر وذهب ماؤها . وقال صاحب «الأغاني» ج ١٩ ، ص ٥٩ وما بعدها : إنّ خالداً هذا كان يسمي ماء زمزم أمّ الجعلان^١ وأتته سعد المنبر ، وقال : إلى كمّ يغلّب باطلنا حقكم ؟! ... أما أنّ لربكم أنّ يغضب لكم ؟! ... لو أمرني أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجراً ونقلتها إلى الشام ! والله لأمير المؤمنين أكرم على الله من أنبيائه .

ثمّ قال صاحب «الأغاني» : كان خالد زنديقاً ، وأمّه نصرانيّة ، فكان يُولي النصارى والمجوس على المسلمين ، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم ، وقد أباح للنصارى أن يشترروا الجوارى المسلمات وينكحوهنّ .

١- في «أقرب الموارد» الجعل كصرد : ضرب من الخنافس تضرّ به ريح الورد . قال

المتنبّي :

* كما تضرّ رياح الورد بالجعل *

وقال المستشرق الألماني فلهوزن في كتاب «تاريخ الدولة العربية» ص ٣١٩: إنَّ خالداً حين أصبح والياً بالكوفة بنى لأمه كنيسة في ظهر قبلة المسجد، وحُكيت عنه فضائح تقشعرّ منها الأبدان، وكان في حدائته يتخنّث ويسعى بين الشباب والناس، وأنّه نال من كرامة الكعبة والنبوي وأهل بيته والقرآن، وقال: لا يوجد رجلٌ عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب. ثم قال فلهوزن: وإنّه زنديق كافر فاسق.

وما كان الأمويون يركنون إلى أحدٍ، أو يولون أحداً إلا إذا كان كافراً على شاكلتهم، يفضّلهم على محمّد وجميع الأنبياء والمرسلين.

وبالتالي، فلا شيء أصدق في الدلالة على طغيان الوليد من اعتماده على الحجّاج، وإقراره على ما كان عليه أيتام أبيه عبد الملك.

سأل سليمان بن عبد الملك يزيد بن مسلم عن الحجّاج، وحاله يوم القيامة، فقال له: يأتي غداً عن يمين أبيك عبد الملك، ويسار أخيك الوليد، فاجعله حيث شئت.

سليمان بن عبد الملك

مات الوليد سنة ستّ وتسعين، وكانت أيامه تسع سنين وشهراً، وقام مكانه أخوه سليمان، وكان رجلَ طعامٍ ونكاح.

قال المسعودي: كان سليمان صاحب أكلٍ كثيرٍ يجوز المقدار... يأكل في كلّ يوم مائة رطلٍ^١ عراقي، وكان ربّما أتاه الطبّاخون بالسفافيد

١- قال في «أقرب الموارد»: الرطل بالفتح ويكسر: اثنتا عشرة أوقية - انتهى. ولمّا كانت الأوقية أكثر من ربع الكيلو قليلاً فإنّ الحُقّة وهي أربع أوقيات أكثر من الكيلو. والمائة رطل عراقيّ الذي كان يأكله سليمان كلّ يوم يزيد على ثلاثمائة كيلوغرام.

- حديد يُشوى عليه اللحم - التي فيها الدجاج المشوية ، فيلتهمها ، وكان يقبض على الدجاجة بكمه وهي حارة فيفصلها ! وخرج يوماً من الحمام ، فاستعجل الطعام فقدم له عشرون خروفاً فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ، ثم قرب بعد ذلك الطعام ، فأكل مع ندمائه ، كأنه لم يأكل شيئاً . وكان يتخذ سلال الحلوى ، ويجعلها حول مرقده فإذا أفاق من نومه يمدّ يده فلا تقع إلا على سلّةٍ يأكل منها .

وبقي سليمان في الحكم سنتين وأشهرًا ، ولو امتدّت به الحياة لفعل مثل ما فعلوه ، ومع ذلك فقد أقرّ ولاية خالد بن عبد الله القسريّ خليفة الحجاج في القسوة والبغي .

قال صاحب «العقد الفريد» في ج ٤ ، ص ١٩١ ، طبعة ١٩٥٣ م : صعد خالد المنبر يوم الجمعة ، وهو والي مكة في عهد سليمان ، فذكر الحجاج وأثنى عليه .

وقتل سليمان الفاتح العربيّ الكبير موسى بن نصير الذي فتح بلاد المغرب كلها والأندلس ، إسبانيا والبرتغال اليوم ، قتله لأنّه أعطى الغنائم للوليد ولم يؤخرها إلى أن يتولّى سليمان الحكم ، وقتل قتيبة بن مسلم الذي امتدّت فتوحاته من بلاد فارس إلى الصين ، وسبب قتله أنّه وافق الوليد على خلع سليمان من ولاية العهد .

وبالجملة ، إنّ سليمان لا يختلف في شيء عمّن تقدّمه من حكام أمية ، غير أنّ الظروف لم تُمهله ، حتّى يفعل أكثر ممّا فعل ، ويدلّ على ذلك أنّ معاوية بن أبي سفيان ذكر في مجلسه فصلّى على روحه ، وأرواح من سلف من آبائه ، وقال : والله ما رُئي مثل معاوية ! ترخّم سليمان على معاوية ، وصلّى على روحه ، لأنّه لم ير أحداً أقدر منه على المكر والخيانة ، ولا أجراً على العسف والظلم .

هذه هي الروح الحقيقية للأمويين لا يعجبها شيء إلا الخداع والبهتان والجور والطغيان.^١
وقال الشيخ مغنيّة أيضاً في الشيعة ومعاوية أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

معاوية

إنّ لمعاوية ما أثر لا يُحصى عديدها ، منها : أنّه ملعون على لسان الله ونبيّه . فلقد فسّر المفسّرون الشجرة الملعونة في القرآن ببني أمية . وراه النبيّ يوماً يقود أخاه يزيد ، فقال : لَعَنَ اللَّهُ الْقَائِدَ وَالْمَقُودَ .
ومنها : أنّه يموت على غير الإسلام برواية عبد الله بن عمر الذي قال : سمعتُ رسول الله يقول : يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ يَمُوتُ عَلَى غَيْرِ سُنَّتِي ! فطلع معاوية .
ومنها : أنّه رأس الفئة الباغية التي قتلت عمّاراً .
ومنها : أنّه ابن من قاد الحروب ضدّ الرسول وأنّه ابنُ آكلةِ الأكباد .
ومنها : أنّه شرب الخمر ، وهو يحكم باسم الإسلام . («دلائل الصدق» ج ٣ ، ص ٢١٣ ، نقلاً^٢ عن «مسند أحمد»).

١- «الشيعة والحاكمون» ص ١٠١ إلى ١٠٤ ، الطبعة الثانية.

٢- قال آية الله الحكيم الشيخ محمّد حسن المظفر في كتاب «دلائل الصدق» ج ٣ ، ص ٢١٢ و ٢١٣ ، القسم الأوّل ، بوذرجمهري ١٣٧٣ هـ : ولا أعجب من عمر فإنّه أظهر الشكّ في معاوية ثمّ ما برح حتّى أوكل الأمر إلى هواه ، فقال : لَا آمُرُكَ وَلَا أَنْهَاكَ ! وهل يشبهه على عمر سوء أعمال معاوية وهو مهتوك الستر ؟ قال ابن أبي الحديد في شرح كتاب لأ مير المؤمنين إلى ابن العاص يقول فيه : فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيْبُهُ مَهْتُوكٌ سِتْرِهِ ... إلى آخره («شرح نهج البلاغة» ج ٤ ، ص ٦٠ ، الطبعة الثانية ، وفي الطبعة ⇨

ومنها: إلحاق ابن السفاح بغير أبيه .
ومنها: دسه السم بالعسل لقتل الأولياء والصلحاء ، وقوله : **إِنَّ لِلَّهِ جُنُوداً مِنْ عَسَلٍ** .
ومنها: جمعه للصوص وقطاع الطرق ، ومدّهم بالقوة والسلاح للسلب والنهب ، وقتل النساء والأطفال ، وإحراق البيوت على أهلها .

⇐ الجديدة: ج ١٦ ، ص ١٣١).

قال : «أما مهتوك ستره ، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة ، صاحب جلساء وسَمَّار ، ومعاوية لم يتوقّر ، ولم يلزم قانون الرئاسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين عليه السلام ، واحتاج إلى الناموس والسكينة ، وإلا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك ، موسوماً بكل قبيح . وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه ، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج ، ويشرب في آنية الذهب والفضّة ، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بهما ، وعليهما جلال الديباج والوشي ، وكان حينئذ شاباً وعنده نزق الصبا وأثر الشبيبة ، وسكر السلطان والإمرة . ونقل الناس عنه في كتب السيرة : أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان بالشام . وأما بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام واستقرار الأمر له ، فقد اختلف فيه . فقيل : إنه شرب الخمر في ستر ، وقيل : لم يشرب . ولا خلاف أنه سمع الغناء ، وطرب عليه ، وأعطى ، ووصل عليه» .

قال آية الله المظفر بعد كلام ابن أبي الحديد الذي انتهى عند هذه النقطة : الظاهر شربه لها بعد استقرار الأمر له في المسند (ج ٥ ، ص ٣٤٧) عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش ، ثم أتينا بالطعام فأكلنا ، ثم أتينا بالشراب ، فشرب معاوية ، ثم ناول أبي ، قال : ما شربته منذ حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله . فإن مثل بريدة لا يُعْضِي عن معاوية لولا خوفه منه واستقرار الأمر له ، مضافاً إلى ما في تتمّة الحديث قال (أي : عبد الله) : ثم قال معاوية : كنت أجمل شباب قريش ، وأجوده ثغراً ، وما شيء كنت أجده له لذة ، كما كنت أجده وأنا شاب ، غير اللبن ، أو إنسان حسن الحديث يحدثني ، فإن هذا الكلام ظاهر في بلوغه سن الشيخوخة ، وذهاب اللذات عنه ، سوى لذتي اللبن والحديث الحسن ، فلا يجد لذة الخمرة - وقد شاخ - كما كان يجدها وهو شاب ،
فيا سواة له ولمن يواليه !

- ومنها: تفتنه في المكر والكذب والخداع.
- ومنها: كرهه الشديد لأهل الحق والعدل.
- ومنها: إعلانه السب واللعن لأولياء الله.
- ومنها: تحويله الخلافة إلى وراثته.

لهذه الأسباب ولغيرها لم يجد معاوية ما يتذرّع به لطلب الخلافة من سابقةٍ أو منقبةٍ أو حديثٍ إلا قول الرسول الأعظم: **لَا أَشْبَعَ اللَّهُ لَهُ بَطْنًا**^١ فانتحل دم عثمان، ونشر قميصه مع أصابع زوجته نائلة على المنبر، وأسعفته عائشة وجملها، وقطام وابن ملجمها، والخوارج ومروقههم، وأهل الشام وغباوتهم، وأهل العراق وتخاذلهم، والطامعون وأساليبيهم، وصلابة الإمام في دينه، ومعاوية في كفره. كل هذه وما إليها كانت عوامل هامة وفعالة في وصول معاوية إلى الخلافة، وتسميته بدهية العرب. لقد انتفع معاوية بالظروف والمناسبات، وكان أهمها قميص عثمان الذي أصبح مضرب الأمثال.

قال المستشرق الألمانيّ يوليوس فلهوزن في كتاب «تاريخ الدولة العربيّة» ص ١٢٩، طبعة ١٩٥٨م: «كان الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذي بنى عليه معاوية حقّه في وراثته الخلافة، أمّا بأيّ معنى قام الثأر لعثمان فهو يتجلّى في أنّه من أجل ذلك اتّحد مع عمرو بن العاص الذي ألّب على عثمان أحبّ تأليب، ولم تكن التقوى ولا البرّ بعثمان باعثاً لمعاوية».

١- قال مغنيّة في الهامش: ذهب النسائيّ إلى دمشق - وهو أحد أصحاب الصحاح الستّة عند السنّة - فقبل له: حدّثنا عن فضائل معاوية. فقال: أما يرضى معاوية رأساً برأس، حتّى يفضّل؟! وقال: لا أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله بطنه، فداوسه بالأرجل، ومات بسبب ذلك.

دافع عليّ عن عثمان ، وحرّض على قتله طلحة ، والزبير ، وعائشة ، ومعاوية ، وابن العاص . ولما قُتل ثاروا على الإمام ، وطالبوه بدمه ، فُقُتل طلحة ، والزبير ، وعُقر الجمل ، وآبت صاحبتة بالخذلان ، وسلم معاوية ، وابن العاص بعد أن رفعا المصاحف . ولولاها لوردا مورد الجمل وأصحابه . ورجع معاوية من صفّين ليدبّر الاغتيالات والغارات ضدّ عليّ وشيعته .

غارات القتل والتخريب

كانت الأمصار الإسلاميّة بكامل أطرافها في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ما عدا الشام ، حيث يوجد معاوية .

فالعراق والحجاز واليمن ومصر وفارس وغيرها كان عليها ولاة يحكمونها ويديرون شؤونها من قبل الإمام .

فجمع معاوية حوله الأشقياء الجالدين ، والبغاة من قطع الطرق والمخربين أمثال النعمان بن بشير ، ويزيد بن شجرة ، وعبد الرحمن بن قباث ، وزهير بن مكحول ، ومسلم بن عقبة ، وسفيان بن عوف ، وبسر بن أرطاة ، والضحّاك بن قيس ، وغيرهم وغيرهم ، وأمّدهم بالخيال والرجال ، والسلاح والمال ، وأمرهم بالغارة على البلاد الآمنة التابعة للإمام ، وأوصاهم أن ينشروا الفوضى والفساد ، ويحدثوا التخريب والذعر .

سفيان بن عوف الغامديّ

دعا معاوية سفيان بن عوف ، وقال له : إنّي موجّهك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة ، فالزم لي جانب الفرات ، حتّى تمرّ بهيت فتقطعها فإن وجدت بها جنداً فأغر عليها ، وامض ، حتّى تغير على الأنبار ، فإن لم تجد بها جنداً ، فامض حتّى توغل المدائن ، ثمّ أقبل إليّ ، واتق أن تقرب

الكوفة ، واعلم أنك إن أغرت على الأنبار وأهل المدائن ، فكأنك غرت على الكوفة ، إن هذه الغارة يا سفيان على العراق ترعب قلوبهم ، وتُفرح كل من له فينا هدى منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر ، فاقتل من لقيته ممن ليس على مثل رأيك ، واخرب كل ما مررت به من القرى ، واحرب الأموال فإن حرب الأموال - أي : اسلبها - شبيهة بالقتل وهو أوجع للقلب ... («شرح ابن أبي الحديد» ج ١ ، ص ١٤٤ ، الطبعة القديمة) .

وامتثل سفيان أمر سيده ، فحمل بخيله على الآمنين ، وملاً البيوت والأزقة بجثث القتلى . وحمل ما وجد من الأموال ، ورجع إلى معاوية ، وقال له فيما قال :

وَاللَّهِ مَا غَزَوُهُ أَقْرَبَ لِلْمُيُونِ وَلَا أَسْرَّ لِلنُّفُوسِ مِنْهَا ، وَلَقَدْ أَرَعَبْتُ قُلُوبَ

النَّاسِ !

فقال له معاوية : كُنْتَ عِنْدَ ظَنِّي بِكَ !

ونذب الإمام أهل الكوفة لدفع العدوان عنهم ، فتثاقلوا ، فخرج وحده يمشي راجلاً ، فلحق به قوم ، وقالوا : ارجع يا أمير المؤمنين ، ونحن نكفيك ، فقال : ما تكفوني ولا تكفوا أنفسكم ، فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله ، وهو واجم كئيب . ثم خاطبهم بخطبة جاء فيها :

... أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَقُلْتُ لَكُمْ : اغزؤهم قبل أن يغزؤكم . فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا !

فتواكلتم وتخاذلتم حتى شئت عليكم الغارات ، ومليكت عليكم الأوطان !

وهذا أخو غامد - أي سفيان - قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحتها . وقد بلغني أن

الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهَدَةَ ، فَيَتَنَزَّعُ حِجْلَهَا وَقَلْبَهَا - أَي سَوَارَهَا - وَقَلَائِدَهَا وَرِعَائِهَا - الْقُرْطَ - مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالْأَسْتِرْجَاعِ وَالْأَسْتِرْحَامِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافْرِينَ ...

فِيَا عَجَبًا ! وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنْ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ...

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ ! وَلَا رِجَالَ ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُوقُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمُ ، وَلَمْ أَعْرِفَكُمُ ...

قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا ، وَشَحَحْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا ... وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِضْيَانِ وَالْخِذْلَانِ ... وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ !^١

وهكذا ابتلي الإمام بعدو كعواوية يغدر ويفجر ، ويستبيح الدماء ، ونهب الأموال وهتك الأعراض ، وبأصحاب كاهل الكوفة متواكلين متخاذلين ، يُغزون في عقر دارهم فيذلون ويستكينون ، ويفرون ولا يكرّون !

الضحّاك بن قيس الفهريّ

دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفهريّ ، وقال له : سرّ حتى تمرّ بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فمن وجدته من الأعراب في طاعة عليّ ، فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً ، فأغر عليها ، وإذا أصبحت في بلدٍ فأمسي في أخرى ، ولا تقيمنّ لخيّلٍ بلَغَكَ أنّها قد سرّحت

١- هذه الفقرات من الخطبة ٢٧ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة»
اختار المرحوم مغنيّة بعضاً منها . وهي موجودة مع شرحها في «شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ١٤٠ إلى ١٤٦ ، الطبعة القديمة ، وفي الطبعة الجديدة : ج ٢ ، ص ٧٤ إلى ٩٠ .

إليك لتلقاها فتقاتلتها . ثم جهّزه بثلاثة آلاف إلى أربعة (ابن أبي الحديد : ج ١ ، ص ١٥٤ ، الطبعة القديمة) .

وأنفذ الضحّاك أمر سيّده ، وأسرف في القتل والفتك ، والسلب والنهب ، فكان يقتل كلّ من رآه في طريقه ، وأغار على قافلة الحجّاج ، فأخذ أمتعتهم ، ثم قتل جماعة ، منهم العبد الصالح عمرو بن عميس بن مسعود ، وهو ابن أخ عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله .

ولمّا علم الإمام صعد المنبر ، وقال : يا أهل الكوفة اخرجوا فقاتلوا عدوّكم ، وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين . فردّوا عليه ردّاً خفيفاً ، ورأى منهم فشلاً ، ثم دعا حجر بن عدّي الكنديّ ، فعقد له على أربعة آلاف ، فخرج يتعقب الضحّاك ، حتّى لقيه بناحية تدمر ، فاقتتلوا ساعةً ، فقتل من أصحاب الضحّاك تسعة عشر رجلاً ، ومن أصحاب حجر رجلان ، فحجز الليل بينهم ، فهرب الضحّاك إلى الشام لا يلوي على شيء .

وكانت عصابات معاوية تُغير على أطراف الإمام ، وتمعن في التخريب والتدمير ، وتنقضّ على الآمنين تقتل وتنهب وتحرق ، وتشر الرعب ، حيث يخلو لها الجوّ ، فإذا داهمها عسكر الإمام أسرع في الفرار .

النعمان بن بشير

النعمان وأبوه بشير بن سعد الأنصاريّ أوّل من بايع أبا بكر من الأنصار يوم السقيفة . ثمّ توالى بعده الأنصار على المبايعة . وكان النعمان عثمانياً مقرباً عند معاوية وولده يزيد ، وبقي حياً إلى خلافة مروان بن الحكم ، ولمّا بويع لمروان بالخلافة كان النعمان والياً على حمص ، فدعا أهل حمص إلى مبايعة ابن الزبير فثاروا عليه وقتلوه ، وذلك سنة ٦٥ . ومن

أخلاقه أنه لما قتل عثمان أخذ قميصه وأصابع زوجته نائلة ، وباعها إلى معاوية ، وكان معاوية يعلق القميص وفيه الأصابع يستشير بهما أهل الشام ، فكانوا إذا رأوا القميص والأصابع يزدادون غيظاً ، ثم ترك النعمان معاوية ، وذهب إلى عليّ ، ولكن لم يطب له المقام في بيئة التقوى والصلاح ، فهرب إلى الشام حيث الضلالة والفساد ، وهكذا تموت الخنافس من رائحة الزهور والطور وتحيا في المزابل والمراحيض .

ونذب معاوية النعمان ، وجهّزه بألفي رجل ، وأمره بالغارة على عين التمر في العراق ، وأوصاه أن يقوم بالمناوشات والغارات المفاجئة ، ويعجّل الحرب ، كما تفعل اللصوص والعصابات . وأقبل النعمان على عين التمر وبها مالك بن كعب من قبل الإمام وليس معه سوى مائة رجل ، فصمدوا للألّفين ، وقال مالك لأصحابه : قاتلوهم داخل القرية ، واجعلوا الجُدُر إلى ظهوركم ، واعلموا أنّ الله ينصر العشرة على المائة ، والمائة على الألف ، والقليل على الكثير ، وأنجدهم قوم بالقرب منهم من شيعة أمير المؤمنين فانهزم النعمان ومن معه وولّوا هارين إلى أرض الشام . وبعد مقتل الإمام عتِن معاوية النعمان بن بشير أميراً على الكوفة ، وكان أميراً عليها من قبل يزيد ، فعزله ، وعيّن مكانه عبيد الله بن زياد حين قدم إليها مسلم بن عقيل ، وربّما أتينا على ذكر النعمان في الصفحات الآتية .

بُسْرُ بن أَرْطَاة

في يومٍ من أيام صَفِّين صعد الإمام إلى التلّ ، ونادى بأعلى صوته :
يا معاوية !

فأجابه . فقال الإمام : علامَ يقتتل الناس ؟! ابرز إليّ ، ودع الناس

فيكون الأمر لمن غلب . فقال ابن العاص لمعاوية : أنصفك الرجل . فضحك معاوية وقال : طمعت فيها يا عمرو ، أي : في الخلافة .^١ فقال عمرو : ما يجمل بك إلا أن تبارزه . فقال معاوية : نلقاه بجمعنا . فقال ابن العاص : والله لأبازرن علياً ، ولو مت ألف موتة ، ثم برز للإمام ، وكان من أمر عورته ما يُغني عن ذكرها .^٢

وكان في جيش معاوية فارس يُدعى أبا داود ، فقال : إذا كره معاوية مبارزة أبي الحسن عليّ فأنا أبرز له . ثم خرج من بين الصّقّين ، وقال : أنا أبو داود ابرز إليّ يا أبا الحسن . فتقدّم عليّ ، فناداه الناس ارجع يا أمير المؤمنين عن هذا الكلب ، فليس لك بخطر . فقال : دعوني ، ثم حمل عليه ، وضربه ضربة قطعته قطعتين سقطت إحداهما يمنة ، والأخرى يسرى . فارتجّ العسكران لهول الضربة . وكان لأبي داود ابن عمّ في عسكر معاوية ، فصاح : واسوآه : قبح الله البقاء بعدك يا أبا داود ، وبرز للإمام ، فألحقه بابن عمّه .

كلّ هذا ومعاوية على التّل يُبصر ويشاهد ، فقال : تبتاً لهؤلاء الرجال أما فيهم من يقتل عليّاً مبارزةً ، أو غيلةً ، أو في اختلاط الفيلق ، وثوران الفقع . فقال له الوليد : ابرز إليه أنت ، فإنك أولى الناس بمبارزته . فقال معاوية : والله لقد دعاني للبراز حتى استحيت من قریش ، ثم التفت معاوية إلى بسر بن أرطاة ، وقال له : أتقوم أنت لمبارزته ؟ فقال له بسر : ما

١- أي : أنت موقنٌ أنّ عليّاً يقتلني ، فتجلس مكاني وتدعي الخلافة .

٢- جاء في كتب التاريخ جميعها أنّ عمرو بن العاص عندما وقف أمام الإمام ، رماه الإمام بسهم فسقط إلى الأرض . ولما ذهب الإمام ليقته أدار ظهره ورفع قميصه وكشف عن عورته . فأغمض الإمام عينه وابتعد عنه .

أحد أحقّ بها منك ، ومع ذلك فأنا له . وكان عند بسر ابن عمّ له قدم من الحجاز يخطب ابنته ، فقال له : إيتك أن تبارز عليّاً وما الذي يدعوك إلى ذلك ؟! قال صدر منّي وعد ، وأستحي أن أرجع عنه ، فضحك ابن عمّه منه ، وقال أبياتاً ، منها :

كَأَنَّكَ يَا بُسْرَ بْنَ أَرْطَاةَ جَاهِلٌ

بِأَثَارِهِ فِي الْحَرْبِ أَوْ مُتَجَاهِلٌ

مَتَى تَلَقَّهَ فَالْمَوْتُ فِي رَأْسِ رُمُوحِهِ

وَفِي سَيْفِهِ شُغْلٌ لِنَفْسِكَ شَاغِلٌ

فقال بسر : هل هو إلا الموت ؟! وبرز بسر مقتعاً بالحديد ، ونادى : ابرز إليّ أبا الحسن . فمشى الإمام إليه غير مكترث به ، حتّى إذا قاربه طعنه ، فسقط على الأرض ، فكشف عورته ، كما فعل ابن العاص من قبله ، فانصرف عنه مدبراً ، فقال الأشر : هذا بسر أتتركه ، وهو عدوّ الله وعدوّك ؟ فقال : دَعُهُ لَعَنَهُ اللَّهُ ، أَبْعَدَ أَنْ فَعَلَهَا ! وقال الشاعر في عمرو وابن أرطاة أبياتاً ذكرها ابن أبي الحديد في ج ٢ ، ص ٣٠١ ، منها :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ فَارِسٌ تَنْدُبُونَهُ

لَهُ عَوْرَةٌ تَحْتَ الْعَجَاةِ بَادِيَهُ

يَكْفُ بِهَا عَنْهَا عَلِيٌّ سِنَانَهُ

وَيَضْحَكُ مِنْهَا فِي الْخَلَاءِ مُعَاوِيَهُ

قال ابن أبي الحديد في «شرح النهج» ج ١ ، ص ١١٧ وما بعدها : كان بسر بن أرطاة قاسي القلب فظاً سفاكاً للدماء ، لا رأفة عنده ولا رحمة . وقد جهّزه معاوية في ثلاثة آلاف ، وقال له :

سر حتّى تمرّ بالمدينة فاطرد الناس ، وأخفّ من مررت به ، وانهب أموال كلّ من أحصيت له مالاً ، ممّن لم يكن دخل في طاعتنا ، فإذا دخلت

المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر .

بهذه النصائح كان معاوية يزود عصابات الإرهاب ، قال لسفيان بن عوف - كما أسلفناه - : اقتل من لقيته ، وأخرب كل ما مررت به ، وانهب الأموال ! وقال لبسر : اطرده الناس ، وأخف وانهب ، وبمثل ذلك أمر الضحّاك وغير الضحّاك ؛ ومضى هؤلاء اللصوص ينفذون أمر سيدهم ويضيفون إليه من لؤمهم وحقدهم على الإنسانية الكثير من الفتك والسفك . ووصل بسر إلى المدينة المنورة ، فشتم أهلها وتهددهم وتوعدهم ، وأحرق دوراً كثيرة ، منها دار زرارة بن حرون ، ودار عمرو بن عوف ، ودار رفاعة ابن رافع الرزقي ، ودار أبي أيوب الأنصاري صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله (ابن أبي الحديد : ج ١) .

قال المسعودي (ج ٣ ، ص ٣١ ، طبعة ١٩٤٨ م) : قتل بسر بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خُزاعة وغيرها ، وكذلك بالجرف قتل خلقاً كثيراً من رجال همدان ، وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً . وقال المسعودي : ولما بلغ الخبر عليّاً أنفذ جارية بن قدامة في ألفين ، ووهب بن مسعود في ألفين وحين علم بسر بخبر جارية فرّ هارباً .

اتخذ معاوية خطة الغارات المفاجئة والهجوم الخاطف ، ثم الفرار والمواراة عن الأنظار ، واتخذ الإمام خطة الدفاع ، ولكنه دفع بطيء بطء المواصلات يومذاك .

وقبل أن يغادر بسر مدينة الرسول استخلف على أهلها أبا هريرة ، وأوصاهم بطاعته ، وأبو هريرة هذا الذي نصّ عليه بسر «بالخلافة» من بعده رأى وشاهد البدع والأحداث التي أحدثها بسر في مدينة الرسول الأعظم ، وهو بالذات الذي وثقه أصحاب الصحاح ، ورووا عنه الكثير .

وقد يكون السبب لتوثيقه وتصحيح حديثه روايته عن نبي الرحمة :
**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيِّ حَرَمًا ، وَإِنَّ حَرَمِي بِالْمَدِينَةِ ، فَمَنْ أَحَدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ
 لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا أَحَدَثَ فِيهَا !**

وتأريخ رواية هذا الافتراء متأخر عن غزوة بسر للمدينة واستخلافه
 أبا هريرة بعده . عليّ الذي قال عنه الرسول : **لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُهُ
 إِلَّا مُنَافِقٌ .**

عليّ في منطق أبي هريرة قد أحدث في المدينة . أمّا معاوية الذي
 مات على غير سنة محمد - بشهادة عبد الله بن عمر - معاوية هذا صان
 مدينة الرسول ، ومنع عنها البدع والأحداث بشهادة بسر وخليفته أبي
 هريرة !

ترك بسر المدينة وتوجّه إلى مكة ، وقتل في طريقه بين حرم الله
 وحرم الرسول رجالاً ، ونهب أموالهم ، ولما بلغ خبره أهل مكة هرب
 أكثرهم خوفاً من جوره وطغيانه ومرّ بنجران فقتل جماعةً ، وقام خطيباً في
 أهلها . وقال : يا أهل نجران ، يا معشر النصارى ، وإخوان القروء ، أما والله
 إن بلغني عنكم ما أكره لأعودنّ عليكم بالتي تقطع النسل ، وتُهلك الحرث ،
 وتخرب الديار ، وقتل وهو ذاهب إلى صنعاء أبا كرب ، وكان من رؤوس
 الشيعة ، وسيّد من كان في البادية من حمدان ، وحين دخل صنعاء أعمل في
 أهلها القتل والسلب ، وأتاه وفد من مأرب يستعطفه ويسترضيه ، فقتل
 رجاله ، وذبح طفلين صغيرين لعبيد الله بن العباس ، وكانت أمهما تدور
 مذهولة ناشرة شعرها ، وتقول :

هَا مَنْ أَحَسَّ بِأَبْنَيْ اللَّذَيْنِ هُمَا

كَالذُّرَّتَيْنِ تَشْطِي عَنْهُمَا الصَّدْفُ

هَا مَنْ أَحَسَّ بِإِبْنِيَّ الَّذِينَ هُمَا
 سَمِعِي وَقَلْبِي فَقَلْبِي الْيَوْمَ مُخْتَطَفٌ
 هَا مَنْ أَحَسَّ بِإِبْنِيَّ الَّذِينَ هُمَا
 مُخُّ الْعِظَامِ فَمُخِّي الْيَوْمَ مُزْدَهَفٌ
 نُبِّئْتُ بُسْرًا وَمَا صَدَقْتُ مَا زَعَمُوا
 مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ الْإِفْكِ الَّذِي اقْتَرَفُوا
 أَنْحَى عَلَيَّ وَدَجَى ابْنِيَّ مُزْهَفَةً
 مَشْحُودَةً وَكَذَا الْأَثَامُ تُقْتَرَفُ
 مَنْ دَلَّ وَالِهَةً حَرَى مُسَلَّبَةً
 عَلَى صَبِيئِنِ ضَلًّا إِذْ مَضَى السَّلْفُ
 وكتب المغيرة بن شعبة إلى بسر كتاباً يشكره على ما فعل،^١ ويقول

١- قال شيخ الملة والدين الشيخ بهاء الدين العاملي في «الكشكول» ج ٤، ص ٣٨٩،
 الطبعة الحجرية (ج ٢، جزء ٣، ص ٣٣٣، و ٣٣٤، الطبعة المصرية المحرّفة، دار إحياء
 الكتب العربية، تحقيق طاهر أحمد الزاوي): دخلت سودة ابنة عمارة الهمدانية على معاوية
 بعد موت أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه، فجعل يؤنّبها على تحريضها عليه أيام صفّين،
 وآل أمره إلى أن قال: ما حاجتك؟ فقالت: إنّ الله مسائلك عن أمرنا، وما افترض عليك من
 حقنا، ولا زال يعدو علينا من قبلك من يسمو بمكانك، ويبطش بسلطانك، فيحصدنا حصد
 السنبّل، ويدو سنادوس الحرمل، ويسومنا الخسف، ويؤذيقنا الحيف. هذا بشر* بن أُرطاة
 قدم علينا فقتل رجالنا وأخذ أموالنا، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة، فإن عزلته عنّا
 شكرناك، وإلّا كفرناك. فقال لها معاوية: إِيَّاي تُهَدِّدِينَ بقومك! لقد هممتُ أن أحملك على
 قَتَبِ أَشُوسَ فَأَرَدْتُكَ إِلَيْهِ فَيَنْفَذُ فِيكَ حُكْمَهُ.

فأطرقت سودة ساعةً ثمّ قالت:

قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعِزُّ مَدْفُونًا صَلَّى الْإِلَٰهُ عَلَى جِسْمِ تَضَمَّنَهُ
 فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا قَدْ حَالَفَ الْحَقُّ لَا يَبْغِي بِهِ بَدَلًا

فيه :

جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ مِنَ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالْقَاصِدِينَ إِلَى الْحَقِّ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا .

أمنتُ بالله! ^١ حتى الذين يعصون أوامره يتكلمون باسم الله . وما أقوى وجوه الشبه في الطباع والخداع بين بسر والمغيرة ، وبين الكثير ممن نعرف اليوم من الذين يتكلمون باسم الله جلّ وعلا علوّاً كبيراً . وصدق الذي قال :

مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ وَلَكِنْ اطَّرَدَ الْقِيَاسُ .

أشرنا إلى أنّ الإمام أنفذ جارية بن قدامة إلى بسر ، وأخذ جارية يسأل عنه ، ويتعقبه ، وبسر يفرّ بين يديه من جهة إلى جهة ، حتى أخرجه

⇐ فقال معاوية : من هذا باسودة ؟ قالت : والله هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، والله قد جئته في رجل فد كان ولي صدقاتنا ، فجار علينا ، فصادفته قائماً يصلي ، فلما رأني انفتل من صلاته ثم أقبل عليّ بوجهه برفق ورأفة ، وتعطف وقال: ألك حاجة ؟ قلت: نعم ، فأخبرته ، فبكى ثم قال : اللهم أنت الشاهد عليّ وعليهم أني لم أمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك ! ثم أخرج قطعة من جلد فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جاءكم بيّنة من ربكم فأوفوا ألكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . (الآية ٨٥ ، من السورة ٧ : الأعراف) فإذا قرأت كتابي هذا فاحفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم من يقبضه منك والسلام . ثم دفع الرقعة إليّ فوالله ما ختمها بطين ولا حزمها ، فجنّث بالرقعة إلى صاحبه ، فانصرف عنا معزولاً ، فقال معاوية : اكتبوا لها ما تريد ، واصرفوها إلى بلدها غير شاكية .

* - جاء في النسختين كليهما «بشر» بالشين المعجمة . ولعله خطأ من النساخ ، إذ الصحيح هو «بسر» بالسين المهملة .

١- يقال هذا الكلام عند التعجب مثل : سبحان الله ، والله أكبر ، ولا إله إلا الله .

من أعمال عليّ كلّها ، ولكن بعد أن قطع النسل ، وأهلك الحرث وخرّب الديار ، وحين رجع بُسر إلى الشام . قال لمعاوية : إنّي سرتُ في هذا الجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً . فقال له معاوية : اللَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لَا أَنْتَ .

قال ولده يزيد للإمام زين العابدين : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَتَلَ أَبَاكَ . فقال له زين العابدين : لَعَنَ اللَّهُ مَنْ قَتَلَ أَبِي .

ونقول نحن : لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ .

قال ابن أبي الحديد (ج ١ ، ص ١٢١) : وكان الذي قتل بسر في وجهه ذلك ثلاثين ألفاً ، وحرقت قوماً بالنار ... وكان مسلم بن عقبة ليزيد وما عمل بالمدينة في وقعة الحرّة ، كما كان بسر لمعاوية وما عمل في الحجاز واليمن ، وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمَ .

وسأل الإمام ربّه تعالى أن ينتقم من بسر في الدنيا بالجنون ، فقال : اللَّهُمَّ لَا تُمِثَّهُ حَتَّى تَسْلُبَهُ عَقْلَهُ ! فلم يلبث إلا يسيراً حتى ذهب عقله ، فكان الصبيان يتبعونه ، ويعبثون به .

بهذه البدع والأحداث ، بانتهاك حرم الله وحرم الرسول ، بقتل الرجال وذبح الأطفال ، بسلب النساء أقراطها وخلخالها ، بهذه وما إليها قال المتقولون : مُعَاوِيَةُ أَعْرَفَ مِنْ عَلِيٍّ بِالسِّيَاسَةِ .

أجل ، لا عليّ ولا غير عليّ أعرف من معاوية بالشرّ وضرّوته فيه والإقدام عليه . ومن هنا كان سياسياً عظيماً عند أشكاله وأمثاله !^١

١- «الشبيعة والحاكمون» ص ٤٢ إلى ٥٢ ، الطبعة الثانية.

إنّما أراق معاوية دماء الشيعة الذين وقفوا بوجه اعتداءاته وانتهاكاته ، وإلا فلا شغل له بأحدٍ ما لم يزاحمه على ملكه وحكومته . ذكر ابن الأثير الجزريّ في «الكامل في التاريخ» ج ٤ ، ص ١٣ ، أنّ عبد الله بن عمير قال : أَعْلَظَ لمعاوية رجلٌ فأكثر ، فقيل له : أتحلّم عن هذا؟! فقال : إنّي لا أحوّل بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

هذه هي جرائم معاوية في عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فهلمّ وانظر جرائمه بعد استشهاد الإمام من نقض العهود التي أبرمها مع الإمام الحسن عليه السلام ، ودس السم إليه ، وسب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد خطبة الجمعة في جميع أرجاء العالم ، وتسليط المغيرة بن شعبة على الكوفة ، والأمر بالتضييق على الشيعة ، ونصب زياد بن سميّة على الكوفة والبصرة بعد المغيرة ، والأمر بإلقاء القبض على الرجل البريء العابد الزاهد الناسك حجر بن عدي الكندي وأصحابه وإشخاصهم إلى الشام وقتلهم في مَرَج عَدْرَاء على بعد أربعة فراسخ عن دمشق ،^١ وقتل عمرو

١- قال المستشرق فلهوزن في كتاب «الخوارج والشيعة» ص ١١٩ و ١٢٠ ، الطبعة الثانية: وليس من شك في أنّ حجراً كان ثائراً على السلطة وأنّه كان يودّ أن يجتذب إلى حركته أهل الكوفة . ولهذا فإنّ زياداً حسب تقديرنا كان على صواب ومعاوية قد استعصم بالحلم . ولكنّ الأمر في ذلك العهد كان على خلاف تقديرنا الحالي . فإنّ قتل مسلم لا يحلّ إلّا إذا قتل مسلماً آخر ، أي أنّ النفس بالنفس ، وكان الجاري أن يقتصّ صاحب الثأر بنفسه وكانت السلطة العامّة إنّما تساعده على ذلك وتهيؤه له . والجريمة ضدّ الدولة تنحصر في الخروج عن الإسلام ، لا في الخيانة العظمى ، مادام لم يصحبها قتل . أمّا أن يقتل شخص بسبب خروجه على الدولة -مهما يكن ما يبرّر هذا القتل- فهذا أمر كان يثير ثائرة الناس ، خصوصاً في مثل هذه الحالة الأولى التي شمل الأمر فيها رجالاً بارزين جداً . حتّى أنّ أهل الكوفة عامّة قد شعروا بالخزي ، وأنّ والي خراسان ، ربيع بن زياد ، قد مزّق قلبه الأسى وإن كان غير رقيق القلب . وأظهرت عائشة غضبها الشديد ، وكذلك فعل الحسن البصريّ بعد ذلك بزمان ولم يكن يخضع في ذلك -كما خضعت عائشة أم المؤمنين- لدوافع شخصيّة خاصّة . ويقال إنّ معاوية لمّا حضرته الوفاة شعر بتأنيب ضمير عنيف لقتله حجر بن عديّ ، ولكنّه تبرّأ من ذلك قائلاً إنّّه لمّا انحسر عنه قريش استسلم لتأثير زياد . وطبعاً كان غضب القبائل ، خصوصاً اليمانيّة القويّة ، على السلطة بالغاً ، إذ شعرت بأنّه من العار ألاّ تخلّص أبناءها من بطش السلطان . واتّحدت معارضة القبائل مع المعارضة الدينيّة . واشتدّ غضب الشيعة خصوصاً لقتل حجر .

ابن الحمق ؛ وكان حُجْر ، وعمراً من صحابة رسول الله وأمير المؤمنين والحسين عليهم السلام .

ولحق أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين بأخيه خاتم المرسلين ، وانعزل الإمام الحسن عليه السلام في بيته ، وجرى حكم معاوية في الأقطار الإسلامية جميعها بلا أمر من الله تعالى ، وبدون أن يكون للأمة الخيرة من أمرها . وكان حكماً إمبراطورياً فردياً بلا منازع .

ألم يجدر به أن يتغاضى عن مناوئيه في تلك الفترة ، ويعفو عنهم ، ويريحهم في حياتهم ، وكذلك يعامل بالإحسان كافة الموالين لأهل البيت الذين كانوا يرون أنفسهم خاضعين لسلطان القاهر ، ويرونها كالطير المهيض الجناح الملازم لقفصه قانعين بالحبّ والماء ، ويتصرّف كما هو شأن الساسة الكبار في العالم ؟ يبيد أنه لم يعف ، وزعم أنه صاحب المقام ، واتهم جميع الموالين الذين سعوا من أجل عظمة الإسلام بالتخريب ومنافاة أصول حكومته ، وامتصّ دماءهم حتى آخر قطرة لانتفاضاتهم ضدّ حكومته الجائرة الظالمة ، ولم يرتونها .

لقد صفح أمير المؤمنين ابن أبي طالب عن عائشة ، ومروان بن الحكم في معركة الجمل وعفا عنهما ، وصفح عن عمرو بن العاص ، وبسر ابن أرطاة في معركة صفين وأطلقهما ، وسقى معاوية وجنده الماء لأنّه كريماً ابن كريم . إنّه ابن أبي طالب الذي قال بكلّ اقتدار حين آذته قريش لحمايته النبيّ :

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ حِلْمًا وَمَغْفِرَةً

وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ مِنْ أَفْضَلِ الْكَرَمِ

← وكان استشهاده مقدّمة لاستشهاد سيّد الشهداء والشيعة ، وهو الحسين بن عليّ .

وكانت عائشة من المعارضين لقتل حُجر ، وعاتبت معاوية على ذلك ، لكنها استسلمت بعد ذلك وكفّت عن احتجاجها عليه بسبب سياسته الماكرة وعطاياه وكلماته الخادعة .^١

وتشعّ مالك بن هُبيرة السكوني إلى معاوية في حجر ، فلم يقبل ، وغضب على معاوية ، وجاء إلى مَرْج عَدْرَاء مع جماعة من كِنْدَةَ وسَكُون ليخلصوا السجناء بقوة وشدة ، لكنهم وصلوا في وقت كانوا قد قُتلوا فيه . وأرسل معاوية إليه مائة ألف درهم ، وأعلمه أنّ قتل حجر فتح له الطريق إلى العراق مرّة أخرى بعد الجملتين السابقتين فهدأ مالك بن هُبيرة وسكت غضبه .

أمّا تحفه وهداياه وحلواه إلى أبي الأسود الدؤليّ صاحب مولى الموحدّين عليّ بن أبي طالب فقد رُفضت . نقل السيّد حسن الصدر عن القاضي نور الله المرعشيّ في «مجالس المؤمنين» أنّ معاوية بعث لأبي الأسود هدايا فيها حلوى ، فنظرت إليها ابنة أبي الأسود ، فقالت لأبيها : من أين هذه الهدية ؟ فقال : بعث بها معاوية يخدعنا عن ديننا ، فقالت البنت على البديهة :

أَبَالشَّهِدِ الْمَزْعُفَرِ يَا بَنَ حَرْبٍ نَبِيْعُ عَلَيْكَ أَحْسَابًا وَدِينًا
مَعَاذَ اللَّهِ كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَمَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

قال ابن خلكان في «الوفيات» بعد ترجمته لأبي الأسود : وله ديوان

شعر . ومن شعره :

١- «الخوارج والشيعة» للمستشرق الألمانيّ يوليوس فلهوزن ، الترجمة العربيّة للدكتور عبدالرحمن بدويّ ، ص ١١٨ و ١٢٠ ، الطبعة الثالثة ، نشر وكالة المطبوعات بالكويت .

صَبَغَتْ أُمِّيَّةٌ بِالِدَّمَاءِ أَكْفَنًا وَطَوَتْ أُمِّيَّةٌ دُونَنَا دُنْيَانَا

وأسند الشيخ منتجب الدين في كتاب «الأربعين» عن علي بن محمد قال: رأيت ابنة أبي الأسود الدؤلي بين يدي أبيها خبيصاً (حلولى مخلوطة معروفة) فقالت: يا أبة! أطعمني. فقال: افتحي فاك، ففتحت، فوضع فيه مثل اللوزة، ثم قال لها: عليك بالتمر فإنه أنفع وأشبع. فقالت: هذا أنفع وأنجح، فقال: هذا طعام بعثه إلينا معاوية يخدعنا عن علي بن أبي طالب، فقالت:

تَبَّحَهُ اللَّهُ يَخْدَعُنَا عَنِ السَّيِّدِ الْمُطَهَّرِ بِالشَّهَدِ الْمُزَعْفَرِ؟ تَبًّا لِمُرْسِلِهِ
وَآكِلِهِ!

ثم عالجت نفسها وقاءت ما أكلته منه، وأنشأت تقول البيتين المتقدم ذكرهما. قال آية الله الصدر: وإنما ذكرنا هذا الطريق لأنه من رواية الشيخ منتجب الدين بن بابويه.^١

قال الملا جلال الدين السيوطي: أنشد أبو الأسود الدؤلي في رثاء علي رضي الله عنه:

أَلَا يَا عَيْنُ وَيَحْكَ أَسْعِدِينَا أَلَا تَبْكِي ٢ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَتَبْكِي أُمَّ كُثُومٍ عَلَيْهِ بَعْبَرَتَهَا وَقَدْ رَأَتِ الْيَقِينَ
أَلَا قُلْ لِلْخَوَارِجِ حَيْثُ كَانُوا فَلَا قَرَّتْ عُيُونُ الْحَاسِدِينَ
أَفِي الشَّهْرِ الصَّيَامِ فَجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طُرّاً أَجْمَعِينَ

١- «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٤٥ و ٤٦.

٢- تبكي فعل مضارع. ولما كانت صيغة الموثت المخاطب يجب أن تكون تبكين بالنون، ولا يصح إسقاط النون في العربية لضرورة شعرية فالصحيح أن الفعل كان في النسخة الأصلية فابكي أو نبكي.

قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
 وَمَنْ لَيْسَ النَّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا
 وَكُلُّ مَنَاقِبِ الْخَيْرَاتِ فِيهِ
 لَقَدْ عَلِمْتَ فُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ
 إِذَا اسْتَقْبَلْتُ وَجَهَ أَبِي حُسَيْنٍ
 وَكُنَّا قَبْلَ مَقْتَلِهِ بِخَيْرٍ
 يُقِيمُ الْحَقَّ لَا يَرْتَابُ فِيهِ
 وَلَيْسَ بِكَاتِمٍ عِلْمًا لَدَيْهِ
 كَأَنَّ النَّاسَ إِذْ فَاقَدُوا عَلِيًّا
 فَلَا تَشَمَّتْ مُعَاوِيَةُ بَنَ صَخْرٍ
 وَذَلَّلَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
 وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِي وَالْمُيِّنَا^١
 وَحِبُّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 بِأَنَّكَ خَيْرُهُمْ حَسَبًا وَدِينًا
 رَأَيْتُ الْبَدْرَ فَوْقَ النَّاطِرِينَ
 نَرَى مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ فِيْنَا^٢
 وَيَعْدِلُ فِي الْعِدَى وَالْأَقْرَبِينَ
 وَلَمْ يُخْلَقْ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ
 نَعَامٌ حَارَ فِي بَلَدِ سِنِينَا
 فَإِنَّ بَقِيَّةَ الْخُلَفَاءِ فِيْنَا^٣

١- في هذه النسخة من «تاريخ الخلفاء»: (المبين). وفي نسخة السيد حسن الصدر في «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٤٥ ، نقلاً عن الزمخشري: المئينا بالثاء المثناة . ولكن الأظهر هو أن فيها تحريفاً ، وأصلها المئينا . والسور المئين معروفة في القرآن الكريم ومشهورة عند أهل القراءة والتفسير . وهي السور التي تبلغ قرابة مائة آية .

٢- إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ .

٣- «تاريخ الخلفاء» ص ١٨٦ و ١٨٧ ، الطبعة الرابعة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

روى في «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٤٥ عن الزمخشري أنه لما بلغ أبا الأسود الدؤلي قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بكى حتى اختلفت أضلعه وأنشأ هذه الأبيات . وذكر الزمخشري ستة أبيات منها . ثم قال المرحوم الصدر : وقد حكاها ابن الأثير في «الكامل» ، وابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمة» وغيرهما أيضاً عن أبي الأسود في رثاء أمير المؤمنين عليه السلام .

وقال في «أقرب الموارد»: النعمة جمعها نعام .. ويضرب بجنس النعام المثل في الإجفال ، ومنه : «وأجفلت نحوها إجفال النعمة» . قيل : النعمة أشد الأشياء نفاراً ، ولهذا قيل للرجل إذا فزع من شيء وارتحل أو مات : «نَفَرَتْ نَعَامَتُهُ» ، ويقال للمنهزمين : «

أجل ، إلى هنا تمّ الجزء الثامن عشر من كتاب «معرفة الإمام» الذي يؤلّف القسم الثاني من دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة ، وبهذا الجزء تنتهي دورة «معرفة الإمام»^١.

لله الحمد وله المنّة إذ وقّفتني لإنجاز هذه الدورة التي بدأت في مدينة طهران سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وتسعين هجريّة ، وختمت في مدينة مشهد المقدّسة جوار المولى الإمام الهمام عليّ بن موسى الرضا عليه وعلى آبائه وأبنائه الكرام أفضل الصلوات والتحيّات من الملك الحيّ القيوم العلّام - يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ذي القعدة الحرام ، سنة ألف وأربعمائة وأربع عشرة هجريّة ، وهذا من فضله وإنعامه إنّه ذو الفضل العظيم .

وقد حاولت في هذه الدورة أن أقصر الحديث على أصل ولاية مولى الموحّدين والمسائل العامّة المرتبطة بأصول الإمامة . وسيق الكلام فيها عرضاً عن سائر الأئمّة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ومع أنّي لم أدخر وسعاً ولم آل جهداً في إعداد المطالب المنقّحة الثابتة ، وكنتُ أحسب أنّي أستطيع ، بهذه الموضوعات الفلسفيّة العقليّة القرآنيّة النقليّة والأدلة التّاريخيّة وغيرها من المسائل الاجتماعيّة ، أن أميط اللثام

﴿ أضحووا نعاماً ﴾.

١- جاء في مقدّمة الجزء الأوّل من كتاب «معرفة الإمام» أنّ هذه الدورة تتألّف من اثني عشر جزءاً ، لكنّي لمّا وفدتُ على مدينة مشهد المقدّسة وتنعمتُ بضيافة الإمام عليه السلام ، وها هي خمس عشرة سنة تمرّ على تشرفي بجواره عليه السلام ، وأنا أشعر برخاء البال وهدوء الفكر أكثر ممّا كنت في طهران ، لهذا أضفت إليها ستّة أجزاء أخرى متوسّعاً في الحديث من حيث العناوين ومن حيث امتداد المباحث المعهودة بفضل الفرصة التي أُتيحت لي فبلغت ثمانية عشر جزءاً.

عن وجهه (وجه أمير المؤمنين عليه السلام) المتألق وأعرّفه حق معرفته
بيد أنني أجد أنّ ما أتيتُ به قطرةً من بحر وحصاةً من برّ، وذرةً من شعاع
شمس ساطعة. والآن إذ تصرّم العمر وأوشكت شمس الحياة أن تأفل أشعر
أننا لم نعرف علياً حقاً وحقيقةً ولم نخبر سرّه، ولم نكتسب من منهجه
ومنهاجه علماً، ولم، ولم، ولم!

دور از حریم کوی تو شرمنده ماندهام

شرمنده ماندهام که چرا زنده ماندهام^١

صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيَّ رُوحَكَ وَبَدَنَكَ ،
صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى زَوْجِكَ وَذُرِّيَّتِكَ ، صَلَّى اللهُ عَلَيَّ شِيعَتِكَ وَاللَّازِمِي
مَشِيَّتِكَ وَمَنْهَجِكَ !

ومع أننا متمرّغون في النعم الإلهية من أول العمر إلى آخره ، بيد أن
جوهرتها الباقية لنا ، وبها مسرورون مبتهجون مغتبطون هي حبّ هذا
السيّد العظيم .

فَلَيْسَ يُدْرِكُهَا شُكْرِي وَلَا عَمَلِي	مَنَائِحُ اللَّهِ قَدْ جَاوَزَتْ أَمَلِي
مَحَبَّتِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ^٢	لَكِنَّ أَفْضَلَهَا عِنْدِي وَأَكْمَلَهَا
الطَّاهِرِينَ وَسَيِّدِ الْعِبَادِ	بِمُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ وَإِبْنَيْهِمَا
وَسَمِيِّ مَبْعُوثِ بِشَاطِئِ الْوَادِي	وَمُحَمَّدٍ وَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ
وَعَلِيِّ الْمَسْمُومِ ثُمَّ الْهَادِي	وَعَلِيِّ الطُّوسِيِّ ثُمَّ مُحَمَّدٍ

١- يقول : «بقيت خجلاً بعيداً عن حریم ساحتك ، أشعر بالخجل لأنني ما زلتُ حياً
(بينما استشهدت أنت)».

٢- «الغدير» ج ٤ ، ص ٦٠ ، للصاحب بن عباد ، كما نقل الحموي في «فرائد السمطين»
السمط الثاني ، الباب الأول .

حَسَنٌ وَأَتْبَعُ بَعْدَهُ بِإِمَامَةٍ لِّلْقَائِمِ الْمَبْعُوثِ بِالْمِرْصَادِ
اللَّهُمَّ بَلِّغْ مَوْلَايَ صَاحِبَ الزَّمَانِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنْ جَمِيعِ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا وَسَهْلِهَا
وَجَبَلِهَا، حَيْثُمْ وَمِثَّتْهُمْ وَعَنْ وَالِدِيَّ وَوَلَدِي وَعَنِّي مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالتَّحِيَّاتِ
زِنَةَ عَرْشِ اللَّهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ وَمُنْتَهَى رِضَاهُ وَعَدَدَ مَا أَحْصَاهُ كِتَابُهُ وَأَحَاطَ
بِهِ عِلْمُهُ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أُجَدِّدُ لَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ عَهْدًا وَعَقْدًا وَبَيْعَةً
فِي رَقَبَتِي. اللَّهُمَّ كَمَا شَرَّفْتَنِي بِهَذَا التَّشْرِيفِ وَفَضَّلْتَنِي بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ
وَخَصَّصْتَنِي بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَصَلِّ عَلَى مَوْلَايَ وَسَيِّدِي صَاحِبِ الزَّمَانِ،
وَاجْعَلْنِي مِنْ أَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَالذَّابِّينَ عَنْهُ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُسْتَشْهِدِينَ
بَيْنَ يَدَيْهِ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ فِي الصَّفِّ الَّذِي نَعَتَ أَهْلَهُ فِي كِتَابِكَ فَقُلْتَ:
«صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَرَّضُوصٌ»^٢ عَلَى طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ وَآلِهِ عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ. اللَّهُمَّ هَذِهِ بَيْعَةٌ لَهُ فِي عُنُقِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.^٣

كتبه بيمناه الدائرة عبده الراجي عُفرانه ورضوانه

السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

١- «الغدِير» ج ٤، ص ٦٧، للصاحب بن عباد.

٢- الآية ٤، من السورة ٦١: الصَّفِّ.

٣- هذه زيارة يُستحبُّ زيارة إمام العصر والزمان عجل الله فرجه بها بعد صلاة الصبح. ووردت في «مفاتيح الجنان» ص ٥٣٨ طبعة إسلامية. وذكرها المرحوم المحدث القمي في ص ٥٣٢ عن «مصباح الزائر» للسيد ابن طاووس بعد دعاء الندبة. وقال المجلسي، على ما نقل القمي رحمه الله في ص ٥٣٩: وجدت في بعض الكتب القديمة بعد ذلك ويصفق بيده اليمنى على اليسرى كتصفيق البيعة.

